



المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام - الرياض
الدراسات العليا
قسم الدعوة والإحتساب

الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في القرآن الكريم

(بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الدعوة إلى الله)

إعداد الطالب

سليمان بن ناصر مرزوق عبد الله

إشراف فضيلة الشيخ

مناع خليل القطان

(الجزء الأول)

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله، بعثه الله رحمةً للعالمين وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإن الدعوة إلى الله تعالى تتعدد أساليبها، وتتووع مع تطور الزمن واختلاف الأجيال، وإذا كان لكل عصر اهتماماته وأفكاره التي تميزه عن غيره ، فإن عصرنا هذا يهتم بالعلم، ويتميز بالكشف عن أسرار الكون ، حتى لا يكاد يمر علينا يوم إلا ونطالع اكتشاف سر من أسرار هذا الكون البديع الذي يزيح الستار عن عظمته سبحانه وتعالى .

والداعية الناجح هو الذي يواكب وسائل عصره ، ويستعين بها في الدعوة إلى الله تعالى ، وبما أن تعرف الإنسان على بعض أسرار هذا الكون، أصبح ضرورة من ضروريات وجوده، ليرى فيه عظمة خالقه وقدرته، ويرى فيه ضالة وجوده أمام هذا الكون المتناهي في اتساعه، الدائب في حركته، ويوقن بحاجته الماسة إلى رعاية خالقه في كل لحظة من لحظات وجوده، وفي كل آن من آناء عمره، ويرى في استقرار قوانينه والتعرف على سننه، ما يمكنه من عمران كوكبه الأرض ، وتسخيرها من أجل سعادته .

وبما أن طبيعة العصر الذي نعيشه، ومشكلات الحضارة المادية المعاصرة ، قد جعلت الناس في قلق وصراع، وحرمتهم من طعم الراحة والأمن، وابتعدت بهم عن طريق الإيمان، فقد وجب على الدعاة مواصلة الجهد، وبذل الطاقة في دعوة الناس إلى ربهم ، والعمل على عودتهم إلى الفطرة النقية التي فطرهم الله عليها، وذلك بأسلوب يجذب هذا العقل المفتون ويحرك هذا الوجدان النائم، ويقدم الإسلام في ثوب يتلائم مع طبيعة العصر الذي نعيشه .

ولما كان الأمر كذلك فقد حاولت بهذا البحث المتواضع أن أقدم منهاجاً من مناهج الدعوة أراه مهماً وضرورياً في هذا العصر، ألا هو المنهج الحسي من خلال الآيات الكونية والإنسانية الماثلة في القرآن الكريم ، ولست فيما أقدم أدعي أنني اخترع منهاجاً جديداً، لأنه قد سبقني غيري في تجليته، ولكنني أردت أن أشاركهم في هذا المضمار لأساهم معهم إن شاء الله ، بنصيب متواضع في هذا المجال ، وعسى بانضمامه إلى ما سبق من بحوث حول الآيات الكونية والإنسانية في القرآن يجلي ما أهدف إليه .

أود هنا في هذا الاستعراض السريع أن أشير إلى عدة أمور :

أولها : بيان أهمية الموضوع .

وثانيها: الأسباب التي حملتني على اختيار هذا الموضوع بالذات .

وثالثها : بيان المنهج الذي اتبعته في البحث والكتابة .

ورابعها: بيان الغاية التي أنشدها من وراء هذا البحث .

أما عن الأمر الأول وهو بيان أهمية الموضوع فألخص ذلك في عدة أمور:

الأول: دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية ، عن طريق (النظر الحسي) إلى ما حولهم ابتداءً من مواضع أقدامهم وانتهاءً بأفئاق النفس والكون ، وأعطى الحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب ، قال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً)^(١) ، وناداه أن يمعن النظر إلى طعامه (فلينظر الإنسان إلى طعامه)^(٢) وإلى خلقه : (فلينظر الإنسان مم خلق)^(٣) وإلى الملكوت : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض)^(٤) وإلى خلائق الله تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)^(٥) وإلى آيات الله المنبثة في كل مكان (انظر كيف نبين لهم الآيات)^(٦) (فلتنظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها)^(٧) وإلى الحياة الأولى : (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)^(٨) .

ولا يخاطب القرآن عقل الإنسان بالدليل العقلي المجرد فحسب ، ولكنسه يخاطب الكينونة الإنسانية كلها، يخاطب كل القوى الواعية المدركة في الإنسان ، وهو لا يقنع العقل فحسب ، لكنه يملأ الحس والشعور والضمير والوجدان والقلب ، حيث أنه يقدم الدليل تلو الدليل للإنسان في أسلوب حي جذاب، يستخدم الإثارة الوجدانية تارة ، ويحرك العاطفة تارة أخرى ، ويهز مشاعر الرجاء والخوف تارة ثالثة ، ويوجه النظر، ويحث الفكر، ويستجيش الإنسان على التدبر والتعقل والتبصر في الحس المشاهد من آيات الله الكونية تارات وتارات .^(٩)

(١) سورة الإسراء ، آية : ٣٦ .

(٢) سورة عبس ، آية : ٢٤ .

(٣) سورة الطارق ، آية : ٥ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٨٥ .

(٥) سورة الغاشية ، آية : ١٧ .

(٦) سورة المائدة ، آية : ٧٥ .

(٧) سورة الروم ، آية : ٥٠ .

(٨) سورة العنكبوت ، آية : ٢٠ ، وانظر " مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم " - عماد الدين خليل ، ص (٨١، ٨٢).

(٩) انظر مجلة " هذه سبيلي " موضوع الإسلام والعلم التحريبي - محمد عبدالله الشرقاوي ، ص (١١٦).

ولا شك في أن الأمور الحسية لها أعظم الأثر في تقوية الإيمان بالله تعالى من المعنويات عند بعض المدعوين ، ولعل من أوضح الأدلة على ذلك طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليطمئن قلبه ، وفي ذلك يقول الله تعالى حاكياً الذي وقع بينه عز وجل وبين نبيه إبراهيم - عليه السلام - (رب أرني كيف يحيى الموتى . قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)^(١) فإذا كان هذا شأن الرسل فإن من سواهم أولى بسوق الآيات المحسوسات التي تقوي إيمانهم بالله عز وجل ، خاصة أن الله تعالى يخاطب الناس في القرآن الكريم على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم ، وفيهم المنكر للوجود الإلهي والمثبت له ، إلا أن الطريق به قد التوى فعاش على الشرك وعبد مع الله آلهة أخرى من حجر أو شجر أو حيوان أو إنسان ، وهناك أهل الكتاب من اليهود والنصارى ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

وهؤلاء الأصناف المختلفة العقائد والأهواء تحتاج للمنهج الحسي الذي يسوقهم للإيمان بالله تعالى سوفاً ، لذا فإن القرآن الكريم وقف بآياته يدعوهم بالمنهج الحسي كلاً بأسلوبه ، ويضع لكل صنف الأدلة الحسية والبراهين المادية ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وإنها لدعوة هادية فيها إقناع العقل ومخاطبة الوجدان واستثارة لكوامن النفس ، يوجهها القرآن للدعاة ويطلبهم أن يجادلوا بالرفق واللين والإقناع القائم على النظر والبرهان العقلي.^(٢)

وقد كلف الله تبارك وتعالى جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم بالدعوة لهذا المقصد العظيم بآياته وبيناته في آفاق الإنسان وفي السموات والأرض لأنها الدلالة العظمى على قوة الله وجبروته وقدرته وهذا أسلوب الدعوة والإرشاد إلى الحق جل شأنه ، والذي قد فرضه الله تعالى على أهل العلم والدعاة ، لأنهم ورثة الأنبياء بعلمهم وتعليمهم .^(٣)

ثانيها : كثرة الآيات القرآنية الواردة في المنهج الحسي ، فلقد نالت الآيات الكونية حظاً وافراً من صفحات الذكر الحكيم مما يدل على عمق المادة الدعوية والعلمية التي تحويها ، وسعة المنهج الذي تناولته .

ثالثها : الأمر بالنظر المطلق في صفحات الكون وأغوار النفس ، وفي ذلك يقول تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)^(٤) ويحث على النظر في كيفية بدء الخلق بقوله تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير)^(٥)

^(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

^(٢) انظر منهج القرآن في تربية المجتمع - عبدالفتاح عاشور ، ص (٨٧) بتصرف .

^(٣) انظر آفاق الهداية - عبدالعزيز الخلف ، ص (٢٥/١) .

^(٤) سورة الذاريات ، آية : ٢٠ ، ٢١ .

^(٥) سورة العنكبوت ، آية : ٢٠ .

رابعها : تشریف الله عز وجل هذا المنهج - مما يدل على الاهتمام والعناية به - إذ ذكر الله بيانه في سورة النمل^(١) بالحمد والصلاة على المرسلين ثم شرع يفصل في خلق السموات والأرض ، قال صاحب البحر " لما فرغ من قصص هذه السورة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بحمده تعالى والسلام على المصطفين وأخذ في مباينة واجب الوجود الله تعالى ومباينة الأصنام والأديان التي أشركوها مع الله وعبدوها وأبتدأ في هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمدلة وكأنها صدر خطبة لما يلقي من البراهين الدالة على الوجدانية والعلم والقدرة^(٢) . والبء بالحمدلة والتسليم على الأخيار مع كونها من رب العرش العظيم فيه دليل بالغ على شرف علوم الكون وأنها من أعظم البراهين على الألوهية والربوبية ، وهي بعد ذلك أدب رفيع في الدعوة إلى الله تعالى .
وأما عن الأمر الثاني وهو سبب اختياري لهذا الموضوع :

فقد لمست الحاجة الماسة إلى دراسة هذا الموضوع ، لأن الكون كتاب الله المفتوح ، والقرآن الكريم كتاب الله المقروء ، والكون يشمل كل شئ في السماوات والأرض وما بينهما ، لندرك ما في آياته من إعجاز ، وما في مخلوقاته من إبداع كما قال تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)^(٣) . وللقرآن الكريم أسلوبه الحكيم في الدلالة على آيات الله في الكون ، فالحديث عنها يكاد لا يتوقف ، في أسلوب رائع وإبداع بالغ يوقف عقل الإنسان في رفق ويسر ، ويخاطب كل البشر على اختلاف عقولهم وزمانهم ، ولهذا رأيت أن سبب اختياري لهذا الموضوع يتمثل في الأسباب التالية :
 أولها : أنه من أهدافي وأمنياتي ، أن يكون الموضوع الذي أختاره لنيل درجة الدكتوراه يجمع بين ثلاثة أمور :

الأول : أن يجعلني أعيش مع المصادر الرئيسة للفكر الإسلامي ، وهي القرآن الكريم وعلومه ، والسنة النبوية وعلومها وشروحها .

الثاني : يجعلني أعيش مع مكتشفات العلم ومنجزاته ، لكي لا أكون منعزلاً عن الجديد من الأفكار والمعارف الحديثة .

الثالث : أن يكون مادة تخصص في الدرس والمحاضرة ، وزادا في الدعوة إلى الله ، أفيد به الخاصة وأنفع به العامة ، فلا يكون دراسة أكاديمية بحثة تعيش بين جدران الجامعة وطلابها فقط ، ولكن فوق ذلك يكون مادة خصبة في دعوة الناس جميعاً إلى الله ، وقد وجدت - بحمد الله - في هذا الموضوع مطلبتي من جميع النواحي .

^(١) سورة النمل ، آية : ٥٩ .

^(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٨٨/٧) .

^(٣) سورة يونس ، آية : ١٠١ .

ثانيها : ومن الأسباب التي حملتني على اختيار هذا الموضوع هو المادية التي غلبت على البشر في عصرنا هذا وتفتشي الإلحاد وانتشار إنكار وجود الله تعالى والبعد عن الطريق المستقيم بين صفوف الشباب وغيرهم متخذين الدعوة المادية منهجهم وعقيدتهم وينظرون إلى الإسلام وأهله نظرة استخفاف وازدراء ، غافلين عن آيات الله عز وجل الكونية المشهودة وعن آياته المقروءة ، فأردت أن أبين لهؤلاء وأمثالهم أن الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي يحقق الإيمان بالله تعالى ويدعو لمن لا يزال على مقربة من الجادة وتتازعه نفسه بين الإيمان والإلحاد بالعودة والإنابة والهداية .

ثالثها : ضرورة دراسة المنهج الحسي في ضوء القرآن الكريم ، وإبرازه للنهوض بالدعوة إلى الله تعالى في عصرنا الحاضر ، وأنه يجدر بالدعاة إلى الله أن ينهضوا بهذا المنهج السديد ألا وهو لفت الأنظار إلى بديع صنع الله وعظيم خلقه في الكون والإنسان والحياة ولا سيما والعالم يشهد اليوم مداً ثقافياً متاحاً للجميع .

رابعها : التعرف على المحسوسات يوصل إلى القناعة بوجود الله عز وجل .

خامسها : أن هذا المنهج يتعامل مع الأنواع المختلفة للمدعوين ، حيث إنه يخاطب المسلم ليزداد إيماناً على إيمانه ، ويخاطب غير المسلم لإقامة الحجة به على توحيد الله ونفي الشريك عنه ومن ثم يخاطب كل عاقل مدرك مسلماً كان أو كافراً ، ناسياً أو غافلاً ، ساهياً أو جاهداً وعلى الداعية اللبيب أن يتخير من الآيات الكونية ما يناسب حال المدعو ويلائم طبيعته ووجهته .

سادسها : من المهم اليوم أن نثري المكتبة الإسلامية بأبحاث الآيات الكونية والمناهج الدعوية العلمية ذات الطابع الإسلامي الإيماني ، لوجود الكثير من المناهج التي تلقى على أروقة جامعات المسلمين تحمل سمات الغرب في المحتوى وفي أسلوب العرض والهدف العام ، سواء في ذلك المواد الإنسانية أو الطبيعية والكونية وما يتفرع عنها ، فالدعوة بهذا الطريق متجددة بتجدد الاكتشافات العلمية كما تتسع باتساع المجال الكوني الرحب .

وأما عن الأمر الثالث وهو المنهج الذي سرت عليه في كتابة هذا البحث فهو كالتالي :

أولاً : من ناحية المصادر وجمع المادة فقد كانت مصادر في هذا البحث هي القرآن الكريم وعلومه ، وكتب التفسير ما كان منها بالمأثور وبالرأي ، وكتب الحديث وشروحها ، والكتب الإسلامية التي تناولت منهج العناية والاختراع في الخلق ، والكتب العلمية التي كتبها المتخصصون في سائر العلوم الطبيعية ، وكتب اللغة والفلك وغير ذلك .

ثانياً : من ناحية الأفكار والعرض فقد كانت الفكرة الأساسية لهذا البحث هي : تقديم منهج في الدعوة من خلال الآيات الكونية في ضوء القرآن الكريم ، ولهذا اقتصر على بعض النصوص من الآيات التي أرى أنها تفي بالغرض ، وتظهر المنهج الحسي في كل فصل من فصول الرسالة بهدف الكشف عن قدرة وجود ووحدانية الله سبحانه وتعالى من جهة وإثبات نبوة الأنبياء السابقين ونبوة محمد صلى

الله عليه وسلم لغير المؤمنين به من جهة أخرى ، وذلك بالاستعانة بالعلم والآيات الكونية التي وردت في القرآن الكريم .

وهو ملئ بهذه الآيات ، ومهما تكلمت عنها كأنني أقلب فقط في الأصداف الموجودة على شواطئ الكون بينما محيطه مملوء بالآلئ .

ثالثا : من ناحية أسلوب البحث : فقد توخيت أن يكون جامعا بين السهولة والدقة ، بعيدا عن الإسهاب والإطناب ، متجنباً وعورة الكلمات والعبارات ، مستخدماً في النقل من النصوص ما كان أوضح بياناً وأصق بالغرض .

رابعا : بما أن البحث يتعلق بالمنهج الحسي بالدعوة إلى الله فقد استخدمت المنهج الاستقرائي المتمثل في حصر كافة الجزئيات المتعلقة بموضوع الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في القرآن الكريم في حدود طاقتي ، وإلى جانب المنهج الاستقرائي استخدمت المنهج التحليلي الذي يسير معه جنباً إلى جنب ، وذلك عن طريق جمع بيانات لها علاقة بالمشكلة التي أريد بحثها ثم أقوم بتبويبها وتنظيمها معتمداً على الخبرة والقراءة للوصول إلى النتائج التي أريدها بعد التحليل والاستنباط .

وعلى ضوء ذلك قمت بجمع ما كتب عن المنهج الحسي من خلال النظر في الآيات الكونية والإنسانية في القرآن واستخدامها في الدعوة إلى الله عز وجل .

خامسا : وقد عنيت في هذا البحث ببعض الأمور المهمة والتي منها :

- ١ - عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها وأرقامها حسب ترتيبها في المصحف الشريف .
- ٢ - تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من كتب الحديث ، والحكم عليها من خلال ما ذكره المتخصصون من المحدثين السابقين أو المحدثين .
- ٣ - العناية بتوثيق المعلومة أيا كانت ، سواء أكانت من المراجع القديمة أم من المراجع الحديثة ، والحرص على تعدد المصادر في المعلومة الواحدة ما أمكن ذلك .
- ٤ - ترجمة الأعلام الواردة في ثنايا البحث في فهرس الأعلام في نهاية البحث .
- ٥ - عمل فهرس للرسالة تشتمل على : فهرس عام ، وفهرس للآيات القرآنية ، وفهرس للأحاديث النبوية الشريفة ، وفهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات .

وأما الأمر الرابع وهو بيان الغاية التي أهدف إليها من وراء هذا البحث فتتلخص فيما يلي :

أولا : العودة إلى الطريقة القرآنية في الدعوة ، والخروج على الطريقة التجريدية التي أصابت الثقافة الإسلامية ردحا من الزمن ، فقدمت العقائد والمعارف في صورة من الجدل والفلسفة وقدمت الأحكام في صورة جافة .

ثانيا : تقديم منهج لدراسة الآيات الكونية والإنسانية في القرآن الكريم وكيفية الاستفادة منها في مجال الدعوة إلى الله تعالى .

ثالثا : أن يلتفت المسلمون إلى الكون من حولهم فيكشفوا عن أسرارهِ ويتعرفوا على نواميسه بما يمكن لهم في الأرض ، ويصل بهم إلى الرقي والحضارة وعمارة الحياة .
 رابعا : وأخيرا أردت بهذه الدراسة - مبتغيا من فضل الله - أن أنال بها درجة العالمية " الدكتوراه " في تخصص الدعوة الإسلامية بمشيئة الله تعالى .

التعريف بمفردات البحث :

قبل أن أخوض في موضوع بحثي لا بد لي من التعريف بمفرداته حتى يكون القارئ على بصيرة منها .

أولا : الدعوة إلى الله :

١ - الدعوة لغة : هي النداء والطلب ، تقول : دعوت فلانا : أي صحت به واستدعيته ، وقد تتعدى بحرف الجر (إلى) فيراد بها الحث على فعل الشيء تعني : حثه على قصده ، ودعاه إلى القتال ، ودعاه إلى الصلاة ودعاه إلى الدين وإلى المذهب : حثه على اعتقاده .^(١) ويمكن أن نستخلص من ذلك أن الدعوة هي الطلب والحث على الشيء فيتضمن معنى الدعوة إلى الإسلام بمعنى النشر والبلاغ والإقناع .

الدعوة اصطلاحا :

إذا نظرنا إلى تعريف الدعوة إلى الله بالمعنى الاصطلاحي وجدنا أن هناك تعريفات عدة للعلماء يجمعها كلها عقد واحد ، وهو الدعوة إلى تبليغ دين الله تعالى للناس كافة والحث على اتباعه وتطبيق شريعته .

وعلم الدعوة هو : (العلم الذي تعرف به كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق) .^(٢)

قال تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .^(٣)

ومنهم من عرفها بقوله (جمع الناس على الخير ودلالتهم على الرشد بتنفيذ منهج الله في الأرض قولا وعملا ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم ، والصبر والمصابرة على أعباء البلاغ) .^(٤)

^(١) انظر الصحاح للجوهري (٢٣٣٦/٦) ، والمعجم الوسيط (٢٨٦/١) ، والصحاح في اللغة والعلوم ، ص (٣١٥) .

^(٢) الدعوة الإسلامية : أصولها ووسائلها - د . أحمد غلوش ، ص (١٠) .

^(٣) سورة النحل ، آية : ١٣٥ .

^(٤) الدعوة إلى الله - د . توفيق الواعي ، ص (١٩) .

ومرادي من الدعوة في عنوان البحث هو : التبليغ والنشر المتضمن إقناع المدعو باعتناق هذا الدين بالدليل والبرهان .

ثانياً المنهج الحسي :

١ - المنهج لغة : الطريق الواضح - نهج الطريق : أبانه ونهجه أيضاً سلكه، وانتهج الطريق : صار نهجاً ، ونهجت الطريق أبنته وأوضحته ، يقال اعمل على ما نهجته لك ، ونهجت الطريق سلكته ، فلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه ، والنهج الطريق المستقيم ، وفي التنزيل (لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً)^(١) أي سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة ومسلكاً واضحاً بيناً .^(٢)

٢ - المنهج عند علماء البحث العلمي :

هو : " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيم على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة " .^(٣)
أو هو " العلم الذي يبحث في الطريق التي يستخدمها الباحث لدراسة المشكلة والوصول إلى الحقيقة " .^(٤)

وعرفه بعضهم بقوله : هو " التخطيط اللازم لشيء ما فمنهج البحث خطته ومناهج الدعوة : خططها أو تخطيطها " .^(٥)

٣ - الحس لغة :

جاء في لسان العرب : الحس : بكسر الحاء من أحسست بالشيء ، حس بالشيء : يحس حساً وحسيماً ، وأحسه شعر به . وقال ابن الأثير :
الإحساس : العلم بالحواس وهي مشاعر الإنسان : العين والأذن والأنف واللسان واليد ، وحواس الإنسان المشاعر الخمس وهي ، الطعم والشم والبصر والسمع واللمس .^(٦)
والحاسة : القوة التي تدرك بها الأعراض الجسمية ، والحواس المشاعر الخمس يقال : حسست وحسيت وأحسست وأحسيت .^(٧)

(١) سورة المائدة ، آية : ٤٨ ، وانظر لسان العرب لابن منظور (٣٨٣/٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦٦/٢) .

(٣) مناهج البحث العلمي - عبدالرحمن بدوي ، ص (٥) .

(٤) أصول البحث العلمي - د . أحمد بدر ، ص (٣٢) .

(٥) مناهج الدعوة وأساليبها - د . علي حريشة ، ص (٣٢) .

(٦) لسان العرب لابن منظور (٤٩/٢) .

(٧) بصائر ذوي التمييز للمفروض آبادي (٤٥٩/٢) .

٤ - المنهج الحسي اصطلاحاً :

هو المنهج الدعوي الذي يركز على الحواس ويعتمد على المشاهدات والتجارب (١). من تلك التعاريف المختلفة لمفردات البحث نستخلص أن المراد بالدعوة إلى الله بالمنهج الحسي هو دراسة الظواهر الكونية والإنسانية التي يدركها الإنسان بحواسه من بصر وسمع وشم وحس وذوق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مستخدماً في ذلك الحث على التفكير في الكون بأفاقه الواسعة وأنسواع مخلوقاته المختلفة من حيث تكوينها وميولها وغرائزها وصفاتها ، بما يظهر قوة الأسلوب القرآني للتأثير على المدعو بغرض التحول به من الكفر إلى التوحيد ومن المعصية إلى الاستقامة ومن الإيمان إلى مزيد منه .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : (الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين أحدهما : النظر إلى مفعولاته ، والثاني : التفكير في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة) (٢).

الدراسات السابقة :

لقد قمت بزيارة إلى الجامعات والكليات المختلفة في المملكة ، واطلعت على دليل الرسائل الجامعية لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية فلم أجد حسب علمي ومعرفتي من كتب في هذا الموضوع رسالة علمية مباشرة مستقلة تتحدث عن موضوعي هذا (الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في القرآن الكريم) إلا ثلاثة بحوث تكميلية لنيل درجة الماجستير وهي :

١- البحث الأول : بعنوان (استخدام العلوم التجريبية في خدمة الدعوة الإسلامية) (٣) .
وينقسم البحث إلى مقدمة وتمهيد وفصلين ، وخاتمة .

- التمهيد : تعرض فيه إلى مفهوم الدعوة الإسلامية ومفهوم العلوم التجريبية .
 - الفصل الأول : مكانة العلوم التجريبية وضوابطها في الإسلام .
 - الفصل الثاني : الإعجاز العلمي في القرآن وأثر ذلك في الإيمان بالغيب ونقد موقف العلمانيين .
- أما علاقة هذا البحث بموضوعي : فتقتصر على الفصل الثاني الذي تحدث فيه عن الإعجاز العلمي في القرآن ونقد العلمانيين والملاحدة والرد عليهم ، وهذه تعتبر إشارات قليلة فيما كتبتة في المنهج الحسي في الدعوة إلى الله .

(١) المدخل إلى علم الدعوة - أبو الفتح البيانوني ، ص (٢١٤) بتصرف .

(٢) الفوائد لابن القيم ، ص (٢٠) .

(٣) بحث مكمل لنيل درجة الماجستير - عبدالشافى مسلم فياض ، كلية الدعوة والإعلام ، سنة ١٤٠٦هـ - الرياض .

٢- البحث الثاني : بعنوان " المنهج العلمي وأثره في الدعوة إلى الله " ^(١)، ويقسم البحث إلى مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة .

□ الفصل الأول : المنهج العلمي وفيه ثلاثة مباحث :

• المبحث الأول : حقيقة المنهج العلمي والمراد منه في الاصطلاح الإسلامي .

• المبحث الثاني : خصائص المنهج العلمي الإسلامي ومميزاته .

• المبحث الثالث : المنهج العلمي عند غير المسلمين .

الفصل الثاني : أثر المنهج العلمي في نجاح الدعوة إلى الله وفيه ثلاثة مباحث :

• المبحث الأول : الحكمة في الدعوة وصلتها بالمنهج العلمي .

• المبحث الثاني : استخدام مختلف العلوم في الدعوة إلى الله .

• المبحث الثالث : أثر المنهج العلمي في الدعوة إلى الله .

أما علاقة هذا البحث بموضوعي فتقتصر على الفصل الثاني الذي تحدث فيه الباحث عن أثر المنهج العلمي في الدعوة إلى الله ، وقد استفدت منه في جوانب مختلفة من بحثي ، أما في غير هذا الجانب فلا توجد علاقة بين بحثي وهذا البحث .

٣- البحث الثالث : بعنوان " آيات التخويف الكونية في القرآن وأثرها في الدعوة إلى الله " ^(٢)

وينقسم البحث إلى مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة .

التمهيد تعرض فيه إلى :

أ - آيات التخويف الكونية وأثرها في النفس .

ب- المنهج التجريبي وأثره في الدعوة إلى الله .

الفصل الأول : آيات التخويف الكونية في القرآن ، وفيه ثلاثة مباحث :

• المبحث الأول : الخسوف والكسوف .

• المبحث الثاني : الفيضانات والأعاصير والأخذ بالسنين .

الفصل الثاني : وفيه ثلاثة مباحث :

• المبحث الأول : الأثر الإعتقادي .

• المبحث الثاني : الأثر النفسي .

• المبحث الثالث : الأثر العملي .

(٢) بحث مكمل لنيل درجة الماجستير - فكري السيد عوض ، كلية الدعوة والإعلام ، سنة ١٤٠٤هـ - المدينة المنورة .

(٣) بحث مكمل لنيل درجة الماجستير - جمعان عبدالله الغامدي ، كلية الدعوة والإعلام ، سنة ١٤٠٧هـ - المدينة المنورة .

أما علاقة هذا البحث بموضوعي ، فمن خلال اطلاعي على محتويات البحث وجدت أن ما يتعلق منه بموضوعي فهو ما كتبه الباحث عن حال المدعويين في التمهد ، عندما تطرق إلى المنهج التجريبي وأثره في الدعوة إلى الله ، ومع هذا لم يفصل كثيرا في حال المدعويين تجاه هذا المنهج ولكنه كتب عنه إجمالاً ثلاث صفحات فقط .

أما ما قمت بكتابته في هذا المجال فيتمثل في أنني شرحت بالتفصيل خصائص المنهج الحسي في القرآن الكريم وهذا مما لم يتطرق له الباحث في بحثه .
وبعد ما سبق تتضح لنا من خلال التعرف على الدراسات السابقة في الموضوع الفروق الكبيرة بينها وبين دراستي وهي كالتالي :

أولاً : دراستي تختص بالمنهج الحسي ومجالاته والدراسات السابقة تركزت على المنهج العلمي والآيات الكونية وأثرها في الدعوة .

ثانياً : دراستي تتركز في خصائص صلاحية المنهج الحسي للمدعويين ، بينما قامت الدراسات السابقة ببيان حال المدعويين في المنهج التجريبي.

ومن هذه المقارنة يتضح لنا الفروق بين موضوع بحثي والدراسات السابقة في الموضوع ويتضح الجديد الذي أضفته في هذا البحث وهو كالتالي :

- ١- موضوعات المنهج الحسي في القرآن الكريم .
- ٢- أساليب المنهج الحسي .
- ٣- خصائص المنهج الحسي في القرآن الكريم .
- ٤- ضوابط استخدام الداعية للمنهج الحسي .
- ٥- صور الإبداع في المنهج الحسي في القرآن الكريم .
- ٦- نماذج تطبيقية للدعوة إلى الله باستخدام المنهج الحسي في القرآن الكريم .

المشكلة البحثية :

إن مشكلة أي باحث ما هي في الواقع كما يقول البعض إلا سؤال لا توجد إجابة عليه في ذهن الباحث، وهو عادة يتضمن مسائل بعيدة عن الحياة الشخصية ، أو قريبة أحيانا يلزم الإجابة عليه لتحقيق فائدة معينة ، أو نفع خاص للمجتمع ، أو إضافة للعلم ، أو التراث النظري^(١) .

(١) البحث العلمي - التصميم والمنهج والإجراءات - د . محمد الغريب عبدالكريم ، ص (٧٩) .

ويقول آخر عنها : (أما المشكلة فهي ماذا يأمل الباحث - على وجه التحديد - في حله^(١) . ومما لا شك فيه أن كل صاحب دعوة يحاول أن يصل إلى قلوب المدعوين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومللهم بأسهل الطرق وأقربها وأكثرها تأثيراً وإقناعاً .

ومن خلال القراءة المستمرة في المراجع المختلفة عن الآيات الكونية والإعجاز العلمي والبراهين العلمية وغيرها أريد أن أقدم إجابة تتميز جهد الإمكان بقدر من التنظيم العلمي وبالشمولية عن السؤال الملح في هذا المجال :

ما العلاقة بين الإسلام وأصناف المدعوين (مسلم ، غير مسلم) من خلال موضوع الدعوة الذي يقوم على المنهج الحسي ؟ أو كيف نستخدم المنهج الحسي في دعوة أصناف مختلفة من المدعوين في ضوء الآيات الكونية في القرآن الكريم ؟؟ .

وهكذا يتضح لنا أن البحث محاولة للكشف عن هذا العامل وهو " الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي " للوصول بالمدعوين إلى الله تعالى عن طريق الآيات الكونية المحسوسة ، وما يتكشف بالعلم والمعرفة من أسرار الكون وعجائبه ، وما يستطيع أحد أن يجحد المخترعات الحديثة التي أنتجها العلم ، فوفر الوقت والجهد ، وضاعف طاقة البشرية على الإنتاج .

خطة الباحث :

اشتملت خطة هذا البحث على ما يلي :

مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة ، وذلك كما يلي :

المقدمة .

فصل تمهيدي ويشمل على :

المبحث الأول : أنواع مناهج الدعوة في القرآن الكريم .

المبحث الثاني : ضوابط استخدام الداعية للمنهج الحسي .

الفصل الأول : موضوعات الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في القرآن الكريم .

المبحث الأول : إثبات وحدانية الله عز وجل .

المبحث الثاني : إثبات النبوة .

المبحث الثالث : إثبات البعث .

المبحث الرابع : الدعوة إلى الطاعات .

المبحث الخامس : التحذير من المعاصي .

^(١) أصول البحث العلمي ومناهجه - د . أحمد بدر ، ص (٣٨) .

الفصل الثاني : أساليب العرض في المنهج الحسي في القرآن الكريم :

المبحث الأول : أسلوب ضرب المثل .

المبحث الثاني : أسلوب القصة .

المبحث الثالث : أسلوب الترغيب والترهيب .

المبحث الرابع : أسلوب القسم .

الفصل الثالث : صور الإبداع في المنهج الحسي في القرآن الكريم :

المبحث الأول : الانتقال من دليل حسي إلى آخر للإفحام .

المبحث الثاني : التدرج في استخدام الدليل الحسي .

المبحث الثالث : الارتباط بالمألوف .

الفصل الرابع : خصائص المنهج الحسي في القرآن الكريم .

المبحث الأول : خصيصة صلاحيته لأصناف المدعوين .

المبحث الثاني : خصيصة عمق التأثير وسرعته في المدعوين .

الفصل الخامس : نماذج تطبيقية للدعوة إلى الله باستخدام المنهج الحسي في القرآن

الكريم .

المبحث الأول : استخدام نوح عليه السلام للمنهج الحسي في الدعوة إلى الله .

المبحث الثاني : استخدام إبراهيم عليه السلام للمنهج الحسي في الدعوة إلى الله .

المبحث الثالث : استخدام موسى عليه السلام للمنهج الحسي في الدعوة إلى الله .

المبحث الرابع : استخدام عيسى عليه السلام للمنهج الحسي في الدعوة إلى الله .

المبحث الخامس : استخدام محمد عليه الصلاة والسلام للمنهج الحسي في الدعوة

إلى الله .

خاتمة : وبها الخلاصة والنتائج والتوصيات .

الفهارس .

شكر وتقدير

الشكر والحمد والفضل أولاً وأخيراً لله تعالى الذي أعانني على إتمام هذا البحث ، وأرى حقاً عليّ أن أتقدم بالشكر الوافر ، والثناء العاطر إلى كل من أعانني في عملي هذا بأي شكل من أشكال العون والمساعدة .

وأنتقدم بالشكر الجزيل لحكومة المملكة العربية السعودية على جهودها الكبيرة في مجال الدعوة الإسلامية وخدمة العلم الشرعي ، متمثلة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وكل القائمين عليها فهي بحق صرح شامخ ينبعث نوره ليضيئ في شتى بقاع العالم ، وأخص منها كلية الدعوة والأعلام والقائمين عليها .

كما أقدم شكري إلى أستاذي وشيخي مناع خليل القطان حيث حظيت في تحضير هذه الرسالة وهذا الموضوع تحت إشرافه ، ولن أنسى اهتمامه البالغ واعتناؤه الكامل بالرسالة فضلاً فضلاً ، وما بذله على الرغم من وهن صحته من جهد متواصل بهمة فنية تتحني لها هامات الشباب ، وما قدمه من توجيه علمي سديد أحاط الرسالة وصاحبها بأوفى رعاية وأمثلة توجيه ، وإني أسأل الله العظيم من فضله وجوده أن يجزيه عني وعن العلم وطلابه والمسلمين أحسن الجزاء ، إنه لا يضيع أجر المحسنين ، وأن يمتعنا الله ببقائه ، إنه سميع مجيب .

كما اشكر الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بالكويت التي ابتعثتني لنيل درجة الدكتوراه وأخص منها كلية التربية الأساسية التي انتسب إليها .

كما أعم بالشكر والامتنان لكل من ساعد على إنجاز هذا البحث من الأساتذة الفضلاء والإخوة الأعزاء الذين لا أجد لهم مكافأة غير الدعاء الصالح .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل التمهيدي ويشتمل :

- . المبحث الأول : مناهج الدعوة في القرآن الكريم
- . المبحث الثاني : ضوابط استخدام الداعية للمنهج الحسي

الفصل التمهيدي :

المبحث الأول : مناهج الدعوة في القرآن الكريم :

قبل الحديث عن مناهج الدعوة في القرآن الكريم لا بد لنا أولاً من بيان معنى المنهج لغة واصطلاحاً ، ومعنى الدعوة لغةً واصطلاحاً .

أولاً : تعريف المنهج لغةً واصطلاحاً :

أ - لغةً : النهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح المستقيم^(١) .

وهذا أصل الإستعمال اللغوي ، وتستعمل كلمة المنهج أو المنهاج حديثاً في (الخطة المرسومة ، ومنه منهاج الدراسة ، ومنهاج التعليم ، وتجمع على منهاج)^(٢) .

ويلاحظ في مفهوم (المنهج) مما تقدم معنى : الوضوح والإستقامة ، والطريق المسلك ، والخطة المرسومة المحددة المعالم المعروفة الأهداف .

ب - المنهج اصطلاحاً : (هو التخطيط اللازم لشيء ما فمنهج البحث خطته ومناهج الدعوة خططها أو تخطيطها)^(٣) .

ثانياً : الدعوة إلى الله لغة واصطلاحاً :

أ - الدعوة لغة : تتضمن الدعوة في اللغة معنى (النداء والصيحة والحث)^(٤) .

ب - الدعوة اصطلاحاً : ومفهوم الدعوة الإسلامية في الاصطلاح موضوعاً ومنهجاً من أوسع المفاهيم التي تناولها أقلام الباحثين ، فهي تستمد شموليتها من شمولية الرسالة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

والدعوة إلى الله عز وجل هي الدعوة إلى دينه ويشمل الإيمان والإسلام والإحسان ، كما في

الحديث الذي عرض لهذه الدرجات الثلاث ثم سماها ديناً (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)^(٥) .

١ (مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ص ٦٨١ مؤسسة علوم القرآن - بيروت - ولسان العرب - ابن منظور ٣٨٣/٢ دار صادر بيروت والقاموس المحيط - فيروز أبادي ٢١٠/١ ط بيروت . (سبق التعريف بالمنهج لغة واصطلاحاً في خطة البحث) في المقدمة ص: ٨

٢ (المعجم الوسيط - معجم اللغة العربية ١٣ ٩٦٦/٢ ط طهران .

٣ (مناهج الدعوة وأساليبها د. علي جريشه - ص ٣٢ .

٤ (لسان العرب : ٢٥٨/١٤ ، ط بيروت ، والمعجم الوسيط : ٢٨٦/١ ، ط طهران ، مناهج الدعوة وأساليبها - د. علي جريشه ص ١٦ - دار الوفاء للطباعة والنشر ط ١ سنة ١٩٨٦ م .

٥ (متفق عليه : وهو جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان : ص ١٥٠١٤ برقم (٥٠) ، عن أبي هريرة ؓ ، باب : سؤال جبريل النبي ... ، ومسلم في كتاب الإيمان : ٣٩/١ باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم (٥)

وينضوي تحت مفهوم الدعوة مناهجها وطرائقها ولذا قال تعالى تارة : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ ^(١) ، وقال تارة : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ^(٢) .

فالدعوة إلى الله هي الدعوة إلى دينه الذي ارتضاه لعباده ، والدعوة إلى سبيله هي انتهاج تلك الطرائق التي رسمها الكتاب والسنة وعمادها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن .
ثالثاً : تعريف مناهج الدعوة :

اصطلح العلماء في العصر الحديث على أن يطلقوا (مناهج الدعوة) على الخطط التي يضعونها ويحددون معالمها وأسسها على ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، حتى غدا ذلك علماً قائماً بذاته يتخصص فيه علماء وله أصوله وسماته وقواعده .

وعليه فمناهج الدعوة هي : (خططها وطرائقها وتنضوي تحت مفهوم المناهج أساليب الدعوة ووسائلها وأهدافها) ^(٣) .

* مناهج الدعوة في القرآن الكريم :

ونعني بمناهج الدعوة في القرآن الكريم : تلك الطرائق والأساليب والوسائل والأسس والغايات التي استخدمها القرآن الكريم في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونبذ غيره عز وجل وإلى التمسك بدينه الحنيف والبعد عن كل ما يخالف ذلك .

* تنوع مناهج الدعوة :

وتتنوع مناهج الدعوة بجميع أنواعها من حيث ركائزها تبعاً لتنوع ركائز الفطرة الإنسانية الثلاث : القلب ، والعقل ، والحس .

فما كان منها مرتكزاً على القلب سمي : المنهج العاطفي .

وما كان منها مرتكزاً على العقل سمي : المنهج العقلي أو الفكري أو العلمي .

وما كان منها مرتكزاً على الحس سمي : المنهج الحسي أو التجريبي .

وهذه المناهج استنبطها دعاة الإسلام المتأخرون من القرآن الكريم واستمدوها منه ووضعوا

قواعدها ورسموا ملامحها وغاياتها وحددوا مراحل الدعوة التي تتطلب تلك المناهج على ضوئه ^(٤) .

وفيما يلي نستعرض أبرز ملامح تلك المناهج بإيجاز :

١ (سورة النحل : آية (١٢٥))

٢ (سورة يوسف : آية (١٠٨))

٣ (مناهج الدعوة وأساليبها ، د.علي جريشه ص١٦)

٤ (نظراً للدخول إلى علوم الدعوة ، د. محمد أبو الفتح البيانوني ص١٩٨ - مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣ .

أولاً : المنهج العاطفي :

تعريف العاطفة لغة : تطلق العاطفة ويراد بها في اللغة البر والصلة .
جاء في لسان العرب (١) في مادة عطف : عطف يعطف عطفاً : أي : إنصرف ، وتعطف عليه أي : وصله وبرّه ، وتعطف على رحمه أي : رق لها ، والعاطفة الرحم .
ورجل عاطف وعطوف عائد بفضلته حسن الخلق .
والعطاف : الرجل الحسن الخلق العطوف على الناس بفضلته .
ونقول عطفتُ عليه أي : أشفقت ، وتعطف عليه أي : أشفق ، وتعاطفوا أي : عطف بعضهم على بعض وجاء في بصائر ذوي التمييز (٢) ، العطف الميل .
مما سبق يتضح لنا أن العاطفة في المعنى اللغوي تطلق على معاني البر والوصل والرق وحسن الخلق والشفقة والميل .

العاطفة اصطلاحاً : العاطفة جمعها عواطف ، والعواطف : (هي الإنفعالات النفسية المنظمة الموجهة إلى مؤثر خاص ، وتنشأ عنه الوجدان الفردي أو الاجتماعي فتكون عواطف فردية أو اجتماعية) (٣) .

أو هي : (ذلك الإحساس والشعور الكامن في النفس الإنسانية) (٤) .
ويمكننا أن نعرفها أيضاً بأنها (الأساليب الدعوية التي تتركز على القلب وتحرك الشعور والوجدان) (٥) .

علام يعتمد المنهج العاطفي :

ويعتمد المنهج العاطفي أول ما يعتمد على إثارة كوامن النفس الإنسانية وإثارة الانفعال الداخلي وتأجج العاطفة ، وترتبط العواطف بالمثل الأعلى الذي يسعى الإنسان لتحقيقه فيزيد هذا الارتباط سمواً ورقياً .

١ (لسان العرب - ابن منظور ٢٤٩/٩ ، ٢٥٠ - بتصرف .

٢ (الفيروز آبادي ج ٤ / ٧٧

٣ (الأصول الفنية للأدب - عبدالحميد حسن : ٦٨ الطبعة الثانية .

٤ (محاضرات لمادة مناهج الدعوة - د. محمد العدوي - لم تطبع ملقاة على طلاب الدراسات العليا بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٠٥ هـ

٥ (المدخل إلى علم الدعوة - محمد أبو الفتح البيانوني - ٢٠٤

صلة المنهج العاطفي بالمنهج الفطري :

والمنهج العاطفي عميق الصلة بالمنهج الفطري ، لأن مشاعر الإنسان وأحاسيسه وكوامن نفسه ونوازع الخير والشرف فيه ودوافع العمل عنده كل أولئك يكاد يكون مع الفطرة التي جبل عليها أمشاج تترايط لتكون أنفس خصائص هذا المخلوق المكرم ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾^(١) .

إشتمال القرآن الكريم على حقائق هذا المنهج :

في القرآن الكريم الكثير من دقائق هذا المنهج - تأمل مثلاً قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾^(٢) .

فورود الآية بصيغة الإستفهام والعرض ومجئ كلمة الحب في (ألا تحبون) ، وكون هذا الغفران من الله سبحانه وتعالى ، ثم التعقيب بذكر أنه سبحانه غفور رحيم على صيغة المبالغة (فعول وفعيل) في جانب المغفرة والرحمة ، كل هذا يجعل النفس تُقبل إلى مغفرة الله ورحمته ورضوانه ، ومن لا يحب أن يغفر الله له ؟ ومن ثم تسارع النفس إلى امتثال أمر الله لتحوز هذا الإكرام العظيم^(٣) .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾^(٤) ، فهذه الآية على ما اشتملت عليه من أساليب إثارة العاطفة ، (حوت النفي على أبلغ وجه وأكدته أي : أي شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ؟ أم يدرك به الشار ؟ أم يستجلب به نفعاً ؟ أم يستدفع به ضرراً ؟ وإنما هو أمر يقتضيه كفركم ، فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر انتفى العذاب لا محالة)^(٥) .

أساليب المنهج العاطفي :

للمنهج العاطفي أساليب عديدة لعل من أبرزها ما يلي :

١- الموعظة الحسنة : وهي توجيهات تفيد القرب النفسي بين الداعي والمدعو بما تشمله من آثار الانفعال وإيقاظ الشعور مع وضوح أن الداعي يقصد النصح للمدعو ويخاف عليه .

١ (سورة الإسراء : آية (٧٠))

٢ (سورة النور : آية (٢٢))

٣ (انظر الدعوة إلى الله د. عبدالرب نواب الدين آل نواب ص ١٣٤ ، دار القلم دمشق ، دار الشامية - بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ م .

٤ (سورة النساء : آية (١٤٧))

٥ (يرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ج ١ : ٢٤٧ ط. بيروت .

جاء في مختار الصحاح^(١) : أن الوعظ هو النصح والتذكير بالعواقب يقال السعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ به غيره .

وفي المصباح المنير^(٢) : أن الوعظ هو الوصية والأمر والموعظة إسم منها ، وكل اشتقاق مادة الوعظ في القرآن تدور حول النصح والأمر والتذكير والزجر .

جاء في تفسير النسفي عند قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّهُمْ وَقَلَّ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾^(٣) ، المعنى فأعرض عن قبول الأعداء ، وعظ بالزجر والإنكار ، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار^(٤) .

وهذا يشير إلى أن الموعظة الحسنة هي : (مجموعة العبر النافعة والخطابات المقنعة والإرشادات المخوفة على وجه لا يخفى على المدعوين أن الداعي يناصحهم بها ويقصد ما ينفعهم)^(٥) .

أنواع اسلوب الموعظة الحسنة :

وأسلوب الموعظة الحسنة يشتمل على عدة أنواع منها :

- أ - الترغيب والترهيب . بمختلف صنفيهما وصورهما من ضرب الأمثال وإيراد القصة وبيان العبرة والعظة .
- ب - الحديث عن العبادات وسائر الطاعات مما أمر الله به من فعل الطاعات ونهي عنه باجتناح المنهيات .
- ج - القصص القرآني وخصوصاً القصة القرآنية العاطفية المؤثرة .
- د - إظهار أسلوب الرأفة والرحمة بالكلام الطيب المؤثر ، والمشاركة الوجدانية والشعور بطبيعة ونفسية المدعوين .
- ٢ - ومن أساليب المنهج العاطفي : استخدام السيرة النبوية ومواقف من حياة الصحابة رضوان الله عليهم لإبراز محاسن الإسلام في جميع القضايا التي تهم الإنسان كأسلوب علمي وتطبيق واقعي .
- ٣ - أسلوب المشاركة الوجدانية . بمخاطبة المدعوين بمحاسن الإسلام وذكر الثواب والعقاب .

١ (مختار لصحاح - مادة " وعظ " : ٧٢٩)

٢ (لمصباح المنير : مادة " وعظ " : ص ٣٤٣ - المكتبة العصرية - بيروت ط ١ ، سنة ١٩٩٦م .

٣ (سورة النساء : آية (٦٣))

٤ (تفسير النسفي : ٢٣٣/١ للعلامة أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي - دار إحياء الكتب العربية

٥ (تفسير روح المعاني - محمود بن عبدالله شهاب الدين الألويسي ج ١٤ ، ص ٢٥٤ - دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥م .

بهذا التنوع في أساليب الموعظة يكون الإنسان موصول القلب بالخالق البارئ مستحضراً
عظمته وجلاله ، يراوح بين الخوف والرجاء قال تعالى : ﴿ نبيّ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن
عذابي هو العذاب الأليم ﴾ (١)

ثانياً : المنهج العقلي (الفكري ، العلمي) :

مفهوم العقل لغة :

جاء في معاجم اللغة (٢) : أن الفكر والتأمل وعاؤهما العقل ... والعلم والمعرفة وعاؤهما العقل
كذلك .

والعقل : الحجرُ والنهى .

وفي التعريفات للخرجاني : (العقل جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط ، والمحسوسات
بالمشاهدة) (٣) .

هذا وينبغي أن نعلم أن تكليف الإنسان منوط بالعقل والإدراك ولكل من العقل والعلم
والفكر مفاهيم رحبة الدلالة ، واسعة المعارف الإنسانية منذ أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها .
ولتداخل المفاهيم العامة لكل من (العقل والعلم والفكر) جعل بعض الباحثين المنهج العقلي
والمنهج الفكري من المترادفات لمسمى واحد ، وهذا التداخل بين الاصطلاحات الثلاثة على اختلاف
مدلولاتها لا تستوجب أن تكون شيئاً واحداً ، فتمه فرق بين كل من هذه المناهج (العلمي ، العقلي
، الفكري) .

فالمنهج العقلي : يناسب كل عاقل مدرك وإن اضمحلت ثقافته أو عدمت مقدرته الفكرية .

والمنهج العلمي : يلائم العلماء بمختلف فروع المعرفة - شرعية كانت أم مدنية - .

أما المنهج الفكري : فيتوافق مع أرباب المقدرات الإبداعية أو الذين يجعلون الفكر والجدل آلة يزنون
بها ما يسمعون أو يعلمون (٤) .

وفي الاصطلاح : هو (النظام الدعوي الذي يتركز على العقل ويدعو إلى التفكير والتدبر

والاعتبار) (٥) .

(١) سورة الحجر : آية (٤٩)

(٢) انظر مختار الصحاح : ٥٠٩ ، ولسان العرب ج ٦٥/٥ - دار صادر

(٣) التعريفات - الشريف علي بن الخرجاني - ص ١٥٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م.

(٤) انظر مناهج الدعوة - على جريشه ص ٤١ والدعوة إلى الله - عبدالرب نواب ص ١٣٥ - بتصرف .

(٥) المدخل إلى علم الدعوة - البيانوني ص ٢٠٨ .

إشتمال القرآن على هذا المنهج :

ورد في القرآن الكريم الحديث عن التفكير والتدبر والتعقل والعلم في آيات كثيرة كلها تدعو لأعمال العقل ، تلك النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان فميزه عن الحيوان وبغيره يعود هذا المخلوق إلى حيوانيته من هذه الآيات قوله سبحانه ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾^(١) ، ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾^(٢) .

ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تفكروا ﴾^(٣) ، ﴿ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾^(٤) ، ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾^(٥) .

والعلم المقصود بهذه الآيات هو العلم النافع ومن العلم النافع ، العلم بالنفس والكون من خلال التجربة والمشاهدة أو ما يسمى بالاصطلاح (العلم التحريبي)^(*) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾^(٦) ، وقال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٧) .

أبرز أساليب هذا المنهج :

ومن أبرز أساليبه الجدل والحوار وإقامة الحجة^(٨) .

والجدل في اللغة : هو شدة الخصومة .

والحوار في اللغة : هو المجاورة .

أما الحجة فهي البرهان .

١ (سورة الفرقان : آية (٤٤) .

٢ (سورة الأنفال آية (٢٢))

٣ (سورة سبأ : آية (٤٦))

٤ (سورة البقرة : آية (٢٤٢))

٥ (سورة المجادلة : آية (١١))

* (وهو النظام الدعوي الذي يركز على الحواس ، ويعتمد على المشاهدات والتجارب) نظر المدخل إلى علم الدعوة ص ٢١٤ .

٦ (سورة الأعراف : آية (١٨٥))

٧ (سورة فصلت : آية (٥٣))

٨ (مختار الصحاح : ١٢٣،١٦١،٩٦)

والثلاثة تشترك في الكلام والنقاش إلا أنها تفترق في المعنى ، فاجدل يستخدم في مواضع الخصومة أو التمسك بالرأي أو التعصب له ، فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾^(١) .

أما الحوار وإقامة الحجة فهو كثير في كتاب الله تعالى وسيرة المصطفى ﷺ .
ومن ذلك : حوار أنبياء الله مع أقوامهم ، وحوار الرسول ﷺ مع عتبة بن ربيعة^(٢) .
ومادة الجدل في القرآن الكريم تدور حول المدافعة بالقول من أجل الدفاع عن العقيدة والشريعة والأخلاق إن كانت من قبل الله ، أو من أجل الباطل إن كانت من المكابرين .
ويعد الجدل بالتي هي أحسن صناعة الرسل والدعاة ، لأن تغيير العقائد ليس أمراً سهلاً ، ولذلك أعطى الله رسله البيان ، وأرسلهم بلغة أقوامهم ومنحهم القدرة على المحاصمة لكي يردوا جدل المعارضين ويقتنعوا السائل ، ويأخذوا بيد الجميع عن طريق المناقشة الحرة العاقلة .
والجدل أسلوب تربوي مع غير المسلمين ، وقد نهى الشارع عن الجدل بالباطل ، لأن فيه التعصب للرأي الذي تنتج عنه الخصومة والفرقة ، ويستعاض عنه بين المسلمين بالحوار وإقامة الحجة^(٣) .

أما جدال غير المسلم فقد أمر الله أن يكون بالتي هي أحسن قال تعالى : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾^(٥) ، فجدال غير المسلم يكون بالحسنى (برفق ولين وحسن الخطاب)^(٦) ، وما ذلك إلا لأن (النفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة)^(٧) .
ولكن هل يلتزم الدعاة اليوم بهذا المنهج في دعوتهم ؟

(١) سورة غافر : آية (٥٠)

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/١٨٥ وانظر فقه السيرة - للبوطي ص ٨٨

(٣) انظر : الدعوة الإسلامية - اصولها ووسائلها - د. أحمد أحمد غلوش ص ٣٨٢ - دار الكتاب المصري - بتصرف - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧ .

(٤) سورة النحل : آية (١٢٥)

(٥) سورة العنكبوت : آية (٤٦)

(٦) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء - اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ٢/٥٩٢ دار الأندلس - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨١ م.

(٧) في ظلال القرآن - سيد قطب ٤/٢٢٠٢ دار العلم للطباعة والنشر - جدة ط ١٢ سنة ١٩٨٦ م.

الواقع يدل على أن كثيراً من الدعاة أساليهم في الدعوة إلى الله غير تربوية وذلك بسبب استخدام الأسلوب في غير موضعه ، فتجد مثلاً أسلوب الجدل قائماً بين المسلمين ، وخاصة طلبة العلم منهم ، وفي المجالس العامة ، وبعد جدال طويل ينفذ المجلس دون الوصول إلى الحق في المسألة المطروحة ، ويخرج الناس بانطباع سيء عن الدعاة الذين يحملون دعوة ربهم إليهم ، مع أنه من الواجب على الداعية الحصيف أن يتخير الأسلوب المناسب من أساليب الدعوة في موضته فيستخدم أسلوب الحوار وإقامة الحجة مثلاً عند مناقشته لأمر من الأمور مع المسلمين لأن هذا الأسلوب يعتبر أسلوباً أمثل في هذه الأحوال بين المسلمين ، لأنه يشتمل على مجموعة من الآداب والأخلاق التي إن طبقت قادت إلى الحق إن شاء الله تعالى .

ثالثاً : المنهج الخلفي :

تعريف الخلق لغة واصطلاحاً :

أولاً : تعريف الخلق لغة : جاء في لسان العرب ^(١) أن الخلق : السجية والطبع ، وفي الحديث ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وأن الله ليبيغض الفاحش والبذئ ﴾ ^(٢) ، وفي التنزيل ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ ^(٣) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟) فقال ﴿ تقوى الله وحسن الخلق ﴾ ^(٤) ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : ﴿ الفم والفرج ﴾ ^(٥) ، وعن عائشة رضي الله عنها ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ ^(٦) .

الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً يقال فلان حسن الخلق ، والخلق : أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق : الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق : الصورة الباطنة .

كما جاء في الحديث عند رؤية المرء نفسه بالمرآة ﴿ اللهم أنت حسنت خلقي فحسن

خلقي ﴾ ^(٧) .

١ (لسان العرب - ابن منظور ج ٨٦/١٠)

٢ (أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة - باب ما جاء في حسن الخلق ٣٦٢/٤ برقم (٢٠٠٢))

٣ (سورة القلم : آية (٤))

٤ (أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة - باب ما جاء في حسن الخلق ٣٦٣/٤ برقم (٢٠٠٤))

٥ (أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة - باب ما جاء في حسن الخلق ٣٦٣/٤ برقم (٢٠٠٤))

٦ (هو جزء من حديث أخرجه مسلم ٥١٣/١ - كتاب المسافرين رقم (١٣٩))

٧ (جزء من حديث رواه ابن جبان كتاب الرقائق ، باب الأدعية - ذكر ما يستحب للمرء أن يسأل الله جل وعلا تحسين خلقه -

٢٣٩/٣ رقم (٩٥٩) وأحمد ، مسند عبد الله بن مسعود ٦٦/٢ رقم (٣٨٢٣) .

ومن هذه المعاني اللغوية يتضح لنا أن الأخلاق هي مجموعة السلوك المحمودة والمذمومة التي يتعامل بها الفرد مع المجتمع أو هي مجموعة التصرفات والسلوك الحميدة التي تنبعث ذاتياً من الفرد المسلم بقصد نيل الأجر من الله تعالى دون سواه .

ثانياً : تعريف الخلق اصطلاحاً :

جاء في المهذب من إحياء علوم الدين^(١) : أن الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كانت الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً .

ويمكننا تعريف الأخلاق بأنها مجموعة الأفعال والأقوال والمعاني والصفات المستقرة في النفس وفي ضوءها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح .

إعتناء الإسلام بالأخلاق :

إعتنى الإسلام بالجانب الأخلاقي عناية فائقة منذ بداية الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي لأنه صنو العقيدة ، ومن مقتضياتها ، بل الخلق الحسن معيار التفاضل بين المسلمين كما قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً ﴾^(٢) .

ولقد كانت شهادة القرآن لإمام الدعوة وخاتم المرسلين ﷺ بعظم خلقه في قوله تعالى :

﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾^(٣) .

أعظم حافر لرجال الدعوة وحملة رسالتها بالتأسي برسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن)^(٤) .
ويظهر أن المنهج الخلقى مع أهميته وفعالته وقيمته في مجال الدعوة ، هو أقرب إلى صفات الداعية وعدته من أن يكون منهجاً يعتمد على مخاطبة المدعوين واستجلاء طباعهم وميوههم لإيصال دين الله إلى قلوبهم كما هو الحال لمنهج الدعوة الأخرى .

(١) انظر المهذب من إحياء علوم الدين - صالح أحمد الشامي - ج ٢/٣٦ ، ٢٧ - بتصرف دار ألقلم - دمشق . النوار الشامية - بيروت الطبعة ١ سنة ١٩٩٣م .

(٢) متفق عليه وهو جزء من حديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر في كتاب المندقب باب صفة النبي ﷺ ص ٧٣٠ برقم (٣٥٥٩) . ومسلم في كتاب الفضائل ٤/١٨١٠ باب كثرة حياته ﷺ برقم (٦٨)

(٣) سورة القم : آية (٤)

(٤) هو جزء من حديث أخرجه مسلم ١/٥١٣ - كتاب المسافرين رقم (١٣٩)

أساليب المنهج الخلقى : للمنهج الخلقى أساليب متعددة من أبرز هذه الأساليب ما يلي :

أولاً : الأسلوب التربوي :

جاء في معاجم اللغة ^(١) : ربا يربو : أي نما وزاد ، وتربي أي : تنشأ وتغذى وتتقف ، ورباه تربية أي : غذاه ، قال تعالى : ﴿ وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ ^(٢) وتقول رباه بمعنى نمي قواه الجسدية والعقلية ، وقال تعالى : ﴿ ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ ^(٣) ، من هذه الأصول اللغوية يتضح لنا أن التربية تتكون من عناصر عديدة نوجزها فيما يلي :

أولاً : المحافظة على فطرة الناشء ورعايتها .

ثانياً : تنمية مواهبه واستعداداته كلها وهي كثيرة ومتنوعة .

ثالثاً : توجيه هذه الفطرة وهذه المواهب نحو الصلاح والرقى والكمال اللائق بها .

رابعاً : التدرج في ترسيخ العملية التربوية شيئاً فشيئاً .

خامساً : التوازن بين الواقع المادي والروحي للإنسان دون اقتصار على جانب واحد .

ويتضح لنا كذلك أن التربية هي التأثير بالمنظور والمسموع والعيش الجماعي لإعداد الفرد

إعداداً سليماً ليؤدي دورة في الحياة .

وكذلك هي التنشئة والتزكية والتعهد والرعاية من المربي للمربي ، فهي إذاً تأثر وتأثير

وقابلية وتكيف وحركة .

إهتمام الأمم بالتربية وسببه :

وتشغل التربية حيزاً كبيراً من اهتمامات الأمم لأنها مقياس على نهضة الأمة وتقدمها فالأمم

لا تقاس إلا بمقدار ما تملك من مواهب وقدرات ، والأمم لا تقاس أيضاً بمقدار ما تملك من أسلحة

ولكنها تقاس بمقدار ما تملك من أفراد قادرين على تحقيق عوامل تقدمها لا يمكن أن يوجد فرد يحقق

كل هذه المعاني بدون إعداد وتربية .

دعائم الأسلوب التربوي في تدعيم المنهج الأخلاقي :

إن الأسلوب التربوي هو الأداة أو الوسيلة التي يستطيع بها الداعية أو المربي الوصول إلى

قلب السامع أو المتلقي محدثاً فيه التغيير المطلوب ، ولما كانت الدعوة إلى الله تعالى تعتمد في أساليبها

على الأسلوب التربوي بهدف هداية الناس إلى ربهم وتعريفهم بنور التوحيد ومنهاج الحياة الذي

يجب أن يحيا به حتى يصلوا إلى غاية خلقهم وهي العبودية لله وحده وبالتالي رضاه عز وجل عليهم

١ (معجم الوسيط ج١/٣٢٦ ، القاموس المحيط ٤/٣٤٤ ، لسان العرب ١/٣٩٩ ، مختار الصحاح ٢٣١

٢ (سورة لإسراء : آية (٢٤)

٣ (سورة الشعراء : آية (١٨)

في الدنيا والآخرة ، ولما كان لهذا الأسلوب دعائم يرتكز عليها لذا كان لزاماً علينا أن نتعرض لأهم هذه الدعائم بشئ من الإجمال فنقول :

الدعامة الأولى : الأسرة :

فالأسرة هي المحضن التربوي الأول للطفل ، يُؤسر في داخلها لا لذات الأسر وإنما ليتلقى ما يحتاجه من غذاء تربوي ورعاية صحية ، والذي يزاول مهمة التربية الأسرية هما الوالدان : الأب والأم ، وأي تراخ في هذا المحضن يجعل الطفل عرضة للتسيب داخل وخارج الأسرة .

إنها مسؤولية تربوية تضامنية مفروضة عليهما لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ (١) .

واعتبر الإسلام الأسرة مسؤولة عن فطرة الطفل ، واعتبر كل انحراف يصيبها مصدره الأول الأبوان ، وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه ﴿ ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ﴾ (٢) ، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (٣) .

الدعامة الثانية : المسجد :

يعتبر المسجد الإنطلاقة الأولى للدعوة الإنسانية (دعوة الإسلام) ونبع الهداية الربانية - دعوة القرآن - فلقد كان المسجد في المدينة هو القاعدة التي ارتكز عليها لغرس دعائم الإسلام الأولى من صلاة وصلة بالله عز وجل وتطبيق لمبدأ الشورى والمساواة كما كان مدرسة لتدريب القادة والدعاة إلى الله سبحانه وتعالى وكذلك كان هو المرتكز الذي تدور حوله قاعدة الجهاد الكبرى ، والمحور الذي تلتف حوله الأفكار والعواطف ، والأحاسيس التي زرعت الحب والأخاء والأمن والطمأنينة والسلام في الأرض ، وهو المحضن الذي ربي الصفوة والرواد الذين حملوا مشاعل النور والهدى والحضارة وطوفوا بها في البلاد ونادوا إليها في الآفاق ، فكانت حضارة حاملة لصفة المسجد ورائحته وطهره ، وهذا وغيره من الفوائد العظيمة التي تعود على الإنسان من المساجد التي جعلها الله أحب الأماكن إليه في الأرض فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ أحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها ﴾ (٤) ، والمساجد لأنها موضع

(١) سورة التحريم : آية (٦)

(٢) أخرجه البخاري ج١/١٦٢ - كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه ص٢٦٧ برقم (١٣٥٨)

(٣) سورة الروم : آية (٣٠)

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٤٦٤/١ برقم (٢٨٨)

الظهر والنقاء والمتطهرين والثائبين والعاكفين والركع السجود ، تعلقت بها القلوب ورفرفت على هامة الإنسان رايات الفلاح وخفقت أمامها أعلام الفوز والقبول ولهذا عهد الرسول ﷺ من تعلق قلبه بالمساجد من الذين يظلمهم الله بظلمة يوم لا ظل إلا ظله ، فقال عليه الصلاة والسلام ﴿ ورجل قلبه معلق في المساجد ﴾^(١) .

والمسجد بيت الرجال ومسكن العزائم ومبعث الهمم ووعاء المشيئة القاهرة الغالبة وصدق الله إذ يقول : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾^(٢) .

إذاً فالمسجد وظيفة متميزة في التربية الإسلامية تلك التربية التي تؤسس على العقيدة والإيمان ، والتي أساسها الربانية في الفهم والقول والعمل وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾^(٣) .

هكذا كان المسجد في عهد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين حيث كان يغذي القلوب ويزكي الأرواح بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ، ويغذي العقول بالعلم والمعرفة الشاملة حتى خرج رجالاً أبهروا العالم بعلمهم ومعارفهم في أخلاقهم وتفانيهم في حبهم لدينهم رغم أن بناءه كان متواضعاً^(٤) .

أما المسجد اليوم فقد أصبح في كثير من الأحيان خاضعاً للظروف والتيارات المختلفة ، متأثراً بالنظم الحاكمة ومعبراً عن إرادتها ، كما أصبح وسيلة من وسائل الإعلام بيد الحاكم أو الرئيس ، والداعي إلى الله غير حر ولا طليق في قول كلمة الله ولا يبلغ الحق كما أراد الله دون رقابة أو تدخل ، أما الدعوة فيه فهي تدور حول معان بعيدة كل البعد عن واقع المسلمين يقول محمد الغزالي : (ولكن الناس لما أعياهم بناء النفوس على الأخلاق الجليلة استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد الشاهقة تضم مصليين أقزاماً)^(٥) .

(١) هو جزء من حديث (سبعة يظلمهم الله في ظله) متفق عليه - أخرجه البخاري ، كتاب الأذان - باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ص ١٣٢ برقم ٦٦٠ ، ومسلم برقم ٩١ كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ٧١٥:٢ .

(٢) سورة النور : آية (٣٧)

(٣) سورة آل عمران : آية (٥٩)

(٤) انظر الدعوة إلى الله الرسالة - الوسيلة - الهدف - توفيق الواعي ٣٧٤ - بتصرف - مكتبة الفرج - الكويت .

(٥) فقه السيرة - محمد الغزالي ١٩٠ - دار احياء التراث العربي - الطبعة السابعة سنة ١٩٧٦

الدعامة الثالثة : المدرسة :

الوظيفة الأساسية للمدرسة في نظر الإسلام هي تحقيق التربية الإسلامية بأسسها الفكرية والعقيدية والتشريعية ، وبأهدافها الدينية المختلفة وعلى رأس هذه الأهداف العمل على غرس عبادة الله وتوحيده والخضوع لأوامره وشريعته ، وتنمية كل مواهب النشء وقدراته على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

ولهذا يجب أن تتوافر الجهود وتكاتف في المدرسة بين العاملين فيها حتى يستطيعوا تكوين جيل قرآني فريد ، وفتية صادقي الإيمان والعزيمة ، حتى يكونوا عدة الغد وجند الحق، ورجال الصدق الذين لا تلهيهم الدنيا ، أو تفتنهم الشهوات عن تأدية رسالتهم العظمى وهي رسالة الإسلام. وعلى المدرسة أن ترعى فتيانها وتربى نشأها التربية الإسلامية الصحيحة حتى تحني الثمار الطيبة وتقطف الأزهار العابقة ، وليس أفضل في تربية النشء من رسالة الإسلام وهداية القرآن ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : ﴿ ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن ﴾^(١) ، ولا تتمكن المدرسة من تحقيق ذلك إلا بتضافر جهود المخلصين من أبناء الأمة وتكاتفهم سواء من العاملين في حقل التعليم أم غيره ، والمدرسة إذا لم توفق في التوجيه والتربية كانت مجتمعةً ومحضناً للأوبئة الدخيلة ، وكانت لقاءات بوار وتعاون على الفجور خاصة إذا كثر فيها الشباب المنحل الذي لا يردعه قانون ولا يحجزه خلق أو يأخذ بيده معلم فاضل .

ولهذا وجب على المدرسين والمربين والدعاة أن يهتموا بالمدرسة وبالتربية الإسلامية فيها حتى يخرج اجيل سليماً في خلقه معافاً في بدنه فيتمكن من تحقيق آمال مجتمعه^(٢) ، وهذا يلزم معه ما يلي :

- أ- وضع المنهج السليم القائم على أساس من العقيدة السليمة والعلم النافع .
- ب- الإهتمام بالتربية الإسلامية في جميع المراحل التعليمية ابتداء من رياض الأطفال ومروراً بمراحل التعليم المختلفة .
- ج- اختيار المدرس الذي تتوافر فيه القدوة الصالحة والتفوق العلمي في مجال تخصصه .

الدعامة الرابعة : الإعلام :

مما لا شك فيه أن وسائل الإعلام الحديثة من مذياع ، وتلفزيون ، وآلة التسجيل ، وسينما ، وستلايت وانترنت وأقمار صناعية ، ومسرح ، وصحافة ، ومجلات ، وغيرها هي من أرقى ما توصل

(١) أخرجه الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في أدب الولد - ٣٣٨/٤ برقم (١٩٥٢)

(٢) نظر الدعوة إلى الله - د. توفيق الواعي ٣٩٨ - بتصرف .

إليه العلم في العصر الحاضر ، بل من أعظم ما أنتجته الحضارة المادية في القرن العشرين ، وأنها سلاح ذو حدين تستعمل للخير وتستعمل للشر .

ومن الحق أن نعترف بان علوم الإعلام وفنونه قد بلغت اليوم مبلغاً عظيماً من الدراسة والتحليل والتشخيص لأحاسيس الناس وعاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم وميولهم وما يحيط بهم من أدوات التأثير ، كما بلغت كذلك مبلغاً كبيراً من إعداد الوسائل الإعلامية الجديدة التي تلاحق إنسان العصر الحديث أينما وجد وحيثما حل وفي كل مكان ، حتى أصبحت تعايشه في يقظته ومناحه وفي حله وترحاله ، يتنفسها كما يتنفس الهواء ، ويتعاطاها كما يشرب الماء .

ولكن للأسف الشديد لم تستفد الدعوة ولا الدعاة اليوم من هذه الوسائل المتعددة بل ظلت إلى اليوم حبيسة الجهل الفاضح بكل هذه الدراسات والوسائل الإعلامية المختلفة وأصبحت الصلة بينها وبين الدعوة الإسلامية مقطوعة مبتورة بل قد لا أكون مبالغاً إذا قلت : أن بعض الناس اليوم يسرون في خط معاكس لتلك العلوم ، بمعنى أنهم يحاولون تبليغ الدعوة بأساليب منفرة ، وبغير مراعاة لأحاسيس وميول ومشارب الأفراد والجماعات والأمم .

إن الدعاة إلى الله اليوم مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالإلتفات إلى الإعلام والمادة الإعلامية ، والإستفادة منها أيما استفادة .

إن المسألة ليست فردية في جانب الفساد ، بل أصبحت تعم الأمة جميعاً ، وإن لم يتخذ الدعاة المخلصون خطة شاملة بمساعدة الأخصائيين والإعلاميين فإن الفساد سوف ينتشر انتشاراً مذهلاً في فترة وجيزة ، خاصة بعد البث الهوائي المباشر عبر الأقمار الصناعية .

وإنهم مطالبون بالتجديد في وسائل الدعوة إلى الله بما يناسب العصر الذي يعيشون فيه ، والدخول إلى قلوب الناس بالأسلوب الذي يرتاحون له ، وها هو أسلوب الإعلام يفتح أبوابه لكل مخلص لله في أن يبلغ دعوة الله إلى كل من يراها ويسمعها ويقرؤها^(١) ، لذا من الواجب على المخلصين أن يستغلوا هذه الوسائل في تبليغ دعوتهم تمسكاً بقول رسول الله ﷺ : ﴿ الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها ﴾^(٢) .

١) انظر الأسلوب التربوي للدعوة إلى الله في العصر الحاضر - خالد عبدالكريم الخياط ١٨٣ - بتصرف - دار المجتمع للنشر والتوزيع - ط ١ سنة ١٩٩١م .

٢) روى بهذا اللفظ عند الترمذي - كتاب العلم - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة - بسند فيه ضعف ولكن معناه صحيح ٥١٥ رقم (٢٦٨٧) - وابن ماجه في الزهد - باب الحكمة - ١٣٩٥/٢ ، رقم (٤١٦٩)

ثانياً : الأسلوب التعبدي :

تطلق العبادة في اللغة ^(١) ويراد بها معان عديدة منها : الطاعة والخضوع والذل .

أما في الشرع : فهي خضوع وحب ^(٢) .

فقد أبرز شيخ الإسلام ابن تيمية إلى حوار المعنى الأصلي في اللغة وهو غاية الطاعة والخضوع عنصراً حديثاً له أهمية كبرى في الإسلام ألا وهو عنصر الحب ، فبغير هذا العنصر لا توجد العبادة الصحيحة التي خلق الله لها الخلق وبعث بها الرسل وأنزل من أجلها الكتب ^(٣) .

مما سبق يتضح لنا أن المعنى الشرعي للعبادة يشتمل على :

١- الإلتزام بما شرعه الله ودعا إليه رسله ، أمراً ونهياً ، وتحليلاً وتحريماً وهذا هو الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله . والخضوع لله إما أن يكون قهرياً وإما أن يكون اختيارياً ، قال تعالى ﴿ والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ ^(٤) .

٢- أن يصدر هذا الإلتزام من قلب يحب الله تعالى لأن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عبداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عبداً له ^(٥) .

٣- العبادة إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة كذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه وأمثال ذلك ، هي من العبادات لله ^(٦) .

فالعبادة بهذا المفهوم الشامل تحيط الإنسان في حياته كلها من تصرفات وعلاقات ومعاملات وأسلوب حياة ، إن ذلك كله عبادة لله عز وجل .

(١) لسان العرب - ابن منظور ٢٧١/٣ ، مختار الصحاح ص ٤٠٨

(٢) العبادة في الإسلام - يوسف القرضاوي ص ٣٠١ - الرسالة

(٣) انظر العبودية - ابن تيمية ص ٤٤ - المكتب الإسلامي

(٤) سورة الرعد : آية (١٥) .

(٥) العبادة في الإسلام - القرضاوي ص ٣٢ .

(٦) العبودية - ابن تيمية ص ٤٤ .

فالصلاة : أسلوب تربوي لإيجاد الصلة بين العبد وربّه ، وهي التي كان يقول فيها النبي ﷺ لبلال : ﴿ أرحنا بها يا بلال ﴾ ^(١) ، وتقول السيدة عائشة ؓ : (كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) ، ويقول ﷺ ﴿ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا فيه الدعاء ﴾ ^(٢) ، وهي كذلك أسلوب تربوي في التطهر والتجمل أمام الله عز وجل ، وهي تعلم المسلم النظام ، والانضباط ، والطاعة والانقياد ، والشعور بالمساواة بين أفراد المجتمع .

فهذه العبادة تتفاعل معها الروح والجسم والعقل والمشاعر والأحاسيس ، ثم تترجم إلى واقع حي ملموس في المجتمع ، وتكون منهج حياة لهذا المسلم ، قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ ^(٣) .

ولعظم الصلاة في تدعيم الجانب الأخلاقي كانت هي شريعة الأنبياء ولم يرفعها الله حتى عن المحاربين في ساحة الحرب ، والآيات في كتاب الله عز وجل في هذا المعنى مشهورة بما يسمى صلاة الخوف .

والزكاة : هي الاسلوب التربوي الثاني من العبادة ، يكفر جاحدها ، ويحارب مانعها ، فهي صنو الصلاة ، كما قال أبو بكر الصديق ؓ : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه) ^(٤) ، وهي أول حقوق الله في المال ، وأساس إخراجها إنما يعني التقرب إلى الله تعالى وإنفاذ أمره ، وطلب ثوابه فهي تختلف عن الضريبة التي تؤخذ غصباً ، ولكنها تطهير وتنمية وحصانة للمسلم ، قال رسول الله ﷺ : ﴿ حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ﴾ ^(٥) ، وبها يربي المسلم تربية تختلف عن تربية الآخرين ، فهي تطهر نفس المزكي امتثالاً وطواعية ، ويحيى حياته ذاكراً لأنعم الله ، فتتطهر نفسه وتزكو أحاسيسه ، وفي نفس الوقت تتطهر نفس مستحق الزكاة ، فلا يحمل العداوة والحقد والحسد لمن بيده المال ، وكلاهما له الأجر .

والصيام : إمتناع وترك وهو أسلوب من أنجح الأساليب التربوية في سلوك الأفراد ، فهو ليس عبادة مبهمة ، بل الغاية منه أن يشعر الإنسان بحاجة إخوانه من الفقراء والمساكين وما يصاحبه من تقوى وتهذيب ، فالصائم يجوع وأمامه شهى الطعام ، ويعطش وبين يديه الماء ويعف وبجانبه زوجته ، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه .

١) أخرجه أحمد ، مسند أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ ٣٩/٩ .. رقم (٢٣١٤٩) .

٢) أخرجه مسلم - كتاب الصلاة ٣٥٠/١ برقم (٢١٥) .

٣) سورة العنكبوت : آية (٤٥) .

٤) تاريخ الخلفاء - لإمام حافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - تحقيق محمد محي الدين عبدالحاميد ص ٣٤ .

٥) زواه أبوداود والطبراني في المراسيل ، كتاب الصدقة ص ٦٢ ، رقم (٩٦) ، والطبراني في الكبير ١٥٧/١٠ رقم (١٠١٩٦) .

يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم ، وتسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين في كل عام ، فأى مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام إجبارياً للمسلمين في رمضان وتطوعاً في غير رمضان .

وقد قيل في الصوم : (لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصوم : الصبر)^(١) . ويقول ابن القيم في أسرار الصوم ومقاصده : (للصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، حمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾^(٢) ، وقال النبي ﷺ : ﴿ والصيام جنة ﴾^(٣) ، وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ، ولا قدرة له عليه بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة)^(٤) .

والحج : رحلة تربوية شاملة لأنواع التربية ، إنها تربية روحية وعقلية ، وإنها رحلة تذكّر بالتوحيد وصفاءه ، والطاعة والإمتثال .

فالحج دفعة روحية للمسلم يستشعر بعدها أنه خلق جديد ، إنه رجع كيوم ولدته أمه ﴿ من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ﴾^(٥) .

إنه ولد جديداً على فطرته فلن يندسها ولم يسخرها إلا لبارئها ، وسيحقق عبوديتها لربه ، والحج فيه تربية وتعليم ، وتركيبية وتطهير استجابة لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه لاسلام ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾^(٦) .

ولعل المعاني الواردة في خطبة حجة الوداع تكفي لبناء شخصية مستقيمة ، ومجتمع يقوم على أركان الإسلام .

ثالثاً : أسلوب القدوة :

(١) هذا كلام المناوي في فيض القدير (٧٣١٤)

(٢) سورة البقرة : آية (١٨٥)

(٣) هو جزء من حديث أخرجه البخاري كتاب الصوم - باب فضل الصوم - ص ٣٧٤ برقم (١٨٩٤) ومسلم كتاب الصيام ٨٠٦/٢ برقم (١٦٢)

(٤) زاد المعاد - ابن القيم الجوزية ج ٢/ ٢٩ - مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عبدالقادر الأرنؤوط ، ط ١٤ ، سنة ١٩٨٦

(٥) أخرجه البخاري - كتاب الحج - باب فضل الحج المبرور ص ٣٠٣ برقم (١٥٢١)

(٦) سورة البقرة : آية (١٢٩)

تعد القدوة من أرقى أنواع التربية ، فهي تدعو إلى الإمتثال بالعمل قبل القول ، ولذا فإن التربية بالقدوة أبلغ وأكثر تأثيراً من التربية بالمقال ، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال ، وقد بين الحق سبحانه وتعالى للناس أجمعين الأسوة والقدوة في شخصية رسول الله ﷺ الذي ارتضاه لنا هادياً ومرشداً ونبياً ورسولاً ، وصاغه بوحيه وقرآنه حتى قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق الرسول ﷺ : (كان خلقه القرآن) (١) ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

قال القرطبي في تفسيره : (الأسوة : القدوة ، والأسوة ما يتأسى به أي يتعزى به فيقتدي به في جميع أحواله) (٣) .

لذا كان الناس يرون الدعوة متحققة في شخص النبي ﷺ من خلال واقع حياته فتأسوا به وساروا على منهجه والتزموا بكل أموره وأحواله ومن هنا فإنه من الواجب على المسلمين الإقتداء بالرسول ﷺ وتبعية سيرة السلف الصالح لإبراز معالم الأسوة والقدوة الحسنة ومن الواجب عليهم أيضاً أن ينظروا إلى هذه القدوة في كل زمان ومكان ، ويأخذ منها المؤمنون منهج حياتهم ، ولكن للأسف الشديد فإننا نرى بعضاً من أذعياء العلم يقولون مالا يفعلون ولذلك فإن الإمام ابن القيم اعتصم قلبه من هؤلاء الذين يُنفرون الناس من دين الله الحنيف بسبب أفعالهم الدنيئة فيصفهم بأدق وصف مبيناً سبب نفرة الناس منهم موضعاً أهمية القدوة الحسنة في حياة الناس فيقول : (علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس : هلموا ، قالت أفعالهم : لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقاً ، كانوا أول المستجيبين له ، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق) (٤) .

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) سورة الأحزاب : آية (٢١)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) - محمد بن أحمد القرطبي ١٢٣٧/٨ ط . . الثقافة سنة ١٩٦٤م . - لقاها .

(٤) الفوائد - للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية - ص ٧١ ، دار الكتب العلمية بيروت - ط ١ سنة

١٩٨٣م .

أصول القدوة الحسنة :

للقدوة الحسنة أصلاً كبيران :

الأول : حسن الخلق : يجب على الداعية أن تتوفر فيه تلك الطبيعة الرحيمة الهينة اللينة المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتكاثر حولها النفوس ، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم ، وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ، وفي حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويحمل همومهم ، ولا يعينهم بهمهم ، ويجدون عنده دائماً الإهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء^(١) .

الثاني : موافقة العمل القول : فيجب أن يحذر الداعي من مخالفة أفعاله لأقواله لأن النفس مجبولة على عدم الإنتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ، ولا يوافق فعله قوله ولهذا قال شعيب عليه السلام ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾^(٢) ، وقال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري : ﴿ يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأناهاكم عن المنكر وآتية ﴾^(٣) .

والقدوة صفة لا تتم الدعوة إلى الله تعالى ، ولا تؤتي ثمارها إلا بها وقد تكون الأفعال أكثر أثراً من الأقوال في كثير من الحالات ، الموعظة التي يلقيها الداعية ولا يلتزم بها تؤدي إلى شر عظيم وتؤدي إلى فتنة السامع وعدم اقتناعه بصحة ما يقوله ذلك الداعية ، لذلك يقول الحسن البصري : (عظ الناس بفعلك ، ولا تعظهم بقولك)^(٤) ، لأن بالأفعال يرى أمامه الصورة العملية الواضحة لما يقوله الداعية ، وإذا كان الداعية كذلك فإن تأثيره على الناس يكون مضموناً ، لأنه من العادة أن يتأثر الناس بالأعمال قبل الأقوال ، وصحيح ما قيل (أن ما خرج من اللسان لا يتجاوز الأذان وما خرج من القلب فإنه يستقر بالقلب) على أن الداعية إذا خالف قوله فعله لا يكون ضرره محصوراً بنفسه ، بل ربما كانت دعوته للناس تنتج العكس تماماً ، إذ يقول الناس : لو كان ما يدعو إليه صحيحاً لكان هو أول الآخذين به^(٥) ، إن سلوك الداعية هو الصورة الحية العملية لدعوته ، يراها

١ (انظر طريق الدعوة الإسلامية - جاسم مهلهل الياسين ص ٥٦ دار الدعوة - الكويت - ط ١ ، سنة ١٩٨٦م .

٢ (سورة هود : آية (٨٨))

٣ (أخرجه البخاري - كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ص ٦٦٧ برقم (٣٢٦٧) ، ومسلم كتاب الزهد ٤ / ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ برقم (٥١))

٤ (الزهد : الإمام أحمد - ص ٢٧٣)

٥ (مرشد الدعاة - محمد عمر الخطيب - ص ٢٠٠ - دار المعرفة - بيروت - ط ١ ، سنة ١٩٨١م .

الناس في سكونه وحركته ، ووقوفه ومشيته وبكائه وضحكته قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾^(١) ، وإن القدوة العملية تصيب من قلوب الناس أكثر مما تصيب الكلمة مهما كانت طيبة وجيدة ومؤثرة ، وتؤثر في الناس مع الصمت أكثر مما تؤثر الخطب البليغة والعبارات المنمقة ، وحتى يؤدي التأثير حقه لا بد للداعية أن يبدأ بنفسه قبل نصيحته للآخرين ، هذا ما بينه الحسن البصري إذ يقول : (إذا كنت أمراً بالعرف فكن من أخذ الناس به وإلا هلكت ، وإذا كنت ممن ينهي عن المنكر فكن من أنكر الناس له وإلا هلكت)^(٢) .

كيف تتم التربية بالقدوة :

تكون هذه التربية بتعريض الوجدان للخبرات ومشاهد يحسن فيها حلاوة الفضائل الأخلاقية ، ومرارة الرذائل الأخلاقية ، إن الوجدان الأخلاقي ينمو ويتضخم بمختلف الخبرات والمشاهد التي تفجر فيها انفعالات استحسان الفضائل والكمالات الأخلاقية ، عند تذوق حلاوتها والشعور بالمسرات التي تحصل بالآلام التي تحصل بسببها^(٣) .

وهكذا يتضح لنا أهمية القدوة كأسلوب من أساليب المنهج الأخلاقي خصوصاً وأننا في عصرنا الحاضر نفتقد في كثير من الأحيان إلى المسلم الذي يجيد اقتران القول بالعمل ، بل نراهم يجيدون القول ولا يجنون العمل ، وهؤلاء ضررهم على الإسلام أكثر من أعداء الإسلام أنفسهم ، فالمسلم الصادق هو الذي يهدي الناس بسمته ويأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة .

رابعاً : المنهج الحسي^(٤) (التجريبي) وموضوعه :

ويطلق بعض العلماء على هذا المنهج مصطلح (المنهج العلمي) لإعتماده على العلوم التجريبية ، إلا أن تسميته بالحسي أوضح وأدق .

وموضع المنهج الحسي هي الظواهر المادية التي يدركها الإنسان بوسائله الإدراكية من بصر وسمع وشم وحس وذوق بطريقة مباشرة مثل الظواهر الطبيعية من فلك وهواء وصواعق وأمطار وأمراض وتيارات ... الخ ، وبطريقة غير مباشرة بدراسة آثار الظواهر ، يتم ذلك عن طريق الملاحظة العلمية والتجربة أو بكليهما معاً ، ويأتي المنهج الحسي ليلفت الحس إلى التعرف على المحسوسات للوصول عن طريقها إلى القناعات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي

(١) سورة الأحزاب : آية (٢١)

(٢) الزهد - للإمام أحمد - ص ٢٦٠ .

(٣) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسه عبدالرحمن حنيفة الميداني - ١٩٥/١ دار القلم - دمشق - الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٢م .

(٤) تم تعريف المنهج الحسي لغة واصطلاحاً في مقدمة البحث ص : ٩٠،٨

أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ ﴿٢﴾ .

والقرآن الكريم يبحث على النظر في الكون المحيط بالإنسان ، وهذا هو عين المنهج القائم على الحس والمشاهدة ، يقول الله عز وجل أمراً باتباع هذا المنهج ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ ﴿٣﴾ ، وهذا النظر يمكن للإنسان تحقيقه والبحث فيه كما تحدثت الآية الكريمة ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ ﴿٤﴾ .

على هذا المنهج العلمي الصحيح ، الذي مفاده ألا يتبع الإنسان إلا ما يعلمه عن طريق حواسه السمع والبصر والفؤاد يقوم هذا المنهج ، لأن صاحبه مسؤول عنه ﴿٥﴾ .

مواطن استخدام المنهج الحسي (التجريبي) :

مواطن استخدام المنهج الحسي (التجريبي) عديدة ومتنوعة منها ﴿٦﴾ :

١- يستخدم في دعوة العلماء والمتخصصين في العلوم التطبيقية التجريبية ، ويعين في ذلك الاستدلال بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

٢- يستخدم في دعوة المتجاهلين للسنن الكونية ، والمنكرين للبداهيات العقلية ، فإن المعاندين لا تفيد معهم إلا الحقائق المعتمدة على الملموسات والمحسوسات ، وعلى هذا الأساس جاءت كثير من معجزات الأنبياء والرسل عليهم السلام مادية محسوسة .

٣- في تعليم الأمور التطبيقية العلمية والدعوة إليها كما فعل الرسول ﷺ في تعليم الوضوء والصلاة والحج وغيرها .

(١) سورة الذاريات : الآيات (٢٠-٢٣)

(٢) سورة فصلت : آية (٣٥)

(٣) سورة العنكبوت : آية (٢٠)

(٤) سورة الإسراء : آية (٣٦)

(٥) انظر تفسير الجلالين ص ٣٦٩ دار القلم - بيروت - وموضوع (الإسلام والعلم التجريبي) د. محمد عبدا لله الشرقاوي في مجله هذه سبيلي ص ١٣٩ - العدد الخامس سنة ١٩٨٣ ، سنة ١٤٠٣ هـ ، إصدار المعهد العالي للدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية - الرياض .

(٦) انظر مدخل إلى علم الدعوة - البيانوني ص ٢١٧

المبحث الثاني : ضوابط استخدام الداعية للمنهج الحسي :

تمهيد :

جاءت الآيات القرآنية تدعو إلى النظر في آيات الآفاق والأنفس ولا يقف الأمر عند ذلك النظر الذي يكتفي بإدراك المنافع القريبة لهذه الآيات ، بل يتجاوزه إلى النظر الذي يجمع مع هذا الانتفاع وهذا التسخير ، الوقوف على مواطن العبرة والذكرى في كل آية منها .
والمتتبع لآيات القرآن الكريم التي وجهت النظر إلى هذه الآيات يجدها تأمر بهذا النظر المزدوج والأمثلة على ذلك في القرآن الكريم كثيرة منها قوله سبحانه : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ﴾^(١) .

وإذا كان الله عز وجل قد أمر الناس بالنظر في الآيات العظيمة التي خلقها للوقوف على بعض أسرارها ومقاصدها ، فإنه قد وضع للنظر الذي يؤدي إلى الاعتبار بهذه الآيات ، حدوداً وضوابط ، ورسم له مسالك تسير به في المسار الصحيح ، وتجعله يصل إلى الغاية المقصودة منه ، وهذه الغاية هي بناء تصور سليم عن الله والكون والإنسان مستمد من الوحي الذي أنزل على الرسل والأنبياء ، وجاءت به كتب السماء ، ثم التحرك في الحياة على ضوء هذا التصور .
وعندما أمر القرآن الكريم الإنسان بالنظر في آيات الله التي في الآفاق وفي الأنفس ، لم يحدد له وسيلة لهذا النظر ليرتك للإنسان مطلق الحرية في اختيار الوسيلة التي تناسبه بشرط أن تكون وسيلة صحيحة مقبولة شرعاً .

ومن خصائص الإسلام الكبرى أنه دين العلم والفكر ، يدعو إلى التدبر في آلاء الله ونعمه وخلقته ، ويؤسس قضايا العقيدة على البرهان والإقناع واليقين ، ويخاطب الجاحدين والمنكرين داعياً إياهم إلى هذا المنطق ، ومما يدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة النمل : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾^(٢) ، ويجعل العلم الشرعي والمدني من أسس المجتمع المسلم ومقوماته أهدافه ، ثم هو يحارب التقليد الأعمى والانسحاق مع الناس أو الأهواء بغير هدي من الله
ولما كان العقل البشري عاجزاً عن إدراك الكثير من المصالح الدنيوية والأخروية ، قاصراً عن استكناه الغيب وقضاياها ... ضعيفاً في فهم الكثير من أمور النفس وحقيقتها ولكي تخرج نتيجة الفكر صحيحة سليمة ، وحتى لا يجنح العقل إلى الماديات ويقف عندها ويكتفي بها ، من أجل ذلك كله

(١) سورة النحل : آية (٤-٧)

(٢) سورة النمل : الآية (٦٤)

وضع الدين القويم ضوابط وسنناً تحدد الوجهة وتوجه الفكرة وتضبط الهدف كما رسم الخطوط الكبرى لمجالات النظر في الكون والآفاق والنفس .

الضوابط الشرعية للنظر والتفكير :

ومن أبرز الضوابط الشرعية ^(١) التي رسمها الإسلام للنظر والتفكير في آلاء الله والتي يجب أن يلتزم بها الداعية إلى الله تعالى عند استخدامه للمنهج الحسي في دعوته ما يلي :

١ - قصر النظر في المنهج الحسي على المدركات ، وهو ذو شعبتين :

الشعبة الأولى : ما يتعلق بالذات الإلهية :

فإن الله سبحانه وتعالى أمر الإنسان بالتفكير في المخلوقات للاستدلال بها على وجود الخالق تباركت أسماؤه ، ووحدانيته تعالى واستحقاقه للعبادة دون سواه ... ولم يأمرنا بالتفكير في حقيقة الذات الإلهية لأن الوقوف على حقيقة الذات الإلهية من المستحيل، فهو سبحانه وتعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ ^(٢) ، ولقد حذر رسول الله ﷺ من مغبة الإنزلاق إلى هذه الهاوية التي تردى فيها الكثير من علماء الكلام وأرباب التصوف قال ﷺ : " ويأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته " ^(٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله : (جاء في الأثر : تفكروا في المخلوق ولا تفكروا في الخالق ، لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس ، وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات ، وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير ، فالتفكير الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة ، فيذكره العبد - وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير ، أعني من العلم به نفسه فإنه الذي لا تفكير فيه) ^(٤) .

(١) أنظر الدعوة إلى الله - عبدالرب نواب ص ٣٢٠ ، ٣٤٧

(٢) سورة الأنعام : الآية (١٠٣)

(٣) متفق عليه : رواه البخاري ، كتاب / بدء الخلق / ١١٩٤/٣ ، باب صفة إبليس ؛ ومسلم في كتاب الإيمان : ١٢٠/١ . باب :

الوسوسة في الإيمان ... وهو في الفتح : ٣٤١/٦

(٤) مجموع الفتاوى : ٣٩/٤ - ٤٠

أما حين يكون البحث في آثار قدرة الله والتدبر في كيفية هذه الآثار فالتأمل هنا واجب ، وفي هذا يقول ﷺ : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (١) (٢) .

والذين تفكروا في كل شيء من غير المسلمين لم يصلوا إلى شيء يؤسس عليه يقين أو ينهض به تصور ، ذلك أنهم تخلوا عن هذه القاعدة فباؤوا بالخسران المبين ، إذ نسبوا جلال الله وعظمته وكبريائه الذي تبدى في خلقه إلى الصدفة تارة والطبيعة تارة !

قال الأستاذ محمد الغزالي : (إن العلم بعد ارتقائه المعاصر يهدي إلى الله بالأسلوب القرآني لا بالفكر السطحي ولا بالتعمق التائه ، وقد تدبرت كتابات علماء الكون والحياة فوجدتهم استدلوا بالملكوت على صاحبه ، وعنت وجوههم أمام عظمته ، ثم استيقنوا بعد ذلك من عجزهم عن اكتناه ذاته فتوقفوا مبهورين !) (٣) .

أفلمست ترى بعد هذا أن ما رسمه القرآن المجيد من منهج للتفكير هو أمثل المناهج وأعدل السبل وأهدى الطرق ، إذ يصلك إلى ما يرضي العقل ويربح الضمير ويستجلب الإيمان العميق !؟

(١) سورة البقرة : الآية (٢٦٠)

(٢) متفق عليه رواه البخاري في بدء الخلق ٣/ ١١٩٤ ، باب صفة إبليس ، عن أبي هريرة ؓ ، ومسلم في كتاب : الإيمان :

٢٣٨/١ ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظافر الأدلة ... وهو في الفتح : ٣٤١/٦

(٣) سر تأخر العرب والمسلمين : ص ٦١

الشعبة الثانية : ما يتعلق بالغيب :

استأثر الله عز وجل بعلم الغيب ، فهو سبحانه ، كما قال عن نفسه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾^(٢) ، وقال عز من قائل : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾^(٣) ، وقال سبحانه وتعالى في سورة النمل بعد أن عدّد مظاهر الكون وطبائع النفس والنعم المحيطة : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾^(٤) . وانطلاقاً من هذه القاعدة الإسلامية نقول بعون الله :

* إن الإنسان يكتنفه الغيب من كل صوب وحذب في هذه الحياة ، وهو قبل هذا ذو عقل محدود الطاقة ، يجهل الكثير من عالم الشهادة .

* ودائرة الغيب تتسع لتشمل مع أركان الإيمان الستة كل ما يحيط بالإنسان مما ليس في وسعه إدراكه أو استكناه حقيقة هذا الكون من حوله قال سيد قطب موضحاً جهل الإنسان لحقائق الغيب : (إن الإنسان ما يزال يضرب في الفروض والنظريات حول مصدره ونشأته وطبيعته وحول حركته وحول (الزمان) ما هو ، وحول (المكان) وارتباطه بالزمان ، وارتباط ما يجري في الكون بالزمان والمكان ، والحياة ومصدرها ونشأتها وطبيعتها وخط سيرها ، والمؤثرات فيها ، وارتباطها بهذا الوجود (المادي) إن كان هناك في الكون مادة على الإطلاق ذات طبيعة غير طبيعة (الفكر) وغير طبيعة الطاقة على العموم ! والإنسان ما هو ؟ ما الذي يميزه عن المادة ؟ وما الذي يميزه عن بقية الأحياء ؟ وكيف جاء إلى هذه الأرض وكيف يتصرف ؟ وما العقل الذي يتميز به ويتصرف ؟ وما مصيره بعد الموت والانحلال ؟ بل هذا الكيان الإنساني ذاته ما الذي يجري في داخله من تحليل وتركيب في كل لحظة ؟ وكيف يجري ؟

إنها كلها ميادين للغيب يقف العلم على حافتها ولا يكاد يقتحمها حتى على سبيل الظن والترجيح ، وإن هي إلا فروض واحتمالات)^(٥) .

(١) سورة الجن : الآيات (٢٦-٢٨)

(٢) سورة الأنعام : الآية (٥٩)

(٣) سورة لقمان : الآية (٢٤)

(٤) سورة النمل : الآية (٦٥)

(٥) في ظلال القرآن ١١١٦/٢

* وعلى هذا فلتن كان مفهوم الكون في اللغة يعطي معنى (الحدوث) ^(١) ، فيقال : الله مكون الأشياء ، أي يخرجها من العدم إلى الوجود ^(٢) ، والكون هو الوجود العام المطلق ^(٣) ، والموجودات في العرف العام (تشمل الإنسان والجان والملائكة ، وسائر المخلوقات والمكونات الأخرى من سماوات و أرض وبحار بما يتضمنه كل ذلك من أسباب ومسببات وحركات كونية مختلفة) ^(٤) .

أقول : لئن كان مفهوم الكون بهذا الشمول وبتلك السعة فإن دائرة النظر إلى الكون في الإسلام لا تشمل جوانب الغيبات من هذه الموجودات ... لإستحالة إدراكها وعجز الإنسان عن استكشاف حقيقتها ، ولقد أجال سلف الأمة الصالح أفكارهم في أرجاء الكون متتبعين الحكمة من بعض المخلوقات فيه ومستدلين بما فيه على الخالق المقتدر جلت آلاؤه ... وجعلوا ذلك كل همهم وجل مقصدهم ، وعرف هذا النوع من الفكر بعلم الطبيعيات الذي يقول عنه ابن خلدون : (هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن ، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات) ^(٥) .

٢- ربط النظر في المنهج الحسي بالإيمان والأخلاق :

لكلمة (العلم) اليوم مفهوم خاص ولد في أوروبا إبان تسلطها على عقول أكثر الشباب المسلم بعد استعمارها لديارهم - وهذا المفهوم الأوروبي بالنسبة للعلم يعد مفهوماً منحرفاً لتنافيه مع مفهوم العلم في الإسلام - وأخذ هذا المفهوم المنحرف مداً ثقافياً ذا شر مستطير في عالمنا الإسلامي (فكلمة العلم اليوم تعني في أوروبا : مجموع المعارف الإنسانية المؤيدة بالدلائل الحسية وجملة النواميس التي اكتشفت لتعلل حوادث الطبيعة تعليلاً مؤسساً على تلك النواميس الثابتة ... فأصبح العلم إذاً لا يطلق إلا على المعارف التي تقع تحت أحكام الحواس وتخضع لامتحانها ، فإذا قال قائل : العلم قرر كذا ، خرج منه علم الدين لأن مدار الدين على المسائل الاعتقادية ، وهي معتمدة على التسليم

١ (القاموس المحيط : ٢٦٤/٤ ، مادة : (كون)) .

٢ (لسان العرب : ٣٦٤/١٣ .

٣ (المعجم الوسيط : ٨١٢/٢ .

٤ (كبرى اليقينييات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي : ص ٢٤٣ - دار الفكر المعاصر - بيروت ، دار الفكر - دمشق ط ٩ سنة ١٤١١ هـ .

٥ (مقدمة ابن خلدون : ص ٤٩٢ ، الفصل الثامن عشر - في الطبيعيات .

بمقررات لا تخضع للامتحان والتجربة ومن هذا نشأت مسألة المناقضة بين العلم والدين (١). هذا شأن الذين ليس للإيمان بالله واليوم الآخر مكان في نفوسهم .

* أما الشأن في الإسلام فهو مغاير لهذا المفهوم المعاصر ككل المغايرة ، فلئن كانت الأمور الاعتقادية لا تخضع للتجربة والبحث عن حقيقتها ، إلا أنه يجعل الاستدلال من خلال الموجودات بشتى الوجوه ليس مما يحجر على المسلمين أو غيرهم ، بل هو من أكبر أهداف وجود هذا الكون ، ولقد سلك إبراهيم عليه السلام هذا المنهج حين استدل على الباري تبارك وتعالى من خلال تغير أحوال الشمس والقمر والكواكب ظهوراً وأفولاً (٢) وطلب الدليل المادي على البعث والنشور فوجده (٣) ، ولئن كان هذا مما لا يقع لغير الأنبياء ، عليهم السلام ، إلا أن مظاهر الكون تحمل في طياتها الكثير مما هو نظير ذلك في الدلالة ، كجدد الحياة والموت في الزروع ، وتعاقب الحياة والموت في الأحياء ، وتوالي الليل والنهار ... ألخ ، مما سنبيطه إن شاء الله في ثنايا فصول الرسالة . وهذا كله يصلح أن يكون من الأدلة المادية الحسية على وحدانية الله وقدرته وعلمه وعلى البعث والنشور...

* وهذا المنهج الإسلامي الأمثل في الأبحاث الكونية يورث في الإنسان استقرار الفكر وطمأنينة النفس وراحة البال ، ذلك أنه يكون أبداً موصولاً بحبل الإيمان مستمسكاً بالهدى والنور ، وفي هذا يقول المستشرق النمساوي أرنست بانيرت : (إن التأثير الديني في الغرب يتعرض لهزات عنيفة كلما حقق العلم انتصاراته ، أما الإنسان المسلم فإنه يظل على إيمانه المؤكد برغم إطلاعه الدائب والمثابر على العلوم الحديثة) (٤) .

أما المنهج الذي اتبعه الغرب في العصر الحاضر فقد جعلهم يضلون السبيل وتعصف بهم الأهواء وتقسوا قلوبهم حتى أصبحت العلوم والإنكشافات والمخترعات التي يتوصلون بها مصدر خطر على البشرية جمعاء لعدم ربطها بالإيمان بالله وعدم إضافتها لعلمه تعالى وقدرته وإبداعه في خلقه (٥) .

١ (دائرة معارف القرن العشرين : ٥٨٤/٦ .

٢ (اقرأ الآيات ٧٤-٨١ من سورة الأنعام .

٣ (اقرأ الآية ٢٦٠ من سورة البقرة وأنظر الفصل الأول المبحث الثالث (إثبات البعث) من هذه الرسالة .

٤ (الإنسان بين العلم والدين ، شوقي خليل : ص ٢٣٢ ، ط ١٣٩٧ هـ - دمشق ، نقلاً عن مجلة الفكر المعاصر ، عدد أكتوبر ١٩٧٠ م ص ١٠٦ .

٥ (التفسير القرآني للقرآن : ٢٣٥/٤ ، بتصريف : عبدالكريم الخطيب . ط مصر دار الفكر .

٣- تقديم معطيات القرآن المجيد لصدقها المطلق :

فكتاب الله عز وجل ، كتاب هداية أنزله رب العالمين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولئن كان هذا الكتاب الخالد قد تضمن مبادئ العلوم بالنص والفحوى بمقتضى قوله تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ ونزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾^(٢) ، فإنه لمن كمال الإيمان به وبما احتواه ألا يسرع الداعية كلما وقع على فكرة أو صادف نظرية إلى تطبيق معطياتها على كتاب الله ليقرر أن للقرآن المجيد السبق والفضل ... دون تروُّ وتبصُّرٍ وتحقُّقٍ ، فلا يقاس كتاب الله على غيره بل العكس صحيح ، فالأصل هو ما جاء به هذا الكتاب المعجز وكثيراً ما تنهار النظريات بعد أن لاح ثبوتها وتخيل الناس رسوخ أركانها . قال صاحب أضواء البيان موضحاً هذا الضابط المهم : (اعلم ، وفقني الله وإياك ، أن التلاعب بكتاب الله جل وعلا وتفسيره بغير معناه محاولة توفيقه مع آراء كفرة الإفرنج ليس فيه شيء البتة من مصلحة الدنيا والآخرة ، وإنما فيه فساد الدارين ، ونحسب إذ نمنع التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه نحض جميع المسلمين على بذل الوسع في تعليم ما ينفعهم من هذه العلوم الدنيوية مع تمسكهم بدينهم)^(٣)

فالقرآن العظيم مقصوده الأسمى هداية البشر ودلاتهم إلى ما فيه خير الدارين ، وهو مع ذلك معجز في كل نواحي الإعجاز ومنها الإعجاز العلمي لصدقها المطلق ، إذ هو كلام رب العالمين ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾^(٤) .

وتأسيساً على ما تقدم سنلتزم - قدر الوسع - بالمنهج الوصفي في عرض مظاهر الكون الواردة في القرآن الكريم جاعلين نصب أعيننا الأخذ بما قرره كتاب الله المجيد دون أن نحمل أنفسنا عبء تطبيق النظريات العلمية على معطيات الآيات القرآنية ، ولا التوفيق بين القديم والحديث من الآراء وإن كنا سنشير إلى بعض ذلك مما يلوح صدقه ...

وغالباً ما نكتفي بالتلميح ، وقد نحيل إلى مظان ما نغفله ، ولا نبتغي وراء ذلك تقرير ابتكار حديث ولا ترجيح فرض سائد ، إذ همنا إيقاف القاريء على روعة الخلق ودقته وعلى عظمة خالقه المبدع وجلال سلطانه وهيمته واقتداره ورحمته على الوجه المتسق مع الفطرة والمفضي إلى توحيد الخالق وطرح الأنداد والشركاء ، وهذا هو الإطار العام لمظاهر الكون في السور المكية عامة .

١ (سورة الأنعام : الآية (٣٨) .

٢ (سورة النحل : الآية (٨٩) .

٣ (أضواء البيان : ١١٨/٣ .

٤ (سورة النساء : الآية (٨٧) .

٤- الخوف على القرآن الكريم أن تفهم آياته على غير وجهها الصحيح:

للمنهج الحسي في القرآن الكريم من الضوابط ما هو كفيلاً بطمأنة الناس وإزالة مخاوفهم نحوه وبخاصة أنه مازال يوجد بين علماء المسلمين اليوم من يقول بعدم سلوك هذا الطريق خوفاً على القرآن الكريم أن تفهم آياته على غير وجهها فيفسر القرآن الكريم بالرأي المنهى عنه في التفسير ، أو بالنظريات العلمية التي هي عند أهلها ما تزال محل نظر وتمحيص .

وهذا الخوف غير مشكورة ولكنها تتجاوز حقاها وحدها حين تذهب إلى حد المنع من المطابقة السليمة والصحيحة بين بعض آيات القرآن الكونية والحقائق اليقينية المتصلة بموضوع تلك الآيات مما أثبتته العلم حديثاً ولم يكن معروفاً للبشرية في عصر نزول القرآن الكريم ، إنما حق تلك الغيرة على القرآن أن يستوثق أهلها أولاً من أن القضية العلمية موضوع المطابقة هي حقيقة ثابتة عند أهلها من العلماء ، وأن ينظروا ثانياً في المطابقة نفسها إن كانت قد جاءت على وجه صحيح في اللغة ، وهل خلت من التكلف والتمحل المنهى عنهما أو لم يتوفر للمطابقة مثل هذه الضوابط^(١) .

ومعنى هذا أن الداعية هنا يأخذ نفسه بشروط مهمة ، ويلزم نفسه بقيود وضوابط تمنع أن يكون عمله ضرباً من المجازفة الخطرة ، إنه يطلب في الحقيقة العلمية شرطاً مهماً لا يجيد عنه أبداً وهو تواتر للحقيقة العلمية شبيه بالتواتر الذي بلغتنا به الآيات القرآنية ، وهكذا لا تفسر كونيات القرآن الكريم إلا باليقيني الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التي لم تزل موضع فحص وتمحيص^(٢) . وإذا كانت الحقائق العلمية هي نهاية المطاف فإنها مع ذلك لا تصل إلى الحقيقة المطلقة ، أو إلى جوهر ما يحدث ، ولكنها تصف لنا فقط نوعاً من النظام الموجود في الطبيعة ، فالحقائق العلمية ليست هي الظواهر ولكن هي أوصافها ، وبناء على ذلك نستطيع القول بأن تقدم العلوم في هذا العصر - بصفة عامة - هو في الحقيقة مجرد تقدم لأفكارنا وتصوراتنا فقط ، أما الحقيقة والغاية فالعلم أبعد ما يكون عنها ومن هنا قالوا : إن مهمة العلم المادي تقف عند حد وصف الظواهر والكشف عن النظم والقواعد أو القوانين الطبيعية ، وإن الدين هو الذي يعطي هذا الوجود تلك المعاني كلها ، ومنه تنبثق كل المبادئ والقيم .

وإذا كانت الحقائق العلمية هي الوصف الدقيق للظواهر الطبيعية وهي نهاية المطاف لدى العلماء بمعنى أنه لا يمكن تغيير هذا الوصف - وإن كان يمكن أن تتغير أهميتها وسبل استخدامها على حسب تقدم الأفكار - إن كان ذلك كذلك فإن النظرية العلمية بعكس ذلك بمعنى أن الوصف للظاهرة يكون في مجال الفروض والتخمينات ولم يعمل فيها الأمر إلى نهاية المطاف ، وأن الأفكار حولها تكون في تطور وتغير ، ويقول محمد جمال الدين الفندي : إن النظرية العلمية هي التي تصاغ في

(١) الإسلام في عصر العلم - الغمراوي ص ١٧٥ .

(٢) من إشارات العلوم في القرآن - عبدالعزيز سيد الأهل ص ٥٩ - ٦٠ طبع دار النهضة بلبنان ١٩٧٢ م .

ظل استخدام قوى العقل من أجل الربط بين عدة حقائق علمية تتصل بظاهرة معينة ، فالضوء مثلاً : من حقائقه العلمية إنه ينعكس وينكسر ويتشتت ويتناثر ، وفي ظل هذه الحقائق العلمية قال بعض العلماء أن الضوء عبارة عن موجات أثرية ، وقال بعضهم إنه جسيمات ، كما خلط البعض بين الموجات والجسيمات ، وتعددت وجهات النظر ولم يثبت الأمر على قرار نهائي^(١) .

ومن هنا نجد الفرق واضحاً بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية ، وهذا ما جعل بعض المعتدلين حين التعليق على الآيات القرآنية التي تتناول ظواهر الطبيعة ، أن يتناول توضيح هذه الآيات في ظل الحقائق العلمية لا في ظل النظريات التي هي محل فروض وتخمينات ، حيث أن آيات القرآن لا تصطدم مع حقائق الكون لأن الخالق واحد وهو الله جل جلاله ، وإنما مرجع التصادم يرجع إلى أمرين : أن نفهم من الآيات حقيقة كونية وهي ليست كذلك خطأ في الفهم ، أو تعتبر حقيقة علمية وهي ليست حقيقة علمية ولا كونية ، وللدكتور / محمد عبدالله دراز - رحمه الله - كلام نفيس في هذه النقطة يقول فيه : (قد تكون هناك مسألة أو مسائل معينة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين ، وإنما يحدث حينما نتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحي شيئاً من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات ، وتذهب في ذلك مذهباً معيناً تفرضه على المتدينين بها فرضاً ، فهذا الجاني وإن كان عرضياً في الأديان ، وكان سبيله في الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد ، إلا أنه يعد معياراً لمقدار ما في كل دين من صحة أو فساد ، على قدر اتفاقه مع مقررات العلم الصحيح وقضايا العقل السليم ، أو اختلافه معها ، وأنه إذا كان الدين حقاً والعلم حقاً ، وجب أن يتصادقا ويتناسرا ، أما إذا تكاذبا وتحاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً^(٢) .

إن الحقائق - والحقائق وحدها - هي سبيل التفسير الحق هنا ؛ لأنها كلمات الله الواقعية التي ينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات التي هي عرضة للتصحيح والتعديل - إن لم يكن للإبطال في أي وقت - فسيبيلها أن تعرض على القرآن الكريم بالقاعدة السابقة ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه ، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون حظها من الصواب والتقدير .

(١) كتاب " الله والكون " ص ٩ ، ١٠ ، وكتاب رسالة العلم والإيمان ص ١٩ ، ٢٠ ، طعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، للدكتور / محمد جمال الدين الفندي

(٢) كتاب الدين ص ٧٠ مطبعة السعادة سنة ١٩٦٩ الطبعة الأولى

(٥) عدم صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازة:

أمر آخر ينبغي أن يكون موضع العناية والرعاية لدى الدعاة إلى الله في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم وتفسيرها ، ويتمثل هذا الأمر في أنه من الواجب عليهم عدم صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازة . إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصيلة اليسيرة قد أدت إلى كثير من الخطأ في تفسير هذه الآيات - من قبل - على حين أن المطابقة بين آيات القرآن الكريم وآيات الفطرة تكون أتم وأيسر كلما أخذنا بتلك القاعدة في فهم هذه الآيات القرآنية الكونية وتفسيرها ^(١) .

ودون تلك القاعدة أمور مهمة تسبقها حيث تراعى معاني المفردات اللغوية كما كانت عليه في اللغة العربية إبان نزول الوحي بالقرآن الكريم ، والحذر مما طرأ على معاني المفردات من التطور والاستعمال ، ثم تراعى القواعد النحوية ودلالات النظم والتراكيب الظاهرة .

ويجب التنبيه هنا إلى التفرقة الحاسمة بين معاني المفردات اللغوية كما كانت عليه عند نزول القرآن الكريم وبين ما فهمه المفسرون منها على نحو من المجاز مرة حين استعصت على أفهامهم حقيقتها ، أو الاتساق مع ما أتت لهم من معارف وتيسر لهم من علوم إلى ذلك الوقت .

وبذلك لا تشكل أفهام السابقين - على جلالتهم - قيدا أو عائقا على دلالة العبارات على حقيقتها وحرفيتها التي هي أولى قطعاً من غيرها مما يجر بعض المفسرين إلى الخطأ في التفسير ، على حين أن المطابقة بين الآي القرآنية والحقائق العلمية يكون أتم وأيسر كلما أخذنا بهذه القاعدة وتمسكنا بحرفية العبارة القرآنية في فهم كونيات القرآن الكريم ^(٢) .

(٦) الجمع بين المعاني لألفاظ القرآن التي تحتل أكثر من معنى:

قد تفيد بعض ألفاظ القرآن الكريم معاني متعددة فيجمع بينها لا على التخيير ، وكذلك ينبغي أن تفهم كل عبارة قرآنية تفيد في صحيح العربية أكثر من معنى لا يمنع منه مانع ، وهذا من خصائص كلام الله الذي لو شاء لأنزل العبارة القرآنية نصاً في معنى واحد إن كان وحده هو المراد ، وتلك الخاصية في كلام الله إذا روعيت في فهمه وتفسيره جلت من إعجاز القرآن الكريم هنا وجهاً جديداً عجيباً وذهبت بكثير من الخلافات بين أهل التفسير ^(٣) .

١ (الإسلام في عصر العلم - الفمراوي ص ٢٢٢)

٢ (أنظر هداية القرآن في الآفاق والنفوس وإعجازه العلمي دعوة ضرورية ومنهج واجب - الكتاب الأول - ص ٤٣ د. محمد إبراهيم شريف ١٩٨٦)

٣ (الإسلام في عصر العلم ص ١٢٥)

ويمكن التمثيل لذلك بكلمة " تصديق " التي أتت وصفاً للقرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ (يونس ٣٧) ، فما بين يدي القرآن الكريم يفيد ما بعد القرآن ممتداً في المستقبل ، كما يفيد ما قبل القرآن الكريم ممتداً في الماضي إن لم يكن الأول أليق بالآية وأولى ، والامتداد في الماضي يذهب إلى ما لا يعلم مداه إلا الله من بدء خلق السماوات والأرض قبل بدء خلق الإنسان ، والامتداد في المستقبل لا يقف عند الغيبات المتعلقة بأمر الدنيا ، ولكن يذهب إلى ما وراء ذلك مما يتعلق بأشراط الساعة ، وأمور القيامة ، ثم الحياة الآخرة ، والذي يرشح لهذه المعاني المتعددة مجيء الخبر عن القرآن " تصديق " ، ومجيء متعلقه : ﴿ الذي بين يديه ﴾ مطلقاً غير مقيد ليشمل المستقبل كما يشمل الماضي ، فحين يراد بهذا المتعلق الماضي وحده مجيء الإخبار عن القرآن الكريم على نحو آخر كما في قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ (١) .

(٧) الحذر والحيطه والدقة في المطابقة والاستنباط:

ولعل من أهم الضوابط التي يجب على الداعية أن يأخذ بها عند تفسيره لآيات القرآن الكريم الحذر والحيطه والدقة في المطابقة والاستنباط ، وعدم التورط في تقبل نتائج سريعة لتجارب وتأملات خاصة لبعض الآيات القرآنية ، وإنما من الضروري أن يكون موقف الداعية هنا مثل موقف علماء الفطرة عاماً وشاملاً ، وحيث أن من البدهي هنا استحالة التعارض والتناقض بين القرآن الكريم في آياته ، والفطرة في حقائقها ، إذ الكل حق من عند الله والحق لا يتعارض ولا يتناقض - فمن اللازم هنا عند فهم الآيات الكونية وحقائق الفطرة أن تكون المطابقة بينها وبين جملة ما يتصل بها وموضوعها من الآي القرآنية لا بينها وبين آية واحدة قد يخفى معناها على الناظر ولا يتبين إلا في ضوء بقية الآيات الأخرى (٢) .

(٨) التثبت من الأخبار والأنباء : الخبر يعد سبباً أساسياً لاتخاذ القرار لذا يجب أن يكون على أعلى درجات الصدق والدقة واليقين ، ولا بد أن يسبق قبول الأخبار التحري والتثبت ، وهذا ما فعله سليمان عليه السلام ، حين أخبره الهدد بما عاين من أحوال أهل سبأ ، فقال له : ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ (٣) مع أن في لهجة الهدد

(١) سورة المائدة الآية : (٤٨)

(٢) الإسلام في عصر العلم ص ٢٥٨ بتصرف

(٣) سورة النمل الآية : (٢٧)

الدلالة القاطعة على الصدق والرشد ، إذ قال : ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين ﴾^(١) ، فالإحاطة : العلم بالشيء من جميع جهاته ؛ والنبأ : الخبر الخطير الشأن ؛ واليقين : درجة في الصدق رفيعة لا يخالفها شك . قال النيسابوري : في قوله : ﴿ سننظر ﴾ إشارة إلى أن خير الواحد وإن زعم أنه اليقين لا يعول عليه إلا بأمارات أخرى^(٢) .

والثبت قاعدة مثلى ، وجه إليها كتاب الله الدعاء كما في قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق نبأ فتيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾^(٣) .

(٩) التوسط والاعتدال عند تفسير الآيات تفسيراً علمياً ، وإضافة الأبعاد العلمية لها ، وإظهار الإعجاز العلمي فيها . وهذا التوسط والاعتدال يتضح عند معرفة " الضوابط " الضرورية لذلك .

ضوابط القول بالإعجاز العلمي :

لابد من الالتزام بضوابط علمية منهجية عند التفسير العلمي والقول بالإعجاز العلمي ، حتى لا تقع في غلو وإفراط ومبالغة ، وحتى لا تُحمّل الآيات ما لا تحتل ، وحتى لا تُحرّف معناها أو نشتطّ في تفسيرها ، وحتى لا تُخطيء في فهم الآيات وتقديمها للناس ، وحتى لا يتناقض القرآن مع حقائق العلم وبديهياته ، وهاك أهم تلك الضوابط والتي يستفيد منها الداعية باستخدام المنهج الحسي كما ذكرها الدكتور مصطفى مسلم في كتابه (مباحث في إعجاز القرآن)^(٤) ، وهي :

- ١- اعتقاد أن القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى ، وليس كتاب علوم وكونيات .
- ٢- ترك الإفراط والتفريط لدى النظر في الآيات الكونية ...
- ٣- الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية ، بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهاً في التأويل .
- ٤- الاكتفاء بالحقائق العلمية مناط الاستدلال ، وعدم الاستدلال بالنظريات والفرضيات العلمية .
- ٥- عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة ، بل إبقاء دلالة الآية مفتوحة تحتل كل ما يتفق مع معناها .

١ (سورة النمل الآية : (٢٢))

٢ (تفسير النيسابوري على حاشية الطبري : ١٠٨/١٩)

٣ (سورة الحجرات الآية : (٦))

٤ (مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم : ١٥٢-١٥٦ بتصرف ، دار المنارة للنشر والتوزيع - جدة - ط ١ سنة ١٩٨٨م .

٦- اليقين باستحالة التصادم بين الحقائق القرآنية ، والحقائق العلمية .

٧- أتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة ، بالنظر في الآيات الربانية في الكون والنفس والآفاق ، والوقوف على سنن الله في ذلك ^(١) .

ولعله من أوضح الأمثلة المبينة للإلتزام بتلك الضوابط ما ذكره شهيد الإسلام الأستاذ سيد

قطب عند تفسيره لقوله عز وجل : ﴿ يسألونك عن الأهلة . قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ ^(٢)

وقف يبين الحكمة في كون القرآن لم يقدم للصحابة الجواب الفلكي العلمي عن اختلاف الأهلة ، أي شكل وحجم القمر في منازل ، وقدم لهم الجواب الواقعي العملي ، وهو ما يستفيدونه هم من الأهلة واختلاف منازل القمر ، من كونها مواقيت للناس والحج .

لم يقدم لهم الجواب العلمي لأنه فوق مستوى عقولهم العلمي ، حيث كان العلم المادي في عصرهم لا يكاد يذكر .

وهناك حكمة أخرى في العدول عن الجواب العلمي في الآية : " من هنا عدل عن الإجابة العلمية التي لم تنهياً لها البشرية ، ولا تفيدها كثيراً في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها . وليس مجالها على أية حال هو القرآن . إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية . ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي ... كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفته لهذه العلوم !

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ، ووظيفته ، ومجال عمله .

مجال القرآن هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية . ووظيفته هي أن ينشئ للإنسان تصوراً عاماً للوجود الإنساني وارتباطه بالله . ومادته الأساسية هي الإنسان ذاته . وترك الإبداع العلمي المادي لعقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته .

ويقع المتحمسون في سذاجة عندما يحاولون أن يضيفوا له ما ليس منه . وكأنهم يريدون أن يعظموه في ذلك ويكبروه .

لا يجوز أن نعلق القرآن بالنظريات العلمية : " إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة . أما ما يصل إليه البحث الإنساني فهي حقائق غير نهائية ولا مطلقة ، وهي مقيدة بمحدود تجارب وظروف هذه التجارب وأدواتها ... فمن الخطأ المنهجي - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية ، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري .

١ (مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم : ١٥٢ - ١٥٦ بتصرف واختصار . دار المنارة للنشر والتوزيع ، جدة ، ط ١ سنة ١٩٨٨ م .

٢ (سورة البقرة : آية (١٨٩))

هذا بالقياس إلى " الحقائق العلمية " ... والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض العلمية ، التي تفسر أكثر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية ، وهي قابلة دائماً للتغيير والتبديل والتعديل والنقص والإضافة ، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة .

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة - تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي . كما أنها تنطوي على معانٍ ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأولى : هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع . ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ، أو الاستدلال له من العلم . على حين أن القرآن كتابٌ كامل في موضوعه ، ونهائيٌ في حقائقه . والعلم ما يزال في موضوعه يتقضى اليوم ما أثبتته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقةً واحدةً نهائيةً مطلقة .

الثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته . وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة ، تعالج بناء الإنسان بناءً يتفق مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي . حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادقه ويعرف بعض أسرارها ، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته . نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل ، لا ليتسلم منه المعلومات المادية جاهزة !

الثالثة : التأويل المستمر - مع التمحل والتكلف - لنصوص القرآن ، كي نحملها ونلهث بها ، وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر . وكل يوم يجد فيها جديد .

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات - ومن حقائق - عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن .. كلا ! لقد قال الله سبحانه : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ . ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظلّ نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله . وأن نوسّع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصوّرنا^(١) .

ونضيف إلى كلام سيد قطب ، ما قرره الشيخ محمد متولي الشعراوي ، عن هذا الموضوع : (إن بعض العلماء في إندفاعهم في التفسير وفي محاولات ربط القرآن بالتقدم العلمي .. يندفعون في محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكشوفة .. يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة . وهم في

(١) الظلال ١ : ١٨٠ - ١٨٤ باختصار .

اندفاعهم هذا يتخذون خطواتٍ متسرعة ، يحاولون إثبات القرآن بالعلم ، والقرآن ليس بحاجة إلى العلم ليثبت ، فالقرآن ليس كتاب علم ^{بشرى} ، ولكنه كتاب عبادة ومنهج .

ولكن الله علم أنه بعد عدة قرون من نزول القرآن ، سيأتي عددٌ من الناس ، ويقولون انتهى عصر الإيمان ، وبدأ عصر العلم ، ولذلك وضع في قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس ، ويثبت أن عصر العلم الذي يتحدثون عنه قد بينه القرآن في صورة حقائق الكون ، بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرناً ، ولم يكشف العقل البشري معناها إلا في السنوات الماضية .

إن الله أعلمنا في قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل . ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معاني القرآن أكثر مما تحتمل ، وأن نتعامل معه على أساس أنه كتابٌ جاء ينبئنا بعلوم الدنيا . فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة ، أو علم الفلك ، أو علم الفضاء .

لا يجوز أن نتخذ العلم دليلاً على صحة القرآن . بل إن القرآن هو الدليل الحقيقي على صحة أو عدم صحة العلم . فالعلم الذي يتناقض مع القرآن الكريم كاذبٌ وغير صحيح . إن ربط القرآن بنظريات علمية خطيرة جداً ، لأنه يجعل موقف المفسر في حرج ، عندما يثبت خطأ هذه النظرية ، لأنه لا يستطيع أن يغير أو يبدل في كلام الله ، الذي لا تغيير فيه ولا تبديل . يجب أن نتزوي ، وأن ندرس بإمعان ، ومنتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين .. (١) .

١ (معجزة القرآن للشعراوي . الجزء الأول : ٨٩-٩٠ بتصرف واختصار ، مكتبة دار التراث الإسلامي - القاهرة ط ١ سنة

الفصل الأول: موضوعات الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في القرآن الكريم

ويشتمل على تمهيد وخمسة مباحث

المبحث الأول: إثبات وحدانية الله عز وجل.

المبحث الثاني: إثبات النبوة.

المبحث الثالث: إثبات البعث.

المبحث الرابع: الدعوة إلى الطاعات.

المبحث الخامس: التحذير من المعاصي.

الفصل الأول :

موضوعات الدعوة الى الله بالمنهج الحسي في القرآن الكريم .

تمهيد :

هذا الفصل حاولت المعيشة من خلاله مع بعض الآيات القرآنية المشتملة عل المنهج الحسي الذي استخدمه القرآن الكريم ، وجعله وسيلة من وسائله المختلفة التي استخدمها لهداية الناس إلى ربهم وتعريفهم به جلت قدرته - علماً بأن هذه الآيات وغيرها قد أصّلت هذا المنهج وجعلت له جذوراً وأعماقاً في الإسلام ، كما جعلته أساساً من أساسيات مناهج الدعوة إلى الله تبارك وتعالى هذا وقد قسمته إلى مباحث عدة : -

المبحث الأول : إثبات وحدانية الله عز وجل .

توطئه : يعيش الإنسان على هذه الأرض بين مظاهر الكون ونواميس الطبيعة وقوانين الحياة جزءاً أصيلاً من الأجزاء المكونة لهذا الكون لا ينفك عنها وعضواً مؤثراً بينها بل إن الله عز وجل جعل الكون كله مسخراً لخدمته ، ولما كان ذلك كذلك كان من المناسب أن نجد في القرآن الكريم المنهج الحسي المتمثل في لفت أنظار الناس إلى المظاهر الكونية المحيطة بهم وإلى أغوار النفس وذلك للإستدلال على وحدانية الله تبارك وتعالى لأنه يُعد بحق من أعظم المناهج المستخدمة في الدعوة إلى الله عز وجل لمخاطبتها العقول والعواطف والفطر .

وللأهمية السابقة للمنهج الحسي فقد وعي ذلك سلف^(١) هذه الأمة الخالدة فقدروا أثره وطفقوا يبحثون في أسرار هذا الكون ومخلوقاته وينقبون عن حِكَمِ خَلْقِهَا وأنماط حياتها وجمعوا في ذلك بين النظر والتطبيق على ضوء ما وجه به القرآن العظيم ، وحث عليه ودعا إليه وبسط أمثلته ومقاصده ، فأرشدونا إلى دقائق وحقائق كونية تدل دلالة قاطعة على عظمة الخالق وخلقته ، وعلى قدرته على خلق الكون وما فيه من آيات عظيمة تدل على حكمته وقدرته الفائقين .

وموضوعات الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي واسعة سعة الكون ، فهي كثيرة الأبواب متعددة المجالات ، وقد أطلق القرآن الكريم الدعوة حينما وجه الناس إلى النظر في هذا الكون ما دام ذلك ممكناً ويقضي إلى نتيجة سليمة ، قال تعالى ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾^(٢) ، فقوله عز وجل " من شيء " كما يقول أبو السعود : " بيان لما خلق ، مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بمجالات المصنوعات دون دقائقها ، والمعنى : أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشيء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى " ^(٣) والإعتقاد بوجود إله خالق موجود لدى كل البشر لأن الله عز وجل يخلق بني الإنسان مجبولين على الفطرة كما يقول الرسول الكريم - ﷺ - (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(٤) ، ولذلك فإن القرآن الكريم أشار إلى ذلك حين أثار عدة تساؤلات ليتوجه بها الرسول - ﷺ - إلى المشركين بالله عز وجل ثم يبين الحق تبارك وتعالى في هذه الآيات أنهم سيعترفون بالله تبارك وتعالى ، يقول عز من قائل : ﴿ ولئن

١ - من هؤلاء السلف : - ابن القيم الجوزية في كتابه (دار السعادة وغيره)

- الألوسي في تفسيره . - أبو السعود في تفسيره وغيرهم .

٢ - سورة الأعراف : آية (١٨٥)

٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٣٢٦/٢ - دار الفكر .

٤ - الحديث سبق تخريجه

سألهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴿١﴾ ، ولهذا فمن الواجب على المسلم أن يعتقد الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى حق ثابت متصف بجميع صفات الكمال ، منزّه عن الآفات والنقائص فهو جل شأنه الواجب الوجود بنفسه ، الذي لا شك في وجوده ، الخالق لكل شيء المبدع لهذا الكون وما فيه ، يدل لذلك ما نصب من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة ، من مصنوعاته الموجودة ، وآياته المشهودة في الآفاق وفي الأنفس ، وفي ذلك يقول تعالى على لسان رسله : ﴿ أفي الله شك ﴾ ثم يعقب ذلك بذكر الدليل على نفي هذا الشك فيقول : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ (٢) ، أي مبدعهما وخالقهما من العدم ، وهو الأمر الذي لم يدع أحد من البشر أنه شارك الله في خلقهما .

ومن الواجب عليه كذلك أن يؤمن بأن الله هو الإله الحق ، المعبود وحده ﴿ يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (٣) وفي كل شيء له آية . تدل على أنه الواحد (٤) وإذا كان العلم بالحقائق ليس بملامسة العقل لها ، وإنما بعرض آثارها في الحواس مباشرة أو غير مباشرة ، فإن علمنا بالله قد قام على هذا الأساس الحق أيضاً ، المتمثل في استنتاج الإيمان من مشاهدة مخلوقاته عز وجل ، فإن لله آيات في خلقه وشواهد على علمه ، وحكمته ، وقدرته ، وعظمته ، ماثورة في كل أرجاء الكون ، من أدركها بوجدانه وتحسسها بحواسه وتلمس آثارها أدرك الحق وأيقن بوجوده جلت قدرته ، واعتقد اعتقاداً جازماً بأن خالق الكون ومسيره هو الله عز وجل لأنه استفاد من آياته الماثورة وآثاره المنشورة ، قال تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ (٥) ، وقال عز وجل من قائل : ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ (٦) ، ولأهمية الآية الكونية عند بعض الناس فقد كانت أقوى من الآية العلمية البيانية التشريعية ، ولذلك فإن قريشاً من هذا البعض ولذلك فقد طلبت الأولى وألحت في طلبها وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ (٧) ، وقال أيضاً ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آية من

(١) سورة العنكبوت : آية (٦١)

(٢) سورة إبراهيم : آية (١٠)

(٣) سورة البقرة : آية (٢١)

(٤) انظر منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان ، د. علي بن محمد ناصر الفقيهي ص ٢١ بتصرف الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م. وهذا لبيت مشهور وهو لأبي العتاهية - انظر ديوانه ص ١٢٢

(٥) سورة البقرة : آية (٢٤٢)

(٦) سورة الحاثية : آية (٣) - وانظر توحيد الخالق عبدالمجيد الزنداني ص ١٦٧ - مكتبة التراث الإسلامي - الطبعة الثالثة سنة ١٩٩١م.

(٧) سورة الإسراء : آية (٩٠)

ربه قل إنما الآيات عندنا لله وإنما أنا نذير مبين ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴿^(١)﴾ .

من كل ما سبق يتضح لنا أهمية المنهج الحسي للوصول إلى الإيمان بالله عز وجل ، ومن هنا فإنه من الواجب علينا أن نتأمل تلك الآيات التي تحث على اتباع هذا المنهج تأملاً علمياً دقيقاً واعياً حتى نصل الى ما نصبوا إليه وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ ^(٢) ، ﴿ وفي الأرض آيات للمؤمنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ^(٣) ، ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ ^(٤) ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ ^(٥) ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ ^(٦) .

فهذه الآيات الكريمة تشد أنظار الناس وعقولهم للتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وكشف أسرار الكون وقوانينه وسننه بأسلوب سهل مبسط ومنطق سليم ، وتحتها على التفكير في آيات الله ، وتنبه فطرهم إلى ما غرس فيها من شعور بالتدين ، وإحساس بعالم وراء هذا العالم المادي، وعلى هذا المنهج أيضاً مضى رسول الله - ﷺ - يغرس عقيدة التوحيد في نفوس أمته ، لافتاً للأنظار ، موجهاً للأفكار ، وموقظاً للعقول ، ومنبهاً للفطر ، ومتعهداً هذا الغراس بالتربية والتنمية ، حتى بلغ الغاية من النجاح ، واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك الى عقيدة التوحيد ^(٧) . مما يدل دلالة واضحة على قوة نجاح هذا المنهج وسرعة تأثيره في النفوس وسوقه الناس سوقاً الى الإيمان بالله خالق هذا الكون ومدبره ، ومن هنا فلا تعجب إذا رأينا نحو ثلث آيات الكتاب العزيز تدعو الناس الى التبصر في الكون والتأمل فيه حتى يعرفوا الله من خلال مخلوقاته قال تعالى : ﴿ هذا خلق

(١) سورة العنكبوت : آية (٥٠ - ٥١)

(٢) سورة يونس : آية (١٠١)

(٣) سورة الذاريات : آية (٢٠ - ٢١)

(٤) سورة الروم : آية (٨)

(٥) سورة الغاشية : آية (١٧ - ٢٠)

(٦) سورة ق : آية (٦ - ٨)

(٧) انظر آيات من الاعجاز العلمي في القرآن الكريم - أ-د. جمال الدين حسين الهوان ص ١٣ - ١٤ مكتبة نجو المصرية سنة

١٩٩٢م. وتوحيد الخالق - الزنداني ص ١٥٠

الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴿١﴾ ، لكنه من الواجب علينا عند دراستنا لآيات المنهج الحسي في القرآن الكريم أن تقدم أول ما تقدم في البحث والفهم والدراسة الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته ثم نوقن تماماً أن هذه الآيات لا تفسر على الوجه الأكمل إلا إذا اطلعنا على ما في الكون من أسرار الخلق ، والنظام والإحكام والإتقان ، فعلماء الدين هم أولى الناس بالإطلاع على أسرار العلم ، ولا يَصْدُقُ عليهم حقيقة المعنى الوارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) ، إلا إذا كانوا عارفين من العلوم الكونية ما يتييسر لهم معرفته من أسرار الوجود والخلق ، التي دلنا عليها القرآن ، وذكر لنا بعضها ، لأن هذه الآية لم ترد في سياق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق ، بل وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في إنزال المطر ، وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله تعالت قدرته : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

واعلم أن آيات القرآن الكريم تكاد تكون مقسمة بين : دعوة الى الله ، وإرشاد الى دلائل وجوده ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وعنايته ورحمته وجميع صفات كماله ، ووعيد ووعد للترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين وأحكام في العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية في الحياة وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص تَمَّتْ بسبب الى هذه الموضوعات ، ولكن أهم هذه الموضوعات ، وأعظمها عند الله ، هو الإيمان بالله وحده لأن الإيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه ، ولذلك ترى وأنت تتصفح القرآن ، إن الآيات الدالة على الله لا تكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحياناً ، في السورة الواحدة ، وهذه أغلب آيات القرآن التي أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارئ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم وأنه هو الذي يستحق العبادة وحده ، وأكثر فيها سبحانه من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والانتزان في خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والجبال ، والأنهار ، والبحار ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار والأفتدة وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس (٤) .

(١) سورة لقمان : آية (١١)

(٢) سورة فاطر : آية (٢٨)

(٣) سورة فاطر : آية (٢٨)

(٤) انظر قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن - الشيخ تديم الجسر ص ٢٤٢ - ٢٤٤ بتصرف . طرابلس - لبنان

✽ أركان الوجدانية :

والوجدانية التي قررها القرآن الكريم لها أركان ثلاثة هي :

- ١- وحدانية التكوين والإنشاء .
- ٢- ووجدانية الذات والصفات .
- ٣- ووجدانية العبادة والألوهية .

(١) فقد أثبت القرآن أن الله تعالى خالق كل شيء وأنه وحده المنشئ ، وجاءت بذلك الآيات الكثيرة الدالة على أن الله تعالى خالق كل شيء وأنه وحده بديع السموات والأرض وهذه هي " وحدانية التكوين والإنشاء " .

(٢) وأثبتت النصوص أيضاً من القرآن الكريم ، أن الله تعالى منفرد بذاته وصفاته ، وأنه تعالى لا يماثله أحد في خلقه ، وليس شيء من خلقه يشبهه كما قال تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾^(١) ، وهذه هي " وحدانية الذات والصفات " .

(٣) كما جاءت آيات القرآن صريحة في أنه تعالى لا يعبد إلا هو ، فقال عز وجل ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾^(٢) ، وقال أيضاً ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٣) ، وهذه هي " وحدانية العبادة والألوهية " ، وهذه الأخيرة ثمرة لوحدانية الذات العلية .

✽ مفهوم الوجدانية :

ومفهوم الوجدانية الذي نتحدث عنه هو وحدانية العبادة والألوهية ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٤) : التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، لا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي إلا له ، ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله ، وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات ، قال تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين إنما هو

(١) سورة الشورى : آية (١١)

(٢) سورة النساء : آية (٣٦)

(٣) سورة الأنبياء : آية (٧)

(٤) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ ص ١٥ - المكتبة السنافية . طبعة السادسة سنة ١٩٧٧م .

(٥) سورة البقرة : آية (١٦٣)

إله واحد فيأي فارهبون ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ ﴿٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أن يجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ﴿٣﴾ .

ولقد أحرنا الله عز وجل في القرآن الكريم أنه ما من نبي من الأنبياء إلا ودعى قومه بعبادة الله وحده لا شريك له ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ﴿٤﴾ ، وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله ومما يدل على ذلك قوله تعال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ﴿٥﴾ ، فهذه الآية الكريمة تتضمن إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال ، وبذلك تكون متضمنة لأجل شهادة وأعد لها وأصدقها ، من أجل شاهد بأجل مشهود به ﴿٦﴾ .

الله جل شأنه كما هو صريح القرآن وصريح قول الرسول صلى الله عليه وسلم واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أسمائه .

وواحد في أقواله وواحد في أفعاله ، وواحد في أمره ونهييه .

وواحد في إرادته ومشئته ، وواحد في خلقه وتدبير أمر عباده فلا شريك له تعالى ولا وزير ولا ند ولا ضد ولا مشير ولا معين .

١ (سورة النحل : آية (٥١))

٢ (سورة المؤمنون : آية (١١٧))

٣ (سورة الزخرف : آية (٤٥))

٤ (سورة الأنبياء : آية (٧))

٥ (سورة آل عمران : آية (١٨))

* وعبارات السلف في " شهد " تدور على الحكم ، والقضاء ، والإعلام ، والبيان ، والإخبار ، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها :

فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب هي :

١ - علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

٢ - تكلمه بذلك ، وإن لم يعلم به غيره ، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها .

٣ - أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له .

٤ - أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع : علمه بذلك سبحانه ،

وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره لخلق به ، وأمرهم وإلزامهم به .

٦ (انظر شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية لأبي العز الحنفي ص ٣٦ . تحقيق أحمد محمد شاكر - كلية الشريعة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية طبع عام ١٣٩٦هـ - المطابع الأهلية للأوفست الرياض)

وقد أثبت الله لذاته المقدسة الوحدانية : في القرآن الكريم في مائة وخمسة عشر موضعاً (١١٥) ، هذا الذي يسر الله الوقوف عليه وإحصاءه ، وقد يوجد في القرآن أكثر من هذا العدد . وقد اتفقت الديانات الإلهية والكذب السماوية على وحدانية الله تعالى ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، إله تفرد بالعظمة والكبرياء والدوام والبقاء ، الأمر أمره والخلق خلقه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ومصالحة الدين والدنيا والآخرة والعباد والبلاد ، في توحد الله وانفراده بالعبودية . وأيضاً الحكمة الإلهية تقتضي ذلك ، والعقل الصحيح يتفق مع النقل الصريح ، والفضيلة السليمة تحبذ ذلك وتراه لازماً لا بد منه ، لأنه لو كان لله ند وشريك وتعددت الآلهة ، لحصل الإختلاف والتصادم ، وحينئذ يفسد نظام هذا الكون ويختل توازنه ، وتعالى الله وتقديسه عن ذلك علواً كبيراً^(١) .

وإذا كان ذلك كذلك كان لزاماً علينا أن نذكر بعض دلائل الوحدانية من القرآن الكريم، من خلال المنهج الحسي وذلك بذكر طائفة من آيات القرآن الكريم في الكون ، والكائنات الدالة على صفات الله عز وجل ووحدانيته .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾^(٢) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيت لقوم يعلمون ﴾^(٣) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾^(٤) .

(١) انظر عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمرتدين - صالح بن إبراهيم البليهي - ص ٢٤١ الجزء الأول - الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤ هـ - المطابع الأهلية للأوفست - الرياض .

(٢) سورة النحل : آية (١٠ - ١١)

(٣) سور يونس : آية (٥ - ٦)

(٤) سورة القصص : آية (٧٠ - ٧٣)

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تثبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ (٢) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ آمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إليه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٣) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إليه مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ (٤) .

ويقول الله تعالى : ﴿ آمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته إليه مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ (٥) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ آمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إليه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٦) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (٧) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٨) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (٩) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ (١٠) .

-
- ١ (سورة النحل : آية (٧٨))
 - ٢ (سورة النمل : آية (٦٠))
 - ٣ (سورة النمل : آية (٦١))
 - ٤ (سورة النمل : آية (٦٢))
 - ٥ (سورة النمل : آية (٦٣))
 - ٦ (سورة النمل : آية (٦٤))
 - ٧ (سورة الروم : آية (٢٠))
 - ٨ (سورة الروم : آية (٢١))
 - ٩ (سورة الروم : آية (٢٢))
 - ١٠ (سورة الروم : آية (٢٣))

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ (١) .

والآيات الماثورة في السموات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء ولا حال دون حال فحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب ووجد دلائل الوجدانية واضحة أمامه ، وستناول إن شاء الله في المطلب القادم عناية الله تعالى في هذه الكائنات بالتفصيل من خلال الآيات الكونية والإنسانية مستشهدين بأحدث ما وصل إليه العلم وما تكشف بواسطته من حقائق ، وما سيكتشف في قابل الزمان نتركه لأجياله ، وهو حق ثابت كما أنبأ الخالق سبحانه وتعالى بقوله الحكيم : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (٢) .

فلا بد أن نقدر أن أسرار الله في الكون كثيرة وهي غيب ، وغيب الله لا ينتهي ومهما تعاقبت القرون فسيكتشف أهلها كل يوم سرّاً خافياً ، (وهذا هو سر الحرف "س" في القرآن الكريم في الآية المذكورة ﴾ سنريهم ﴿ .

نحن نقرأها الآن سنريهم وقرأها رسول الله ﷺ في القرن الأول سنريهم وسيقرؤها الناس من بعدنا سنريهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إذا فاستقبال واستقبال بالسين يدل على أن أسرار الكون لا تنتهي أبداً والسين هذه تدل على أن الوجود لم يقف أبداً عند مرحلة واحدة وإنما وجود متطور رغم اكتشاف أسرار الله في كون الله ولذلك ستقرأ سنريهم حتى تقوم الساعة ويظل الأمر دائماً استقبال لأسرار كون الله بواسطة العقول التي خلقها الله (٣) .

وتتبع الآن هذه الأسرار الالهية في مخلوقاته المحسه عن طريق النظر الواعي بعيداً عن الهوى وصولاً إلى القوة المهيمنة والإرادة المدبرة في خلق الرحمن وما في خلق الرحمن من تفاوت أبداً .

(١) سورة ق : آية (٦ - ١١)

(٢) سورة فصلت : آية (٥٣)

(٣) معجزة القرآن للشيخ محمد متول الشعراوي - ج ١ ، ص ٨٩

المطلب الأول: الدعوة إلى إثبات الوجودانية من خلال الآيات الحسية في القرآن الكريم .

كل شئ في هذا الكون آية ناطقة بأن الله ربها وخالقها من الأدلة التي ذكرها القرآن الكريم للإستدلال على وجود الله ووجدانيته وتفرد بالملك والتدبير الآيات المبثوثة في الكون والنفس الإنسانية تلك الآيات المخلوقة بعناية فائقة وحكمة عظيمة تنطق كل آية منها بوجود الله ووجدانيته وتفرد بالملك والتدبير .

فعندما نتصفح آيات القرآن الكريم ونقرأها نراها تأخذنا في جولات في آفاق السماء حيث إرتفاعها الشاهق بدون أعمدة وتعددها ثم ما زينها الله به من نجوم وكواكب وغير ذلك كثير وكثير مما لا يحصى عدده كما أن من الآيات القرآنية أيضاً ما يسوقنا إلى جولات في جنبات الأرض أمرة إيانا بالنظر إلى إنبساطها وكيف تم لها ذلك ، وإلى الجبال المنصوبة على الأرض كيف نصبت وإلى الهضاب والمرتفات والبحار وغير ذلك كثير وكثير .

وعندما نتصفح القرآن الكريم كذلك نجده يعرض لنا أسرار الخلق والتكوين بالنسبة للإنسان والمخلوقات الحية في هذا الكون الفسيح كل ذلك بأسلوب مشوق يستهوي النفس ويستثير المشاعر والأحاسيس لما فيه من جمال وصف وحسن تعبير ووفرة علم ، وحسن توجيه ودقة استنتاج وغير ذلك مما يجعل النفس الإنسانية تنجذب إليه إنجذاباً وكيف لا يكون كذلك وهو تنزيل من حكيم حميد .

ونحن في هذا المجال سنقتصر على استعراض بعض من تلك الآيات الدالة على وجدانيته جللت قدرته تفتياً ظلها ونستروح عبرها ونستلهم توجيهاتها ونستوحي من خلالها ما يحرك النفس البشرية ويردها إلى خالقها ومدبر أمرها وها هي تلك الآيات المختارة .

النص الأول : قال تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

ففي هذا النص الكريم يقرر الحق جل جلاله حقائق أساسية تقوم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف وهي حقيقة الإلوهية وتفرد سبحانه بالوحدانية واتصافه تعالى بالرحمة المطلقة الشاملة - ثم يسوق الحق جل جلاله الدليل على ذلك بما ذكره من آيات الإبداع في الخلق والعناية بالملكوت كله فذكر ثماني آيات من نعم الله على خلقه تشهد بوحدانيته ورحمته عز وجل وكلمات كانت الدلائل من جنس النعم كانت أنجح في القلوب وأشد تأثيراً في الخواطر وهذه ميزة اختصاص بها القرآن فكل ما يذكره الله من دلائل لإثبات ذاته وصفاته هي في الوقت نفسه نعم يلمس الخلق آثارها ، وترتبط بها مصالحهم ومعاشهم .

وقد جاء في شأن هذه الآية التي معنا - فيما أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة - أن النبي - ﷺ - لما قرأها قال (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) (٢) .

فهذه دعوة صريحة من الرسول الكريم ﷺ إلى أمته بالتوجه بقلوبها وأنظارها إلى الآيات الكونية لإدراك معانيها وتدبر تنسيقها العجيب المحكم ونظامها الدقيق المتقن ليصل في النهاية إلى أن وراء كل ذلك خالق مدبر حكيم .

ومن يقرأ هذه الآية بعمق كما يقول سيد قطب يجد فيها ما ينبه الحس ويوقظ المشاعر ويفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون ، العجائب التي تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وإجاءاتها للقلب والحس ، وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين ، متوفز الحس ، حي القلب ، وكم في هذه المشاهد المكرورة من عجيب وكم فيها من غريب ، وكم اختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مرة ، ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة ، ودهشة المباغته ، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب (٣) .

فهذه السموات : وما فيها من إبداع الصنعة ودقة النظام ، وما فيها من شمس وقمر ونجوم وبروج هذه القبة المزينة ﴿ إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ (٤) ، هذا السقف

(١) سورة البقرة : آية (١٦٤)

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه في تفسيرهم ، وابن أبي الدنيا في " التفكير " وابن حبان في صحيحه والإصفيهاني في الترغيب وابن عساكر عن عائشة (الدر المنثور ٢/٤٠٩)

(٣) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٤٦ ط دار العلم للطباعة والنشر - مجده - الطبعة الثانية عشر سنة ١٩٨٦م .

(٤) سورة الصافات : آية (٦)

المرفوع بغير عمد تراها ، ولا يوجد فيه شقوق أو فساد . بل هي دائماً في أحسن خلقه وأكمل زينة ،
أليس كل شيء فيها يدل على العناية ودقة النظام وتحرك رؤيتها منافذ الحس في الإنسان - سواء
أكانت السموات جرمًا مستقلاً - أم كانت هي الكواكب ، أم كانت غير ذلك - فإن معرفه
حقيقتها أو عدم معرفة ذلك لا يؤثر في الأمر بشئ ، بل إن رؤيتها كما هي ، وتلمس آيات الإبداع
والدقة كما يحسها كل ناظر إليها كاف في الاستدلال على جمال الصنعة وأن وراء هذا الجمال
والجلال القدرة الإلهية التي خلقت فأحسنت .

وهذه الأرض : التي امتن الله بها علينا فجعلها فراشاً وجعلها قراراً وجعل خلالها أنهاراً ،
وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب وأودع فيها من الكنوز ما ينتفع به الناس من معادن وخيرات ،
هذه الأرض سواء أكانت سبعاً متراكبات أو متجاورات أو أرضاً واحدة ذات طبقات من القشر
مختلفات أياً كانت هي ، فإن العين تلمس آيات الإبداع فيها وأن كل شيء عليها فهو بقدر وحكمة
فهذه الجبال تمسكها إن تريد وهذه البحار وهذه الصحاري ، وتلك الوديان كل ذلك يدل على
القدرة الإلهية التي خلقت فأبدعت وقدرت فأحكمت كما قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾^(١) . وهذا
﴿ اختلاف الليل والنهار ﴾ أي مجئ أحدهما خلفاً للآخر وعبقاً له بحسب طلوع
الشمس وغروبها ، أو اختلافها بالتعاون بينهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده
باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قريباً وبعداً بحسب الأزمنة أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب
الأمكنة إما في الطول والقصر - فإن البلاد القريبة من قطب الشمال أيامها الصيفية أطول ، ولياليها
الصيفية أقصر من أيام البعيدة منه ولياليها ، وإما في أنفسها - فإن كرية الأرض تقتضي أن يكون
بعض الأوقات في بعض الأماكن وفي مقابله نهاراً وفي بعضها ظهراً أو عصراً أو غير ذلك مما لا شبهه
فيه عند كثير من الناس^(٢) .

و اختلاف الليل والنهار عموماً سواء كان في جنسها بالسواد والبياض أم في أنفسها بالطول
والقصر أو في المكان واختلاف الأوقات عليه في كل لحظة ، إن هذا كله مما تشهد العين ، وشعر
الإنسان بآثاره ، فإن تتابعهما يهيئ للناس فرصة العمل والراحة والرطوبة والحرارة ، كما أن منظر
تعاقب النور والظلمة وتوالي الإشراق والعتمة ، ذلك الفجر وذلك الغروب ، إن ذلك جدير بأن تهتز
له القلوب وتوقن بأن وراء هذا النظام الذي لا يتخلف قدرة الله تعالى .

وهذه الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس : هذه السفن التي تشق عباب الماء وكأنها
نقط صغيرة في خضم المحيطات والبحار ، وسط الموج المتلاطم ، يمتن الله بهما على عباده حينما

(١) سورة البقرة : آية (١٧٧)

(٢) انظر المجلد الثاني - الجزء الرابع ص ١٥٦ من تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - للعلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥ م.

تسير في الماء حاملة الأشخاص والتجارة والزراعة من مكان لآخر فيتبادل الناس المصالح والمنافع ويحصل بينهم التقارب والتألف أليس في تسخيرها وفي الذي يحملها رغم أن طبيعته السيولة وفي تلك القوى التي تسير السفن الكبرى من بخار وكهرباء ، أليس في كل ذلك من الآيات والدلائل ما يدل على أن المتصرف في كل هذه الأمور هو الله الخالق القادر اللطيف الخبير ؟ بل وهو اللطيف الخبير .

وهذا الماء الذي ينزل من السماء : مطراً جعله الله غيثاً وبعثاً للحياة على الأرض أمر

عجيب إذ كيف يتكون ؟ إن الشمس ترسل إشعاعها الحراري على الماء في البحار والأنهار والمحيطات وغير ذلك قد تسبب عنه تسخين الماء فيتصاعد منه البخار إلى طبقات الجو مكوناً السحب ثم تأتي الرياح لتسوق تلك السحب حتى تصبح كتلاً ، ويسوقها الله حيث يشاء ثم يهطل الماء فتكون به حياة الأرض بالنبات وحياة كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان وطيور ووحش حتى الهوام والحشرات وسائر الكائنات وتجري به الأنهار ، وتنوع به الحياة وتختلف أجناسها ، أليس في كل هذا ما يدل على أن فاعل ذلك الله الواحد القادر الحكيم الرحيم ؟ وصدق الله العظيم القائل ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾^(١) .

وهذه الرياح في تصاريف الله لها : وتقليبها في مهاهبها إقبالاً وإدباراً وجنوباً وشمالاً ، وفي

أحوالها حارة وباردة وعاصفة ولينة وعمماً ولواقع ، وتقبل تارة بالرحمة وتارة بالعذاب^(٢) ، وتحمل السحاب فتارة تسوقه ، وأونة تجمعه ووقتاً تفرقه وحيناً تصرفه ، وقد جاءت في القرآن باطلاقات مختلفة فمنها الريح الطيبة التي تهب بلطف لا حارة ولا باردة كالنسيم ، ومنها الريح العاصف وهي التي تهب شديدة البرودة ، كما قال تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجائهم الموج من كل مكان ﴾^(٣) .

ومنها الريح الصرصر العاتية التي يكون بها الهلاك فتقطع الشجر وتهدم البيوت كما قال

تعالى : ﴿ وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾^(٤) ومنها المعصرات التي تأتي بالأمطار ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾^(٥) ومنها اللواقح ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾^(٦) ومنها

١ (سورة الأنبياء : آية (٣٠))

٢ (نظر تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام الزمخشري ج ١ ص ١٠٤ تحقيق محمد مرسي عامر - دار المصنف مصر - الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م .

٣ (سورة يونس : آية (٢٢))

٤ (سورة الحاقة : آية (٦))

٥ (سورة النبأ : آية (١٤))

٦ (سورة الخمر : آية (٢٢))

العقيم لا تحمل مطراً ﴿فأرسلنا عليهم الريح العقيم﴾^(١) ومنها الحرور والسموم ومنها المبشرات التي تأتي بالسحاب والغيث ... إلى غير ذلك .

أليس في هذه التصاريف للرياح وأثرها على السحاب والمسخر بين السماء والأرض ، من الدلائل والآيات ما يبهر العقل ويملأ القلب بالإيمان ، وأليس في كل ما ذكره الله من مخلوقاته العجيبه بما فيها من عناية ورعاية ، واختراع وخلق للحياة وعجائب باهرات ، ما يدل على أن لهذا الكون إلهاً واحداً قادراً حكيماً مستحقاً للعبادة والخضوع والطاعة، نعم لو ألقى الإنسان عن عقله وحسه بلادة الألفة والغفلة واستقبل مشاهد الكون بحس متجدد ، ونظرة متطلعة ، لوجد ذلك الجمال والتناسق وأدرك هذا الجمال في الخلق ووجد الحياة في مهرجان عجيب من صنع الله آناء الليل وأطراف النهار^(٢) .

وجاءت آية الخلق والإبداع بعد آية الوجدانية فوقعت منها موقع الحجة من الدعوى ، فالآية الأولى أثبتت الوجدانية وهذه الآية أتجهت الى تنبيه الحواس والمدارك إلى ما في هذا الكون من أدلة متعددة تشهد بوجدانية الله وقدرته .

وقد أحسن الشيخ طنطاوي جوهرى حينما استدل على وحدة الخالق جل جلاله بالوحدة في الخلق بين جميع الكائنات من خلال هذه الآية قال : (ذكرت هذه الآية أجل العلوم واشرف الحكمة ، وقد أبانت الآية نظام العالم العلوي والسفلي وارتباطهما وتعاشقهما ، وتبرز الوحدة في الخلق بين جميع الكائنات من خلال هذه الآية فترى : أن اختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية ، يدعو إلى اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة ، وهبوب الرياح فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لقاموس الأفلاك وسير الشمس في البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان من ذلك الماء ، وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ولكل قوانين في سيره ، ومن ذلك نرى أن الأمر يرجع كله إلى أصل واحد نجم عنه فرعان ، كلاهما له فروع : أما الأصل فهو اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية وأما الفرعان فهما : القوانين المدوعة في الأجرام العلوية ، والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية، ومن الأول نشأ فرعان : سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية ، لأجل التجارة وتبادل المنافع بين الشرق والغرب ، ومن الثاني نشأ فرعان : إثارة الهواء والماء ، فحرك الهواء والسحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلاً في الجو فهبط ماء على اليابسة ، وكان الحيوان والنبات ، وسر الحياة على الأرض ، فترى هذا العالم على هذا النسق كرة واحدة وشكلاً واحداً يحتاج أدناه إلى أعلاه ، والأعلى مفيد للأسفل ، والأسفل مستمد من الأعلى ، مستفيد منه كما ظهر في هذا التصور ، وبذلك نستطيع أن

(١) سورة الذاريات : آية (٤١)

(٢) انظر في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب المجلد الأول ص ١٥٣

تبيين الحكمة في ذكر آية الخلق والإبداع بعد آية الوجدانية كأنه سبحانه وتعالى يقول ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ ولن تستشعروا هذه الوحدة إلا إذا قرأتم العلوم وعشتم بها لتفهموا الكون ودلالته^(١) .
 وقريب من هذا النص الكريم الذي ربطنا ألسنتنا بذكره من سورة البقرة قول الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ والله ملك السموات والأرض والله على كل شئ قدير * إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار ﴾^(٢) .

وبالمقارنة بين النصين نجد أن آيات الخلق والإبداع في النص الأول جئى بهذا لتقرير حقيقة الألوهية وتفرد سبحانه بالوجدانية والرحمة ، وجئى بهذا النص هنا لتقرير حقيقة الملك والقدرة المطلقتين ، وهما من لوازم الوجدانية المفردة وأخذاً بمنهج القرآن في غرس العقيدة ، فإنه يحرك المشاعر ويدفع بالعقول إلى مشاهدة دلائلها في كتاب الكون المفتوح والنظر في صفحاته المملوءة بالإبداع والكمال ، فإن طبيعة الكون تحمل في ذاتها دلائل الإيمان وتوحي بأن وراء ذلك قدرة الله تعالى المدبرة الحكيمة .

ولعل السمة البارزة في هذا النص عن سابقه هي الإيجاز في عرض المشاهد الكونية ، فالنص الأول ، ثمانية مشاهد كونية أما النص الذي معنا فيشتمل على مشهدين فقط يلفت الله أنظارنا إليهما ، هما خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ويبين الألوسي رحمه الله الحكمة في ذلك فيقول : (وإنما اقتصر سبحانه هنا على هذه الثلاثة بعدما زاده في البقرة ، لأن الآيات على كثرتها منحصرة في السماوية والأرضية والمركبة منهما .

فأشار إلى الأولين بخلق السموات والأرض ، وإلى الثالثة باختلاف الليل والنهار ، ثم قال وأحسن ما قيل في ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية : بأن الأولى أن يقال هنا أن المقصود في هذه الآيات في سورة آل عمران هو بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدرة ، والثلاثة المذكورة معظم الشواهد الدالة على ذلك فاكتفى بها ، وأما هناك في البقرة ، فقد قصد في ضمن بيان اختصاصه تعالى بالإلوهية بيان اتصافه تعالى بالرحمة الواسعة ، فنظمت دلائل الفضل والرحمة في سلك دلائل التوحيد^(٣) . ولقد ذكر الإمام ابن حجر الهيثمي - رحمه الله - نكتة أخرى حول ختم آية البقرة بـ " يعقلون " وكثرة ما ورد فيها من آيات سماوية وأرضية عن آية آل عمران والتي ختمها بـ " أولى الألباب " فقال : " ولعل الحكمة في ذلك أن الآية الأولى ناسبت مقام السالكين فهم

(١) تفسير الجواهر في تفسير القرآن الكريم - المجلد الأول ص ١٣٧ - طنطاوي جوهرى - طبعة سنة ١٣٥٠ هـ - مصر .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٨٩-١٩١)

(٣) انظر تفسير الألوسي ، المجلد الثاني ، الجزء الرابع ص ١٥٦

يحتاجون إلى النظر ومداومته والتأمل حتى تحصل لهم ملكة المراقبة ثم الشهود فيرتقوا إلى مقام الإختيار ، وأما آية آل عمران فإنها تناسب مقام العارفين الذين ارتقوا عند شهود الأسباب ، والوسائط إلى شهود موجدتها وباريها ، ولذلك اختصرت لهم الأدلة ، ولوحظت الدلائل إجمالاً لا تفصيلاً ، لا شتغالهم بما هو أهم وأكمل ، ولكل مقام مقال (١) .

وما قاله الشيخ الألوسي وشيخ الإسلام ابن تيمية ، أقرب إلى النص مما قاله الإمام ابن حجر وإن لم يكن هناك مانع من الأخذ به حيث إن مفهوم كلامه لا يصطدم مع النص في شيء مما جاء لإثباته وتقريره ، هذا وقد جعل الله سبحانه النظر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار مولداً للخشية ، وموصلاً للحقيقة عند أولى الأبواب وأصحاب الإدراك الصحيح وهم الذين شفت مداركهم وتفتحت أبصارهم ، واستيقظت حواسهم من همود الإلف والتكرار ، فرأوا أنه لا بد أن يكون وراء ما في هذا الكون من تناسق لا بد من قدرة تنسق وتبدع ، ووراء ما فيه من نظام لا بد من عقل يدبر ، ووراء ما فيه من أحكام لا بد من ناموس لا يتخلف ، وأمام ذلك كله يتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وعوداً وعلى جنوبهم ، ولذلك فإن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها إلا للقلوب الذاكرة العابدة ، وإن هؤلاء الذين يذكرون الله قياماً وعوداً وعلى جنوبهم وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار هم الذين تفتحت أبصارهم لحقائق الكون وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهي، الموصل إلى النجاة والخير بعكس الذين يصلون إلى بعض أسرار هذا الكون بدون هذا الإتصال فإنهم يدمرون أنفسهم ويدمرون الحياة ... (٢)

ولعل في تقديم وصف الذكر على التفكير في الآية ما يشير إلى أن التفكير إن لم تصحبه الخشية ويكون القصد منه الوصول إلى الحق من أجل أن يلتزمه فإنه يكون وبالاً وهلاكاً ، وما نجده في منجزات العلم الحديث فيما كشفه من أسرار الذرة والفضاء وغير ذلك واستخدامها في الدمار والهلاك مما يؤكد ذلك .

وهكذا جعل الله سبحانه في النظر إلى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار أدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته وحجة بالغة على وحدانيته في ألوهيته ، فإن من نظر بعين الدقة إلى تغير الكائنات المستلزم لحدوثها ، وما فيها من غاية الأحكام والإتقان علم أن وراء ذلك إلهاً له كمال العلم والقدرة ، ولذلك قال أولوا الأبواب حينما تأملوا هذه المصنوعات ورأوا أن في كل منها حكماً ومقاصد وفوائد لا تحيط بتفاصيلها الأفكار قالوا : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ﴾ أي تنزهت سبحانه عن أن يكون شيء في خلقك عبثاً أو باطلاً لا فائدة منه ،

١ (الفتاوي الحديثة لابن حجر الهيتمي ص ٦٤)

٢ (انظر في ظلال القرآن - المجلد الأول - ص ٥٣٩ - بتصرف .

وكما أيقنوا من قدرة الله في الخلق أيقنوا من قدرته على الإعادة والبعث فقالوا ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ فطلبوا النجاة يوم العرض والحساب رغم عبادتهم وذكرهم وتفكرهم ، لأن جلال المنعم وكثرة النعم فوق عبادة الخلق وشكرهم .

وشبهه بالنصين السابقين قوله تعالى في سورة الجاثية : ﴿ إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين ﴾ وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق * فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿^(١) .

فإن عز وجل في هذا النص الكريم يواجه المشركين من أهل مكة ومن على شاكلتهم معالجاً به قلوبهم الجامدة الشاردة بالآيات البيّنات والدلائل العميقة التأثير والدلالة ، ثم هو سبحانه يعرض هذه الدلائل الواقعة تحت حسهم بأسلوب سهل يمس شغاف قلوبهم ، فينبئ بذلك عن عناية الله بخلقه ثم يبرز سبحانه تلك النعم الواصلة إليهم منه عز وجل في بيان آخر فيها هو جلّت قدرته يذكر بعضاً من مشاهد السموات والأرض وما تطوي عليه من آثار القدرة والإختراع ، فساق من ذلك ما بثه في الكون من دواب أفاض الله عليها نعمة الحياة ، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بدون خلل ، وما يتوقف على هذا الاتزان من استمرار الحياة ، والماء الهائل من السماء الذي هو مادة حياتهم وحياة أنعامهم والرياح التي يصرفها الله كيف يشاء ، فتسوق السحاب وتسير السفن ، إن في ذلك وغيره من شواهد الإبداع والعناية والإختراع لدلالة واضحة على أن وراءها قدرة مقتدرة وإله واحد لا يوجد كلام يبلغ كلامه ولا إبداع يبلغ إبداعه في الكون ، وهذه هي قدرة الله وهذا إله هو المعبود بحق الذي جلّت قدرته وعظمت حكمته .

ومن نظائر النصوص السابقة قوله تعالى في سورة (المؤمنون) ﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون * وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴿^(٢) .

فهذا النص الكريم يشير أيضاً إلى تلك النعم والدلائل ، التي تدل على عناية الله بخلقه وخصوصاً الإنسان ، فلو تدبر الإنسان خلقه وهيبته التي خلق عليها ، وحواسه وجوارحه التي أنعم الله بها عليه ، وطاقاته ومداركه التي وهب الله إياها لا هتدى إلى الله لنطقها ، بوحدانية الخالق جلّ وعلا كما يشير النص أيضاً إلى قدرة الله التامة على الإحياء والإماتة وتفرد به بذلك ، فالبشر مهما بلغوا من العلم والرقي وادعوا التمكّن في الأرض ، عاجزون عن بث الحياة في خلية واحدة وهم أعجز من سلب الحياة حقيقة عن حي من الأحياء - وإذا كان الموت والحياة سنة كونية في النفوس

(١) سورة الجاثية : آية (٣-٦)

(٢) سورة المؤمنون : آية (٧٨-٨٠)

والأحياء ، لا يملك أمرهما إلا الله وحده ، فكذلك الليل والنهار في اختلافهما ، وإحلال أحدهما مكان الآخر في تعاقب واستمرار دائمين ، وهذا أيضاً من سنة كونية في الكون في الكون والأفلاك ، لا يملك أمرهما إلا الله وحده ، وكما يسلب الله الحياة من الحي فيعتم جسده ويهمد ، فهو كذلك يسلب الضوء عن الأرض فتعتم وتسكن ثم تكون حياة ويكون ضياء بلا فتور ولا انقطاع إلى أن يشاء الله .

ومن نظائر ما سبق من نصوص أيضاً ما ورد في سورة يونس عليه السلام وهو قوله تعالى :

﴿ **إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ (١)

وهكذا رأينا في النصوص السابقة ” كيف كانت هذه النصوص دلائل لإثبات الوحدانية ، ورأينا الطريق الذي سلكه القرآن في الإستدلال على ذلك ، رأيناه يعرض ذلك في بساطة ويسر ووضوح ورأيناه وهو يأخذ بأيدي المخاطبين إلى ما يقع تحت حسهم ، من مشاهد الكون المبتوثة والتي ينتفعون بها في حياتهم ويلمسون آثارها ، ولا يشكون لحظة واحدة في تفرد الله بتيسير أمرها وتدبر شؤونها ، وإمساك بزمامها في إتقان وإبداع واقتدار .

(١) سورة يونس : آية (٦)

النص الثاني : قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رِوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَدْرِكُونَ ﴾ (١)

ونجد في هذا النص الكريم ذات الآيات الخمس أن عبارة " أَلَيْسَ اللَّهُ " تكرر في كل آية فهل هذا يُعد إطناباً مجرداً ، أم هو لحكمة وهدف ، ويقع في كل آية موقعاً هو في غاية المناسبة للمقام لنرى ذلك :

إن هذا النص من الآيات المكية ، وقد كان شأن القرآن المكي - وهو بصدد بناء العقائد - أن يبسط القول في الاستدلال على وحدانية الله واتصافه بسائر صفات الكمال ، وكثيراً ما كان يجعل مشاهد الكون المحسوسة لهم والتي يدركون آثارها في حياتهم وسيلة من وسائل الاستدلال وطريقاً من طرقه ليثبت أنه وحده الخالق والمنعم وأن كل ما سواه في مصاف العاجزين وحينما ننظر في هذا النص وننظر فيما حصل فيه من تكرار ندرك أنه في موضعه وليس من باب الاطناب وأنه جاء في كل مرة ليثبت أمراً ، حيث أن التوجيه إلى النظر فيما تحت أيديهم من هذه المشاهد هو في ذاته مقدمة لنتيجة وهي الوحدانية للمعهود ، وما دامت وحدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام فكان لا بد أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة لكانت النتيجة ثمرة لمجموعها ، مع أن كل واحدة منها صالحة لأن تكون الوحدانية نتيجة لها دون أن تنضم معها غيرها (٢) .

وبعد هذه الإلتفاتة التي لا بد منها كان لزاماً علينا أن نلقي بعضاً من الضوء على هذا النص الكريم فنختار ما قاله سيد قطب تعليقاً عليها حيث يقول (٣) : في هذه الجولة الكريمة يوقف الله المشركين ومن على شاكلتهم في أي زمان ومكان أمام مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليقها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير ، ثم يزيد في عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذهم عليها أقطار الحجية ، وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السموات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق

١ (سورة النمل : آية (٦٠-٦٤))

٢ (انظر في ذلك كتاب " القرآن المعجزه الكبرى " للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٥٩ ط دار الفكر العربي - الطبعة الأولى .

٣ (في ظلال القرآن المجلد الخامس ، ص ٢٦٥٤٠ بتصرف

ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشراً ، بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم ؟ إله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى ، لا يملكون أن يقولوا : إن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً ، وهم مع هذا يعبدون أرباباً من دون الله ! .

ثم يعدل إلى سؤال مستمد من واقع هذا الكون حولهم ، ومن مشاهدته التي يرونها بأعينهم " أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنتبنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون " .

والسموات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد أنكار وجودها ولا الإدعاء بأن الآلهة المدعاة وهي الأصنام والأوثان ، والملائكة والشياطين ، والشمس والقمر ... الخ خلقتها فالبداية تصرخ في وجه هذا الإدعاء ، ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه ، مخلوق بذاته ، كما وجد من يدعى هذا الإدعاء المنتهات في القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السموات والأرض والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها ، كفيلاً بإلزام الحجة ، ودحض الشرك وإفحام المشركين .. وما يزال هذا السؤال قائماً فإن خلق السموات والأرض على هذا النحو الذي يبدو فيه القصد ، ويتضح فيه التدبير ، ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ، ولا مصادفه مُلحي بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد ، الذي تتضح وحدانيته بآثاره ، وناطق بأن هناك تصميماً واحداً متناسقاً لهذا الكون لا تعدد في طبيعته ولا تعدد في اتجاهه ، فلا بد إنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة ، إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير ﴿ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنتبنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ ؟ . ثم يستطرد الشهيد سيد قطب رحمه الله في عرض هذه الآيات الكريمة فيقول : والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ويتعذر تحليلها بغير الإقرار بخالق مدبر ، فطر السموات والأرض ، وفق هذا الناموس ، الذي يسمح بنزول المطر ، بهذا القدر الذي توجد به الحياة ، على النحو الذي وجدت به ، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة ، وأن تتوافق المصادفات ، بهذا الترتيب الدقيق وبهذا التقدير المضبوط ، المنظور فيه إلى حاجة الأحياء ، ومخاطبة الإنسان ، هذا التخصيص الذي يعبر عنه القرآن الكريم ، بقوله : ﴿ وأنزل لكم ... ﴾ والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء ، المنزل للناس ، وفق حاجة حياتهم ، منظوراً فيه إلى وجودهم ، وحاجاتهم وضرورتهم ، يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية ، القائمة حيالهم ، وهم عنها غافلون .

ثم يقول: ﴿فأنبئنا به حدائق ذات بهجة﴾ حدائق بهيجة ناضرة حية مفرحة ، ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية وتأمل هذه البهجة والجمال ، الناظر الحسي الذي يعيشها كل ذلك كفيلاً بإحياء القلوب وتدبر آثار الإبداع في الحدائق وبالتالي كفيلاً بتمجيد الصانع ، الذي أبدع هذا الجمال العجيب ، وتشكل الزهرة الواحدة بأشكال جميلة متناسقة تعجز أعظم رجال الفنون أن يأتوا ولو بأقل القليل من مثلها وتموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث ، فضلاً على معجزة الحياة النامية في الشجر ، وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر .

﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ وسر الحياة كان وما يزال مستغلقاً على الناس ، سواء أكان في النبات أم في الحيوان ، أم في الإنسان فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول : كيف جاءت هذه الحياة ولا كيف تليست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان ، ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور .

وعندما يصل في هذه الوقفة أمام الحياة النامية في الحدائق البهيجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفكير ، يهجم عليه بسؤال : ﴿أإله مع الله؟﴾ ولا مجال لمثل هذا الإدعاء ولا مفر من الإقرار والإذعان .. وعندئذ يبدو موقف القوم عجيباً ، وهم يُسورون آلهتهم المدعاة بالله فيعبدهونها عبادة الله ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى ، يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى .

﴿أم من جعل الأرض قراراً* وجعل خلالها أنهاراً* وجعل لها رواسي* وجعل بين البحرين حاجزاً؟﴾ لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السموات والأرض ، أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض ، لقد جعلها قراراً للحياة ، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة ، وتنمو وتتكاثر ، ولو تغير وضعها من الشمس والقمر أو تغير شكلها ، أو تغير حجمها ، أو تغيرت عناصرها ، والعناصر المحيطة في الجو بها ، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها ، أو سرعة دورتها حول الشمس ، أو سرعة دورة القمر حولها .. إلى آخر هذه الملاحظات الكثيرة ، التي لا يمكن أن تتم مصادفة ، وأن تتناسق كلها هذا التناسق لو تغير شئ من هذا كله أدنى تغيير ، لما كانت الأرض قراراً صالحاً للحياة . والأنهار في الأرض هي شرابين الحياة ، وهي منتشرة فيها إلى الشرق وإلى الغرب ، وإلى الشمال وإلى الجنوب تحمل معها الخصب والحياة والنماء ، والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها ، وفق طبيعة الأرض والله الذي خلق هذا الكون ، هو الذي قدر في تصميمه إمكان تكون السحب ، ونزول المطر وجريان الأنهار وما يملك أحد أن يقول : إن

أحداً سوى الخالق المدبر قد شارك في خلق هذا الكون على هذا النحو ، جريان الأنهار حقيقية واقعة يراها المشركون ، فمن ذا أوجد هذه الحقيقة ؟ " أإله مع الله ؟ " (١) .

﴿ وجعل لها رواسي ﴾ يقول ابن كثير : أي جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس ، أي تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء ، إلا بمقدار الربع فإنه باد للهواء والشمس ليشهد أهلها السماء ، وما فيها من الآيات الباهرات والدلالات (٢) .
والرواسي : الجبال وهي ثابتة مستقرة على الأرض وهي في الغالب منابع الأنهار حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة ، والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني وهذا واحد منه ، لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار .

﴿ وجعل بين البحرين حاجز ﴾ أي : (مانعا يمنع بقدرته عز وجل بغني أحدهما على الآخر لكي لا يختلطا من قدرته بين العذب والملح أن يختلطا) (٣) . هما البحر الملح الإحاج ، والنهر العذب الفرات سماها بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتها المشتركة وهي الماء ، والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي ، الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده ، إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر ، وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار ولكن مجرى النهر يبقى مستقلاً لا يطغى عليه البحر ، وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر بسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائماً من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر ، إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما لا يمتزجان ولا يبغي أحدهما على الآخر ، وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون وتصميمه على هذا النحو الدقيق فمن فعل هذا كله ؟ من ؟ " أإله مع الله ؟ " .

ولا يملك أحد أن يدعي هذه الدعوة ، ووحدة التصميم أمامه تجبرة على الاعتراف بوحدة الخالق ، ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٤) . ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصية أنفسهم فيقول: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء * ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ فيبين لهم تلك الصورة الفذة من حياة الناس والمتمثلة في إجتاههم جميعاً ولو مرة واحدة في حياتهم إلى الله بالدعاء لا يقلت من ذلك وجيه ولا وضيع ولا مسلم ولا ملحد ما دام

(١) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٥٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٧

(٣) زاد المسير في علم التفسير ج ٦ ص ٨٦ - بتصرف للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي المكتبة الإسلامية الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤ م. بيروت .

(٤) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ، ص ٢٦٥٧

مميزاً مكلفاً ، وحتى أتقى الناس ، وأكملهم أنبياء الله عليهم صلوات الله ، فهذا خاتمهم وإمامهم - ﷺ - كان يدعو عند الكرب " لا إله إلا الله العظيم الخليم لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم " (١) ، وفي الآية الشريفة التي معنا لفت الأنظار إلى النفس البشرية في أدق حالاتها وأحلك ظروفها حين تفر هذه النفس عن فطرتها وجبلتها التي خلقت عليها إلى ربها وبارئها وخالقها فالمضطر - على اختلاف معطيات هذا اللفظ (٢) - في لمحات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله ، يدعو ليكشف عنه الضر والسوء ، وذلك حين تضيق عليه الحلقة ، وتشتد الخنقة وتتخاذل القوى ، وتتهوى الأسناد ويحس الإنسان بأنه مجرد من وسائل النصره وأسباب الخلاص ، لا قوته ولا قوة في الأرض تنجده ، وكل ما كان يعده لساعة العسرة قد زاغ عنه أو تخلى وكل من كان يرجوه لحل كربة قد تنكر له أو تولى ، في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة ، التي تملك الفوت والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء ، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه وهو وحده دون سواه يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق (٣) .

إن في تشخيص القرآن المجيد لهذه الصورة البشرية في هذه الحال الضنك منهج من مناهج الدعوة يخاطب الفطر السليمة والعواطف الحية والعقول النيرة ، ولا يخلوا امرؤ من هذه الخصائص ، وإن تفاوت الناس في الشعور والإحساس ، ولقد أفاض كتاب الله المجيد في بيان هذا الوصف الذي يعتري الإنسان ويسر غوره ويكشف عن طبيعته ومكونه وذلك على أنحاء كثيرة (٤) وهاك بعضاً من ذلك:

أ) فتارة يقرر أن الربوبين لا يلجؤون في حال الكرب إلا إلى الله وحده ، وينسون ما أشركوا به ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٥) .

وإن القرآن المعجز يكشف عن طبع الإنسان وجبلته ليس في حالة نزول العذاب فحسب ، بل وحين يشهد عن عرصات القيامة كما هو جليّ في الآية ، وهو من الغيب الذي سيحدث !

١) الإمام البخاري في الأدب المفرد ص ١٠٣ ، باب الدعاء عند الكرب عن ابن عباس ؓ ط بيروت .

٢) قال أهل التفسير عن المضطر : هو ذو الضرورة الجهد والذي لا حول له ولا قوة والذي قطع العلائق ، عما دون الله ، والمفلس الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة يقدمها - القرطبي : ١٢٣/١٣ .

٣) في ظلال القرآن : ٢٦٥٨/٥٣

٤) انظر الدعوة الى الله - عبدالرب نواب الدين آل نواب ص : ٤٠٦ - دار القلم - دمشق ، دار الشامية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م .

٥) سورة الأنعام : آية (٤٠-٤١)

ب) وتارة يصف حال المضطر وهو يتقلب في الدعاء والابتهاال في كل أحواله لا يفتر ولا يتوانى ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

ج) وتارة يقرر أن الله يستجيب حين يخلص المرء في الدعاء وأنه - سبحانه رحيم بعباده ، كما في سورة النمل : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءآله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ (٢) قال الماوردي : (وخص إجابة المضطر لأمرين : أحدهما : لأن رغبته أقوى وسؤاله أخضع .

والثاني : لأن إجابته أعم وأعظم لأنها تتضمن كشف بلوى وإسداء نعمي) (٣) .

ولكن لماذا يجيب الله المضطر حتى ولو لم يكن مؤمناً ؟ للإجابة على ذلك يقول الإمام القرطبي : (والسبب في إجابة المضطر أن الضرورة إليه باللحأ ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر طائع أو فاجر) (٤) .

د) : وتارة يفصل الحديث عما يتعرض له الفريقان (الشاكر والكافر) إبان نزول الضر ووقت زواله ، من أحوال اليأس والقنوط والرجاء ثم البطر واللهم ، قال تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا * وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ (٥) .

وقال تباركت آلاؤه : ﴿ لا يستم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط * ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ * وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونا بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ (٦) .

هـ) : وتارة يقرر قدرة الله التي تحيط بالإنسان ، وإنه سبحانه مقتدر لا يعجزه الكافرون ، أينما كانوا وحيثما توجهوا ، قال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً * أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو

١ (سورة يونس : آية (١٢))

٢ (سورة النمل : آية (٦٢))

٣ (النكت والعيون علي بن محمد الماوردي : ٢٠٨/٣ ط الكويت ١٠٤٢ هـ)

٤ (تفسير القرطبي) كتاب الجامع لأحكام القرآن ط ٣ دار القلم سنة ١٩٦٦ : ٢٢٣/١٣

٥ (سورة هود : آية (٩-١١))

٦ (سورة فصلت : آية (٤٩-٥١))

يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ، أم أمنتكم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴿١﴾ .

(و) وتارة يعنى على الأشر والبطر من الناس الذى ينسى ربه ويسرف فى غيه كلما أحس بنعمة قال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً ﴾^(٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وإذا مس الإنسان ضرراً دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾^(٣) .

وقد يرد هنا سؤال فحواه : لماذا يكون اللجوء فى الشدائد إلى الله وحده دون سواه ؟ يستوى فى ذلك من عرف الله ساعة ومن كفر به ، ومن جحد وأخذ؟! والجواب البدهى على ذلك هو : إن الفطرة التى يولد عليها الإنسان قبل أن تغشاها عوارض الأهواء ونوازع الشهوات هي التى تجعله على اختلاف معتقداته يلجأ لله فى الشدائد والضر ، فللفطرة مكانة كبيرة فى حياة الإنسان ولذلك فإن الله عز وجل جعلها إسلامية بحته لكل كما يقول رسول الله ﷺ : ﴿ ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ﴾^(٤) .

لكن بعض الفطر قد يغشاها ما يعكس صفوها رين ويحجب عنها وجه الحق ، وإنه لفى شغل الحياة وصرورها ملهارة عن الحقيقة الكبرى والهدف الجليل الذى من أجله خلق الثقلان ، ألا وهو تحقيق العبودية لله فى الألوهية بما تقتضيها الربوبية ، وحين تنزاح هذه الصروف . وتتبدد تلك الشواغل الملهية تحت وطأة المصيبة وثقل الفاجعة تبرز النفس البشرية على حقيقتها وفطرتها التى خلقها الله عليها فإذا هي متضرعة - أول ما تتضرع إلى ربها - وتنب إلى مخلصه له الدعاء ، ولا ترجو لغيره وقاراً ، ولا تعرف سواه مغيباً

وبعد هذه الوقفة السابقة نلاحظ فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أنها ذكرت ثلاثة أمور متعاقبة هي : ((يجيب ... يكشف ... ويجعلكم خلفاء الأرض ...)) ، فهناك :-

(١) إجابة الدعاء (٢) وكشف السوء (٣) والتمكين فى الأرض .

^(١) سورة الإسراء : آية (٦٩)

^(٢) سورة الإسراء : آية (٨٣)

^(٣) سورة الزمر : آية (٨)

^(٤) سبق تخريج الحديث

وهذه المنى الثلاث لم يسبقها من العبد غير خالص الدعاء ! فنزولها على العباد بهذا التتابع المذكور فى السياق القرآنى الجليل منهج للدعوة يخاطب العقول الواعية ، ويوقظ الغافل ويرد الشارد ويبعث الضمير من رقدته وسهوته ويرد الإنسان إلى باريه ومولاه الذى يعطى الجزيل على القليل فهو سبحانه المتفضل المنعم ، إنها كلها حقائق فى الأنفس كتلك الحقائق التى فى الآفاق ، فمن الذى حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟ " أإله مع الله ؟ " إنهم لينسون ويغفلون ، هذه الحقائق لها منه فى أعماق النفوس ، مشهودة فى واقع الحياة : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ ! .

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق ، لبقى موصولاً بالله صلة الفطرة الأولى ، ولما غفل عن ربه ولا أشرك به أحداً .

ثم يمضي السياق ، إلى بعض الحقائق الأخرى المثلة فى حياة الناس ، ونشاطهم على هذا الكوكب ومشاهداتهم التى لا تنكر .

﴿ أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ﴾ ! .

والناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر فى أسفارهم ، ويسيروا أسرار البر والبحر فى تجارتهم - ويهتدون ... فمن يهديهم ؟ من أودع فى كيانهم تلك القوى المدركة ؟ من أقدرهم على الأهداء ، بالنجوم والآيات والمعالم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون وطاقتهم بأسرارة ؟ من جعل لأذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ثم من جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للإنتفاع بكل المدركات وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟ من ؟ أإله مع الله ؟ (١) .

* وجوه الأهداء فى البر والبحر :

والهداية التى نوهت عنها الآية ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ﴾ عامة فى متناولها ، تشمل كل ما يمكن أن يهدي الإنسان فى الظلمات فمن ذلك :

(أ) هداية الله له إلى استخدام الدواب للركوب فى البر قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ (٢) .

(ب) هداية الله له إلى استخدام الفلك فى البحر كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ (٤) .

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٥ ص ٢٦٥٩

(٢) سورة النحل : آية (٨)

(٣) سورة النحل : آية (١٤)

(٤) سورة الرحمن : آية (٢٤)

(ج) الإهتداء بالعلامات سواء في الأرض مما هو من معالمها ، ومكوناتها أو مما هو في السماء من نجوم ، وفي هذا يقول تعالى ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾^(١) ، ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. ﴾^(٢) .

(د) الإهتداء بالعلوم المختلفة التي تمهد للإنسان وتسهل له سبل العمل ، في ظلمات البر والبحر باستخدام الآلات الكهربائية وغيرها وكالآلات البخارية كالطائرات والسيارات والقاطرات وما يتبعها من رسم للطرق وتمهيد للسبل ، ومن أجل ما يهتدي به الإنسان هو ما يكون في الطرق ، غير المسلوكة الواضحة المعالم ، كما الحال في البحار والجو مما يرتبط بالنجوم ومساراتها ، يقول صاحب تفسير الآيات الكونية : (ولم تكن الإبرة المغنطة وحسابات الإتجاهات التي تسير عليها السفن منذ كشف الحضارة ، وتشق بها الطائرات عباب الجو في زماننا إلا إهتداء بالنجوم وتقليباً مع ترددها طالعة وغاربة ومقبلة ومدبرة ومشرفة ومغربة ومعدلة ومائلة فهي أصل من أصول الحساب لإختراق العباب أو شق السحاب)^(٣)

(هـ) الإهتداء بمعرفة دقائق علم الجغرافيا التي تستخدم في البحث عن معالم سطح الأرض وجهاتها ، هذا وقد وصل الإنسان اليوم إلى اختراع آلات وأجهزة علمية دقيقة تساعده على الوصول إلى بعض الأسرار المودعة في الأرض وغيرها وبلوغ الإنسان لهذا الذي وصل إليه ليس إلا بهداية الله له ..

(و) ومما يشمله معنى الهداية كذلك طرق الإنتفاع بكنوز البر والبحر من غذاء ولباس وكساء وماء وغير ذلك مما هو معلوم مشهور .

وهذه الوجوه مما امتن الله بها على الناس ، إذ هداهم سبلهم .

كما تلمس هذه الآية الشريفة : ﴿ أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ شغاف القلب الحي والضمير المستجيب إذ يمتن الله على الناس بهدائيتهم في الظلمات ... ووجوه الإمتنان :

- ١ - كونها ظلمات عمياء يضل فيها المرء ، ويحار ويلجأ إلى بارئه وفطره .
- ٢ - مجئ الهداية وقت شدة الحاجة إليها فتصادف قلباً خاشعاً متطلعاً فتخرجه من حسرته وكربته .
- ٣ - تزيد المنه حين يعقب السياق الجليل بنعمة أخرى بعد الهداية وهي إرسال الرياح بشراً بين يدي رحمة الله .

﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ ﴾

^(١) سورة النحل : آية (١٥-١٦)

^(٢) سورة الأنعام : آية (٩٧)

^(٣) تفسير الآيات الكونية عبد الله شحاته - طبعة سنة ١٩٨٠م. ص ١٤١.

تتحلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته فأرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ من ؟ " أإله مع الله ؟ "

﴿ تعالَى اللهُ عما يشركون ﴾ ! ولست في هذا المقام مستقصياً كل ما يتعلق بالرياح ومكوناتها لسعة وتعدد جوانبه وحسبنا النظر إلى (الرياح) من الوجوه التي أوردتها هذه الآية ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ فهنا لفت للأنتظار إلى أمور ثلاثة :

- ١ - حركة هذه الرياح ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ يرسل ﴾ .
- ٢ - تنوعها في العناصر والأغراض ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ الرياح ﴾ بصيغة الجمع .
- ٣ - وذكر جانب الخير والنفع منها ويؤذن به لفظ البشارة والرحمة وهما كما قال الماوردي : المطر قي قول الجميع ^(١) .

(١) أما حركة الرياح ، فهي ذات دلالة ناصعة على قدرة الله وعظيم منته : * فمن عجائب حركتها أن الله يرسلها بشراً بين يدي رحمته وهي مع كونها نسائم خير وبشائر بركة ورحمة ، قد تنقلب بإذن بارئها إلى ريح صرصر تقصف وتعصف فأخرقة واحدة والهواء واحد ، لكن الاختلاف في السرعة ، والكثافة والغرض ، فموطن الإعتبار في رياح الرحمة :

(١) اعتدال سرعتها (٢) وتعدد وجهاتها (٣) ولطفها وصفافؤها من المؤذيات والأقذار .
من المؤذيات والأقذار ، ولقد كان النبي ﷺ - إذا عصفت الرياح قال : (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) ^(٢) .
* ومن عجائبها أنها تتحرك داخل الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض على شكل خيمة نصف قطرها ١٠٠٠,٠٠٠ متر فوق سطح الأرض ^(٣) ثم هي مع ذلك لا تختلط أنواعها : السموم المحرق والنسيم البارد والذي يلقي السحاب والذي يلقي النبات ! والذي يسير الفلك والذي يعصف ويدمر فكأنما هي أنماط ووظائف تسير بدقة واتزان ! .

* وتحرك الرياح وكيفية ووقته ووجهته وسببه ، كل أولئك بتقدير الخلاق العليم وليس في مكنة بشر التحكم بشئ من ذلك وغاية ما توصلوا إليه جغرافياً هو أن (أشعة الشمس تعمل على تسخين الهواء ، وتمدده ، ويؤدي ذلك إلى قلة الضغط ومن ثم تتحرك الرياح من مناطق الضغط المرتفع إلى المنخفض) ^(٤) .

(١) النكت والعيون للماوردي ٢٠٩/٣

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة الإستسقاء عن عائشة ٤ : ٦١٦/٢ باب التعوذ عند رؤية الريح برقم (١٥) .

(٣) المنهج الإيماني للدراسات الكونية ص ٤٩٠ . د. عبدالعليم حضر ط ١٤٠٤ هـ ، جده

(٤) المدخل إلى علم الجغرافيا : ص ٢٥٨ د. طه عثمان ط ١٤٠٥ هـ الرياض

وأنت ترى أن هذا الكشف العلمي لا يغطي التساؤلات المطروحة ولا يفسر حركة الرياح من كل الحثيات التي ترد على الأذهان .. فمن يحدد للرياح وجهتها التي لا تعدوها؟ ومن يجعلها وقتما شاء رياح خير أو ريح شر؟ وكيف تنضبط هذه الرياح وفق الموازين المحددة سرعة واتجاهاً وشفاء وكثافة؟ وما الذي يمسك عناصرها الثمينة كالأوكسجين وثنائي أكسيد الكربون مما يتوقف عليه عيش الأحياء من أن تنفلت عن الغلاف الجوي وتتسلل إلى خارجه أيا نورة الأعاصير؟؟؟

(٢) وفي تنوع الرياح وتعدد منافعها مجالات نظر واستدلال ولقد ذكر العلماء^(١) أن الرياح حين يرد ذكرها في القرآن العظيم في سياق الرحمة تجيء مجموعة كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾^(١)، وحين تذكر في سياق العذاب تجيء مفردة كقوله تعالى في قوم هود عليه السلام: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات﴾^(٢).

هذا في الأعم الأغلب .. ومن مواطن الاعتبار في تنوعها أنها على كثرة أغراضها وتنوع كثافتها تتجانس من عناصر الكربون قال في تفسير الجواهر: (الهواء أخف من الماء ٨٠٠ مرة والبحار أخف من الماء ١٧٢٨ مرة ولذلك نرى السحاب يرتفع في أعلى الجو)^(٣).

ولو شاء ربك لجعل الهواء أثقل من الماء فلن تستطيع له طلباً! ومن تأمل أنواع الرياح يجد الحكمة الباهرة: فلقد عرفوا (أنها منها):

١ - رياح دائمة ٢ - موسمية ٣ - محلية^(٤) ولكل وظيفة وخواص وفوائد نوه عن ذلك كتاب الله المجيد ونذكر منه ما تيسر:

(٣) منافع الرياح عظيمة، أجملها قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات، وليذيقكم من رحمته، ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٥)، وفصل بعض وظائفها ومنافعها قوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾^(٦) وقوله ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من

* (١) مفردات ألفاظ القرآن - للراغب الأصفهاني ص ٣٧٠، (٢) تفسير البحر المحيط - لأبي حيان الأندلسي - تحقيق د. أحمد الجمل ١٤١ ص ٦٤١ - دار الكتب العلمية - بيروت ط سنة ١٩٩٣ م. (٣) روح المعاني للألويسي ج ٢ ص ٣٢ ونسب هذا القول لأبن عباس

(٤) القرطبي ج ٢ ص ١٩٨

(١) سورة الروم: آية (٤٨)

(٢) سورة فصلت: آية (١٦)

(٣) الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري ط سنة ١٣٥٠ هـ - مصر: ١٨٢/١٣

(٤) المدخل إلى علم الجغرافيا د. طه عثمان ط ١٤٠٥ هـ الرياس: ص ٢٦١ وما يليها.

(٥) سورة الروم: آية (٤٦)

(٦) سورة الروم: آية (٤٨)

كيف يشاء ويجعله كسفاً فتزى الودق يخرج من خلاله ﴿^(١) وقوله ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ ^(٢) وفي سورة النحل: ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ قال أبو السعود في آية الأعراف: ﴿ بين يدي رحمته ﴾ : (قدم رحمته التي هي المطر ، فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمعها والجنوب تدره والدبور تفرقه) ^(٣) ، وقال تعالى في أثر الرياح في تفاعل السحب وأمطارها : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ ^(٤) ، ولا يخفى ما في الآيات السابقة من دلالات بيّنة على قدرة العزيز الغفار وعلى البعث والنشور مما سيحى ان شاء الله في المبحث الثالث ، ويختتم الله عز وجل هذه الايقاعات بسؤال عن خلقهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض مع التحدي والإفحام .

(أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن لأحداً تعليلها بغير وجود الله ووجدانيته وجوده لان وجود هذا الكون ملجئ للإقرار بوجوده وقد بادت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله ووجدانيته إن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوجدانيته ، فعليها آثار التقدير الواحد والتدبير الواحد ، وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدأ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال : (أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟) ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ ^(٥)

* النظر في بدء الخلق وإعادته :

بدء الخلق أمر مسلم به لا ينازع فيه منازع إلا مكابر جاحد قال تعالى : ﴿ ام خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ^(٦) . ولما سمع جبير بن مطعم النبي - ﷺ - يتلو هذه الآية ، قال : " كاد قلبي أن يطير " ^(٧) .

(١) سورة الروم : آية (٤٨)

(٢) سورة الأعراف : آية (٥٧)

(٣) إرشاد العقل السليم : ٢٣٤/٣

(٤) سورة الحجر : آية (٢٢)

(٥) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٦٠

(٦) سورة الطور : آية (٣٥)

(٧) متفق عليه : أخرجه البخاري في كتاب التفسير : باب تفسير سورة الطور ، واللفظ له ص ١٠٤١ رقم (٤٨٥٤) ، ومسلم في كتاب الصلاة : ١/٣٣٨ باب : القراءة في الصبح

والسور المكية حافلة بما أقره المشركون وغيرهم من خلق الله السموات والأرض .. الخ فهو سبحانه : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ ^(١) و : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ ^(٢) و : ﴿ بدأ خلق الإنسان من طين ﴾ ^(٣) .

ولئن كان المشركون قد سلموا ببدء الله الخلق ، فلسنا في حاجة إلى إثباته ، كما أنا لا نرى كبير جدوى في وزن النظريات التي أجهدت نفسها بالباطل لتعلل كيفية بدء الكون والحياة لإنها لا ترتقي إلى مستوى اليقين ، فضلاً عن إنها لا تصمد أمام النقد ^(٤) ، فلا نحمل أنفسنا عناء البحث فيها وقد سلم الكافرون بأن الله خلق الخلق وفطره أول مرة .

أما إعادة الخلق فهو البعث والنشور يوم الحساب ، ومعنى الإعادة هو : أن الله تبارك وتعالى كما خلقهم أول مرة يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ^(٥) ، وهذا هو المعنى الذي أجمع عليه أهل الإيمان ^(٦) ، ويتضمن أموراً ثلاثة :

(١) إن الله خلق الخلق ولم يك شيئاً .

(٢) ثم يسري الموت على كل مخلوق .

(٣) ثم يعثون للحساب والجزاء .

وللإعادة مفاهيم ومعان قرآنية بسطها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بما لا مزيد عليه ^(٧) ، وهذه المراحل الثلاث يطرد ذكرها في كثير من آي الذكر الحكيم كما في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يجيئكم إن الإنسان لكفور ﴾ ^(٨) ، وقوله ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ^(٩) . وقوله تبارك

(١) سورة الأنعام : آية (١٤)

(٢) سورة البقرة : آية (١١٧)

(٣) سورة السجدة : آية (٧)

(٤) انظر مجمل النظريات في ذلك الإنسان بين العلم والدين ص ٣٠ - ٣١ و ١٠١ والمدخل إلى علم الجغرافيات ص ٤٥ وما يليها والتفسير العلمي للآيات الكونية حنفي أحمد ص ٨٧ وانظر نظريات إتفصال الأرض عن السماء في تفسير المنتخب ص ٤٧٦ في موضع سورة الأنبياء : آية (٣٠) .

(٥) زاد المسير ٢٩١/٦ في موضع سورة الروم اية (١١)

(٦) الطبري ٧٩/١٧ من موضع سورة الأنبياء : آية (١٠٤) وزاد المسير في موضع سورة العنكبوت الآية (١٩) والنسفي

٢١٩/٣ في موضع سورة النحل والألوسي ٨/٢٠

(٧) مجموع الفتاوي : ٢٥٤/١٧

(٨) سورة الحج : آية (٦٦)

(٩) سورة الجاشية : آية (٢٦)

تعالى: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(١)

* بث الأرزاق :

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء ، ورزق العبد من الأرض يتمثل في صور كثيرة أظهرها النبات والحيوان ، والماء والهواء والطعام والشراب ، والاستنشاق ، ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات وكنوز البحر من طعام وزينه ومنها القوي العجيبة من مغناطيسية وكهرباء وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله ، ويكشف عن شئ منها لعباده آناً بعد آناً .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا : الضوء والحرارة والمطر وسائر ما ييسره الله لهم ، من القوى والطاقات ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم - وهو من السماء بمدلولها المعنوي الذي يتردد كثيراً في القرآن والسنة وهو معنى الارتفاع والإستعلاء ، وما من ريب أن الرزق عماد الحياة وسبب بقائها وهو بمفهومه الشامل يتناول جميع أنواع الرزق ووجوه اكتسابه : فمنه الضروري كالطعام والشراب والهواء مما يتوقف عليه حياة الأحياء وهو مبثوث في مناكب الأرض أنهاراً وأمطاراً ونباتاً وحيواناً .

* ومنه ما ينضوي تحت مباحج الحياة من أولاد وأزواج وأحوال وصحة في الأبدان والعقول ، ومواهب تعين على الحياة ، وهو كثير ميسر موفور على تفاوت الناس فيه .

وهذان النوعان من الضروريات والمباحج يشترك فيهما البار والفاجر وهو القدر الذي تؤسس عليه الحياة انبثاقاً وبقاء .

* ومن الرزق الإيمان والتقوى والتوفيق لصالح العمل وهذا القدر لا يوفق إليه إلا الأخيار دون الأشرار وكل هذه الأنواع وما جرى مجراها من نظائرها ينتظمه قوله تعالى ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(٢) ، ومن وجوه النظر في الرزق مما يلفت القرآن العظيم الأنظار إليها للاعتبار والإتعاض :

** تقرير أن الله تعالى هو وحده الرزاق المتكفل بالرزق ، قال تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾^(٣) ، والدابة : كل حيوان يدب ، والرزق حقيقته ما يتغذى به الحي ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده^(٤) ، وقال جل وعلا : ﴿وكأين

(١) سورة الروم : آية (٤٠)

(٢) سورة النحل : آية (٥٣)

(٣) سورة هود : آية (٦)

(٤) تفسير انقرطي : ٦/٩

من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿١﴾ وقال جل من قائل : ﴿ يا أيها الناس إذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (٢) ، ولا يخفى الاستدلال بهذا على توحيد الربوبية والإلهية .

** ومن ذلك أن الرزق الذي هو ما يتغذى به يهيؤه الله من السماء والأرض كما قال : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ﴾ (٣) ، ومن عجائب الرزق مما يغفل عنه الناس ما هياه الله للإنسان والحيوان من أوكسجين يحرق الطعام في كل خليه ببطء شديد عند درجة حرارة منخفضة نسبياً وينتج عنه ثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء اللذان يلفظهما الجسم (٤) ولولا رحمة الله المتحلية في هذا (الأوكسجين) لا نعدمت الحياة ، فهو على هذا من جملة الرزق المبثوث بلا حساب ، وكم في كرة الخبز وحنفة الأرز من عجائب الرزق لما تحتوي عليه مما كشفه العلم اليوم ، من فيتامينات وبروتينات ومواد أخرى كثيرة تنمي الجسم وتقوي خلاياه وتحافظ عليه من العطب وتقويه الأمراض مما علمه الناس ، وجهلوا أكثره فتبارك الذي لا تنفذ خزائنه رزقه وموجبات رحمته وأحاط بكل شئ علماً .

** ومن وجوه النظر في الرزق أن الله تعالى يهبه للناس بتوزيع حكيم اقتضته حكمته وتدبيره ، فهو مبسوط للبعث ومقدور على بعضهم ليتحقق الابتلاء وتقوم الحجة ويتبين الشاكر والصابر من الكافر والجاحد فهو سبحانه أعلم بمصالحهم مما يصلحهم قال سبحانه : ﴿ الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم ﴾ (٥) ، وقال جل من قائل : ﴿ أولم يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ (٦) ، وقال جل من قائل : ﴿ أولم يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٧) ، وقال تعال : ﴿ قل إن ربي يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهم يحلفه وهو خير الرازقين ﴾ (٨) ، وقال ﴿ ولو يسطر الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خير بصير ﴾ (٩) .

١ (سورة العنكبوت : آية (٦٠))

٢ (سورة فاطر : آية (٣))

٣ (سورة يونس . آية (٣١))

٤ (العلم يدعو إلى الإيمان ص ٧٠ بتصرف . أ- كريسي مور ليسون ترجمة محمود صالح الفلكي - مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٥م .

٥ (سورة العنكبوت : آية (٦٢))

٦ (سورة الرعد : آية (٢٦))

٧ (سورة الروم : آية (٣٧))

٨ (سورة سبأ : آية (٣٩))

٩ (سورة الشورى : آية (٢٧))

****** ومن ذلك تهيؤ أسباب طلب الرزق وتوافر عوامل اكتسابه وحوافز البحث عنه وهذا وجه جدير بالإعتبار ، ويدخل فيه شتى العلوم الكسبية والحرف والمهن والفنون والصناعات وخواص ذلك ومبادئها وأسرارها بما يقوم عليه المعاش وهو مما علمه الله الإنسان وهداه سبيله : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ (١) .

فمن ألهم الإنسان ذلك كله ؟ وكيف ثبت الأرزاق على اختلاف أنواعها وتعدد هيئاتها وتنوع مصادرها في الأرض والسماء ؟ ؟ وكيف اتسقت أجزاء هذا الرزق وتتابع من غيث ثم نبات ثم طعام .. لتؤدي وظيفتها في استمرار الحياة على أكمل وجه ؟ وكيف لا تنفد هذه الأرزاق على كثرة الأكلين والشاربين على امتداد أحقاب التاريخ ؟ ! (٢) ، " إله مع الله ؟ " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

وفي ختام هذه الوقفات المباركات مع هذه الآيات أحب أن أبين أن أسلوب الإستفهام التقريري هو الظاهر من أساليب الاستدلال في الآيات التي عرضت مظاهر الكون ودعت إلى النظر فيها لتقرير الوجدانية لله تعالى وقد جاء على هذا النحو :

١ - الإستفهام المتكرر في مطلع الآيات الخمس المتتابعة :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. ﴾

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا .. ﴾

﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. ﴾

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. ﴾

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾

وهذا الإستفهام المتكرر على ما فيه من تعدد وجوه الدلالة وتنوعها ، هو تقرير لتوحيد الألوهية المستلزم لتوحيد الربوبية ، فهو نعى على أولئك الذين يشركون مع الله في الألوهية وتقريع لهم ، وهو كذلك نفى للشركاء العاجزين عن الإيتان . يمثل ما خلقه الله وهو ما لا يقدر عليه الآلهة المزعومة انتقاء لألوهيتها قال ابن كثير : ﴿ أَمَّنْ ﴾ : في هذه الآيات كلها تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كلها كمن لا يقدر على شئ منها ؟ ! هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر ، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك (٣) .

(١) سورة طه : آية (٥٠)

(٢) انظر الدعوة إلى الله - عبدالرب نواب - ص ٤٢٤ وما بعدها - بتصرف .

(٣) تفسير ابن كثير : ٣/٣٦٩

٢ - تكرار الإستفهام في كل آية وهي قوله تعالى : ﴿أَلِهَ مَعِ اللّهِ﴾ خمس مرات عقب كل آية مما تقدم وقد ذكر ابن كثير له وجهين ^(١) أحدهما : أن المعنى أي : أله مع الله يعبد وقد تبين لكم وكل ذي لب مما تعرفون به أنه الخالق الرازق .

والثاني : تقدير جملة - هكذا ﴿أَلِهَ مَعِ اللّهِ﴾ فعل هذا ؟ وهو لا يرجع إلى معنى الأول ، لأن تقرير الجواب إنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به فيقال لهم : كيف تعبدون معه غيره ؟ وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير .

(١) نفس المرجع السابق .

النص الثالث :

قال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾^(١)

ويعلق الشهيد سيد قطب على هذا النص بقوله : في هذا النص ، نداء خاشع ، في تركيبه اللفظي إيقاع الدعاء ، وفي ظلاله المعنوية روح الابتهاال ، وفي التفافات إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر في رفق وإيناس ، وفي جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمر الناس ولأمر الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة ، حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس ، وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفاً من شأن الكون الكبير الذي يصرفه الله ، وإن الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس ، وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه ، فهو وحده مالك الملك بلا شريك ، وهو وحده يملك من يشاء ما يشاء من ملكه ، يملكه إياه ، تملك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عندما يشاء ، فليس لأحد ملكية أصيلة يتصرف فيها على هواه ، إنما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط الله عز وجل وأوامره .

وهو كذلك - جل شأنه - يعز من يشاء ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه - وبلا راد لقضائه ، فهو صاحب الأمر كله ، وهو عز وجل في قوامته على الملك ، إنما هي قوامة قائمة على القسط والعدل ، وفيها الخير كله ، فحينما يعطي ويمنع ، وحينما يعز ويذل ، فإن في ذلك الخير الحقيقي في جميع الحالات وإن خفيت الحقيقة على الناس وهو جل شأنه صاحب المشيئة المطلقة والقدرة المطلقة على تحقيق هذا الخير في كل حال فهو سبحانه بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وهذه القوامة على شئون البشر ، وهذا التدبير لأمرهم بالخير ، ليس إلا طرفاً من القوامة الكبرى على شئون الكون والحياة على الإطلاق ، فهو وحده يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومتى القى القلب انتباهه واستمع إلى صوت الفطرة الصادق ، فإنه بلا أدنى شك سيقر ويعترف بأن وراء ذلك قدرة الله الحكيمة القديرة ، سواء أكان معنى الإيلاج ليل والنهار هو أخذ هذا من ذلك ، وأخذ ذلك من هذا عند دورة الفصول ، أو كان هو دخول هذا في هذا عند ديب الظلمة وديب الضياء ، في الإمساء والإصباح ، سواء كان هذا أو ذلك فإن القلب يبصر قدرة الله وهي تحرك الأفلاك ، وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء . كذلك الحياة والموت يدب أحدهما في الآخر في بظء وتدرج ، فكل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة خلايا حية منه تموت وخلايا جديدة تنشأ وتعمل .

(١) سورة آل عمران : آية (٢٦، ٢٧)

ثم يموت الحي كله ، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل في تركيب أحر ثم تدخل في جسم حي فتدب في كيان الكون كله ، وفي كيان كل حي ، إنها الحقيقة التي نلمسها في كل لحظة من لحظات الليل والنهار والتي تدل على الألوهية الواحدة ، التي لها القوامة والملكية المطلقة ، وأن الدينونة يجب أن لا تكون إلا لله القيوم مالك الملك المعز المذل الحي المميت المدبر لامر الكون والناس أجمعين بالقسط والخير على كل حال .^(١)

وهكذا نجد أن النص يعرض قضية العقيدة والتي تتلخص في توحيد الخالق وعبادته وبيان صفاته العظيمة من القدرة والملك والهيمنة المطلقة على شئون الكون وشئون الإنسان ، وهو إذ يقرر هذه الأمور إنما يعرضها في مجال الكون ومشاهده التي يلمس الناس آثارها ، وتبين من خلالها صفات الخالق ودلائل العناية بالخلق ، وهكذا شأن القرآن في تقرير العقائد فإنه يحيل الكون كله إلى مؤثرات ناطقة وآيات مبثوثة تخاطب القلوب وتؤثر فيها وتوقظ الفطرة من ركدة الغفلة والألفة وتأخذ بأيدي الناس إلى الإيمان بالله ، وإن أكثر ما يستوقفنا في هذا النص - بحكم دراستنا للمنهج الحسي - هو قوله تعالى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ فإن لهذا المشهد في الليل والنهار نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، وقد وجد أن في القرآن نحواً من اثني عشر نصاً تدور حوله هذا المشهد بعضها يرد في مجال الدلالة على الوحدانية وبعضها يرد في مجال الدلالة على البعث ، وبعضها يرد في مجال الدلالة على القدرة والملك والآخر يرد في مجال المنّ بالنعم وهكذا تنوع الدلالات وإن كان المشهد واحداً ، ومع تنوع الدلالات تنوع التعبيرات والأساليب وفي كل مرة تعطي معنى جديداً ، نجد من هذه النظائر في قول الله تعالى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾^(٢) والملاحظ أن هذا النص قد ورد بعد حشد هائل من نعم الله وآلائه في الكون من تسخير للرياح التي تسوق الماء إلى البلد الميت فيبعث الله به الحياة على الأرض من نبات وحيوان وجميع الكائنات ، ومن نعمة الخلق والإنشاء ، ونعمة تسخير البحر وانتفاع الناس بركوبه ولحمه ، إنها نعم الله على خلقه وهي في الوقت نفسه دلائل على قدرته وملكه المطلق ، وعلى عنايته بخلق ولا يقدر أحد أن يثبت من خلق هذه النعم شيئاً لنفسه أو لغيره وإنما ذلك بيد الله وحده فهو وحده له الملك وكل ما سواه في مصاف العاجزين لا يملكون من أمر أنفسهم ذرة .

وتشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة علمية دقيقة ، فهي تشير إلى أن الله تعالى بقدرته ووحدانيته وبما أنشأ ووضع من الأسباب والسنن يدخل من الليل في النهار ما يزيد به النهار طولاً

(١) انظر في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٣٧٨ - دار العلم للطباعة والنشر - بتصرف

(٢) سورة فاطر : آية (١٣)

ويدخل من النهار في الليل ما يزيد به الليل طولاً فتصير بعض ظلمة الليل مكان بعض ضوء النهار وينعكس ذلك وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ، يطيل ساعات أحدهما ويقصره في الآخر حسب أوضاع محكمة مدى الأعوام والدهور .

فإن الله هو مدبر الأمور وله الملك وحده ، والذي يدعو الكفار والمشركين والملاحدة من غيره آلهة يعبدونها ما يملكون من لفافة نواة فكيف يستأهلون عبادته .^(١)

كما نجد أيضاً في سورة الحديد قوله تعالى ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ، آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾^(٢) ، ومشهد الليل والنهار هنا يجيء في معرض بيان خصائص الألوهية المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء المهيمنة على كل شيء ، العالمة بكل شيء ، إنها قدرة الله القادرة تجول في محيط السموات والأرض ، وتشرف على الوجود وما فيه .

إنه مشهد يتناول القلوب فيهبها هزا ويأخذها أخذاً ، وهو يجول في الوجود فلا تجرد وراءه إلا الله ولا ترى مبدعاً له إلا الله ولا تحس بغير الله ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ومن علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا توجهها إلا لوجهه الكريم ، إنها الحقائق الكبرى التي تظهر خلال هذا المشهد ، حقيقة القدرة وحقيقة العلم ، وحقيقة الملك المطلق في السموات والأرض ، وحقيقة الخلق والتدبير ، وكلها حقائق منبثقة عن الحقيقة الأولى ألوهية الله سبحانه وتعالى ، وكما أنه سبحانه يدخل الليل في النهار والنهار في الليل في حركة دائبة وهي في الوقت ذاته حركة لطيفة ، فمثل هذه الحركة في لطفها كأنها حركة العلم بذات الصدور ، وكل ما في أطواء النفس وآفاق الكون مرجعه إلى الله سبحانه ، أفلا يليق بالناس بعد هذه الدلائل والنعم أن يؤمنوا بالله ورسوله وأن يوقنوا بأن الله واحد لا شريك له .

ويتضح من هذه الآية الشريفة أن الله تعالى قد جعل تدبير المسلمين والعلماء في ظاهرة الليل والنهار موصلاً إلى الإيمان بالله وقدرته ووجوب عبادته وطاعة أوامره واجتناب نواهيه .

كما نجد من هذه النظائر لتعاقب الليل والنهار قول الله تعالى في سورة الأعراف ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾^(٣)

(١) الإرشادات العلمية في القرآن الكريم - المستشار / مدحت حافظ إبراهيم ص ١٧٢ - مكتبة غريب - القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

(٢) سورة الحديد : آية (٦٠).

(٣) سورة الأعراف : آية (٥٤)

إن مشهد الليل الذي يطلب النهار في ذلك الفلك الدوار ، ومشهد الشمس والقمر والنجوم وهن مسخرات بأمر الله ، وبقية المشاهد في السموات والأرض ، إن من ينظر إلى هذه المشاهد ، وإلى ما في الكون من أسرار ونواميس ، لا بد أن يستشعر تأثيراً لا يرد سلطانه بوجود المدبر المقدر صاحب الخلق والأمر وإذا كان الله يتخذ من مشاهد الكون وآيات الإبداع والاختراع فيه أدلة على وحدانيته وثبوت صفات الكمال له ، فإنه عز وجل لا يدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذاته ولا عن كيفية أفعاله ، وإنما يدفع الخلق إلى تدبر آثار أفعاله في الوجود كله ، أما عن كيف خلق الله السموات والأرض ؟ وكيف استوى على العرش ؟ وكيف هذا العرش ؟ فهذه أسئلة لا يستطيع أحد أن يجيب عليها إنها سر من أسرار الله اختص الله به نفسه فقال عز وجل ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾^(١) ولذلك يصبح طرح هذه الأسئلة عبثاً والإجابة عليها أشد عبثاً ، وكذلك أيام الخلق الستة ، فهي الأخرى غيب لم يشهده أحد من البشر ، قد تكون ست مراحل وقد تكون ستة أطوار ، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام - إذ قبل خلق هذه الأجرام لم يكن زماننا ، وقد تكون شيئاً آخر ، فلا يدري أحد أو يستطيع أن يجزم بما يعنيه الله بهذا العد على وجه التحديد وكل حمل لهذا النص ومثله على تخمينات البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن باسم العلم ، هو محاولة تحكيمية منشؤها الهزيمة الروحية أمام العلم الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض ويكفي الإيمان بهذه الحقائق دون بحث في كفيته ، أو تأويل لها أو تعطيل لمعناها .^(٢)

وقوله تعالى ﴿ يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾^(٣) ، أي أن الله هو الذي يجعل الليل يستر النهار بظلامه ، يعقب الليل بانتظام وتعاقب مستمر كأنه يطلبه ... إن في هذا الكون وعجائبه لعلامات بينة تثبت قدرة الله ووحدانيته لمن يتفكر ويتدبر ، فالله وحده الأمر المطاع فيها تعالت بركاته منشئ الكون وما فيه ومن فيه .

والمدبر لهذه الإشارة العلمية القرآنية الحكيمة يجد أنها تكررت في مواضع متفرقة ومناسبات مختلفة وحالات متعددة ، لكي تعطي ظاهرة اختلاف الليل والنهار منظوراً متكاملأ ، فقد قرنها الله بخلق السموات والأرض ، وبما خلق الله في السموات والأرض وبالحياة والموت وبما أنزل الله من السماء من رزق ، وذلك ليتعظ ذوو العقول الحصيفة ويتقي الله من يتعقلها ، ويؤمن بالله ووحدانيته وقدرته من يفهمها ، فالله قد استخدم أساليب بلاغية متعددة يعرض بها إشارات العلم في صورة منطقية ليقبلها العقل الإنساني وتحقق أهدافها .

(١) سورة الكهف : آية (٥١)

(٢) الظلال المجلد الثالث ، ص ١٢٩٥ بتصرف

(٣) سورة الرعد : آية (٣)

وإذا كانت ظاهرة الليل والنهار آية من آيات الله الكونية فإن اختلافها أيضاً من الظواهر التي تدل على عظمة الله وقدرته ، وهي ظاهرة تستلهم ذكاء الإنسان وعقله وتدفعه إلى تقوى الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه والتأمل في هذه الظاهرة بعقل حصيف يجعل المرء يزداد يقيناً بقدره الله وحكمته وأفضاله وتؤدي إلى شعوره بالبهجة والارتياح والإحساس بالدهشة والإعجاز كلما ازداد تأملاً وتدبراً وفهماً ، فهذا الاختلاف من الدلائل والبيانات لأصحاب العقول المدركة على وحدانية الله وقدرته (١) .

كما نجد أيضاً قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٢) .

وتعني هذه الآية " أن الذي أنزل القرآن هو الله الذي رفع ما ترون من سماوات تجري فيها النجوم بغير أعمدة ترى ، ولا يعلمها إلا الله ، وإن كان قد ربط بينها وبين الأرض بروابط لا تنقطع إلا أن يشاء الله ، وذلك الشمس والقمر بسلطانه ولنفعتكم ، وهما يدوران بانتظام لزمن قدره الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يدبر كل شيء في السموات والأرض ويبين لكم آياته الكونية رجاء أن توقنوا بوحدانيته " (٣) .

إن مشهد الليل والنهار في هذا النص يوحى بما له من ظلال ترسمها لفظة " يغشى " بما فيها من معنى الستر والتغطية ، فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً ، هذا المشهد الموحى بقدره الله عز وجل ، يأتي وسط حشد هائل من آيات الله المبهوثة في الكون هنا وهناك ، وكلها نعم مسخرة لخدمة الإنسان ، وبها تنتظم حياته ، أيكون لهذه الأرض الممدودة معنى بدون هذه السموات وبدون الشمس والقمر والنجوم ؟ كلا ، ولكنه التناسق ، والعناية بالخلق في تسخير الشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار وإخراج الثمرات وإثني لأشتم من رائحة النص الكريم هنا أنه يؤكد تلك السنة الكونية التي قامت عليها الحياة وهي نظام الزوجية والذي أشار إليه القرآن في موضع آخر في قوله تعالى ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (٤) ، انه نظام يعم الكون كله من مشهد الليل والنهار والضوء والظلمة إلى أصغر مشهد في مرآي العين وهو الثمار ، ومن يذهب ليعدد شواهد الزوجية في الكون يعيه الحصر ، فما هناك شيء في الكون إلا وله ند أو ضد أو شيء مقابل له

(١) أنظر الإشارات العنمية في القرآن الكريم ، المستشار مدحت حافظ إبراهيم _ ص ١٥٥ .

(٢) سورة الرعد : آية (٢)

(٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم : (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) ص ٩٠٣ - مصر طبعة ١٣٨٧ هـ - القاهرة .

(٤) سورة الذاريات : آية (٤٩)

، إلا الله وحده فهو الواحد الأحد الذي ليس له ضد ولا ند ولا مثل وهكذا يأتي مشهد الليل والنهار هنا لإثبات قدرة الله عز وجل ، وللإشارة إلى تلك السنة الكونية وهي نظام الزوجية وأن ذلك يتم بتدبير الله ، الذي قدر كل شئ فهدي .

كما نجد أيضاً من هذه النظائر قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً ، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾^(١).

ومشهد الليل والنهار هنا وهو يخلف بعضه بعضاً سواء أكان ذلك بالتعاقب بأن يقوم كل منهما مقام الآخر أو بالاختلاف في الزيادة والنقصان ، سواء كان هذا أو ذاك فإنه مشهد يوحى بنعم الله وعظمة تفضله على الخلق بما من عليهم من ليل يسكنون فيه ويستريحون ومن نهار يعملون فيه ويكدحون ، إنها نعم الله من ليل ونهار وشمس وقمر وسماوات أبراج ، وهي في الوقت ذاته دلائل تشير إلى العناية والتدبير في خلق الله ، وإن وراء ذلك قدرة الله المنعمة ، التي خلقت فأحسنت ، ورحمت فأنعمت ، ويمنن الله هنا بنعمة البروج ، لما لها من الأثر في استمرار الحياة على ما هي عليه ، مما يشهد بالقدرة والعناية " والظاهر أنها البروج الإثنا عشر^(٢) المعروفة ، وأخرج ذلك الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس رضي الله عنهما وهي في الأصل القصور العالية وأطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب ، كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها ، وعن الزجاج أن البرج كل مرتفع فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل ، واشتقاقه من التبرج بمعنى الظهور والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا ولا مانع منه عقلاً ، وابتدؤها عندهم - يعني أهل الهيئة - من نقطة الاعتدال الربيعي ، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية وهي الحمل والثور والجوزاء ، وثلاثة صيفية وهي السرطان والأسد والسنبلة وتسمى العذراء أيضاً ، وهذه الستة شمالية ، وثلاثة خريفية وهي الميزان والعقرب والقوس ، وثلاثة شتوية وهي الجدي والدلو والحوت ، ولخول الشمس في كل من الأثنى عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة ، والليل والنهار طولاً وقصراً ، ويترتب على ذلك آثار جليلة في عالم الكون من نضج الثمار ، وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفي، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها " ^(٢) .

وسواء كانت البروج هي منازل الشمس أو هي مجموعات النجوم المعروفة بهذه الأسماء الإثني عشر ، أو تطلق على النجوم والكواكب ومنازلها التي تنتقل فيها في مدارها ، سواء كان هذا

(١) سورة الفرقان : آية (٦١-٦٢)

* (البروج الإثنا عشر هي : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، العذراء ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو والحوت .

(٢) تفسير الألبوسي م ٧ ص ٤٠ ص ١٩ - جدار إحياء التراث العربي ط ٤/١٩٨٥ - مصر .

أو ذاك فهي في كل حال شاهدة بالقدرة والدقة والنظام والإبداع ، وظاهر فيها آثار العناية والنعمة ،
فتبارك الله أحسن الخالقين .

كما نجد أيضاً من سورة الزمر قول الله تعالى ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور
الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو
العزیز الغفار ﴾^(١) .

ومشهد الليل والنهار هنا مع خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر ، يلفتنا
القرآن إليه باعتباره من أقوى الأدلة على توحيد الله عز وجل ، وإن أقل لفظة إلى هذا المشهد توحى
بجقيقة الألوهية التي لا يليق أن يكون معها ولد أو شريك ، والتعبير عن مشهد الليل والنهار في
تعاقبهما المستمر بدون تحلف - بلفظ التكوير - يوحى في دقة بالغة بما يرشدنا إليه القرآن من كروية
الأرض ، فكل واحد من الليل والنهار في تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ، ألا
ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهي مكورة ، فأخذ النهار الناشئ من قابلتها للشمس يسير
من الشرق إلى الغرب ، يلف حولها طاوياً الليل ، والليل من الجهة الأخرى ملتف حولها حاوياً
النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ويلتفان متتابعين حولها ، ذلك
تقدير العزيز العليم^(٢) .

وتشير هذه الآية الكريمة إلى " أن الأرض كروية تدور حول نفسها لأن مادة التكوير معناها
لف الشيء على الشيء على سبيل التتابع ، ولو كانت الأرض غير كروية مسطحة مثلاً لخيّم الليل أو
طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة " ^(٣) .

والمعاني الأخرى لفعل يكور بالإضافة إلى معنى اللف والدوران تحتفظ بمفهوم التكور ،
وخاصة إذا علمنا أن الاسم من فعل يكور هو كرة وبهذا فإن التعبير القرآني يعطي المعنى العلمي
لتتابع الليل والنهار ، وذلك في عبارة مختصرة معناها " لف الأرض الكروية " .

ومن نظائر ما سبق أيضاً قول الله عز وجل في سورة يس ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج
كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون * وآية هم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم
مظلّمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد
كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك
يسبحون ﴾^(٤)

(١) سورة الزمر : آية (٥)

(٢) انظر تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم - عبد المعتم السيد عشري ص ٤٤ - ط ١٩٨٨

(٣) انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر ط سنة ١٣٨٧ هـ القاهرة ص ٦٨٣

(٤) سورة يس : آية (٣٦-٣٨)

قال أبو السعود في تفسيره عن الزوجية (أي : اثنيية حقيقية ، وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع) (١) ، ومشهد الزوجية في النبات لم يكن معروفاً في القدم ، إلى أن جاء القرآن وأثبت ذلك ، فقد أثبت أن النباتات التي كان مظهرها أن ليس في جنسها ذكور ، أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعين في زهرة أو متفرقة في العود وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ (٢) .

ومشهد الليل والنهار هنا يأتي وسط الآيات التي تتحدث عن نعم الله عز وجل التي تشهد بما فيها من دلالة العناية والاختراع على وحدانية الخالق واتصافه بصفات القدرة والعظمة ، وما اتصف به سبحانه من الرحمة الواسعة التي غمرت الوجود بهذه النعم كلها ، فإن نظام الزوجية ، هذا القاموس الذي يحفظ الله به الحياة واستمرارها في كل الكائنات والنباتات ، ما ندري منها وما لا ندري ، وهذا الليل والنهار في تتابعهما المستمر ، مع حركة الشمس والقمر ، وما يترتب على ذلك من صلاح الحياة وانسجامها ، فلا اضطراب ولا خلل ، وإنما كل له فلكه وله قانونه ﴿ سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ، كل ذلك يشهد - بأدنى التفاتة إليه - بأن وراءه مدبر حكيم ، عزيز عليم ، له الوحدانية المطلقة والقدرة والعلم الشاملان .

والتعبير هنا عن مشهد الليل والنهار بلفظ "نسلخ" فيه من الدقة والإيجاز ما يبهر الإبصار ، وهو تعبير فريد ، فهو يصور النهار متلبساً بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلّمون ، فحينما تدور الأرض حول نفسها في مواجهة ، فكل نقطة في مواجهة الشمس هي نهار ، فإذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس أنسلخ منها النهار ولفها الظلام ، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام ، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلمخ فيحلب محله الظلام ، فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير ، وكل حركة في هذا الكون محسوبة بنظام دقيق وترتيب كامل رائع ، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر فتظهر بالليل ، والليل لا يسبق النهار ولا يأتي قبل أوامه ، ولا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تسراخ لأنهما مسخران دائبان يتطالبان طلباً حثيثاً ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) .

(١) تفسير أبو السعود ج ٣ - ص ١٩٨

(٢) سورة يس : آية (٣٦)

(٣) رسالة علمية بعنوان (آيات الليل والنهار ودلالاتهما في الدعوة إلى الله تعالى) - حلمي عبدالمنعم صابر ، ص ١٢٠ ، وما بعدها بتصرف .

والتعبير القرآني ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يبين أن الليل والنهار موجودان في نفس الوقت، وهذا يعني أن الأرض لا بد أن تكون كروية .

فالليل لن يسبق النهار لأنهما يعتمدان على شئ واحد هو دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، وهذا الدوران بسبب تعاقب الليل والنهار وحركة الشمس الظاهرية . واضح أن النهار قشرة كروية منيرة من غلاف الأرض تتحول بتحريك الأرض حول محورها بحيث تواجه الشمس دائماً ويكون نصف الغلاف الجوي الآخر ليلاً^(١).

ويعرض فضيلة الشيخ الشعراوي خواطره القرآنية في هذه الآية الكريمة فيسأل ... ما معنى ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ المعنى هنا نفى لشيء موجود غير صحيح يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه ، يريد أن يزيل هذا الواقع الخاطئ .. العرب كانوا يقولون أن الليل يسبق النهار .. واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس .معنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من شعبان والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان .. وإذا كان العرب يقولون أن الليل يسبق النهار فمعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل .. إذن وجدت عندنا حقيقتان ، الليل يسبق النهار والنهار لا يسبق الليل تركها الله .. ولم يتعرض لها لأنها حقيقة ، ولكنه جاء إلى كلمة أن الليل يسبق النهار ورد عليهم بقوله تعالى ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ .

إذن وجدت عندنا حقيقتان .. لا النهار يسبق الليل ولا الليل يسبق النهار .. لا النهار يسبق الليل حقيقة كانت موجودة ولم يتعرض لها القرآن لأنها حقيقة .. لا الليل يسبق النهار خطأ كان موجوداً فصححه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ إذن لا النهار يسبق الليل ولا الليل يسبق النهار ، معنى ذلك أن الليل والنهار يوجدان معاً في وقت واحد على الأرض ، لأن النهار لا يسبق الليل .. والليل لا يسبق النهار .. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض كروية .

ولكن ليس هذا هو القصد النهائي من الآية ... الله سبحانه وتعالى أراد أن يصحح هذه الحقيقة ويقرر أن الليل والنهار موجودان معاً على الأرض ليلغنا عن حقيقة خلق الأرض لو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض مسطحة .. فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق في مواجهة السطح وحينئذ يكون النهار قد وجد أولاً .. ثم يأتي بعد ذلك الليل ، وإما أن تكون الشمس غير مواجهة للسطح ساعة الخلق .

ومن هنا يكون الليل قد أتى أولاً ... ثم بعد ذلك يأتي النهار ، ولكن كون الله سبحانه وتعالى يقول لنا ان النهار والليل خلقا معا .. لم يسبق أيهما الآخر دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض كروية لأنه حدد الشكل الوحيد الذي يوجد فيه الليل والنهار على سطح الأرض

(١) أنظر الإسلام وسنن الوجود - د. الفندي ص ١٨٥ طبعة ١٩٨٢ م.

معا ساعة الخلق ، وهكذا نرى القرآن قد مس حقيقة مهمة في آية أو جزء من الآية ، يريد الله أن يخبرنا فيه بأنه خلق الأرض على هيئة كروية ... وأنه أوجد الليل والنهار معاً عليها .. فيقول سبحانه ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ .

وعندما يتقدم الذهن البشري ويبحث ويعرف معنى الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بكل هذه الحقائق عن خلق الأرض على هيئة كرة وخلق الليل والنهار معاً .. في بضع كلمات ^(١) . ثم يلفت الأنظار إلى مشهد آخر من مشاهد الكون الدالة على عظمة خالقها بما فيه من متعة للنظر وعبرة لأولى البصر ، ومجال للتأمل في صنع الله وعظمة في آيات الله ، قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ن وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ ^(٢) ، هذا المشهد العجيب الذي يلفت القرآن الكريم النفوس الغافلة إليه بربطه بمشهد آخر هو مشهد الليل والنهار وتكررهما وتقلبهما ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ^(٣) ، إن القرآن الكريم يوقظ القلوب ويوجهها إلى هذا الكون الفسيح ، يجدد فيها معاني جديدة - بعد أن كادت الألفة أن تظمسها من النفوس - ويوجد فيها انفعالاً جديداً بعد إزاحة ما علق بها من صدى الغفلة ، وما ران عليها من حجب المعصية ، فالله تعالى يسوق السحاب برفق وسهولة ، ثم يضم أجزاءه بعضها إلى بعض ثم يركم بعضها فوق بعض ، فيظهر للناظر كالجبال الشاهقة تصادم بعضها ، ينتج عن ذلك التراكم والتصادم والاحتكاك هطول المطر من خلاله ، وينزل من الغمام المرتفعة في الأجواء العليا حيث البرودة القوية من برد كقطع الجبال ، والمراد بالسما هنا هو الغمام كما يبدو لي فكل ما علاك فهو سما في اللغة كما حققه العلماء ، يقول أبو السعود في تفسيره :

(والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تتخللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهوى وقوى البرد أجمع هناك وصار سحاباً ، وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً ، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً ، وإلا نزل برداً وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض وينعقد سحاباً وينزل منه المطر أو الثلج ، وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ومشيبته المبنية على الحكم والمصالح) ^(٤) .

(١) إنظر معجزة القرآن - محمد متولي الشعراوي ص ٩٢ ط ١٩٨١ بتصرف

(٢) سورة النور : آية (٤٣)

(٣) سورة النور : آية (٤٤)

(٤) تفسير أبو السعود ص ٤ ، ص ١٣٢ ، ط السعادة

وقوله تعالى " ﴿ فيصيب به ﴾ أي البرد (من يشاء) أن يصيبه من عباده فينال الضرر في النفس أو المال أو فيهما ﴿ ويصرفه عن من يشاء ﴾ فينجو من غائلته ، وفيه من التهويل مالا يخفي وذلك في قوله : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ أي أن ضوء البرق الساطع المنبعث من السحاب المتراكم يكاد يخطف الأبصار من فرط الإضاءة ، وسرعة ورودها ، وفيه بيان لشدة تأثيره في الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة الإلهية ، وفي قلب الليل والنهار عدة معان منها : المعاقبة بينهما ، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغير أحوالهما بالحر والبرد ^(١) .

ويأتي مشهد الليل والنهار هنا في دلالة على قدرة الله عز وجل ، يصور لنا آثار القدرة وهي قلب الليل والنهار ، فيتتابع الليل وراء النهار ، والنهار وراء الليل في حركة مستمرة ويزيد الليل في الشتاء وينقص في الصيف ، ويختلف الليل والنهار وتتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ، والزيادة والنقصان وفي مظهر الشروق والغروب والضحي والظهيرة عبرة لأصحاب البصيرة ، إذ يتأملون في مظاهر هذا الكون ، وتنفس الصباح وتشابك النجوم وتألّق البدر ، فيتجدد إحساسهم مع التأمل والتفكير والتدبر في بديع صنع الله ^(٢) .

وإذا كان لهذا المشهد في قلب الليل والنهار من الأثر على القلوب والعقول ، ما يجعلها تشهد بوحداية الخالق وقدرته ، فإنه مما يزيد في جلال هذا المشهد أن يأتي بدلائل الملك والقدرة والهيمنة فتراها في تسبيح كل الكائنات وتقديسها لبارئها حتى الطيور وهي تخلق بقدرة الله في أجواء الفضاء ، وفي علم الله الذي وسع كل شيء ، ومملكه الذي شمل كل شيء ، فلا يخفي عليه من أمر الكائنات خافية ، فهو مدبر أمرها ومسير شأنها ، ومسخر السحاب ، ومنزل الأمطار ، ومقلب الليل والنهار ، وخالق كل دابة من ماء ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟ بلى وهو على كل شيء قدير .

ولا تكون هذه الدلالة إلا لأولى الأبصار ، فهم أهل العقول النيرة التي استنارت بنور الإيمان فأبصرت حقائق الكون شاهدة على فاطرها ، فهم وحدهم الذين يستفيدون من العبرة ، ويتعظون بالمشاهدة ، ويتفكرون بالتوجيه الرياني .

ومضي السياق القرآني في عرض مشهد آخر من مشاهد الكون يستثير تطلّعنا إليه فيعرض نشأة الحياة من أصل واحد وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة .

(١) تفسير أبو السعود ص ٤ ، ص ١٣٢ ، ط السعادة

(٢) تفسير الآيات الكونية - د. عبد الله شحاته ص ١٨١ - ط دار الإعتصام ط الأولى سنة ١٩٨٠م

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(١) .

ثم يعقب بعد ذلك بذكر إنزال الآيات البيّنات لكل ما يليق بيانه من الأدلة الكونية والأحكام الدينية ، ثم نسب حق الهداية له وحده فمن شاء هداه فوفقه للنظر الصحيح ، والتأمل السليم ، وهداه إلى صراط مستقيم فأدرك حقيقة الحق وفاز بالجنة والنعيم المقيم ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢) .

والقرآن الكريم بأسلوبه الخاص في تقرير الوجدانية ينوع الأدلة تارة في الكون ، وحيناً في الآفاق ومرة في الأنفس ، ويتخذ مع الإنسان طرقاً شتى في سبيل إقناعه وإقراره بوجدانية الله تعالى ، رباً ومالكاً ومعبوداً لا شريك له ولا ند ولا مثيل^(٣) .

وبعد هذا العرض الموجز لتلك النصوص المتناظرة التي تتناول مشاهد الآيات الكونية المشتملة على دلالات وإيجازات عظيمة ملزمة بالإعتراف بوجدانية الله تبارك وتعالى ، نجد أنفسنا أمام نقطة يجب التوقف عندها لنزيح اللثام عنها ونبين وجه الحق فيها وهي : تلك التعبيرات المختلفة عن ذلك المشهد الواحد وهو تعاقب الليل والنهار وتتابعهما - فكما رأينا فيما سبق من النصوص - تارة يعبر عنه بالإيلاج ، وتارة بالتكوير ، وتارة بالسليخ ، وتارة بالتغشية ، وتارة بالتقليب ، وتارة بالخلفة ، وتارة بعدم سبق أحدهما على الآخر ، فهذه الألفاظ تعطي معاني مختلفة وتقدم عطاءات جديدة حول هذه المشاهد التي تهتز لرؤيتها القلوب وتوقن بأن وراءها يداً خلقت فأبدعت ، سبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

(١) سورة النور : آية (٤٥)

(٢) سورة النور : آية (٤٦)

(٣) إنظر تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم - د. أحمد محمد يحيى المقرئ ص ١٨٣ - دار حافظ للنشر سنة

النص الرابع :

يقول الله في سورة القصص ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١).

والنص هنا مسوق لبيان مظاهر التدبير والعناية للخلق ، ومظاهر النعم على البشرية في آن واحد ، وإن أدنى التفاتة إلى تلك المظاهر ، لتدل على وجود الصانع ، وإثبات الوجدانية له - ووجوب الكمال المطلق لجلاله ، وتوجب الحمد والشكر له في الأولى والآخرة على ما أفاض علينا من نعم والتي من أجلها نعمة الليل والنهار في تعاقبهما وتتابعهما بانتظام تتوقف عليه حياة الناس وسائر الأحياء ، فلو أصبحت الحياة ليلاً دائماً أو نهاراً دائماً لتعرض كل شيء فيها للتلف والبوار ، ولما استطاع أحد غير الله أن يأتي بالليل عقب النهار وبالنهار عقب الليل .

" والنص هنا ينبه الناس إلى حقيقة يجب أن يعرفوها ويعوها وهي أنه تعالى لو خلق الأرض بحيث تكون ليلاً دائماً أو نهاراً دائماً ، لما كان هناك إله غير الله يهب الأرض ليلاً ونهارها ، ويعاقب بينهما لتخلق عليها الحياة ويبقى الأحياء ، ولو كانت الأرض قد دارت حول محورها ، وحول الشمس غير دورتيها الحاليتين ، واللتين يتخلق عنهما الليل والنهار وفصول السنة ، لاستمر الظلام في نصفها واستمر الضياء في نصفها الآخر ، فارتفعت الحرارة في المضيء وأحترت الحياة فيه ، وانخفضت في المظلم فجمدت فيه الحياة ، أما الدورتان الحاليتان فإنهما تكفلان الليل والنهار ، فينشأ السكون في الليل وينشأ السعي في النهار ، ويتهيأ الجو لحياة الإنسان والحيوان والنبات وهو فضل من الله على عباده يستدعي الإقرار بوجدانيته وقدرته ودوام حمده وعبادته ، ومن أجل ذلك عقب القرآن على الآيتين بقوله ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وأيده بنظير آخر في سورة الفرقان فقال ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ (٢) .

والآيات هنا تلفت النظر إلى ظاهرتين كونيتين غفل الناس عنهما لطول الألف والتكرار ، إنهما نعمتا الليل والنهار ، نعمة الليل في سكونه وهدوئه وكونه للراحة والنوم ونعمة النهار في ضوئه وحرارته وكونه للحركة والسعي والعمل " والناس يشناقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل في أيام

(١) سورة القصص آية (٧٠-٧٣)

(٢) المنتخب في تفسير القرآن ص ٥٨٦ ، ص ٥٨٧ الطبعة السابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية . وسورة الفرقان الآية : (٦٢)

الشتاء ، ويخنون إلى ضوء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب فكيف بهم لو فقدوا الضياء ودام عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ؟ وذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء ، وإن الحياة كلها معرضة للتلف والبوار لو لم يطلع عليها النهار .

والناس أيضاً يستروحون الظلام حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار ويخنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف ، ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار ، والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار ، فكيف بالناس لو ظل النهار سرمداً إلى يوم القيامة ؟ على فرض أنهم يظلون أحياء ، وإن الحياة كلها معرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار ، ولكن الله عز وجل جعل الليل والنهار متعاقبين متتابعين لتصلح معه حياة الكائنات^(١) . وإذا كان الله عز وجل يمتن علينا في هذه الآيات بنعمتى الليل والنهار وتعاقبهما وما يترتب عليهما من نعمتى السكن والسعي ، فقد جاءت نظائر أخرى في القرآن توضح بجلاء أبعاد النعم التي رتبها الله عز وجل على تتابع الليل والنهار فقال سبحانه في سورة الروم ﴿ ومن آياته منامكم الليل والنهار وابتغواؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ ، والحق جل جلاله يمتن علينا في هذه الآية بأن النوم من آياته ، لينبه الغافل ويوقظ الخامد ، حتى يبحث عن سر الخلقه وفائض الرحمة ، ويدرك العقل فنون النعم ، وفي الآية هنا إشارة من القرآن إلى أن راحة النوم تعادل إبتغاء الفضل وهما معا متساويان في تعديل شأن الحياة وتوفير القوى لدوامها ، كما تشير أيضاً إلى أن النوم والسعي للراحة والرزق قد يقعان في الزمنين بالإختيار فيمن يتساوي عندهم الليل والنهار أو يقربان من التساوي ، أما الذين لا يستويان عندهم - وهم من يسكنون طرفى الأرض عند القطبين فإنهم ينامون في نهارهم وليلهم بقدر الحاجة والاضطرار ، لأن الليل والنهار يمتدان عندهم إلى شهور حتى يتعاقبا ، فلم يهمل القرآن في هذه الآية حكماً للنور والظلمة وما يصنعان على الأرض من اختلاف قياسهما فيقع النوم واليقظة فيهما جميعاً ، كما شملت الآية جميع أحوال الناس ، كوقت القيلولة نهاراً فيمن ينامه ، ووقت العمل للحراسة ليلاً فيمن يتيقظه . وفي الآية هنا - كما قال الزمخشري - لف ونشر ، وترتيبها : ومن آياته منامكم وابتغواؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا إنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين لأنهما زمانان ، والزمن والواقع فيه كشئ واحد ، مع إعانة اللف على الاتحاد ، ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغواؤكم فيهما كوقت القيلولة نهاراً ووقت العمل للحراسة ليلاً^(٢) ، من غير ضرورة إلى القول اللغوي باللف والنشر وهذا أولى لما فيه من العموم الذي يعم الكرة الأرضية كلها ، والنوم والسعي سكون وحركة يدركان بالسمع ، ومن

(١) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٢٧٠٨

(٢) تفسير الكشاف ج٢ ، ص ١٨٦

هنا يتناسق هذا التعقيب في الآية القرآنية مع الآية الكونية التي تتحدث عنها - على طريقة القرآن الكريم ، وذكر الشيخ الألووسي رحمه الله ، وقول الطيبي مبيناً الحكمة من ختم الآية بقوله سبحانه ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾ جئ بالفاصلة هكذا لأن أكثر الناس متمدنون بالليل كالأموات ومترددون بالنهار كالبهائم لا يدرون فيم هم ، ولم ذلك ، لكن من ألقى السمع وهو شهيد يتنبه لوعظ الله تعالى ويصغي إليه ، لأن مر الليالي وكر النهار يناديان بلسان الحال الرحيل الرحيل من دار الغرور الى دار القرار " (١) .

والنوم في الحقيقة هو من أجل النعم في حياة الناس ، ويكاد كثير من الناس لا يحصون هذه النعمة ، وقد أجاد الشهيد سيد قطب في التعبير عن هذه النعمة فقال : من فضل الله ، وتدبيره لحياة البشر أن جعل النوم سباتاً يدرّكهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ويجعلهم في حالة لا هي موت ولا هي حياة تتكفل براحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذي بذلته في حالة الصحو ، وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لا يدرك الإنسان كنهها ، ولا يعلمها إلا من خلق هذا الحي وأودعه ذلك السر وجعل حياته متوقفة عليه ، وفي النوم أسرار أخرى فهو هدنة للروح من صراع الحياة العنيف ، وكثيراً ما يحدث النوم بعد حالات الأعصاب المكدودة والنفس المنزعجة انقلاباً تاماً في كيان الإنسان وكأنه كائن جديد ، كما حدث للمسلمين في غزوة بدر حينما منّ الله عليهم بالنعاس فقاموا منه وقد ذهب روعهم وتثبت قلوبهم ، وذابت كل همومهم كما قال تعالى ﴿ **إِذْ يَغْشِيكُمْ النَّعَاسَ أَمَنَهُ مِنْهُ** ﴾

وحقيقة النوم الذي يعتري الخلايا بالسكون الخامد لم تفت القرآن دقتها فعبّر عن النوم بالوفاة مرة وبالسبات أخرى فقال سبحانه في سورة الأنعام ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ وقال سبحانه في سورة الفرقان ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سَبَاتًا * وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا** ﴾ وقال أيضاً في سورة النبا ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سَبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾ ، ولم يكن ذلك السبات أو النوع من الموت إلا الحقيقة العلمية نفسها ، والتي كانت انقطاعاً للنائم المسبوت ، ومفارقة حياة الأعمال والأفكار - ما عدا الرؤي والأحلام - حتى إذا أخذ القطع والمفارقة حظهما عاد الناس في الصحو إلى ما يفعلون وفي الصحو إلى ما يجرحون .

وقد ذكر الألووسي في معنى "سباتاً" أي راحة للأبد بقطع الأفاعيل التي تكون حال اليقظة، وأصل السبت القطع ، والسبت الإقامة في المكان ، فكان النوم سكوناً ، ويجوز أن يراد بالسبات الموت لما فيه من قطع الإحساس أو الحياة ، وعبر عن النوم به لما بينهما من المشابهة التامة في انقطاع

(١) الألووسي ج ٢١ ، ص ٣٢

أحكام الحياة ، وعليه قوله تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ وقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ (١).

وذكر الفخر الرازي عند قوله تعالى ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ أي قطعاً ، ثم عند هذا يحتمل وجوها .

الأول : أن يكون المعنى وجعلنا نومكم نوماً متقطعاً لا دائماً ، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء ، أما دوامه فمن أضر الأشياء فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا حرم ذكره الله تعالى في معرض الإنعام .

الثاني : أن الإنسان إذا تعب ثم نام فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب فسميت تلك الإزالة سباتاً وقطعاً ، وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة (وجعلنا نومكم سباتاً) أي -راحة) وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة ، بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله فحيثما تحصل الراحة (٢) .

وهكذا نرى أن لفظ السبت أو الوفاة قد عبرا عن حقيقة النوم في عمق بالغ فحينما ينام الإنسان فإنه ينقطع عن كل الأحاسيس والأفاعيل الظاهرة ويسكن سكوناً يكون معه الراحة ويزول معه التعب ، وهو في تلك الحالة أشبه بالمت الذي ينقطع علائقه بالحياة ، وليست حالة الانقطاع هذه بدائمة بل هي متقطعة ومتعاقبة لكي يعود الإنسان الى اليقظة والسعي بعد السكون والراحة وتستمر عجلة البناء للحياة .

(وقدرياً حاول ابن عباس - رضى الله عنه - أن يفرق بين قوي الجسم في النوم واليقظة تفريقاً مجملأ فأصاب الفكر وحقق النظر ، فرأى في ابن آدم نفساً وروحاً ، بينها مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والحياة ، أما الروح يجناحيها فتتوفى عند الموت ، فأما النفس فهي وحدها التي تتوفى في النوم ، وشعاع الشمس الذي مثل به ابن عباس الإرتباط بين النفس والروح ، هو نفسه الذي رآه العلم الحديث في ترابط أجهزة البدن كلها ترابطاً محكماً ، ولكنه دقيق المرأى خفي السر ، ومهما ظهر آثاره فهو أدق من أن يرى ..) (٣) .

ولعلنا نرى الصلة القوية - كما يصورها القرآن - بين الليل في لباسه ووقوع النوم فيه ، فمن تدبير الله ونعمته أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء ، وكما أودع الله في الإنسان سر النوم والسبات بعد العمل والنشاط فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباساً ساتراً يتم فيه السبات والانزواء ، وظاهرة النهار ليكون معاشاً تتم فيه الحركة والنشاط ، وبهذا يتوافق خلق الله

(١) الألوسي - المجلد السابع ج - ١٩ ، ص ٢٩ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ج - ٣٠٢ ص ٧ مكتبة التوام عبدالرحمن محمد - الطبعة الأولى .

(٣) من إشارات العلوم في القرآن ص ١٥٢ للاستاذ/ عبدالعزيز سيد الأهل - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٨٠م - مصر .

ويتناسق ، فيكون هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء ، ويعلق الشيخ الألوسي - رحمه الله - حول قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ... ﴾ بقوله إنه بيان لبعض بدائع آثار قدرته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق ، وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه ، وفي تعقيب بيان أحوال الظل بيان أحكام الليل الذي هو ظل الأرض من لطف المسلك مالا يزيد عليه - ثم يقول - أي وهو الذي جعل لنفعمكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ، وجعل النوم الذي يقع في الليل غالباً "سباتاً" أي راحة للأبدان بقطع الأفاعيل التي تكون حال اليقظة، ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أي ذا نشوراً ينتشر الناس فيه لطلب المعاش فهو كقوله ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أو إنه أراد بالنشور البعث ، أي وجعل النهار زمان بعث من ذلك السبات ، أو نفس البعث على سبيل المبالغة ... (١) .

ومن هذا ندرك أن الليل هو أنسب الأزمنة واليقتها للنوم ، لأنه يلف ما يكون من الأرض بلون واحد ، ومن شأن هذا الجلباب الدامس أو هذا الليل الذي يكون طمساً لا لون له ومحوا لا ظهور فيه ، كما أشار سبحانه في قوله تعالى ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ - من شأن هذا الجلباب الدامس أو هذا الليل المحو ضوءه والذي يكسو الخليفة ويرخي بذيله على كل ما يمر به - من شأنه أن يدعو إلى السكون في كل شيء أو الميل إليه ، ولذا كان النوم فيه أو فيما يشبهه أهدأ والراحة فيه أهدأ إذ تسكن بذور الخلايا حيثذ في أغلفة متراكبة من الهدوء ، وتغيب في أردية متكاتفه من السكون وأشد ما تكون حاجة الإنسان في البلاد المعتدلة إلى نوم الليل ، وقد يستغني عن نوم القيلولة الذي يدفع إليه الحر ، ولم يجأر أحد بالشكوى من أرق يصيبه في القيلولة ، فقد يكفي فيه الانزواء والاسترخاء ، وإنما جأر المرضى وأصحاب الهموم بالشكوى من أرق الليل ، أنهم يفقدون ملجأهم في مكانه وشفاعهم في زمانه .

وأن تعبير القرآن عن الليل باللباس فيه من الحكم ما فيه ، فهو سبحانه جعل الليل سترًا للخلق ، يقوم مقام اللباس في ستر البدن ، غير أن يكون هذا السر مبيحاً للعيوب ولا لارتكاب الذنوب ، وهكذا لم ير الإسلام أن يكون الليل - مهما ستر واخفى - غير مبيح للعيوب حتى لمن يتقرب الى الله بالعبادة والصلاة فيه أن يكفي بستر الليل العام دون ستر الثوب الخاص - فحرم الفقهاء أن يصلى الرجل عرياناً في بيته مهما أغلق عليه بابه ، وهو إدراك لطيف وحكم دقيق ، لأن الليل مهما ستر وحجب ، فإن ستره وحجبه ليسا من صنع الإنسان الذي تطالبه القرية في الدين ببذل الأدب والإحسان في الطلب .

(١) روح المعاني للألوسي - المجلد السابع ج ١٩ ، ص ٢٩ .

وإذا كان الليل أهدأ للنفس وأحلد للنوم ، فقد رآه الصالحون أجمع للبال وأفرغ للقلب ،
فأنسوا الى وحشته وجعلوه مركب النجاة وموئل المناجاة ، فقالوا لربهم مغبتين ، وكانوا قليلاً من
الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون .

وإذا كان الله سبحانه يمن علينا بنعمة السر في الليل - بما ذكرنا طرفاً من آثارها - فإنه
كذلك - أي الليل - ساتر عن العيون حينما يريد الإنسان هرباً من عدو أو نياتا له ، أو اخفاء مالا
يجب أن يطلع عليه أحد في كثير من الأمور وهو كذلك أعون للهجرة والنقلة كما أشار - صلى الله
عليه وسلم - في قوله : (عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل) (١) ، وقوله : (واستعينوا
بالغدوة والروحة وبشيء من الدجلة) (٢) .

ثم انظر إلى بيان نعمة الله تعالى في جعله الليل للسكن وجعله النهار مبصراً للسعى والعمل ،
فيقول سبحانه في سورة يونس ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في
ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ (٣) .

سكون وحركة يدر كان بالسمع ، فهذه ظاهرة كونية تعتمد على السمع ، فإذا سمع الإنسان
صوت الحركة وديب النشاط أدرك أن النهار سطع ، وإذا سمع سكوناً وهمساً وصمتاً أدرك أن الليل
هبط فحق النوم .

آية كونية تعتمد على السمع أكثر من البصر فالذي فقد نعمة البصر يدرك بسمعه حلول
الليل وإشراقه النهار ، وتعاقب الليل والنهار لآية من آيات قدرة الله وعظمته التي تدعو الإنسان ذا
القطرة السليمة الى الإيمان الكامل (٤) .

وقوله سبحانه في سورة النحل ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً أن في
ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وقوله تعالى في سورة غافر ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه
والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر
حساباً ﴾ وقوله تعالى في سورة النازعات ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾
وقوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية
النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

١ (أخرجه أبو داود - كتاب الجهاد - باب بالدجلة ٢٨/٣ رقم (٢٥٧١) وذكره الألباني في صحيح أبو داود ٤٨٨/٢ رقم (٢٢٤١) وقال عنه صحيح .

٢ (جزء من الحديث أخرجه البخاري - كتاب الإيمان - باب الدين يسر ١١٦/١ رقم (٣٩)

٣ (سورة يونس : آية (٢٣)

٤ (اعجاز القرآن في حواس الإنسان - د. محمد كمال عبدالعزيز ص ٢٨ - مكتبة القرآن - القاهرة سنة ١٩٨٢ م.

إن هذه النظائر تؤكد مطلباً أثبتته العلم الحديث وهو أن السكون بالليل ضرورة لكل حي ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيها الخلايا الحية ، ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون بل لابد من ليل ، ولا بد من ظلام ، فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل الى حد من الإجهاد تتلف معها نسجتها لأنها لتمتع بقسط ضروري لها من السكون ، وليس هذا مطلباً خاصاً بالإنسان بل شاركه فيه كثير من الكائنات الحية أن لم يكن أغلبها .

ويعن الله علينا بأن جعل الليل والنهار مسخرين بأمره متعاقبين بفضلته فلم يترك أمرهما لأحد، حتى ولا لذواتهما ، لكي لا تعطل مصالح العالم ، ويحتل نظام الحياة ، يقول سبحانه في ذلك الشأن في سورة إبراهيم ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ ، ويقول في سورة النحل ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لايات لقوم يعقلون ﴾ ويقول سبحانه في سورة الأنبياء ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ (١) .

وتسخير الليل والنهار في تعاقبهما وكون كل منهما يخلف الآخر لنا من استراحتنا بالليل ، وسعيها في مصالحنا من تعهد الزرع وغير ذلك بالنهار ، ومعنى تسخير الشمس والقمر أنهما يدأبان في سيرهما وأنارتهم اصالة وخلافة وأدائهما ما ينط بهما من تربية الأشجار والزررع وأنضاج الثمرات وتلوينها وغير ذلك من التأثيرات المترتبة على ذلك بإذن الله ، ولا تخفي العلاقة بين الليل والنهار والشمس والقمر ، ولذلك غالباً ما ترد هذه الأربعة في معرض السياق الواحد في كثير من آيات القرآن الكريم ، ويقول الشيخ محمد نجيت المطيعي : (إن أصل التسخير السوق قهراً ، ولا يصح إرادة ذلك أن القهر والغلبة مما لا يعقل فيما لا شعور له من الجمادات والليل والنهار ، فهو هنا مجاز عن الأعداد والتهيئة لما يراد من الانتفاع ، وفي ذلك إيحاء إلى ما في المسخر من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين) (٢) .

وقد عبر الله تعالى في أوجز عبارة عن الدلائل التي توحى بها آية الليل والنهار فقال سبحانه ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ فالليل والنهار آيتان من ضمن آيات الله التي لا تتناهي ، فهما دلالة وعلامة على وجود الصانع والقادر ، وهما دلالة على وحدانية الخالق ، وهما دلالة على العناية والتدبير في شأن الخلق ، وهما دلالة على النعم التي لا تحصى بسبب وجودهما وتعاقبهما بهذا الانتظام .

١ (سورة الأنبياء : آية (٣٣))

٢ (توفيق الرحمن للتوفيق بين ما قاله علماء الهيئة وبين ما جاء في الأحاديث الصحيحة وآيات القرآن لشيخ محمد نجيت المطيعي - مطبعة السعادة بحوار محافظة مصر - الطبعة الأولى ، ص ٩١ .

ليل، ولا ليلها إلى نهار ، ولكنه فضل الله كما يمتن علينا بأن جعل الليل سكناً ، وجعل فيه النوم - غالباً - ولتمام نعمة النوم جعل الليل مظلماً ، حيث أن الظلام أنفع وأجدى في النوم والراحة ، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ، وأغطش الليل وأخرج الضحى وجعل الليل لباساً وجعل النهار معاشاً، وخلق الإصباح وجعل الليل سكناً ، وجعل لنا الليل لنسكن فيه وجعل النهار مبصراً ، وخلق لنا الليل والنهار وجعلهما مسخرين منقادين لما خلقنا له ، لا يتخلفان ولا يختلان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وجعل ذلك آية وعلامة على رحمته السابقة على خلقه ، وآية على وجوده وقدرته وعلى وحدانيته وتمام كماله وعجز ما سواه ، كما جعلها آية صدق على البعث بعد الموت .

النص الخامس :

قال سبحانه وتعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ (١) .

يوجه القرآن الأدلة من النفس الإنسانية ذاتها الى النفس الإنسانية ، إذ للنفس على الألوهية دليل ، ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ ، ذلك أن الكائن البشري نفسه آية كبرى ، في جسده وروحه ، في تركيبه من قبضة الطين ونفخة الروح ، في تكوينه من نطفة ثم علقه ، ثم مضغة ثم عظام ثم تكسى العظام لحماً ثم يكون إنشأؤه خلقاً آخر ، فكل فرد من بني الإنسان عالم مفرد لا يتكرر في ملاحظته وتفكيره وإدراكه وحتى في بصمات أصابعه ويحسن أن نذكر طرفاً يسيراً جانبياً من جوانب هذا العالم الدقيق البديع الموجود في جسد الإنسان الدال دلالة قاطعة على قدرة الله العظيمة التي قامت بهذا التجهيز المتناهي في الدقة ويتمثل هذا الجانب في الغدد الصماء في الإنسان تلك المعامل الكيماوية " إنها تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتي تبلغ من قوتها أن جزءاً من بليون جزء منها يحدث آثاراً خطيرة إن توقف عن الإفراز ، وهي مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى " (٢) ، ﴿ فسبحان الخلاق العليم ﴾ .

هذه الآيات الكريمة تبين الأطوار (٣) التي ينقلب فيها الإنسان - بقدره الخالق الواحد الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير- من طور إلى طور وتمثل هذا الأطوار فيما يلي:

الطور الأول : ذكره الله في قوله ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ والسلالة هي الخلاصة التي تُسَلَّ من بين الكدر ، وقال ابن عباس وعكرمة المراد منه آدم عليه السلام فهو الذي سُلَّ من طين ، وأما ذريته فمن ماء مهين .

والطور الثاني : ذكره في قوله : ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ أي سبحانه وتعالى بعد أن خلق أولاً جوهر الإنسان من طين أو الجنس الإنساني وهو المتمثل في آدم عليه السلام جعل تكرار أفراده عن طريق نطفة في قرار مكين . إنها نطفة واحدة تخرج من صلب الرجل وتستقر في رحم المرأة بل إنها خلية واحدة من عشرات الألاف من الخلايا الموجودة في تلك النطفة فانظر إلى

(١) سورة المؤمنون آية (١٦،١٢)

(٢) انظر تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم د. أحمد المقرئ ص ١٧٨ ومنهج القرآن في التربية لمحمد شديد ص ٩٧

(٣) انظر الدعوة الإسلامية - منهجها ومعالمها - د. أحمد عمر هاشم ص ١٦٤-١٦٥ - مكتبة غريب سنة ١٩٩٠م. وتفسير أبو السعود ج ٤ ص ٥٣

مدى قدرة الله تعالى ومدى رحمته سبحانه ، أن جعلها ثابتة فى الرحم بين عظام الحوض لتحفظ من التأثيرات والتحركات فالمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر .

الطور الثالث : فى قوله تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ وذلك عندما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى وتعلق هذه بجوار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر يكون غذاؤها عن طريق دم الأم وإنما لقدرة عظيمة تلك التى حولت النطفة البيضاء إلى علقة حمراء ومن صفاتها الأولى إلى صفات العلقة وهى الدم الجامد .

الطور الرابع : فى قوله تعالى : ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أى جعلها قطعة لحم بمقدار ما يمضغ ، ويسمى التحويل خلقاً لأنه يفتى أعراضاً ويخلق أعراضاً أخرى .

الطور الخامس : فى قوله تعالى : ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ أى صيرناها عظاماً ، وشكلها سبحانه فكانت ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبتها وعروقها .

الطور السادس : فى قوله تعالى : ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ فىكون اللحم كالكسوة للعظم ، وهنا يثبت القرآن الكريم حقيقة علمية رائعة سبق بها العلم الحديث الذى لم يعرفها إلا بعد تقدم علم الأجنة وهى إن خلايا العظام غير خلايا اللحم وإنها تتكون أولاً فإذا تمت كانت خلايا اللحم التى تكسوها بعد ذلك .

الطور السابع : فى قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أى خلقنا خلقاً مختلفاً عن الأولى حيث انتقل من الجمادية إلى الحيوانية وكان أبكم فصار ناطقاً ومنحه السمع والبصر وغير ذلك من الخلقة الإلهية العظيمة التى تتمثل فى صورة البدن والروح والقوى ينفخه فيه ، فتبارك الله أى تعالى شأنه فى قدرته وحكمته أحسن الخالقين المقدرين تقديراً .

الطور الثامن : فى قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ أى صائرون إلى الفناء والموت وليس هذا نهاية الأطوار كما يظن البعض وإنما هو نهاية الحياة الدنيا وطور من أطوار النشأة الأخيرة .

الطور التاسع : فى قوله تعالى ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ ، وهنا نلاحظ أن الله تعالى جعل الموت الذى هو نهاية الحياة الدنيا ، وجعل البعث الذى هو إعادة ما أنهاه وأفناه جعل هذين دليلين أيضاً على عظيم قدرته وهو سبحانه وتعالى بهذه الأدلة التى ساقها قد أعطى الإنسان دليلاً قوياً ومحسوساً يجب أن يؤمن به عن إقناع كامل ويقين راسخ وأن تلك الأدلة إنما جاءت من أقرب طريق من أطوار خلق الإنسان وتقلبه بين الحياتين الدنيا والآخرة ، وعن خلق آدم من الطين روى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى عن النبي ﷺ قال : ﴿ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها

من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ،
والسهل والحزن والحبيث والطيب وبين ذلك ﴿ (١) .

وعن معنى قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ .. يقول ابن كثير (٢) : يعنى نفخنا فيه
الروح ، وقال العوفي عن ابن عباس "" ثم أنشأناه خلقاً آخر "" يعنى تنقله من حال إلى حال إلى أن
خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً ثم احتلم ثم صار شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمأ ، وقد روى مسلم فى
صحيحه عن عبد الله - هو ابن مسعود ؓ قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ﴿ إن
أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك
مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله
وعمله وهل هو شقي أم سعيد ، فالذى لا إله إلا غيره إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى
ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم
ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة
فيدخلها ﴾ (٣) .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : مرَّ يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه
فقال قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي فقال : لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي قال فجاء
حتى جلس فقال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال ﷺ : (يا يهودي من كل نطفة الرجل
ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة
منها اللحم والدم) فقام اليهودي فقال (هكذا كان يقول من قبلك) (٤) .

فقد أشارت الآيات كذلك إلى أصل خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام ، إذ كان
خلقته من طين ، كما تحدث عن ذلك الكتاب العزيز ، أما نسله فقد جعله البارئ جل وعلا من تلك
النطفة التى خلقها ، وهى لها الأسباب الموصلة لها إلى مستقرها ، ذلك القرار المكين .

يقول ابن القيم : (فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة ، هي قطرة من ماء مهين ، ضعيف
لو مرت بها ساعة - أي لحظة - من الزمان فسدت وأنتنت ، كيف استخرجها رب الأرباب العليم
القدير من بين الصلب والترائب ، متقادة لقدرته مطبوعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها ،
واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها وجمعها ...

(١) أخرجه أبو داود - كتاب السنة ، باب فى القدر ٢٢٢/٤ رقم (٤٦٩٣) ، والترمذي فى كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة
البقرة ٢٠٤/٥ برقم (٢٩٥٥) وقال حسن صحيح وأحمد ٤٠٠/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢ دار الأندلس .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب القدر ٢٠٣٦/٤ برقم (١) .

(٤) أخرجه أحمد ٤٦٥/١ .

وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء ، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قراراً مكيناً ، لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ، ولا عارض يصل إليه ، ولا آفة تتسلط عليه ، ثم قلب تلك النطفة البيضاء إلى علقة حمراء مبيئة للنطفة ، ثم جعلها مضغة لحم ، مبيئة للعلقة في شكلها ولونها وحقيقتها ، ثم تحويل تلك المضغة عظاماً مجردة لا كسوة عليها مبيئة للمضغة كل المبيئة في الشكل والهيئة ، والقدر والملمس ، ثم كيف قسمت تلك النطفة الحمراء إلى تلك الأجزاء المتشابهة ، وبالمقدار المناسب لكل عضو ، ثم اتجاه كل جزء أو خلية إلى مكانها المناسب في وقتها وأوانها على حسب الحاجة إليها ، فمنها ما يتجه لإنشاء العظام كل في محله ، وعلى قدره الذي قدر أن يكون عليه ، فمنها الصغير ، والكبير ، والطويل ، والقصير ، والمنحنى ، والمستدير ، والعريض ، والمصمت والجوف ، فهي مختلفة الأشكال والأحجام ، وذلك حسب اختلاف المنافع المتوقعة بها ، ثم شد تلك العظام وربط بعضها ببعض برباط قوي محكم بحيث لا يسقط عضو من آخر (﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ﴾^(١) .

ومنها ما يتجه لتكوين الإنسان ، فلا يتجه إلا القدر المناسب لتكوين سن أو ضرس ، لأن شكل الأسنان غير شكل الأضراس ، نظراً لاختلاف منافعها ، من طحن ، وقطع ، وزينة ، ومنها ما يتجه إلى عمل العين ، فلا يتجه إلا القدر الكافي لإنشائها ، ثم إلى المكان المعد لتركيبها ووجودها فلم تتجه خلية العين إلى الظهر ، أو البطن ، أو القدم ، وهكذا كل جزء أو خلية من تلك النطفة يتجه إلى إنشاء العضو الذي قدر له تكوينه من أذن ، أو لسان ، أو حاسة شم ، أو غير ذلك من أعضاء الجسم ، وأعقد ذلك وأصعبه في نظر الإنسان التخصصات المتصلة بالجهاز الداخلي ، كالقلب ، والمعدة ، والكبد ، والطحال ، والرئة ، والمثانة ، والأمعاء ...

والمدعش حقاً اتجاه المقدار المناسب للعضو المراد تكوينه ، فلا زيادة ولا نقصان ، ثم اتجاه ذلك الجزء أو الخلية إلى المكان الذي قدر أن يكون فيه ذلك العضو ، فلا يخطئة ولا يتعداه ، والسؤال هو ، من الذي هدى هذه النطفة إلى القيام بهذه الأعمال التي تعجز المتخصصين في علم الحياة؟؟ هل لديها القدرة الكافية على تخليق هذا الإنسان ؟ وإذا كان كذلك ، فكيف بعد أن تكون إنساناً سمياً بصيراً عاقلاً ، يعجز هذا الإنسان عن خلق بعوضة أو ذبابة؟؟^(٢)

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل

الظالمون في ضلال مبين ﴾^(٣) .

١ (سورة الإنسان : آية (٢٨))

٢ (ابن القيم (مفتاح دار السعادة ج ١ - ص ١٨٧-١٨٩) - بتصرف - دار الكتب العلمية - بيروت .

٣ (سورة لقمان : آية (١١))

في ظلمات ثلاث

والأعجب مما سبق أن هذا الخلق المعقد ، والتركيب المشتبكة فيه الأعضاء بعضها ببعض يتم في ظلمات ثلاث كما تحدث عنه القرآن الكريم ، وبين أن القادر على ذلك هو الرب الذي ينبغي أن يعبد وحده ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه إذ الإنسان لا يملك من أمر هذا الوجود شيئاً .
يقول تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون ﴾ (١) .

فقد بين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة ، قدرته المطلقة على خلق هذا العالم كله من نفس واحدة ، وهي نفس آدم عليه السلام ، ثم خلق منها زوجها وهي حواء ، واستمرار الخلق المتواصل بعد ذلك كان من ذكر وأنتى إلا عيسى عليه السلام ، فقد كان من أم بلا أب ، فالآية تشير إلى القدرة التي إذا أرادت الشيء قالت له كن فيكون بسبب وبغير سبب ، فالله خالق الأسباب ، ومسبباتها ، ولذا فإن الآيات السابقة بينت دور البشر في ذلك الخلق ، وأنه لا يتجاوز ذلك الإلتقاء بين الرجل والمرأة ، فيختلط المماء أمشاجاً ، ثم يتركانه في تلك اللحظة للقدرة التي تخط الخطة لتكوين الجنين من تلك النطفة في الظلمات الثلاث التي هي ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، وظلمة البطن ، وفي تلك الظلمات الثلاث يتم ذلك الخلق العجيب ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٢) .

والخلق بعد الخلق الذي تشير إليه الآية الكريمة ، هو خلقه نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغه ، ثم عظاماً ... كما بينته الآيتان من سورة الحج والمؤمنون ، ثم إنشاؤه بعد تلك الأطوار خلقاً آخر مبيئاً للخلق الأول مبيئة تامة فما أبعد النقلة الهائلة بين النطفة والإنسان الذي صوره ربه فأبدعه وجعله في أحسن تقويم (٣) .

ونختم الحديث حول هذه الآيات بما قاله الشهيد سيد قطب حيث يقول : ((فما بال الناس مغمضى العيون مغلقى القلوب عن هذه الخوارق العجيبة ؟؟ أنسأهم طول الألفة حتى لم يعودوا يفكرون ؟ ، أم استحوذ عليهم الشيطان فألهاهم عن التدبر والتأمل في أنفسهم ؟ ، إن مجرد التفكير في هذا المخلوق - الإنسان - ومراحل تكوينه إذ كله مجموع في نقطة صغيرة ، بخصائصه ، وسماته ، وأنها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر ، فإذا

(١) سورة الزمر : آية (٦)

(٢) سورة آل عمران : آية (٦)

(٣) انظر منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان - د. علي بن محمد الفقيهي ص ٧٣

هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى ، وإذا كل طفل يحمل وراثته الخاصة ، فوق الوراثة البشرية العامة .

إن مجرد التفكير في هذه الحقيقة التي تتكرر على مدى الأزمان والعصور لكافٍ وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب ((^(١)) .

وفي السياق القرآني من سورة ((المؤمنون)) بعد ذكر مراحل خلق الإنسان وتكوينه حتى أصبح خلقاً آخر بشراً سويماً يذكره الله بالموت وما بعد الموت وكأن هذه مرحلة متصلة بالمراحل الأولى ، فمرحلة الآخرة تبدأ بالموت ، فالموت إذن هو بداية حياة الخلود وليس نهاية الإنسان كما توهمه الماديون ، بل هو نهاية الحياة الأرضية وبداية الحياة الأبدية ، يقول تعالى ذكره : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾^(٢) .

١ (في ظلال القرآن المجلد السادس ص ١٨

٢ (سورة المؤمنون : آية (١٥، ١٦))

النص السادس :

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين * وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (١) .

استدل الله عز وجل فيما سبق من آيات على وحدانيته سبحانه بخلق الإنسان وأطوار هذا الخلق ثم انتقل بعد ذلك بالاستدلال بخلق السماوات السبع فأشار هنا إلى خلقها فوقنا وسمى السماوات السبع بالطرائق نظراً لتطابقها أي وجود بعضها فوق بعض أو لأنها طرائق للملائكة في العروج والهبوط أو لأنها طرائق الكواكب ، فيها مسيرها ، ولكن ما وجه الإنعام في خلق السماوات السبع ، نقول إن وجه الإنعام يتلخص فيما يأتي (٢) :

أولاً : أن الله تعالى جعل السماوات من مواضع الرزق وأسبابه فمنها تنزل الأمطار .

ثانياً : أنه سبحانه جعلها مقراً للملائكة .

ثالثاً : لأنها موضع الثواب ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحي .

رابعاً : فيها المصاييح التي يهتدي الناس بها ويرجم ببعض منها الشياطين حين استراقهم السمع وغير ذلك .

وفي هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ دليل

كوني ، حيث إنها تدل على أن خالق السماوات وجميع المخلوقات لا يهملها وإنما يحفظها من الزوال ومن الإختلال ، ويدبر أمرها حتى تصل إلى ما قدره الله تعالى لها وأنه سبحانه وتعالى يعلم أعمال العباد وأقوالهم ، وما تكنه صدورهم ، وهذا يفيد الزجر عن مخالفته ، كما أن فيها دلالة واضحة على كمال قدرة الله وعلمه وعلى وجوده تعالى لأن خلق السماوات على هذه الصورة البديعية وما يعترضها من أحوال يدل كل ذلك على وجود الخالق المدبر لها ، والصانع القادر العظيم وهو الله سبحانه وتعالى :

وبعد الاستدلال بخلق السماوات السبع على الوحدانية - وهو دليل كوني أتبع ذلك بدليل

آخر دال عليها كذلك وهو : خلق الماء وإنزاله من السماء والنعم التي نحصل عليها عن طريقه فقال

(١) سورة المؤمنون : آية (١٧-٢٢)

(٢) انظر الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها - د. أحمد عمر هاشم - ص ١٦٦ - بتصرف .

تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ ، فقد أنزل سبحانه من السماء ماءً بتقدير يتناسب مع حاجة الحياة والأحياء ، وبحيث يكون نفعه كثيراً وجعله سبحانه ثابتاً مستقراً في الأرض ، وهو القادر أن يذهب إن شاء بإزالته أو تصعيده أو تعميقه بحيث يتعذر استخراجه فيمكن أن يجعل الماء يغور في الأرض عن طريق شقوق في طبقات الصخور أو غير ذلك من الوجوه ، فإن القادر على إمساكه قادر على إزالته وتبديده .

ومن نظائرهما ورد في سورة النحل حيث يذكر الله سبحانه وتعالى فيها أن إنزال الماء من السماء فيه عدد من النعم ، منه شراب يروي النفوس الظمئة والأكباد المتعطشة شراباً للإنسان وشراباً للحيوان ، ومنه مراعى للأنعام السوائم التي تربونها وتتفعلون بها ، ثم إنبات الزروع التي يأكل منها الإنسان يشتهي أصنافها من الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمار ، التي يأكل منها الإنسان ، هذه النعم وغيرها آيات واضحات وعلامات بينات على أن الله وحده هو المعبود ، وما يدرك ذلك إلا أهل العقول الحصيفة الذين يعملون عقولهم في التدبير والتفكير في ما بثه الله من النعم الأرضية المعروضة لهم المشاهدة أمام أعينهم التي يلمسون نفعها في حياتهم ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

ثم ذكر سبحانه بعد نعمة الماء ما يترتب عليه من النعم الآخرة التي تحصل عن طريقه فقال : ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ ﴾ ، وخص النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فإنهما يقومان بمصاحبة الطعام مقام الإدام والفواكه كما أشار إلى غيرهما من الفواكه والثمار الكثيرة الناتجة عن نعمة الماء في كل إقليم من الأقاليم الموجودة في العالم مما يعجز الناس عن القيام بشكر الله عز وجل على هذه النعم الكثيرة ، كما خص بالذكر أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج من طور سيناء والطور الجبل وهو الذي كلم الله عليه موسى وهو بين مصر وإيلة وقيل بفلسطين وفي قوله : ﴿ تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ ﴾ ، دلالة على أنها متلبسة به ومصاحبة له ، وصبغ للأكلين أي آدم ، ففيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ .

وأما الدليل الثالث من الأدلة الكونية المذكورة في النص الذي معنا والدالة على الإيمان بالله فهو ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسَيْتُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ ففي الآيتين اللتين معنا ينتقل الله عز وجل

(١) سورة النحل : آية (١٠-١١)

للاستدلال على الوحدانية من الاستدلال بالماء إلى الاستدلال بالعالم الحيواني فذكر على طريق الإجمال ما في الأنعام من عبرة يمكن للعاقل أن يعتبر بها ويستدل عن طريقها على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته ، ثم أخذ في تفسير تلك العبرة فينبها في الوجوه التالية :

أولاً : نسقيكم مما في بطونها " من الألبان " وإذا تمعن الإنسان في كيفية خلق اللبن شاهد أدلة القدرة الإلهية عن كتب ، فهذا اللبن يجتمع في الضرع ويتخلص من بين فرث ودم ويحول إلى طهارة ولون وطعم ويصبح غذاء نافعا مفيداً ، ومن عظيم قدرة الله وحكمته أن الأنعام إذا ذبحت لا تجد لها أثراً .

ثانياً : ﴿ ولکم فیہا منافع کثیرة ﴾ في ظهورها وأصوافها وأثمارها وأشعارها أو في بيعها - للإنتفاع بأثمانها وما شاكل كل ذلك ...

ثالثاً : ﴿ ومنها تأکلون ﴾ وفي هذا الوجه انتفاع بأعيانها فكما ينتفع بها وهي حية كما سبق ينتفع أيضاً بها بعد ذبحها بالأكل ..

رابعاً : ﴿ وعليہا وعلى الفلک تحملون ﴾ ، ولذلك لأن الإنتفاع بالإبل في الحمل والركوب على البر كالانتفاع بالفلک في البحر أو ما هو في منزلته قال سبحانه : ﴿ وتحمل أثقالکم إلى بلد لم تكونوا بالغيہ إلا بشق الأنفس إن ربکم لرؤف رحیم ﴾^(١) .

وفي سورة النحل المكية بعد أن يقرر تعالى وحدة الألوهية له وحده بقوله تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾^(٢) ، يسوق الأدلة على ذلك بخلق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان ، وخلق الأنعام ، وذكر منافعها للإنسان ، وخلق بعض الحيوانات للركوب والزينة ، ثم يختم هذه الآيات بتقرير إحاطته بال مخلوقات بما علمناه وبما لم نعلمه وكأنه سبحانه وتعالى يهيء القلوب والأذهان لأشياء ستجد في أزمان متعاقبة من وسائل للحمل والنقل ، ولقد حدثت وسائل لم يكن يعلمها أبناء ذلك الزمان وربما ستوجد وسائل أخرى لا نعرفها نحن أبناء هذا الزمان .

قال تعالى : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالکم إلى بلد لم تكونوا بالغيہ إلا بشق الأنفس

(١) سورة النحل : آية (٢)

(٢) سورة النحل : آية (٢)

إن ربكم لرؤف رحيم* والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة* ويخلق ما لا تعلمون﴿^(١)﴾.

فباخق قامت السماوات والأرض وكل ما فيها وما بينهما قام بالحق كذلك فما من شيء من ذلك خلق عبثاً، بل التدبير قائم بكل شيء من الحق جل وعلا، وهنا لفظة كريمة من القرآن الكريم للنفس الإنسانية يذكرها بمبدأ أمرها من ماء مهين، ثم ينقلها فجأة إلى الإنسان المحادل الذي يخاصم خالقه فيشرك به غيره، ويجادل في وحدانيته، ثم عقب على هذا المشهد بذكر النعم التي امتن الله بها على هذا الإنسان المخاصم المحادل، فبدأ بذكر الأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والماعز، وذكر بعض منافعها التي منها الدفء والأثاث والمتاع من الأصواف والجلود والوبر والشعر، كما في آية أخرى ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾^(٢)، ومنها المنافع الكثيرة غير ما ذكر من ألبانها ولحومها، ومنها حمل الأنتقال على ظهور الإبل لمسافات بعيدة لا يستطيع الإنسان الوصول إليها إلا بمشقة شديدة، ومنها جمال الإستمتاع بمنظرها رائحة عادية رائعة صحيحة يدرك هذا من مارس حياة البادية، ثم يذكر الحيوانات الأخرى التي هي ضرورية بالنسبة للإنسان للركوب والزينة، بدأها بالخيل ولا يخفي ما في الخيل من الجمال والزينة، وكان لها دورها في الحروب في ممارسة الكر والفر على الأبطال، ولا يزال لها شأنها لقوله ﷺ: ﴿الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة﴾^(٣)، وكذلك البغال والحمير فيها من المنافع العظيمة كالركوب ونقل الأمتعة وغيرها واكتفي بذكر علة الركوب باعتبار معظم منافعها، قال الإمام الشوكاني رحمه الله عقب قوله "وزينة" : (والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتر في المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات)^(٤). قلت : بل التزين مقصود أيضاً لأن القرآن الكريم جاء لمعالجة النفس البشرية والله سبحانه وتعالى يعلم ما في النفوس من رغبات وميول فطرية، لذا نجد كثيراً من الآيات الكريمة تشير إلى أن حب الزينة من الأمور الفطرية .

(١) سورة النحل : آية (٣-٨)

(٢) سورة النحل : آية (٨٠)

(٣) أخرجه مسنم في كتاب الإمارة ١٤٩٣/٣ برقم (٩٨)

(٤) فتح القدير ج ٣، ص ١٤٩

قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ ^(١) ، قال تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ ^(٢) ، قال تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ ^(٣) ، ففي هاتين الآيتين مراعاة لهذا الجانب وهو حب الزينة ما لم يؤد هذا الحب إلى العجب والكبر والبطر لقوله ﷺ : ﴿ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ﴾ ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسن ، قال : ﴿ إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس ﴾ ^(٤) ، وحب الزينة بهذا المفهوم الذي أوضحه سيدنا رسول الله ﷺ لا تنافي بينه وبين المطالب العالية التي ينبغي أن يوجه إليها الإنسان همته .

ثم يلفتنا القرآن الكريم إلى البحار المليئة بالأمواج المتلاطمة المخيفة ، ورغم ذلك فالله سخرها للإنسان وجعله يستفيد منها ، فيستخرج منها اللحم الطري بأنواعه المختلفة وجعله سبحانه طعاماً شهياً كما يستخرج منه الحلبي الثمين من اللؤلؤ والمرجان وغيرها مما يلبس للزينة ، ثم سخر الله هذه الأمواج من حمل السفن على ظهرها والانتقال عليها من بلد إلى آخر وابتغاء الرزق بواسطتها ، وهذه السفن التي نشاهدها اليوم كالجبال الراسية تمخر عباب البحار الهائجة المائجة دون أن تمسها بسوء غالباً وما ذلك إلا بتسخير الله تعالى لها فمن غير الله يصنع ذلك ؟ لا أحد غير الله الخالق لها يقدر على ذلك أو أقل من ذلك ، ثم يعقب على هذه النعم بقوله تعالى : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ليوجه الناس إلى شكر الله المنعم المتفضل - فاللهم ارزقنا شكر نعمتك - قال تعالى : ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها * وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله وعلكم تشكرون ﴾ ^(٥) .

تلك هي دلائل القدرة الإلهية في النفس وفي الكون ، وفي الإنسان وفي الحيوان وفي الماء والنبات وغير ذلك من المخلوقات ، أفبعد كل هذا يستسيغ منكر أو جاحد أن يقف في وجه الحق ؟ أو يثير شبهة حول هذا الدين القيم ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ^(٦) .

١ (سورة آل عمران : آية (١٤))

٢ (سورة الأعراف : آية (٣٢))

٣ (سورة الأعراف : آية (٣١))

٤ (أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٩٣/١ برقم (١٤٧))

٥ (سورة النحل : آية (١٤))

٦ (سورة آل عمران : آية (٨٥))

النص السابع :

وتأتي إلى ثلاث آيات من سورة إبراهيم فنجدها تفتح كتاب الكون على مصراعيه ، فتدلنا إلى نعم الله الجليلة التي لا يحصيها العد ، قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض * وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم * وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره * وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين * وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها * إن الإنسان لظلوم كفار ﴾^(١) .

في هذه الآيات الكريمة يوجه القرآن النفس الإنسانية إلى ربها وخالقها ، ويذكرها بنعم الله عليها لتذكره سبحانه وتعبده ، فالسماوات وعلوها ، والأرض وانبساطها ، والشمس وحرارتها وضياؤها ، والقمر ونوره وجماله ، والماء النازل من السماء ووقعه في النفوس وأثره في الأرض الميتة وإحيائها ، وما يخرج به بعد ذلك من الثمرات الطيبة رزقاً حسناً أباحه الله لبني الإنسان ، وتسخير الفلك لتجري في البحر بأمر الله وما يترتب علي هذا الجريان من نعم حمة منها الانتقال من بلد إلى آخر ونقل الخيرات والمنتجات بين الشعوب فيعم الخير للجميع ، وتسخير الليل والنهار ، الليل وهدوءه وسكته للراحة والإستقرار ، والنهار وضياؤه لابتغاء الرزق وعمارة الأرض ، هذه كلها صفحات مشرقة معروضة أمام الإنسان بمن الله بها عليه ويلفت نظره إليها ثم يعقبها بمن آخر عام ضمني يتضمن جميع النعم صغيرها وكبيرها : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ثم يذيل هذه الآيات بتقرير حاسم : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ حقاً إن نعم الله على الإنسان كثيرة وكثيرة ولو أفنى الإنسان عمره كله ليحصى نعم الله عليه فلن يستطيع ذلك ، وحقاً إن الإنسان لظلوم كثير الظلم لنفسه ، وأي ظلم أعظم من الشرك بالله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾^(٢) ، يبدل نعمة الله كفراً ويجعل لله نداً ويتخذ من نفسه معبوداً يدور حولها ويلبي طلباتها ، ويستجيب لرغباتها على حساب ظلم الآخرين وقهرهم .

وكلمة التسخير من أقوى التعبيرات في الدلالة على الخدمة المستمرة الدائبة ، ويستعمل القرآن أحياناً كلمة خلق وجعل وأنزل لتعديد ألوان النعم العديدة ، التي أوجدها الله للإنسان في هذا الكون ، والمتأمل في آيات القرآن الكونية يلحظ تنوع أسلوبها فأحياناً تستلقت النظر إلى آثار قدرة الله وأحياناً تعدد نعم الله على الإنسان في هذا الكون البديع ، ومرة أخرى تهدد الجاحد بسلب هذه النعم ، وكان الآيات في مجموعها نذير للناس قائل لهم : افتحوا عيونكم وأيقظوا

(١) سورة إبراهيم : آية (٣٢-٣٤)

(٢) سورة لقمان : آية (١٣)

أفقدتكم وتأملوا ملياً في خلق الله لكم ، وتركيب أجسامكم ، فإذا لم تفكروا فقد عطلتكم مواهبكم وألغيتم عقولكم ولم تدركوا قيمة هذه النعم ، وبذلك تستحقون غضب الله وعقوبته ، والكون جميعاً خاضع لمشيئة الله وإرادته ، وقد سخر الله لسليمان الريح والشياطين وسخر الملائكة لنفع المؤمنين وإذلال الكافرين ، وعند الله جنود كثيرة وما يعلمها إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ، وعند نهاية الحياة تنشق السماء وتنكدر النجوم وتنفجر البحار وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وقد أقسم الله ببعض المظاهر الكونية تنبيهاً لأهميتها ونظامها وبديع صنعها (١) .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله معقّباً على هذه الآيات : (إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد ، وبحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء ، وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضاً لآيات الله ، تبدع فيه القدرة الإلهية ، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر ، وفي كل صورة فيه وظل ، إنه يعرض قضية الألوهية والعبودية في مجال المؤثرات ، والموجيات الواقعية ، من مشاهد الكون ، ومجال الخلق ، ولمسات الفطرة ، وبدهيات الإدراك في جمال وروعة واتساق) (٢) .

فالقرآن الكريم يطلب من الإنسان أن يستيقظ من الغفلة ويتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ (٣) ، وبهذا التطلع إلى ما سخره الله للإنسان في هذا الكون يحصل التدبر والتفكير ، وحينئذ يحصل الخشوع والشكر للمنعمة المتفضل فحين يكون الإنسان في شدة يلجأ إلى ربه وخالقه فيبدله فرحاً ، وحين يكون في رخاء يتوجه إليه بالشكر والخضوع فيحفظ عليه نعمه ويزيده من فضله ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (٤) ، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ : ﴿ تعرفوا إلى الله في الرخاء يعرفكم في الشدة ﴾ (٥) .

وإن القرآن الكريم كذلك ينبه الإنسان إلى أن كل ما يراه حوله من أشياء الكون ومظاهره، مسخر من قبل الله عز وجل ، لخدمة الإنسان ، وتدبير أسباب عيشه ، وتحقيق شروط رفايته

١ (انظر تفسير الآيات الكونية - د. عبد الله شحاته - ص ٢٦٥ وما بعدها - ط ١٩٨٠)

٢ (في ظلال القرآن - م ٥ - ص ١٦٧)

٣ (سورة الجاثية : آية (١٣))

٤ (سورة إبراهيم : آية (٧))

٥ (مسند الإمام أحمد ج ١ / ٢٠٧)

وأمنه ، وإلى أن الله تعالى قد أقام بينها وبين الإنسان نسباً من الفكر والعقل ، فهي ليست مستغلفة على النظر والفهم ، بل خاضعة في معرفة كلياتها ودقائقها لمجهر التأمل والبحث .

يقول سبحانه : ﴿ وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * وهم فيها منافع وشارب أفلا يشكرون ﴾ ^(١) ، ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً * فامشوا في مناكبها * وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ ^(٢) ، ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش * قليلاً ما تشكرون ﴾ ^(٣) ، تأمل كيف أن الله تبارك وتعالى كرر كلمة "لكم" لبيان أن هذه الأشياء مسخرة لكم لتستفيدوا منها وليست عليكم للمشقة والتعب ، وتأمل في كلمات ثلاث تدور مع التعبير القرآني في هذه الآيات ، عن علاقة ما بين الإنسان والمكونات التي من حوله ، وهي : التسخير ... التذليل ... التمكين ... تجدها تعبر فيما يقرره علماء اللغة العربية ، عن أبلغ معاني الإخضاع والإخدام .

فهي تقرر بأبلغ وسائل التعبير والبيان ، بأن الله تعالى قد أخضع المظاهر الكونية المختلفة للإنسان إما إخضاع ، وحسبك من ذلك أنها تعكف على وظائف كونية شتى ، كل حسب ما أقامه الله فيه وهياً له ، ولكن هذه الأعمال والوظائف المختلفة كلها ، تدور على محور المصلحة الإنسانية ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وانظر إذا شئت في نظام الأفلاك وحركاتها ، والكواكب مع أبراجها ، والأرض ودورانها ، وتأمل في السحب والمياه والبحار والتراب والدواب والأنعام ، وفي مسرى الرياح ونمو النبات والأشجار تجدها جميعاً ، عاكفة على خدمات نوعية شتى ، من شأنها أن تنسج مقومات الحياة الآمنة ، والعيش الرغيد للإنسان .

وهي تقرر أيضاً أن الله عز وجل قد أذل هذه المكونات لمعرفة الإنسان ثم أمكن القدرة الإنسانية من التحكم بها والتطوير لها ، وهو يلفت النظر من خلال ذلك إلى أن أكثر هذه المكونات خاضع للتطوير والتحوير حسب ما يقتضيه السير مع مصلحة الإنسان ، إذا ما اتجه الإنسان بما أوتيته من فكر وقدرات إلى ذلك ، فلا عليه إذن أن يسعى سعياً للتأمل فيها والاستفادة منها وإدخال ما قد يراه مناسباً من أسباب التطوير عليها .

تأمل في هذه الآيات ، وهي طائفة يسيرة من حديث القرآن لنا عن الكون من هذا الجانب : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض * وأسبع عليكم نعمه ظاهرة

(١) سورة يس : آية (٧١-٧٢)

(٢) سورة الملك : آية (١٥)

(٣) سورة الأعراف : آية (١٠)

وباطنة * ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير ﴿١﴾ . ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات * إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره * إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه * إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون ﴾ (٢) ، ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين * فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب * وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ (٣) ، ﴿ أولم يروا أنا خلقناهم مما علمت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ﴾ (٤) ، فالآيات تنص إذن بدلالة لا تقبل الريب ، على أن الله تعالى أخضع هذه المكونات لكلا القدرتين : العضلية والفكرية في الإنسان ، وأذها لكثير من آماله ومطامحه .

ألا ترى إلى كلمة "ذلولاً .." وهي صيغة مبالغة بمعنى مذللة : كيف صورت الأرض وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان ، بكل ما في باطنها من دخر ، وبكل ما على ظاهرها من خير ، ليعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية ، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع !! .

وإلى كلمة "ذللتناها" من قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللتناها لهم فمناها ركوبهم ومنها يأكلون ... ﴾ (٥) ، كيف صورت إخضاع الله هذه الحيوانات المختلفة لحاجات الإنسان ومنافعه ، وذلك على الرغم مما تتمتع به من قوة تجعلها تستعصي على الخضوع والإنقياد ، لو أن الله أمكنها من استعمال هذه القوة في مجابهة الإنسان (٦) ..!

وهكذا يطمئن الله الإنسان ، من خلال تقريره هذا عن المظاهر الكونية التي من حوله ، ومن خلال تبصيره بها وتعريفه عليها : إلى أن هذه المكونات المختلفة ليست إلا خدماً وحشماً له ، فهي تنتظر إشارته ، وتسعى في رعايته ، فلا يستوحش منها ، بسائق جهل أو بدافع استعظام أو استغراب

(١) سورة لقمان : آية (٢٠)

(٢) سورة النحل : آية (١٠-١٣)

(٣) سورة الإسراء : آية (١٢)

(٤) سورة يس : آية (٧١)

(٥) سورة يس : آية (٧١-٧٢)

(٦) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن - د. محمد سعيد رمضان البوطي - ص ٩٥ بتصرف . دار الفكر - دمشق ط سنة

١٩٩٢م . عن ط ٢ سنة ١٩٨٢م .

، وإن له في هداية العقل الذي يتمتع به ، والعلوم التي هي تحت سلطانه ، ما يبدد عليه آثار أي وحشة أو ظلام أي غاشية .

والقرآن الكريم سلك مسلكاً فريداً في مجال إثبات الأدلة على وجوب الإيمان بالله فقد سلك طرقاً شتى ، واتخذ وسائل متنوعة ، ففي مقام مكابرة المشركين وعنادهم يقول الحق جلا وعلا : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ ^(١) ، فهو يصورهم صاعدين نحو السماء ثم يفتح لهم باباً يلجئون فيه ومع هذا فهم مكذبون قائلين ما هذا إلا من تأثير السحر ، لذلك يأتي السياق القرآني عقيب الآيتين بحشد ضخم من أدلة الكون وما فيها من المشاهد المتنوعة ، السماء وزينتها بالبروج الثوابت والسواري ، وحفظها من كل شيطان رجيم ، والأرض واتساعها وامتدادها وما عليها من الأوتاد والشاخات وما فيها من الأرزاق والنباتات لشتى المخلوقات ، والرياح وأثرها في تلقيح النباتات المختلفة ثم مشهد الحياة والموت فمشهد البعث والحشر ، كل هذه أدلة واضحة وآيات بينات على الموجود من العدم المتفضل بالنعمة الذي عننت الوجوه لجلاله ، وخضعت الرقاب لسلطانه ، جل جلاله وتعالى أسماؤه لا إله غيره ولا رب سواه ^(٢) ، قال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي * وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه * وما ننزله إلا بقدر معلوم * وأرسلنا الرياح لواقح * فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه * وما أنتم له بخازنين * وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون * ولقد علمنا المستقدمين منكم * ولقد علمنا المستأخرين * وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ ^(٣) .

في هذه الآيات الكريمة يبين الله عز وجل امتنانه على خلقه بنعم شتى منها جعل البروج في السماء وتزينها وحفظها من الشياطين واتباع من يحاول الإقتراب منها بالشهب المحرقة ثم بينت أيضاً نعمة الله عز وجل على الناس بمدد الأرض وإلقاء الرواسي فيها ثم استمرت الآيات في تعداد هذه النعم واحدة بعد واحدة فبين أن ما أنبت في الأرض من كل شيء مقدر معلوم ، موزون بميزان الحكمة ومقدر بمقدار الحاجة ، ثم ذكر ما خلقه الله فيها من الأرزاق لتكون معاش لنا ولمن نعولهم من الأولاد والمماليك والخدم والدواب ، كما أن هؤلاء هم مئة كبرى ونعمة عظيمة إن أحسن

(١) سورة الحجر : آية (١٤-١٥)

(٢) انظر تربية النفس الإنسانية في ظلال القرآن الكريم - د. أحمد المقرئ - ص ١٥٨

(٣) سورة الحجر : آية (١٦-٢٥)

استخدامهم فيما خلقوا له ، فمنه عامة وشاملة فما من شيء من الممكنات إلا عند الله عز وجل خزائنه ، وما ينزله من السماء إلى الأرض أو يوجد للعباد إلا بقدر معلوم - أي مقدر قال الشوكاني : (والمعنى أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾^(١) ، وقد فسر الإنزال بالإعطاء ، وفسر بالإنشاء ، وفسر بالإيجاد والمعنى متقارب)^(٢) .

وتمضي الآيات في بيان نعم الله العظيمة فتذكر ما من الله به على عباده بإرسال الرياح اللواقح ولو شاء لجعلها عقيماً لا تحمل ماء ولا تلقح شجراً لكن الله جل جلاله جعلها لواقح^(٣) ، فهي إذا تحمل السحاب وتسوقها إلى حيث يشاء الله لها وهي تلقح الشجر مما تحمله من خصائص المذكورة من بعض الشجر إلى البعض الآخر التي بها خصائص الأنوثة ، حسبما تفيد الكشوفات العلمية ، ثم يخبر سبحانه بأنه أنزل من السماء ماءً وجعله للناس يسقون به مزارعهم ومواشيهم ، ويمضي السياق القرآني ليثبت أن الله وحده هو القادر على إيجاد الماء وخزونه في السحاب وإنزاله لهم على هيئة المطر وهم غير قادرين أو وما أنتم له بحافظين في مجاريه عن أن يغور فلا ينتفعوا به ، ثم عقب سبحانه وتعالى بعد ذلك بذكر الحياة والموت وأنهما من اختصاصه وحده ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ أي أن الحياة والموت بيد الله وأنه الوارث بعد الحياة أي الباقي بعد فناء الخلق قاطبة ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾^(٤) ، وهو المالك للملك عند انقضاء هذه الحياة الدنيا يوم تقوم الساعة ﴿ لمن الملك اليوم * لله الواحد القهار ﴾^(٥) .

١ (سورة الشورى : آية (٢٧))

٢ (فتح القدير ج ٣ ، ص ١٢٦ ط دار المعرفة - بيروت .)

٣ (وقال المفسرون (واللواقح جمع لاقح بمعنى حامل شبهت الريح التي تحمل السحاب الماطر بالناقة الحامل قال الفراء إنها جمع لاقح أي ذات لقاح وحمل وذهب إليه الراغب) روح المعاني ج ٢٤ ، ص ٣١ .)

٤ (سورة الرحمن : آية (٢٦-٢٧))

٥ (سورة غافر : آية (١٦))

النص الثامن :

يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنعام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى يخرج الحبي من الميت ومخرج الميت من الحبي ذلكم الله فأنى تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(١) ، يقول القرطبي^(٢) : عد سبحانه من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شيء منه آلهة المعاندين والمكابرين فقله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى ﴾ أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً إخضر وكذلك الحبة ، ويخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحية ، وهذا معنى يخرج الحبي من الميت ومخرج الميت من الحبي عن الحسن وقناة ، وقال ابن عباس والضحاك : معنى فالق : خالق ، وقال مجاهد : عني بالفلق الشق الذي في الحب وفي النوى ، والنوى جمع نواة ويخرج في كل ما له عود ، ومنها يخرج النبات والشجر .

والإشارة العلمية في هذا الآية الجليلة إلى أن من دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى فلق الحب والنوى ، والجنين في كل مكان منها يشغل حيزاً ضيقاً ، أما باقي جسم الحبة أو النواة فيتكون من مواد مكنتزة غير حية ، وعندما ينبت الجنين ويبدأ في الإنبات تتحول هذه المواد المكنتزة إلى حالة صالحة لتغذية الجنين ، يبدأ في النمو ، وتتكون الخلايا الحية حتى تنتقل الحبة النابتة من طور الإنبات إلى طور البادرة فيبدأ النبات في الاعتماد على غذائه من الأملاح الذائبة في ماء التربة التي يمتصها الجنين مع تكون الأوراق الخضراء من مواد كربوهيدراتية كالسكريات والنشويات في وجود ضوء الشمس ، وعندما تتم دورة حياة النبات تتكون الثمار وبدخلها الحب والنوى من جديد^(٣) .

ويقول سيد قطب في تفسير الآية : ﴿ فالق الحب والنوى يخرج الحبي من الميت .. ﴾ إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد ، فضلاً على أن يملك صنعها أحد ، .. وتقف البشرية بعد كلما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما درست من خصائصها وأدوارها .. تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية

١ (سورة الأنعام : آية ٩٥-٩٩)

٢ (القرطبي - الجزء السابع - ص ٤٥ وانظر مع القرآن في الكون د. محمد جمال الفندي ص ١٦٦)

٣ (المنتخب ص ١٨٨ .)

في طريقها .. لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة ، على غير أساس أنها من خلق الله .. ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا .. ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله ، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً ... ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مباحكات تدل على العناد ولا تدل على الإخلاص ، وأقوال بعض " علمهم " نفسه من هذه القضية ، ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوروبيين عازفين عن هذا الدين ، لأنه يثبت " الغيب " وهم " علميون " ^(١) لا " غيبون " .

والمؤمنون الصادقون في إيمانهم ، الذين يؤمنون بالله يكفيهم في ذلك ما قاله خالقهم عن خلق هذه الحياة ، وما شاهدوه في الواقع أمامهم ، من تكرر خلق الحياة كل لحظة ، لأن عقولهم الفطرية لم تلوث بشكوك المرتابين وأباطيلهم .

ويأتي سياق هذه الآيات في بيان الدليل على وجوب توحيد الله تعالى وبطلان عبادة غيره فقال تعالى واصفاً نفسه بأفعاله العظيمة الحكيمة التي تثبت ربوبيته وتقرر ألوهيته وتبطل ربوبية وألوهية غيره مما زعم المشركون أنهم أرباب لهم وآلهة : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ أي هو الذي يفلق الحب ويخرج منه الزرع لا غيره وهو الذي يفلق النوى ويخرج منه الشجر والنخل لا غيره فهو الإله الحق إذا وما عداه باطل ، وقال : ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ فيخرج الزرع الحي من الحب الميت ، ويخرج الميت من الحي : فيخرج الحب من الزرع الحي ، والنخلة والشجرة من النواة الميتة ثم يقول : ﴿ ذلكم الله ﴾ أي المستحق للإلهية أي العبادة وحده ﴿ فأني توفكون ﴾ أي فكيف يا للعجب تصرفون عن عبادته وتأليه إلى تأليه وعبادة غيره ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي ذلكم الله ربكم فالق الإصباح ، والصبح والصبح والإصباح أول النهار يريد الفجر والإصباح مصدر أصبح والمعنى شاق الضياء عن الظلام وكاشفه ، وقال الضحاك : فالق الإصباح ، وهو الذي يشق غبق نور الصباح بسطوع ضوء النهار عند شروق الشمس ^(٣) .

وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد ^(٤) أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : ﴿ اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقضي عني الدين واغنني من الفقر واعني

(١) في ظلال القرآن . المجلد الثالث / ٣١٢، ٣١١ - سيد قطب - ط ٢ - سنة ١٩٦١ - دار احياء التراث العربي - بيروت ، لبنان .

(٢) انظر أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - أبو بكر الجزائري - ٢م ، ص ٩٦ - الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ ، سنة ١٩٩٣ م .

(٣) أنظر الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) : محمد بن أحمد القرطبي ط سنة ١٩٦٤ - القاهرة

(٤) الموطأ - الإمام مالك بن أنس - ج ١ ، ص ١٣٠ ، كتابه القرآن - باب ما جاء في دعائه (٢٧)

سنة ١٩٦٩ م

بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك ﴿﴾ " وفالق الإصباح " أي هو الله الذي يفلق ظلام الليل فيخرج منه ضياء النهار " وجعل الليل سكناً " أي ظرف سكن وسكون وراحة تسكن فيه الأحياء من تعب النهار والعمل فيه ليستريحوا ، وقوله : ﴿﴾ الشمس والقمر حساباً ﴿﴾ أي وجعل الشمس والقمر يدوران في فلكيهما بحساب تقدير لا يقدر عليه إلا هو وبذلك يعرف لنا الأوقات وما يتوقف عليها من عبادات وأعمال وأجال وحقوق ثم يشير إلى فعله ذلك فيقول : ﴿﴾ ذلك تقدير العزيز العليم ﴿﴾ أي الغالب على أمره " العليم " بسائر خلقه وأحوالهم وحاجاتهم وقد فعل ذلك لأجلهم فكيف إذا لا يستحق عبادتهم وتأليهم ؟ عجباً لحال بني آدم ما أضلهم (١) ! .

وبعد أن استعرضنا هذه الآيات الكونية من خلال هذا النص المبارك تعال معي لنقوم بجولة نرتاد فيها من الكون مرة أخرى لنرى كيف تعمل قدرة الله تعالى في آية من آياته ألا وهو القمر فنقول : ماذا عرف الإنسان ذو النفس المتطلعة عن أسرارهِ واختلاف أطواره في منازلهِ وأقداره ، وظلماتهِ وأنواره ...؟ يقول القرآن عن القمر : ﴿﴾ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴿﴾ (٢) ، ﴿﴾ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيهن سراجاً وقمراً منيراً ﴿﴾ ، ﴿﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴿﴾ ، ﴿﴾ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴿﴾ ، ﴿﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴿﴾ ، ﴿﴾ والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها ﴿﴾ ، ﴿﴾ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً الشمس والقمر حساباً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿﴾ ، ﴿﴾ الشمس والقمر بحسبان ﴿﴾ ، ﴿﴾ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴿﴾ ، ﴿﴾ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴿﴾ .

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر ، وقد جاء أولئك الذين يعلمون ، فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار فعرفوا : أن هذا القمر جرم غير منير بذاته ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها ، ليعكسه بدوره إلى الأرض كما صرح القرآن ، وعرفوا أنه تابع للأرض ، يسايرها ويدور معها ومثلها من الغرب إلى الشرق ، وأن له دورتين ، دورة حول نفسه ودورة حول الأرض ، ولكن حكمة الله سبحانه قضت أن تتم الدورتين في وقت واحد ، وأن يبقى متجهاً

(١) أيسر التفاسير - المرجع السابق - ص ٩٦ .

(٢) سورة نوح : آية (١٥-١٦)

كامل وتتم دورتها حول الشمس في سنة كاملة تدور فيها على نفسها ٣٦٥ دورة ، أما القمر فيتم دورته حول نفسه وحول الأرض معاً في مدة شهر قمري واحد أي أنه في المدة التي يدور بها حول الأرض لا يدور على نفسه إلا مرة واحدة يتجه بها دائماً بوجه واحد نحو أمه الأرض لا يوليها ظهره أبداً .

وعرف العلماء من بدائع صنع الخلاق الحكيم ، أن القمر في دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ، ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشافاً متدرجاً يبدأ به هلالاً ثم بدرأ ثم يرجع كالعرجون القديم حتى يختفي ويطلع بعد ٢٩ يوماً و ٨ ساعات هلالاً جديداً نعرف به عدد السنين والحساب .

وعرفوا أيضاً أن القمر أقرب أجرام السماء إلى الأرض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريباً ، وأن كتلته هي جزء من ٨٠ جزء من كتلة الأرض .

وعرفوا أن للكواكب الأخرى أقماراً منها الصغير الذي لا يزيد قطره على بضعة أميال ، ومنها الكبير الذي يبلغ قطره ٣٢٠٠ ميل ، ومنها السريع الذي يتم دورته حول كوكبه في ست ساعات ، ومنها البطيء الذي لا يتم دورته إلا في سنتين ، وعرفوا أنه ما من قمر يتم دورته في شهر واحد إلا قمر هذه الأرض التي جعل الله سنتها بفصولها الأربعة اثنتي عشرة شهراً . عرفوا كل هذه الأسرار التي أشار إليها القرآن وأدركوا ما في هذا النظام والأحكام من حكمة ونعمة فقالوا : لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض في آن واحد ، ولو لم يكن يقطع في دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر ٤٩ دقيقة لما كان يتنقل في منازل المختلفة لثرى وجوهه المتغيرة ، ولما كان يتم الدورة في شهر واحد ليستأنف شهراً جديداً نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب .

ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هي أو أكثر ، أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر ، أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله ، بل ربما زال القمر كله ، لأنه لو قرب من الأرض ل زاد جذبها فأصبح المد على الأرض طاغياً يغمر اليابسة كلها ، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوق عليها ، ولو بعد عن الأرض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب ، وإن زاد البعد جذب القمر كوكب آخر إليه وحرماناً من نعمه ، ولو كبر حجمه ل زادت قوة جذبها ، ولو صغر قلت ، ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع الأقمار قصيرة قصيرة في ساعات ، أو طويلة طويلة في سنين لاختل هذا النظام الذي جعل الله لنا به القمر حسبناً ، وعاد شهرنا القمري أسبوعاً أو سنتين ..

فهل كل هذا النظام والأحكام الذي خص الله به القمر في حركاته المحسوبة ودوراته المكتوبة ، ومنازله المقدره وأقداره المسخرة ، وأنواره المكتسبة وأطواره المرتقبة ، أثر من آثار المصادفة العمياء ؟ سبحان الخلاق العظيم ، والله إن هذا كله لا يجتمع بالمصادفة .

ولكن أولئك الذين يأخذهم كبرياء العلم ، من غير العلماء ، يظنون أن إرسال صاروخ القمر أو إنسان إلى الفلك ضرب من مشاركة الله في كبريائه وجبروته ، والتصرف في ملكوته .. وهم لو عقلوا لادركوا أن الكبرياء لذلك الذي خلق الإنسان فسواه ، وبنور العقل هداه ، وخلق هذا القمر الذي يشدون إليه الرحال ، ويعقدون على بلوغه الآمال ، ومتى شاء سبحانه شقه ونثره ، ومع النجوم بعثه ، وطمس أثره ، يومئذ يعلم هذا الإنسان قدره وقدره (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ (٢) ، يبين أن الطريق الوحيد للإنسان كي يتعرف على الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر هو النجم ، وقد كانت المسألة قديماً أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الإهداء بالنجم ، ولكن في الحاضر وإلى الأبد سيبقى اهتداء الإنسان بالنجم شيئاً أساسياً ، يهتدي بها قاطع الصحراء في سيره ، والجندي في معركته هجوماً أو انسحاباً والإنسان حيث كان ، إن السفينة في البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هي - حتى في هذه - معتمدة على النجوم ، إذ لولا نجم القطب ما عرف طولاً ولا عرض ، ولا النجوم الأخرى ما عرف نجم القطب وبدون نجوم كم يتعذب الإنسان وكم يضل ، وكم تشل حركته ، وكم تتقلص دائرة عمله (٣) !! .

وقوله تعالى : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ يخبر به تعالى على نعمة أخرى وهي تفصيله سبحانه وتعالى للآيات وإظهارها لينتفع بها العلماء الذين يميزون بنور العلم بين الحق والباطل والضار والنافع ويقول في الآية الرابعة (٩٨) ﴿ وهو الذي أنشأكم - أي خلقكم - من نفس واحدة ﴾ هي آدم عليه السلام ، فبعضكم مستقر في الأرحام وبعضنا مستودع في الأصلاب وهو مظهر من مظاهر إنعامه وقدرته ولطفه وإحسانه ، ويختم الآية بقوله : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ لتقوم لهم الحجة على ألوهيته تعالى دون ألوهية ما عداه من سائر المخلوقات لفهمهم أسرار الكلام وعلل الحديث ومغزاه (٤) .

١ (قصة الإيمان - الشيخ نديم الجسر - ص ٣٢٧ وما بعده بتصرف .

٢ (سورة الأنعام : آية (٩٧)

٣ (الله جل جلاله - سعيد حوي - ص ٩٣ - دار السلام ، القاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٩٠م . - ١٤١٠ هـ

٤ (أيسر التفاسير - م ٢٠ ص ٩٧ - أبو بكر الجزائري .

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(١) ، إنك تحس ومن داخل ما استودع الله فيك من مقومات الروح وأسراره في الخلق بعيداً عن كيانك الترابي أنك أمام قوة عظيمة وهيمنة الخالق العظيم الذي أخرج نبات كل شيء وقد جعل سبحانه براهين ودلالة التعرف على أنعمه وآياته من خلال دعوته للناس أن يروا ويتدبروا ليعقلوا من مادة الخلق وقانون الله فيها كيف يتحتم عليهم أن يوقنوا أنه بمقتضى ما يرون في مادة الخلق لا بد وأن تكون مغايرة الخالق لخلقته وتنزهه جل وعلا حقيقة مستقرة في القلوب وملء الضمائر^(٢) .

ويقول في الآية (٩٩) ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ وهو ماء المطر يقول ﴿ فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ أي أنزل الله ماء المطر من السماء فأنبث به أي نبات قابل للإنبات من سائر الزروع والنباتات فأخرج به ذلك النبات خضراً ، وهو القصيل للقمح والشعير ، ومن الخضر يخرج حباً متراكباً في سنابله ، ويقول عز وجل : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ أي ويخرج بإذن الله تعالى من طلع النخل قنوان^(٣) دانية متدلية وقرية لا يتكلف مشقة كبيرة من أراد جنيهاً والحصول عليها وقوله : ﴿ وجنات من أعناب ﴾ أي وأخرجنا به بساتين من نخيل وأعناب ، وأخرجنا به كذلك الزيتون والرمان حال كونه مشتبهاً في اللون وغير متشابه في الطعم ، كلوا من ثمره إذا أثمر وينعه ينبت لديكم ذلك التشابه وعدمه ، وختم الآية بقوله : إن في ذلكم المذكور كله ﴿ لآيات ﴾ علامات ظاهرات تدل على وجوب ألوهية الله تعالى وبطلان ألوهية غيره ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم أحياء يفعلون ويفكرون ويفهمون أما غيرهم من أهل الكفر فهم أموات القلوب لما ران عليها من أوضار الشرك والمعاصي فهم لا يعقلون ولا يفقهون فأنى لهم أن يجدوا في تلك الآيات ما يدلمهم على توحيد الله عز وجل^(٤) ؟

(١) سورة الأنعام : آية (٩٩)

(٢) انظر الإسلام وعالمنا المعاصر - د. صابر طعيمة ص ١٨٧ نقلاً عن البهي الخولي - آدم فلسفة تقويم الإنسان وخلافته - ص ٣٢ - مكتبة المعارف - الرياض - سنة ١٩١٨ ، ١٤٠١ هـ

(٣) قنوان : جمع قنو وهو العذق

(٤) أنظر أيسر التفاسير - المرجع السابق ص ٩٦ وما بعدها .

من هداية الآيات :

- ١- الله خالق كل شيء فهو رب كل شيء ولذا وجب أن يؤله وحده دون ما سواه .
- ٢- تقرير قدرة الله على كل شيء وعلمه بكل شيء وحكمته في كل شيء .
- ٣- فائدة خلق النجوم وهي الإهتداء بها في السير في الليل في البر والبحر .
- ٤- يتم إدراك ظواهر الأمور وبواطنها بالعقل .
- ٥- يتم إدراك أسرار الأشياء بالفقه .
- ٦- الإيمان بمثابة الحياة والكفر بمثابة الموت في إدراك الأمور .

النص التاسع :

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ * وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً * وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَنَنْتُمْ بِهَا بِرَافِقِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاناً وَمَتاعاً إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمْ بِالْأَسْحَابِ * كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ ﴾ (١) .

في هذه الآية الكريمة ذكر سبحانه وتعالى حالة أخرى للإنسان تدل على قدرة خالقه جل وعلا ونهاية رأفته بخلقه ، وهذه الآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ وتتنظم معها في سلك أدلة التوحيد ، أي أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء ولفظ شيء نكرة في سياق النفي فيعم كل الأشياء حتى العهد الذي أخذ عليهم في عام النذر (٢) ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أي ركب فيكم هذه الأشياء لتحصلوا بها على الذي كان مسلوباً عنكم ثم تعلموا بموجبه ، من شكر المنعم والقيام بحقوقه .

وبمناسبة ذكر هذه النعم يجدر بنا أن ننقل ما كتبه الباحثون من وصف علمي تشريحي لحاسة السمع التي كرر القرآن ذكرها في آيات كثيرة منها هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) ، هذا السمع ذو المغارات العجيبة ، الغريبة بأبوابها وصماخاتها ، وكواها ، وغاواتها ، وغضاريفها ، وعظيماها ، وكهوفها ، ومتاهاتها ، ومسالكها ، وطرقاتها ، وأعصابها ، ورباطاتها ، وجوامدها ، ومائها ، وسلالها ، وقنواتها ، ولوالبها ، وقوقعاتها ، وأكياسها ، وجراباتها ، وأحجارها ، وحصواتها ...؟ فنبداً بالأذن وهي صيوان أي بوابة السمع تحيط بمدخل ضيق لها أقواس وحنايا وأطناف وطيّات يتصل بها قناة في أولها شعيرات تذهب صعوداً ثم تنحدر عند نصفها وتضيق وفي أرضها دهن لزج أصفر وتليها الطبلة وهي غشاء رقيق نصف شفاف مقعر ، وخلفه قاعدة واسعة من العظم الرقيق مشدود على جدارها ذلك الغشاء الطبلي ، وفي الجدار المقابل

(١) سورة النحل : آية (٧٨-٨١)

(٢) أنظر تفسير فتح القدير محمد بن علي بن محمد الشوكاني - دار المعرفة - بيروت . ج٣ ص ١٨٢ بتصرف .

(٣) سورة الإنسان : آية (٢)

(٤) سورة المؤمنون : آية (٧٨)

(٥) سورة الملك : آية (٢٣)

له كوة بيضية الشكل مسدودة بغشاء ، وكوة مستديرة مسدودة بغشاء أيضاً ، وفي جدار القاعة الخلفي ثقب كبير وثقوب صغار ، وبين هذه الجدران علقت سلسلة عظام عجبية أحدها على صورة المطرقة ، والثاني على شكل " سندان" الحداد ، والثالث على شكل "ركاب" السرج وهي تتصل ببعضها ، فالمطرقى يتصل بالغشاء الطبلي ويشده إلى داخل القاعة بحيث يكون محبباً من الداخل مقعراً من الخارج ، والركابي يتصل بغشاء الكوة البيضية المقابلة ، أما السندانى فهو متوسط بين الأثنين ، ويتصل بهما بمفاصل ، وخلف الكوتين قاعة كبيرة بحيث يكون محبباً من الداخل مقعراً من الخارج ، والركابي يتصل بغشاء الكوة البيضية المقابلة ، أما السندانى فهو متوسط بين الأثنين ، ويتصل بهما بمفاصل ، وخلف الكوتين قاعة كبيرة وهي أعظم من الأولى ، وفيها دهاليز وأفنية وسلام كثيرة تسمى "التيه" تبدأ بدهليز متصل بغشاء الكوة البيضة ، هذا الدهليز وبيضي الشكل ، على جدرانه حفر وثقوب وطاقت ثلاث ، وفي القاعة قنوات هلالية الشكل ، منها قناتان في وضع عمودي ، وقناة من محور مركزي كالعمود ، وقناة تدور حول العمود على هيئة لولب دورين وزيادة ، وهذه القناة تقسمها صفيحة رقيقة بعضها عظمي ، وبعضها غشائي ، ثم تنتهى القناة بقبة مسدودة وهي رأس القوقعة ، أما الصفيحة اللولبية فنصفها العظمي يبدأ من الدهليز ويفرز سائلاً صافياً يسمى " اللمفاء الظاهرة " ونصفها الغشائي عبارة عن زق غشائي مسدود ، يحتوي على سائل أيضاً يسمى " اللمفاء الباطنة " وهذا الزق مؤلف في أوله من زقين يقال لأحدهما " الجراب " وللآخر " الكيس " والجراب يستطرق إلى القنوات الهلالية وفيه حجران صغيران من كربونات الكلس المتبلور يقال لهما : " الحجران الأذنيان " وتنتشر في القاعة الحبال والخيوط الدقيقة في كل اتجاه ، وتدخل في كل ثقب وتغوص في كل سائل هذه الحبال والخيوط هي الأوردة والشرايين ، والدقيقة منها الغائصة في السوائل هي أعصاب السمع التي تتصل بالدماغ وتنقل الصوت إليه ^(١) .

هذه هي أجزاء حاسة السمع فليُنظر الإنسان إلى جزئياتها وهيئتها ثم لينظر كيف يعمل جهاز السمع ؟ وكيف يلتقط الأصوات ويكيفها ؟ إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها ، يعد كشفاً معجزاً في عالم البشر ، فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ، ذلك التناسق الملحوظ الذي لو احتلت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الإتصال بين الكون والإنسان ، وما استطاعت الأذن أن تلتقط صوتاً ، ثم ليتدبر الإنسان خلقه وهيئته وما زود به من حواس وجوارح ثم يفكر كيف تعمل هذه الأجهزة المركبة في جسده إذا فعل الإنسان ذلك ففكر وتدبر وتذكر وعقل لتوصل يقيناً إلى وحدانية الله وقدرته لأن الصنعة تدل على الصانع والبكرة تدل على البعير .

(١) انظر قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص ٣٩٠ ، وما بعدها بتصرف .

وبعد فهذا عرض لقضية الألوهية والوحدانية في صورة نشأة الإنسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك ، .. والناس بعد ذلك قليلاً ما يشكرون الله على خلقه لهم وإنعامه عليهم ألم يكفهم خلقهم من نطفة صغيرة مهينة ثم تطورت إلى علقة فمضغة فعظام ثم كسى العظام لحماً ثم أنشأه الله خلقاً آخر ، فخلق الإنسان وتطوره طوراً بعد طور لا يحدث عبثاً بل لا بد وأن يكون من ورائه قوة مبدعة تهدي أولاً النطفة المهينة - ﴿ ألم يخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم ﴾ (١) ، إلى اتخاذ طريقها في النمو والتطور من هيئتها الساذجة إلى ذلك التطور المركب العجيب والتنوع الدقيق .

إنها يد الله التي سوت هذا الإنسان ، وإنها النفخة من روح الله في هذا الكيان ، التي جعلت من هذه الكائن العضوي إنساناً ذا سمع وبصر وإدراك إنساني مميز عن سائر الكائنات العضوية الحيوانية .

وبعد فإن هذه المميزات التي ميز الله بها الإنسان في تكوينه الجسماني لتدل دلالة قاطعة على عظمة الصانع وقدرته ، وتقديره وإتقانه ، وعنايته ثم هي برهان جلي على أن الله تعالى وحده هو المعبود الفرد الصمد ، وأن على الإنسان القيام بشكره وأداء ما افترضه عليه واجتناب ما نهاه عنه وليستشعر عظمة الله في كل شيء وقدرته على كل شيء وليعلم أن الله محاسبه وسائله عن كل نعمة من بها عليه في داخل نفسه وخارجها ، ومن أولها وأولها السمع والبصر والفؤاد ، فالسمع والبصر وسيلتان لإدراك المسموع والمنظور ، والفؤاد محل التمحيص والتدقيق ومحل التدبر والتفكير (٢) ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئلاً ﴾ (٣) ، وتباً للغافلين الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها * وهم أعين لا يبصرون بها * وهم آذان لا يسمعون بها * أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٤) .

ثم ينقلنا السياق من الآيات في النفس إلى آيات في الآفاق فعرض مشهد الطير المسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله وفي ذلك يقول : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٥) ، إنه لمشهد رهيب وعجيب ، رهيب أن يمتطي حيوان صهوة الفضاء ، وعجيب خلقه بشكل يتناسب مع الهواء بأجنحته وزعانفه وذيله الصاعد الهابط .

١ (سورة المرسلات : آية (٢٠-٢٢))

٢ (انظر تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم - د. أحمد المقرئ ص ١٧١ بتصرف .

٣ (سورة الإسراء : آية (٣٦))

٤ (سورة الأعراف : آية (١٧٩))

٥ (سورة النحل : آية (٩))

كما أن مشهد أسراب الطير في كبد السماء وهي تسبح في رحابها الشاسعة تمسكها قدرة الله من السقوط ، مرفرفة بأجنحتها تارة ومستريحة أخرى ، منتظمة في سبوحها إلى ما شاء الله لها من الآفاق والآماد ، بألوانها المتسقة ، وحركاتها البديعة ، وجماعاتها المختلفة ، ألوان وأحجام وأشكال وأصوات ينسجم بعضها ببعض ويتداخل ألوانها في ألوان بعض .

وإن رحلات الطيور المهاجرة من بلد إلى آخر يتقطع لها المسافات الشاسعة تدرك (ملاحظتها) الجوية ، وتعرف (مطاراتها) العالمية ، في أسراب كثيفة كجيش زاحف في جو السماء ، مما تملأه العين وتستوقف البصر ويتأثر به الوجدان^(١) .

إن هذه المشاهد كلها بما فيها من جمال وجلال سواء في حركاتها وصعودها ونزولها وهبوطها وطيرانها في أسراب ثم رحلاتها التي تهاجر فيها من بلد إلى آخر قاطعة المسافات الشاسعة ليضرب على أوتار القلوب بسناه البديع ويسري إلى أعماق الوجدان فيشهد بجمال الله ويقر بعظمته على أوتار القلوب بسناه البديع ويسري إلى أعماق الوجدان فيشهد بجمال الله ويقر بعظمته وقدرته يقول الحق جلت قدرته يقول الحق جلت قدرته : ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾^(٢) .

إنه مشهد واحد ذو منظرين ، منظر الطير باسقاط أجنحتها صافات أرجلها ، ومنظرها كذلك قابضات ، وهي صورة حية متحركة ، يراها الناس كل لحظة ، فيمرون بها غافلين ، فهو يلفت إليها أنظارهم ، ليروها بالحس الشاعر المتأثر ، دليلاً على قدرته ورحمته^(٣) .

وإذا كانت الآيات قد عرضت مشهد الطير المسخرات في السماء فإن آيات أخرى قد بينت أن الطيور أمم كأمم الناس يقع منها السجود والصلاة والتسبيح وفي ذلك يقول الحق جلت قدرته : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾^(٤) .

فهي أمم مختلفة وليسوا أمة واحدة ، ولكنهم (بأمتهم) مثلنا يسجدون ويصلون ويسبحون وهم مخلوقون في السماء مع فارق واحد بيننا وبينهم فنحن نؤدي ذلك باختيار وهم يؤديونه بالإلهام وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ ألم تر أن الله يسبح له من السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾^(٥) .

١ (انظر الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم - نذير حمدان ص ٣٦٩ ، دار المناره - جده الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م .

٢ (سورة الملك : آية (٩))

٣ (التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - ص ٦٩ دار الشروق ط ١٢ ، سنة ١٩٩٢م .

٤ (سورة الأنعام : آية (٣٨))

٥ (سورة النور : آية (٤١))

إنها نواميس الله في الكون وفي الطير وفي الهواء ، والمؤمنون هم الذين يدركون روعة هذا المشهد المنسجم بالروعة الباهرة التي تهز المشاعر وتستجيش الضمائر فيسبحون الله ويعبدونه ويعظمونه : ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ (١) .

ومن مشهد الطير حلقة في جو السماء ينقلنا السياق القرآني إلى البيوت لتدبر أسرار الخلق وآثار القدرة ومظاهر النعمة ، وما يسره الله لنا فيها وحولها من سكن ومتاع ، وإلى الجبال وما جعل الله فيها من الأكنان ومن الكهوف والغيران ، وإلى السراييل تقي الحر والبر والحرب كل ذلك من تمام النعمة على البشر لعلهم يسلمون فيستسلمون لله بسكون قلب وطمأنينة نفس .

قال تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً * وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ ، ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً * وجعل لكم من الجبال أكناناً * وجعل لكم سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ (٢) .

السياق القرآني في هذه الآيات يرسم صورة للبيوت والأكنان والظلال والسراييل ، وكلها مما يلاذ به أو يحتمي أو يستظل أو يستتر ولأن هذا هو " وحدة الرسم " عرض من " الأنعام " الجانب الذي يتفق مع هذه الوحدة ، عرض الجلود التي تتخذ بيوتاً تستخف يوم الظعن ، والأصواف والأوبار والأشعار التي تتخذ أردية وأثاثاً ... والمنظر كله منظر أبنية وأردية وظلال (٣) .

والسكن للإنسان أمر هام في حياته فيه تهدأ جوارحه من الحركة وتهدأ نفسه من الاضطراب ، إذ لو شاء الله لخلق الإنسان مضطرباً دائماً كالأفلاك ، ولو شاء خلقه ساكناً أبداً كالجماذ ، لكن العليم الخبير هياً له هذا الجو النفسي المناسب من الهدوء والطمأنينة والسكينة النفسية ، إذ ليس البيت محلاً للنزاع والخصام إنما هو سكن وأمن وسلام ، فلا يدخله أحد إلا بإذن صاحبه ، وليس لأحد أن يقتحمه باسم السلطان - بغير حق - وليس لأحد أن يتطلع على من فيه إلا أهله وذووه ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منه أو غيبة فيروع آمنهم ، ويخل بالسكن الذي يريده القرآن الكريم (٤) .

وجاء في الكشاف (٥) ، أن معنى ﴿ من بيوتكم ﴾ أي التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها ، والسكن فعل بمعنى مفعول وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف

(١) سورة غافر : آية (٦٤)

(٢) سورة النحل : آية (٨٠-٨١)

(٣) التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - ص ١٢١

(٤) الظلال - ٥م ، ج ١٤ ، ص ١٦٩ بتصرف .

(٥) الكشاف - الزمخشري - ٢م ص ٤٢٢ - دار المعرفة .

﴿ ويوتأ ﴾ وهي القباب والأبنية من الأدم والنطاع ﴿ وتستخفونها ﴾ أي ترونها خفيفة الحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿ ويوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ أي يوم ترحلون خف عليكم حملها وتقلها ، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها ، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً على أن اليوم بمعنى الوقت ﴿ متاعاً ﴾ أي شيئاً ينتفع به ﴿ إلى حين ﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم ، أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى أن تموتوا و ﴿ أكناناً ﴾ جمع كن ، وهو ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف .

ومن السكن يأتي السياق إلى ما يناسب السكن فيعرض من الأنعام الجانب الذي يتخذ منه الخيام والأثاث والأمتاع من فرش وأغطية لأنه يوحى بالمتعة والراحة ، وما دام السياق فيما فيه راحة للنفس وطمأنينتها ذكر القرآن الظلال ولا يخفى ما في الظلال من استرواح وسكن ، ثم ذكر الجبال وما بها من الأكنان التي تكن الإنسان من الخوف والمطر في السلم والحرب ولا يخفى أهمية هذه الأكنان في الكهوف والمغارات خاصة في الحروب الحديثة ، ثم تحتم الآيات بذكر السراويل التي تقرر الحر والبرد من الثياب الخفيفة والصفيفة والدبوع التي تقي الإنسان في معارك القتال ومواطن النزول ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي مثل ذلك الإتمام البالغ من النعم يتم نعمته عليكم فإنه سبحانه وتعالى قد منّ على عباده بصنوف النعم المذكورة ها هنا وبغيرها ، وهو بفضلته وإحسانه سيتم لهم نعمة الدين والدنيا ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ إرادة أن تسلموا ، وعلى هذا فمن أمعن النظر في هذه النعم ، وفكر بقلب مفتوح طالب الهداية لا يسعه إلا أن يخر ساجداً لله مسلماً لربه منقاداً إليه ، ونختم هذا النص الجميل بآية من آيات هذا الكون العظيم ألا وهي الجبال .

إن الاعتقاد الغالب على بني البشر أن هذا الكائن الشاهق وهو الجبال من الجمادات التي لا تعقل ولا تدرك ولكن دلت النصوص الشرعية على أن الجبال تسجد لله تعالى وتسبح وتخشع له وأنها ثالث الكائنات التي عرضت الأمانة لحملها ، وأنها جاءت بأفعال تدل على إدراكها وإليك بيانها في النصوص الآتية :

أ - سجود الجبال لله تعالى :

لقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ (١) .

(١) سورة الحج : آية (١٨)

فهذه الآية عامة في إثبات السجود لله تعالى من جميع الكائنات كلها والعطف يفيد أنها جميعاً عابدة لله تعالى فأما الكيفية فلا يعلمها إلا هو سبحانه يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - عن سجود الجبال : (وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال) (١) .

ب - تسبيح الجبال :

لقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ (٤) ، فالتسبيح في الآيات السابقة هو على الحقيقة ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى لها إدراكاً تسبيح به ، وهي مسبحة لله تعالى ، واقتزاناها بالتسبيح مع داود عليه السلام وتسخيرها لذلك هو من باب إظهار معجزة هذا النبي عليه السلام وكذلك استئناساً وإعانة له على التسبيح بحيث تردد معه تسبيحه أو تسبح هي بأمره لها ، فجعلها الله عز وجل مسخرة لأمره عليه السلام ، وليس كما ذهب البعض بأن هذا التسبيح على سبيل المجاز ، فالنداء في قوله تعالى : ﴿ يا جبال ﴾ للخطاب لمن يدرك ، ونحن نورد أقوال أهل العلم في هذا :

يقول الشوكاني - رحمه الله تعالى - : (والتسبيح إما حقيقة وإما مجاز ، وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر ، وذلك أن داود عليه السلام إذا سبح سبحت الجبال معه وقيل : إنها كانت تصلي معه إذا صلى ، وقال بالمجاز آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدرة خالقها ، وقيل : أنها كانت تسير مع داود عليه السلام فكان من رآها سائرة معه سبح) (٥) .

فعجباً ممن حمل سير الجبال مع داود عليه السلام على حقيقة وآجازه ، ومنع تسبيح الجبال على الحقيقة وجعله مجازاً بمعنى أن من رآها سبح !! أليس التسبيح والسير من الإدراكات التي أودعها عز وجل في الكائنات وتدلل على عظيم سلطانه سبحانه !؟ .

قال القرطبي - رحمه الله تعالى : (ذكر الله تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه ، قال مقاتل : كان داود عليه السلام إذا ذكر الله عز وجل ذكرت الجبال معه ، فكان عليه السلام يفقه تسبيح الجبال .

(١) تفسير ابن كثير - ٣م - ص ٢١١ .

(٢) سورة الأنبياء : آية (٧٩)

(٣) سورة سبأ : آية (١٠)

(٤) سورة س : آية (١٨)

(٥) فتح القدير - ج ٣ - ص ٤١٩

ثم قال - رحمه الله تعالى - : (وإن ذلك التسييح تسييح المقال على الصحيح من الأقوال وكان عند طلوع الشمس وعند غروبها) (١) .

وقال - رحمه الله تعالى - : (كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سخرنا ﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسييح والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ وكنا فاعلين ﴾ مؤكد لقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسييحها أمر عجيب خارق للعادة مظنة لأن يكذب به الكفرة والجهلة) (٢) .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - : (والتحقيق أن تسييح الجبال والطير مع داود عليه السلام المذكور ، تسييح حقيقي لأن الله عز وجل يجعل لها إدراكات تسيح بها يعلمها هو جل وعلا لا نعلمها كما قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسييحهم ﴾ (٣) .

ج - خشية الجبال لله تعالى :

لقوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنا خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٤) .

فالله عز وجل يذكر الناس بخشيته والخوف منه سبحانه ، وذلك باجتتاب المعاصي وفعل الطاعات ، فيضرب الله تعالى مثلاً بقياس الأولى ، فالجبل مع صلابته ومع افتراض نزول القرآن عليه فإنه يخشع لله عز وجل ، فالبشر مع تفضيل الله تعالى لهم على كثير من الكائنات أولى بأن يكونوا أكثر لله تعالى خشية .

يقول الشيخ محمد الشنقيطي - رحمه الله تعالى - : (فدل هذا كله على أنه تعالى وإن لم ينزل القرآن على جبل ، أنه لو أنزله عليه لرأيتنا خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ (٥) .

(١) الجامع لأحكام القرآن - ج ١٥ - ص ١٥٩

(٢) المرجع السابق - ج ١١ ، ص ٣١٩

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين بن محمد المختار الحكي الشنقيطي - عالم الكتب - بيروت - ج ٤ ، ص ٦٧٢ ، وانظر الإسلام في عصر العلم - محمد أحمد الغمراوي - وأحمد عبدالسلام الكرواتي . ص ٣٢٠ - دار الكتب الحديثة - مطبعة السعادة سنة ١٩٧٣م .

(٤) سورة الخشر : آية (٢١)

(٥) نفس المرجع السابق - ج ٨ ، ص ١٠١

د - عرض الأمانة على الجبال :

والجبال من جملة من عرض عليه أمانة التكليف وما يتبعها من الثواب والعقاب من السماوات والأرض لقوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ (١) .

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : (فهذا نص صريح بأن أشفقت الجبال من حمل الأمانة وهي أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى لها ، فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها وكلفت بها ؟ (٢) .

ومن مظاهر تصدع الجبال من خشية الله تعالى إنكارها الشديد الإدعاء المفترى على الله عز وجل بأن له ولداً ، وذلك من قبل كفرة النصارى بقولهم : إن المسيح ابن الله - قاتلهم الله تعالى - فلم يفظع لتلك الفرية أحد قدر السماوات والأرض والجبال على ما فيهن من الجمودة وعدم الإدراك - كما يظن - فقد شتموا الله عز وجل ، هؤلاء الكفرة بقولهم على الله تعالى ذلك ، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ يقول الله تبارك وتعالى : كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقله : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ (٤) ، فيه بيان لرد فعل الجبال لتلك الفرية العظيمة ومدى تأثرها لذلك بما أودعه الله تعالى فيها من الإدراكات عند سماعها هذا الإدعاء الباطل (٥) .

من الأدلة السابقة يتبين لنا عظم عبودية هذا الكائن الضخم ، فهو آية من آيات الله تعالى الكونية التي تشهد بوحدانيته عز وجل وتخضع له وتذل وتقدس له وتسبح له وتسجد إجلالاً لعظمته سبحانه ، كما تقوم بغيرها من العبادات التي تظهر بها عجزها وأنها مربوبة مخلوقة والأدلة لا تدع مجالاً للشك في ثبوت ذلك .

(١) سورة الأحزاب : آية (٧٢)

(٢) أضواء البيان - ج ٨ - ص ١٠١

(٣) أخرجه البخاري - كتاب التفسير - سورة قل هو الله أحد ، ص ١٠٨٣ برقم (٤٩٧٤)

(٤) سورة مريم : آية (٩٠-٩١)

(٥) انظر عبودية الكائنات لرب العالمين - فريد اسماعيل التونسي - ص ٣٠٧ بتصرف - مكتبة الضياء - جدة الطبعة الأولى سنة ١٤١٣ هـ ، سنة ١٩٩٢ م.

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلام ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن الجبال ، فهو ممتع للغاية فيقول : رحمه الله تعالى - ما نصه بعد بيان حكمة الله تعالى من خلق الجبال على ما هي عليه : (هذا مع أنها تسبح بحمده وتخضع له وتسجد وتشفق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ، ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كلمه ونجيه ، ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك ، ومنها الجبل الذي حبب الله ورسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومنها الجبلان اللذان جعلها الله سوراً على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعباتهم ، ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية ، (ثم قال) : ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه وهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم ، فسبحان من اختص برحمته من شاء من الجبال والرجال ، هذا وإنها لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنسف فيها نفساً وتصير كالعهن مشفقة من هول ذلك الموعد .

هذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة ، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمتها ، وقد أخرج عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله .

فيا عجباً من مضغة لحم أفسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تعالى فلا تلين ولا تخضع !! (١) .

النص العاشر :

قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ (١) .

ونتقل إلى الآيات الكونية من سورة فاطر وهي تقرر وحدانية الله تعالى بأدلة سماوية وأرضية أدلة في صحائف هذا الكون العجيب ، أدلة متنوعة الألوان والأنواع ، إنزال الماء من السماء ، إخراج الثمرات المختلفة الألوان ، منظر الجبال الملونة ، بيض ، وحمر ، وسود كلها ، نتبع في جبالها الألوان المتعددة ونشاهد في أرجائها أنواع الألوان في الناس والدواب والأنعام والثمار ، هذه الأشياء المشاهدة التي يلمسها الناس ويحسون بوجودها في كل حين ألا تدع القلب خاشعاً لله متصلاً بهذا الخالق العظيم ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ، " فمن علم أن هذا خلق الله وأنه واحد من خلق الله داخلته الخشية من هذه المشاهد العظيمة وعاد بزاد أيما زاد ، زاد لروحه وعقله ، لروح تخلق في عليين حيث يكون طائعاً لربه ممتثالاً لأوامره مجتنباً نواهيها ، ولعقله في التفكير حيث يسبح فكره في سماء الوجود فيتذكر (١) ، ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (٢) .

وعرضت الآيات قدرة الله وحكمته وبديع خلقه في "ألوان" جمالية وجلالية مختلفة من الأمطار والثمار والجبال والناس والدواب والأنعام ووصفت جميعها في مشهد كوني رائع يكشف العلماء عن إعجازه العلمي والبياني .

وليس الإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة قاصراً على مجرد ذكر ما للجبال من ألوان متباينة ناجمة عن تباين المواد الداخلة أو المترسبة فيها ، تلك المواد التي تتألف مثلاً من عنصر الحديد الذي يجعل اللون السائد هو اللون الأحمر ، أو عنصر الكربون أو عنصر المنجنيز اللذان يجعلان اللون السائد هو اللون الأسود ، أو عنصر النحاس الذي ينجم عنه اللون الأخضر .

ولكن الإعجاز هو قبل كل شيء إظهار قدرة الخالق جل شأنه يخلق جبلاً فيها طرائق وعروض لونها أبيض أو أحمر أو أسود ، رغم أن الأصل واحد مشترك هو باطن الأرض المنصهر الذي يعرف علمياً باسم الصهارة أو "الماجما" .

وإن اختلاف مواد الصهارة يرجع في أساسه إلى اختلاف الأماكن - على سطح الأرض ، الذي تتدفق أو تنبثق منها ، وكذلك على اختلاف الأعماق من سطح الأرض التي تمدها بالمواد .

(١) سورة فاطر : آية (٢٧-٢٨)

(٢) تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم - د. أحمد المقرئ - ص ١٩٧ .

(٣) سورة فاطر : آية (٢٧-٢٨)

وهذا الاختلاف في الأعماق إنما يعني اختلاف تركيب المادة تبعاً لاختلاف الكثافة ونحوها من خواص المواد ، وبهذا التدبير المعجز من الخالق العليم يستطيع الإنسان أن يحصل من الجبال على المادة التي يريد لها لنفعه ورحائه وراثته فضلاً من الله ونعمة (١) .

ويعقب الشهيد سيد قطب على هذه الآية فيقول : (إنها لفئة كونية عجيبة من اللغات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، لفئة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها ، في الثمرات ، وفي الجبال ، وفي الناس ، وفي الدواب ، لفئة تجمع في كلمات قلائل ، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ، وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً .

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان ، ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات ، فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهَا ثَمْرَاتٍ مَخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ ... وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال ، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر ، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد ، فعند التدقيق في أي ثمرة أختين يبدو شيء من اختلاف اللون ! .

وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية ، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددتها بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها ! .

﴿ ومن الجبال جدد بيض وحممر مختلف ألوانها وغرايب سود ﴾ ..والجدد الطرائق والشعاب ، وهذا لفئة في النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها والجدد الحممر مختلف ألوانها فيما بينها ، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرايب سود ، حالكة شديدة السواد .

واللفظة إلى ألوان الصخور وتعددتها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتهما في تقدير الإنسان ، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والإلتفات .

ثم ينتقل إلى ألوان الناس ، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر ، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه ، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن

١ (انظر مع القرآن في الكون - د. محمد جمال الدين الفندي - ص ٣٥ مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٢م .

واحدة ، وكذلك ألوان الدواب والأنعام ، والدواب أشمل والأنعام أخص ، فالدابة كل حيوان والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان ، والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء (١) .

وأخيراً ينبنى النص ثناء عظيماً على العلماء الذين يستفيدون من علمهم ويتوصلون به إلى خشية ربهم والخوف منه ومراقبته في كل أمورهم وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

وسياق هذه المدحة العظيمة بين جللي في أن المراد من العلماء المميزين بهذا المقام هم العلماء بالله الذين عرفوه بمعرفة آياته في خلقه معرفة تقوم على إدراك أسرار ظواهر ما خلق من أشياء .

كمعرفتهم حكمة الله في إنزاله الماء من السماء وعلمهم بديع صنعه حتى يخرج الثمر المختلف في الألوان والطعوم والروائح من أشجاره ، ونظراتهم المتديرة والواعية إلى الجبال بأشكالها وأحجامها المختلفة وإلى خلق الناس وتكوينهم ، وفي خلق الدواب وغيرها، فهؤلاء وغيرهم يصلون بكل ذلك وغيره إلى الإيمان بالله حق الإيمان مما يؤدي بالتالي إلى خوفهم منه وخشيتهم له حق الخشية ، أما غير العلماء فقد منحهم الله عز وجل من عنايته ورعايته وأفاض عليهم من رحمته ، وغمرهم بسابغ فضله إلا أن الكثير منهم غافلون عن الله سادرون في غيهم يعمهون في ضلالهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (٢) ، والحجة واضحة ، والأدلة بينة والبراهين ساطعة أمام أعينهم ، إن كل شيء في الأرض والسماء يهتف بأن الذي أنشأه وأبدعه هو الله وحده ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٣) ، وفي آية أخرى يقول تعالى مندداً بالمشركين : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً ﴾ (٤) .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (٥) في تفسير هذه الآية الكريمة : " ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة - يعني آية الفرقان - أن الألهة التي يعبدونها المشركون من دونه متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع ، إن عبادتها مع الله لا وجه لها بحال بل هي ظلم متناه وجهل

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب م ٥ ، ص ٢٩٤٢

(٢) سورة محمد : آية (١٢)

(٣) سورة فاطر : آية (٤٠)

(٤) سورة الفرقان : آية (٣)

(٥) أضواء البيان - ج ٦ - ص ٢٦٩ بتصرف .

عظيم ، وشرك يخلد به صاحبه في نار جهنم ، وهذا بعد أن أتى على نفسه جل وعلا بالأمور الخمسة المذكورة في الآية التي قبلها هي براهين قاطعة على أن المتصف بها هو المعبود وحده ، وهي قوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض * ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾^(١) وهي :

١- أنه هو الذي له ملك السموات والأرض .

٢- أنه لم يتخذ ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

٣- أنه لا شريك له في ملكه .

٤- أنه هو خالق كل شيء .

٥- أنه قدر كل شيء خلقه تقديراً .

وقد جاءت هذه الأمور الخمسة موضحة في كتاب الله تعالى في آيات كثيرة :

فالأول : منها جاء موضحاً في عدة آيات ، ففي سورة المائدة قوله تعالى : ﴿ والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾^(٢) ، وفي سورة فاطر قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾^(٣) ، وكل آية فيها ذكر الملك فهو شامل للملك السموات والأرض .

وأما الأمر الثاني : فهو كقوله تعالى : ﴿ لم يتخذ ولداً ﴾ فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وأنه جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لأبائهم * كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾^(٨) .

(١) سورة الفرقان : آية (٢)

(٢) سورة المائدة : آية (٤٠)

(٣) سورة فاطر : آية (١٣)

(٤) سورة الإخلاص : آية (٣)

(٥) سورة الجن : آية (٣)

(٦) سورة الأنعام : آية (١٠١)

(٧) سورة مريم : آية (٨٨-٩٣)

(٨) سورة الكهف : آية (٤-٥)

وقوله تعالى : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا * إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ (١) ،
وقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا
بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴾ (٢) .

فالأمر الثالث : وهو كونه تعالى لم يكن له شريك في الملك ، فقد جاء في آيات عدة من كتاب الله
منها قوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ (٣) ، وقوله
تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في
الأرض وما لهم فيهما من شريك وما له منهم من ظهير ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم
الله الواحد القهار ﴾ (٥) ، فالتقهار يدل على القهر والغلبة ، واستحقاق الإخلاص له بالعبادة .

وأما الأمر الرابع : وهو أنه تعالى خلق كل شيء فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة منها قوله تعالى :
﴿ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل
شيء عليم ﴾ (٦) ، ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تكونون *
كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يمجدون ﴾ (٧) .

وأما الأمر الخامس : وهو أنه تعالى قدر كل شيء خلقه تقديراً فقد جاء في عدة آيات من الكتاب
الحكيم منها قوله تعالى : ﴿ الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى ﴾ (٨) ، وقوله تعالى : ﴿ وكل
شيء عنده بمقدار ﴾ (٩) ، وقوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (١٠) .

وبعد فهذه هي الصفات الخمسة التي سردتها الآية الكريمة ، وبينت أنها من صفات الله عز
وجل التي يستحق بسببها العبادة دون سواه .

والخلاصة في هذا المطلب أن القرآن الكريم وجه النفس البشرية إلى ربها ومعبودها بطرق
عدة فتارة يسلك بها طريق النظر في خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وتارة يسلك بها طريق
النظر في آفاق النفس الإنسانية وكيفية خلقها ومراحل تكوينها حتى نهايتها ، وتارة يسلك بها طريق

(١) سورة الإسراء : آية (٤٠)

(٢) سورة المؤمنون : آية (٩١)

(٣) سورة الإسراء : آية (١١١)

(٤) سورة سبأ : آية (٢٢)

(٥) سورة غافر : آية (١٦)

(٦) سورة الأنعام : آية (١٠١-١٠٢)

(٧) سورة غافر : آية (٦٢-٦٣)

(٨) سورة الأعلى : آية (٢-٣)

(٩) سورة الرعد : آية (٨)

(١٠) سورة القمر : آية (٤٩)

النظر في النعم المتعددة الشاملة المتنوعة ، ويربطها بخالقها وخالق هذه النعم وموجدتها من العدم ومنها النظر في هذا النظام الكوني الدقيق بأجرامه المتعددة وأحجامه المختلفة والفوائد للإنسان ومنها الظواهر الكونية كالسحاب والرياح والمطر وما يحصل من ذلك من المنافع ، والرعد والبرق وما ينتج عن ذلك من الرغبة والرغبة ، ومنها التحدي الذي أظهر فيه عجز البشرية كلها عن الخلق ولو ذبابة . ولا يسع الإنسان العاقل بعد هذا الحشد الهائل من الأدلة التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم المتفضل على كل المخلوقات إلا أن يخز ساجداً لله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ، ولا يسعه أيضاً إلا أن يسلم أمره وقياده إلى ربه وخالقه الذي يكلؤه في الليل والنهار ويحفظه ، ولا يسعه كذلك إلا أن يمسك بحبل الله ويعتصم بقرآنه الكريم وبسنة نبيه محمد ﷺ صاحب الخلق العظيم والقلب الرحيم ، فيكون ذا عقيدة سوية قوية حية نامية ، يقظة واعية ، مستقرة مشرقة يغمر ضوءها جوانب النفس ، ويسري ماؤها في أغوار القلب فهي للضمير منارة الذي يهديه سواء السبيل ، وهي للإرادة قوتها النازعة ، الوازعة ، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاته وسكناته ، ونحو أهدافها يتوجه في أقواله وأفعاله ، يتلقى دائماً وحيها ويستلهمه ، ويتوقى إرشادها ويترسمه .

وبعد .. فإنها آيات تنطق بالحق وتسطر على وجه الكون دلائل وجود الخالق ووحدانيته وكماله بأحرف من نور ، وتسجل على صفحات الوجود العلامات القاطعة التي تدل على أن كل أثر لا بد من مؤثر .

وهذه الآثار تتحدث كذلك بلسان الصدق ، وتنطق بقانون الحق على أنها حادثة ومخلوقة لخالق قديم واحد لا يشارك في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ولم يكن له كفواً أحد .

ومن روائع ما قال المرحوم الشاعر أحمد شوقي في وصف هذه الآيات :

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري	حتى أريك عظيم صنع الباري
الأرض حولك والسماء اهتزتا	لروائع الآيات والآثار
دلت على ملك الملوك فلم تدع	لأدلة الفقهاء والأجبار
من كل ناطقة الجلال كأنها	أم الكتاب على لسان القاري
من شك فيه فنظرة في صنعه	تمحو أئيم الشك والإنكار ^(١) .

(١) نقلاً عن ديوان الشوقيات للمرحوم أحمد شوقي ص ٤٣ الجزء الثاني طبعة شركة فن الطباعة عام ١٩٨٤

المطلب الثاني : مناقشة الملحدين والماديين والكفار والرد عليهم من خلال المنهج الحسي في إنكار وجود الله ووجدانيته .

والآن بعد هذا العرض والإيضاح ، ما موقف الماديين المنكرين أمام دلالة الكون الصادقة وآياته الناطقة ؟ ما موقفهم أمام البرهان الكوني الواضح البين ، أيحدون الخلق في هذا العالم ؟ أم يحدون التسوية والإحكام ؟ أم يحدون التقدير والنظام ؟ أم يحدون الهداية والإلهام ؟ إنهم إن جحدوا ذلك فقد أنكروا البدهة والحس والمشاهدة ، وأنكروا كل آثار العلم وتجاربه وملاحظاته ، أم يقرون بهذه البراهين والأدلة ثم يقفون عند هذا الحد ؟ فأى منطق إذن يحتكمون إليه ، أو أي علم يستندون عليه ؟ .

أخلق ولا خالق ، وتسوية ولا مسو ، وتقدير ولا مقدر ، وهداية ولا هاد - ، أما العقل والعلم والبصيرة والمنطق ، فإنها تجرد قول الله - جل شأنه : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى ﴾ ^(١) ، وبالتالي فإن إنكارهم وإحادهم لا ميرر له ولا سبب إلا الحقد والحسد ولذلك فإن الله عز وجل ناقشهم وسفه أحلامهم وعراهم وفضحهم على موقفهم الساقط ، وسنحاول هنا استعراض بعض الآيات التي ناقش الله عز وجل فيها هؤلاء الجاحدين المجرمين لإقامة الحجة عليهم .

مناقشة المشركين والملحدين :

يتخذ القرآن من الآيات الكونية مادة يناقش بها المشركين والملحدين وقيم بها الحجة عليهم من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ ^(٢) ، ويبين لهم فساد معتقداتهم في معبوداتهم فهي لا تملك صفات الربوبية والألوهية التي تستحق أن تعبد بها وتتخذ آلهة من دون الله : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءآلله خير أما يشركون * أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمّن جعل الأرض قراراً * وجعل خلالها أنهاراً * وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمّن يجيب المضطر إذا

١ (سورة الأعلى : آية (١-٣))

٢ (سورة الأنبياء : آية (٣٠-٣٣))

دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون * آمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون * آمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴿١﴾ .

إن الآيات تبين عدم صلاحية الآلهة المدعاة ، فالله وحده الخالق للسماء والأرض المنزل للماء من السماء ، والمنبت به الحدائق التي تسر النفس وتبهج النظر ، وهو الذي جعل الأرض قراراً وسير خلالها الأنهار وثبتها بالجبال ... فهو المعبود الحق ، وغيره لم يفعل شيئاً فلا يستحق أن يعبد من دون الله .

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال في مواجهة الكفرة والملحدين فقد استخدمه الرسل من قبل وأكثروا من الإحتجاج به ، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش ذلك الملحد وقيم الحجة بهذا النوع من الاستدلال فأحرس لسانه وأدهش فكره : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك * إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت * قال أنا أحيي وأميت * قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب * فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٢) .

وهذا موسى كلیم الله يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره فرعون ، ولا يزال يأتيه بالدليل في إثر الدليل حتى يعجزه فيلجأ إلى التهديد والوعيد : ﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون : قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ (٣) .

بل إن هذا النوع من الاستدلال طريقة جميع الرسل ، ارجع إلى سورة إبراهيم (آية ٩-١٠) واقرأ ما قالته الأقوام المكذبة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، ثم إجابة الرسل حيث قالوا : ﴿ أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم ... ﴾ فاستدلوا على صدق دعوتهم بأنه سبحانه فاطر السماوات والأرض أي موجودهما وخالقهما (٤) .

(١) سورة النمل: آية (٥٩-٦٤)

(٢) سورة البقرة: آية (٢٥٨)

(٣) سورة الشعراء: آية (٢٣-٢٩)

(٤) انظر العقيدة في الله - د. عمر الأشقر - ص ١٣٨ وما بعدها - مكتبة الفلاح الكويت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ ، سنة ١٩٧٩م.

الكفر مستنكر من وضوح الأدلة :

ولذلك يسأل القرآن سؤالاً يوحى بالعجب من كفر الكافرين مع وضوح الأدلة والبراهين :
﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ (١) .
ويسأل في آية أخرى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ (٢) .

إن مقتضى نظر الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله يوجب عليه التوجه إلى خالقه وتعظيمه ، ولذلك كان غريباً كفر الكافرين ، ووجد الجاحدين عندما خاطبهم نوح بقوله تعالى :
﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ (٣) .
شبهات :

نسمع ونقرأ شبهات قيلت في القديم ، وتقال اليوم ، يحاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الكون ، وسنحاول أن نعرض لبعض هذه الشبهات ثم نرد عليها .

الشبهة الأولى : قالوا إن الطبيعة هي الخالق :

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا وراجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادية وعلل كثير من وجود الأشياء وحدوثها بها ، فقالوا الطبيعة هي التي توجد وتحدث .
ومن أبرز هؤلاء العلماء هو (نيوتن) ، الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية ، ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالاً علمياً أوسع ، حتى قيل : إن كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه (قانون الطبيعة) فلم يبق للعلماء ما يقولون ، بعد هذا الكشف ، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون ، وضرب (والتير) مثلاً في هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلياتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها ، ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الإله الميت ، وعلى حد قوله : (لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعاً) (٤) .

(١) سورة البقرة : آية (٢٨)

(٢) سورة الإنفطار : آية (٦-٨)

(٣) سورة نوح : آية (١٣-٢٠)

(٤) الإسلام يتحدى وحيد الدين خان - دار البحوث العلمية .

الرد عليهم : ونرد على القائلين بأن إله العالم الطبيعة وأنها خلقت السماوات والأرض والنبات والحيوان والإنسان والأفلاك بما يأتي :

أولاً : لقد تردد لفظ الطبيعة بين معان ثلاثة :

* عند أهل اللغة للطبيعة مفهوم واحد وهو الخلق والسجية .

* وعند الطبيعيين لها مفهومان :

المفهوم الأول : أن الطبيعة هي عين الأشياء أي عين ذواتها فنفس الحيوان ونفس النبات هو الطبيعة .

المفهوم الثاني : أن الطبيعة هي الخصائص والصفات المستكنة في الأشياء فالنار من خصائصها الأحراق وأنها تشع حرارة وضوء ومن صفاتها أنها تأخذ ألواناً منها الأحمر والأصفر والأسود ومن خصائص الحيوان والإنسان الحركة والتزواج والولد ومن خصائص الإنسان أنه عاقل ومن أوصافه البياض والسواد والطول والقصر^(١) .

وعلى هذا فما هية الطبيعة عند الطبيعيين أنها ذوات الأشياء أو صفاتها وخصائصها فإذا قلنا إن خالق العالم وما فيه من أشياء هو ذوات الأشياء الموجودة يلزمنا أن كل شيء أوجد نفسه ويكون كل شيء في الكون حدثاً ومحدثاً أي خالقاً ومخلوقاً وبصير عدد الآلهة هو عدد الموجودات في الكون.

وإذا قلنا بالمفهوم الثاني للطبيعة وهو أنها خصائص الأشياء وصفاتها فالرد هو أن الخصائص والصفات المودعة في الأشياء يستحيل أن تكون أوجدت نفسها ثم أودعت كل خصيصة نفسها في شيء من الأشياء .

وعلى هذا يجب أن يكون سبب العالم وما فيه من أشياء هو الذي أحدث جميع الأشياء وأفاض عليها خواصها وصفاتها .

وإذا تأملنا في ثقل الحبة في أطوار نموها فبعد أن نلقيناها في الأرض المحروثة ونجري عليها الماء تفلق ويخرج منها الجذر إلى أسفل والساق إلى أعلى ، ويستحيل في عرف العقل أن نقول إن الحبة هي التي خلقت النبات .

ويستحيل أن نقول أن خصائص الحبة هي التي أوجدت النبات لأن الحبة وخصائصها لا تملك لنفسها الحياة ولا النمو .

(١) انظر الإسلام دين العقل والقطرة د. مصطفى صميده ص ٨٥ م يطبع .

وليس في الحبة ولا في خواصها وصفاتها عقل يدبر بل هي مسخر مذلل لنا بقدره الله عز
وعلا ، فعلى هذا وجب أن يكون الذي أخرج من الحبة النبات سبب خارج عن ذاتها وصفاتها
مباين لها وهو الذي أحدث الموجودات وأفاض على كل موجود خواصه وصفاته اللائقة به .
وقد ذكر الله تعالى أنه خالق الأشياء والمفيض عليها خواصها قال تعالى على لسان كليمه
موسى : ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾^(١) .

وعلى هذا وجد أن وراء كل الظواهر الكونية والمواد وخواصها قدرة مطلقة مدبرة هي التي
أوجدت الكون وما فيه من أشياء وخواص كل شيء فما أبلد العقول التي تزعم الحياد حين تطلب
الحقائق فتجعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً والقابلية للتأثير (كون الحبة قابلة للنمو بالقوة) أمراً مؤثراً
والظاهرة المجهولة (كون الحبة نامية) موجوداً .

إن نمو الحبة في الأرض بعد سقيها لا يعني إلا مجرد انفعالها فهؤلاء الطبيعيون اعتبروا الوجود
لذاته .

وإذا تأملنا فيمن أخرج الحياة الكامنة في الحبة من القوة إلى الفعل ما وجدناه غير واجب
الوجود لذاته .

وقد ذكر الله تعالى ذلك فقال : ﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت
ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾^(٢) ، والعقل السليم المحايد يقطع بأن أوصاف
وخصائص الأشياء ليست إلا عرض .

ثانياً : إن الطبيعة المزعومة "إلهاً" سواء كانت خصائص الأشياء أو ذوات الأشياء إما أن تكون
حدثت بذاتها وهذا باطل لأنها متغيرة وكل متغير حادث وكل حادث لا بد له من محدث .
وإما أن تكون أعراض الأشياء أي خصائصها وصفاتها هي التي خلقتها وهذا بين البطلان
لأن الخصائص والصفات أعراض لا تقوم بذاتها بل بذوات الأشياء والأشياء حادثة بطريق الأولى
تكون الخصائص والصفات حادثة .

لأنه من المحال عقلاً أن تخلق الصفة أو الخصيصة القائمة بالشيء ذات الشيء فثبت أن وجود
جميع موجودات العالم مستمد من سبب خارج عنها وهو مصدر جميع أسبابها وإليه ترجع الأسباب
وهو الله عز وعلا^(٣) .

١ (سورة طه : آية (٥))

٢ (سورة الأنعام : آية (٩٥))

٣ (نظر الإسلام دين العقل والفترة - د. مصطفى صميحة - ص ٨٧ وما بعدها بتصرف .

الشبهة الثانية : زعم المصادفة :

يقول الماديون المنكرون لوجود الله : إن وجود الخالق الذي يؤمن به المتدينون ، ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في الكون من خلق وتسوية ، وتقدير ، وهداية ، إذ يمكن أن يكون كل هذا العالم بما فيه من الحياة والعقل ، وما فيه من الإحكام والتناسق والتوازن الذي تحكمه سنن مطردة ، وقوانين في غاية الدقة إنما وجد بمحض المصادفة والاعتباط .

يبدو القول بأن هذا الكون خلق مصادفة من غير خالق ليس قولاً بعيداً عن الصواب فحسب بل هو قول بعيد عن المعقول يدخل صاحبه في عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا فهم يكابرون في الدليل الذي لا يجد العقل بدا من التسليم به .

إبطال زعم البعض وجود الكائنات بالمصادفة :

المصادفة هي الموافقة وهي تلاقي الأمور المتقابلة بدون ترتيب مسبق :

١- يقول وحيد الدين خان^(١) : (أي كلام من هذا القبيل لغو مثير ، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ، فإن جميع علومنا تجهل - إلى يوم الناس هذا - أية مصادفة أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة ، في روعة الكون) ، فعندما تهب الرياح تصل " حبوب اللقاح " من وردة حمراء إلى وردة بيضاء ، فتأتي بوردة صفراء ... هذه صدفة لا تفسر قضيتنا إلا تفسيراً جزئياً استثنائياً ، فإن وجود الوردة في الأرض بهذا التسلسل ، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة ، إنها تأتي بوردة صفراء ولكنها لا تأتي بالوردة نفسها ! إن الحقيقة الجزئية الاستثنائية التي توجد في مصطلح (قانون الصدفة) باطله كل البطلان ، إذا ما أردنا تفسير الكون بها .

٢- فالطير بمجرد ما يظهر نور الصباح يطير من وكره فلو خلى كل طائر وإدراكه في اختيار طريق يلتمس فيه الرزق لسار أغلب الطير في مئات المواطن دون أن يجد رزقاً ولمات جوعاً وعطشاً قبل بلوغه رزقه ولكن الواقع المحسوس المشاهد هو أن كل طائر بمجرد ما يخرج من وكره يذهب إلى طريق واحد ويجد فيه رزقه وهذا يقطع بأن هناك قدرة مطلقة هي التي تلهم كل طائر في كل وقت يحتاج فيه للرزق بأن يطير إلى جهة معينة فيها الرزق دون غيرها فلو فرضنا أن أمام كل وكر ١٠٠ طريق منها ٥ طرق توصله للرزق ، ٩٥ طريق توصله إلى صحراء قاحلة لكان احتمال بلوغ الطير الرزق حين يطير بوحى من عقله وبلا إلهام إلهي ليبحث عن رزقه = ١٠٠ ÷ ٥ = ٢٠/١ أي أنه كان يصل للرزق مرة كل عشرين مرة أي كلما طار تجاه

(١) الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ص ٧٢ - تعريب ظفر الإسلام خان - مراجعة وتحقيق د. عبدالصبور شاهين - دار البحوث العلمية .

عشرين طريقاً يجد الرزق في طريق واحد ، وهذا يعني استحالة استطاعة الطير تدبير رزقه لو اعتمد على إدراكه الذاتي وعلى هذا وجب أن تكون هناك قدرة مطلقة هي التي ألهمت كل طائر كلما احتاج لرزق أن يسلك سبيلاً معيناً دون بقية السبل .

وقد نبهنا المعصوم عليه السلام إلى إلهام الله لكل طائر في كل لحظة يحتاج فيها إلى الرزق بأن يطير مرة واحدة إلى مكان واحد فيجد فيه الرزق فقال عليه السلام : ﴿ لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا حماساً وتروح بطاناً ﴾ ^(١) ، فدلالة مفهوم الحديث تعني أن الطير تغدو مرة واحدة جائعة وتعود بعدها شبعانة أي أن المتوكل على الله لا يكاد يسلك طريقاً يلتمس فيه الرزق إلا وفقه الله له وجعل له فيه رزقه .

٣- والأمطار التي تنزل بانتظام في مساقطها المعلومة منذ بدء الخليقة وتجري من الأمطار أنهار طول العام لو تساءلنا عن السر في تطاير بخار الماء من المحيطات من كل أنحاء العالم إلى هذه المصببات بالذات لوجدنا أن أماكن هذه المساقط بالنسبة لغيرها من بلايين الأماكن في الدنيا سواء فالأمطار لو كانت تنزل بالصدفة وبدون ترتيب قدرة خفية لكانت تنزل في كل عام في مكان غير الذي نزلت فيه قبل ذلك ولما انتظم نزول المياه بهذه الأنهار التي أقام حولها البشر يشربون من مياهها العذبة ، ويسقون بها الأرض وكان احتمال نزول المطر في نفس المكان الذي نزل فيه بالعام الماضي بالصدفة = ١/ملا نهاية ، وعلى هذا يكون نزول المطر بانتظام تام في مساقطه المعلومة مقدماً لتجري منه أنهار يعيش على مياهه العذبة جماعات من بني آدم منذ بدء الخليقة دليل قاطع على وجود قدرة مطلقة حكيمة مدبرة منظمة لسقوط المياه بهذا الوضع المحدد المنظم لحياة البشرية وعلى هذا فالمصادفة أمر عدمه محض لا يوصف بالوجود مطلقاً فكيف يتصور عاقل اقتدار المصادفة على إنشاء الحياة وبعثها في الجماد وفي تنظيم شئون الكون؟ وقد صرح القرآن بأن جميع موجودات الكون سواء كانت مادية أو عقلية ليس فيها شيء وجد بالصدفة مطلقاً فلا مصادفة واحدة في الكون قال تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ^(٢) ، ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ ^(٣) ، ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ ^(٤) .

١ (أخرجه الترمذي - كتاب الزهد - باب التوكل على الله ٥٧٣/٤ برقم (٢٤٣٣) وأحمد ٣٠/١

٢ (سورة القمر : آية (٤٩)

٣ (سورة الفرقان : آية (٢)

٤ (سورة النمل : آية (٨٨)

والحامل لبعض الناس على القول بوجود الكائنات بالمصادفة هو تمردهم على محاربة الله بالمنكرات وعلى الجاهرة بالمعاصي وعلى معاندة الحق وأهله ونصرة الباطل وحزبه ومن ثم كان قوتهم بالصدفة مجرد التزام بمقتضى ما ألقوه من منكرات .

والعلم الحديث أثبت استحالة قيام أدنى شيء في الوجود بالصدفة وأن الصدفة هي احتمال محض لا وجود له خارج الذهن .

وأيضاً ظاهرة تمخض الحي عن الميت أو تمخض الميت عن الحي لا صلة لها بالمصادفة مطلقاً ، مما سبق يتبين لنا القطع بأن تعمد تفسير حقائق الكون وأحداثه وموجوداته والحياة فيه بهذه التفسيرات الباطلة ليس إلا هروباً من الواقع العقلي والفطري والعلمي والعملية المحسوس القاطع بوجود وجود إله واحد للكون واجب الوجود لذاته متصف بالقدرة المطلقة والإرادة والعلم والحكمة المطلقة بلا كيف ولا انحصار .

إن القائلين بوجود أي شيء في الكون بالصدفة قوم ألقوا المنكرات فحملتهم على إلف الهروب من الحقائق والجري وراء الأوهام والمخالات (١) .

وعلى مر العصور كانت الحجة الأساسية التي يتمسك بها الكفار والملحدون لإنكار وجود الله تعالى أو إنكار الأديان هي العلوم الكونية تحت زعم أنها لا تؤمن بغير المادة ، فالكافر أو الملحد لا يؤمن بغير المادة يلتمسها ويشمها ويراهها ويتحسسها ، وما دام الله لا يلمس أو يشم أو يرى أو يحس فهو غير موجود ، ومن باب أولى فإن الأديان غير موجودة ، وقد شعر بعض الملاحدة مخالفة إنكار وجود الله للعقل والتفكير الصحيح ، وكلاهما غير محسوس أودعهما في المسادة التي يعبدونها ويتخذونها إلهاً لهذا فإن البعض أكد وجود الله كعلة أولى لا يمكن تفسير الكون بغيرها ، ولكنه أنكر الأديان والأنبياء كرسالات من إله واحد أحد ، وأنها من صنع بشر عاديين تمتعوا بتفوق بشري غير عادي ، والهدف من هذا هو التخلص من القواعد والقيود الأخلاقية والدينية والشرعية (٢) .

وقد أوجز القرآن الكريم أباطيل الملحدون والمشركين بآيات قصيرة واضحة تبين لنا كل ما يحاولون تبريره طوال حياتهم يقول تعالى موضحاً قوتهم : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

١) نظر الإسلام دين العقل والفضيلة - د. مصطفى صميده - ص ٨٩ وما بعدها بتصرف .

٢) انظر الإشارات العلمية في القرآن الكريم - مدحت حافظ إبراهيم ص ٩٢

وما نحن بمبعوثين ﴿١﴾ ، ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ﴾ ﴿٢﴾ ، ﴿ والذين اتخذوا من
دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ﴿٣﴾ .

وهذا المذهب الخبيث الملعون ، هو معتقد الشيوعية الماركسية ، في وقتنا الحاضر ، وزيادة في
الخبيث والزندقة والاحاد ، حاربت الشيوعية والمادية المعاصرة العقائد والشرائع والأديان ، والأخلاق
الإسلامية ، وبذلت كل طاقاتها من أجل القضاء على الأديان وأهل الأديان ، والله للظالمين بالمرصاد
، ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

ولإقامة الحجة على المنكرين فقد وجه الله عز وجل لهم أسئلة في ست آيات من آيات القرآن الكريم
، جاء فيها عرض كل سؤال مقروناً بجوابه ، إقامة للحجة وقطعاً للمعذرة ، وبيانا للمحجة .

قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل
أكثرهم لا يعلمون ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال جلا وعلا : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر
ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ ﴿٥﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن
الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ ﴿٦﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرايتم ما
تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن
مسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ﴿٧﴾ .

وقال الخلاق العليم : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن
العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذي نزل
من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل
لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ ﴿٨﴾ .

١ (سورة المؤمنون : آية (٣٧))

٢ (سورة الدخان : آية (٣٥))

٣ (سورة الزمر : آية (٣))

٤ (سورة لقمان : آية (٢٥))

٥ (سورة العنكبوت : آية (٦١))

٦ (سورة العنكبوت : آية (٦٣))

٧ (سورة الزمر : آية (٣٨))

٨ (سورة الزخرف : آية (١٢))

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يوفكون ﴾ (١) .
نعم أكثر خلق الله في أرض الله ، وإن كانوا عصاة ومجرمين وإن كانوا طغاة كافرين ، هم
معترفون بوجود الله وبأنه تعالى هو الذي يخلق ويرزق ويميت ، وهو المتصرف في هذا الكون ،
والمدبر لشؤونه .

ويرد الله تعالى على الكفار والملاحدة منكري الساعة الموعودة للبعث والنشور بآيات الله
القرآنية وآياته الكونية ، فيقول الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى
لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا
أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (٢) .

فالله عالم الغيب ، لا يغيب عن علمه قدر ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من
الذرة ولا أكبر منها إلا مسطور في كتاب تام البيان ، والذرة في اللغة العربية ، شيء صغير جداً
كصغار النمل أو دقيقة الغبار ، ومثقال الذرة معناه وزن الذرة ، وتقيد الآية وجود ما هو أصغر من
الذرة ، وجددير بالذكر أن العلم الحديث أثبت انقسام الذرة إلى أصغر منها وهي مكوناتها المعروفة
بالنواة والكهارب ، وهذا لم يتحقق علمه إلا في القرن العشرين الميلادي (٣) .

والآية توجه نظر الكفار والملاحدة إلى ما يلي :

أ - الذرة غير مرئية فهي غيب منظور .

ب - الذرة ليست أصغر شيء في الوجود ويمكن تقسيمها .

ج - الذرة لها مثقال .

ولقد اعتقد العلماء - إلى عهد قريب - أن الذرة أصغر جزء من المادة ولا يمكن تقسيمها
إلى ما هو أصغر منها - وفي مطلع القرن العشرين أمكن التحدث عما هو أصغر من الذرة حيث تبين

(١) سورة الزخرف : آية (٨٧)

(٢) سورة سبأ : آية (٣)

(٣) المنتخب ص ٦٣٤ ، وانظر كتاب المعرفة ص ٧٠ - الذرات والإلكترونات ، إنتاج سنة ١٩١٩ شركة إثماء للنشر والتسويق توزيع
الشركة الشرقية للمطبوعات ، ومعنى الذرة عند علماء الطبيعة : هي الوحدات البنائية التي تكون المادة ، وإن كلمة " ذرة " تعني باللغة
اليونانية : غير قابل للقسمة ، ذلك أن القدماء كانوا يعتقدون أن الذرة هي أصغر جزء من المادة ، ويقول الفيزيائي الإنجليزي (ج طو
مسون) : أن الذرة هي ذات شكل كروي بشحنات كهربائية موجبة ، وفي داخلها تسبح الإلكترونات باتجاه السطح وأن الذرة تشبه
بمجموعة شمسية صغيرة جداً ويوجد في مركزها جزء نسميه النواة ، وتحتوي على جسيمات تسمى البروتونات والنيوترونات ، وتطوف
حول النواة جسيمات أخف وأصغر تسمى الإلكترونات .

انظر الموسوعة م ١٦ ص ٢٩٠٦ - اشراف عام الأستاذ نقولا ناهض - الناشر ترادكسيم حنفي - التوزيع الشركة الشرقية
للمطبوعات .

انظر العالم الصغير ج ١٣ ، الذرات والجزيئات ص ٩ - ترجمة مركز الأهرام للترجمة والنشر .

أنها تتركب من نواة موجبة الشحنة تحيط بها سحابة من الإلكترونات التي تدور في أفلاك حول النواة لارتباطها بالجذب الكهروستاتيكي ، وأي نواة لا يمكن رؤيتها ولا رؤية مكوناتها المعروفة الآن بالدقائق الأساسية كالبروتون والنيوترون والإلكترون ، وبهذا فإن الذرة غير مرئية ويمكن تقسيمها إلى ما هو أصغر منها ولها مثقال رغم صغرها (١) .

فالملحد أو الكافر عندما يقرأ هذه الآية وما تضمنته من معاني وحقائق قراءة فاحصة متأنية فإنه لا بد أن يرجع عن كفره ويعود إلى الإيمان بالله تعالى ، فالساعة والبعث والنشور غيب ، وعند نزول القرآن الكريم منذ قرون عديدة لم يكن أحد يعلم أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، بل إن المفسرين القدماء كانوا يعتبرون مثقال الذرة هو مثقال النملة وهي أصغر كائن تدركه العين ، وهو ما يتعارض مع ما تشير إليه الآية بوضوح إلى ما هو غيب أي غير منظور مثل الذرة وما هو أصغر منها ولا يمكن اعتبار النملة من العالم غير المنظور .

فإذا كان العلم الحديث قد كشف عما أشار إليه تعالى من غيب أفتضل أيها الكافر حتى يتحقق الغيب الأكبر وهو يوم القيامة ، حيث لا ينفع علم ولا ندم ، ارجع أيها الملحد المنكر إلى حظيرة الإيمان والفلاح قبل فوات الأوان .

البراهين القرآنية في الرد على الملحد والمشركين الكفار :

والبراهين التي جاء بها القرآن وخصها بالتوكيد والتقدير أقوى البراهين إقناعاً وهي تدحض بلا مرء دعاوي الماديين والطبيعيين والمنكرين لوجود الله الذين يقيمون الكون على المادة أو ينسبون الخلق للطبع والطبيعة ، ويرفضون فكرة البعث وقصص الخلق لأنها في زعمهم قصص وأساطير وخرافات .

١- برهان الخلق وظهور الحياة :

وأول براهين القرآن هو برهان الخلق وظهور الحياة في المادة :
فالله تعالى يوجه نظر الملاحدة والكفار والمشركين إلى عملية الخلق المستمرة والدائمة في الكون ، لهذا يدعوهم إلى تأملها وتدبرها والتفكير فيها للاستدلال على وجود الخالق الواحد القادر ، يقول تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴾ (٢) .

(١) القرآن والعلم الحديث - د. منصور حسب النبي - ص ٢٢٦ - ط ١٩٩١

(٢) سورة الطور الآية (٣٥-٣٦)

فهل هم قد خلقوا بغير خالق أم هم الذين خلقوا أنفسهم فلا يعترفون بخالق يعبدون ، بل أخلقوا السماوات والأرض على هذا الصنع البديع ؟ بل هم لا يوقنون بما يجب للخالق ، فلهذا يشركون به .

ويقول سبحانه : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون * قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أتتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾^(١) .

فإن الله تعالى يسأل الملاحدة والكفار والمشركين أخبروني عن حال ما تدعون من دون الله ؟ أعلموني أي شيء خلقوا من الأرض أم لهم مشاركة في السماوات ؟ أتتوني بكتاب من عند الله أو أثر من علم تستندون إليه في دعواكم إن كنتم صادقين . ويخاطب قولهم وفكرهم ويسأل :

﴿ أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾^(٢) ، ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾^(٣) ، ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾^(٤) ، ﴿ وخلقكم من تراب ﴾^(٥) ، ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾^(٦) ، ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾^(٧) ، ﴿ إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾^(٨) ، ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾^(٩) .

١ (سورة الأحقاف : آية ٣-٤)

٢ (سورة الأعراف : آية ١٩١)

٣ (سورة النحل : آية ١٧)

٤ (سورة النور : آية ٤٥)

٥ (سورة الروم : آية ٢٠)

٦ (سورة ق : آية ٦)

٧ (سورة لقمان : آية ١١)

٨ (سورة الحجج : آية ٧٢)

٩ (سورة النحل : آية ٢٠)

٢- برهان التناسل بين الأحياء لدوام الحياة :

وثاني هذه البراهين هو برهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة ، فالله وليس غيره ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً ﴾ (١) .

ويذهب الماديون ومن يلف لفهم إلى تفسير ظهور الحياة في المادة الصماء تفسير الحاصل بالحاصل ، وينظرون له بنظرات ليس لها من دليل ولم يعتمدوا فيها إلا على المشاهدة السطحية وما في حكمها بالوسط ، ومن ذلك قولهم إن ظهور الحياة كان أمراً طبيعياً مركباً في المادة كالظبع فهي لا تستطيع إلا ذلك وليس ثمة من داع إلى الإطالة في التفسير وإفترض وجود مدبر خالق .

فالعقل يميل إلى الأخذ بالأسر في التفسير والأقرب في العلل فلا يشطح ويذهب بعيداً ولا سبيل إلا أن نقر بأنه لم يكن في الكون إلا المادة ولا شيء سواها ، فهي كانت وهي لم تنزل ، ولكن قولهم ذلك يعني أن المادة في الكون واحدة في خصائصها دون تفرقة بين مادة هذا الكوكب مثلاً ومادة ذلك الكوكب ، أو المادة في الصحراء والمادة على الجبل وفي الوديان ، أو مادة الهواء ومادة الماء أو الطين ، أو هذا المكان أو ذاك ، وليس يوجد عند الماديين وغيرهم تفسير لعطالة المادة على كوكب وأن تطفح بالحياة على كوكب آخر .

وتفسير عندهم لظهور الحياة في المادة على الأرض في وقت معين وقبل ذلك كانت المادة خلوا من أية حياة (٢) .

٣- برهان التمانع :

يقول تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (٤) .

وبرهان التمانع : وهو انتظام الكون وسلامته من الخلل ، الذي يدل على أن هذا النظام والإحكام من تدبير إله واحد .

(١) سورة الشورى : آية (١١)

(٢) انظر البراهين العقلية على وجود الله والرد على الماديين والطبيين والمنكرين - عبدالمنعم الحفني - ص ٣٥ وما بعدها ، طبعة سنة ١٩٩٠ .

(٣) سورة المؤمنون : آية (٩٠)

(٤) سورة الأنبياء : آية (٢٢)

وتقرير الدليل هكذا :

لو كان هناك آلهة متعددة لحصل الفساد في نظام هذا الكون ، إذ لكل إله إرادة تخالف إرادة الآخر ، فمثلاً هذا يريد احياء شخص والآخر يريد إمامته ، أو هذا يريد طلوع الشمس ، وهذا يريد غروبها ، فتحصل معارضة الإرادتين ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب وهو الإله الحق ، والآخر المغلوب ممكناً .

والواقع المشاهد يؤكد صلاح العالم وانتظام الكون وسلامته من الخلل والفساد ، فثبت بذلك الوحدانية لله تعالى ، التي بها صلاح العالم ، وبطل ما يؤدي إلى فساده وهو تعدد الآلهة^(١) .
فالله يجادل المشركين بمنطقهم الجدلي وفكرهم المادي، وما يحدث في الكون فلو كان في السماء والأرض آلهة غير الله تدبر أمرهما لاختل النظام الذي قام عليه خلقهما وبلغ غاية الدقة والإحكام فتزيرها لله صاحب الملك عما ينسبه إليه المشركون^(٢) .

فبزوال الوجدانية والغني والكبرياء والوجود المطلق يدخل المجرد من هذه الصفات في حيز المخلوق المحتاج ، ومن ثم لا يستطيع أن يخلق الأشياء ولا أن يهب لها وجوداً مؤقتاً ، كما هو في الحياة الدنيا ولا وجود ممدوداً كما هو موعود به في الآخرة ، ولكن بدلالة التمانع الذي أشارت إليه الآية ثبت وجود الصانع الواحد بلا قياس .

وهكذا تأتي من القرآن نصوصاً لقضايا من الوجود يثبتها الكشف العلمي أو يقصر عنها ومعه الموهوب يستنبط حقائقها في أضواء الكشف ، وهذا فيما يستطاع إدراكه^(٣) .
وليس هناك أقوى من ذلك البرهان الذي يسميه علماء التوحيد برهان التمانع وسبحانه وتعالى يطرح براهينه على كل الناس بفئاتهم ومستوياتهم من العلم والفهم ، وتفاوت العقول المخاطبة والمستقبل لمعاني القرآن يقتضي تنوع الأدلة والبراهين ولا يمكن لعامة الناس استقبال براهين القرآن القطعية استقبال الخاصة ، ولن يجدي معهم إلا الأدلة الخطابية من نوع برهان التمانع .

وإذا كنا نعلم بالمشاهدة أن الناس يتفاوتون في الشكل والحظوظ لكنهم باعتبارهم بشراً يصدر عن جميعاً عن هيئة واحدة يتميز بها الإنسان ، ونعلم كذلك أن كل نوع من أنواع الموجودات له صورته وخواصه العامة الواحدة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا لأن الفكر والمصور والمبدع

١ (انظر منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان د. علي بن محمد ناصر الفقيهي ص ١٢٥ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ ، سنة ١٩٨٤ م .

٢ (المنتخب - ص ٤٧٥

٣ (من إشارات العلوم في القرآن الكريم - عبدالعزيز سيد الأهل - ص ٥٥ .

والصانع كان واحداً ، وبذلك يكون برهان الثمانع على وحدانية الله هو برهان قاطع وليس برهان خطايا^(١) .

موقف العلوم الحديثة :

يقول المرحوم سيد قطب : (إن مناهج البحث التي يسمونها " علمية " في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيخة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه ، فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ، وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير ، وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة - إذا كانت هناك عوالم جامدة أو أي شيء واحد جامد في هذا الوجود ! - كل معرفة " علمية " يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء ، وإلى شعور بالوحدة التي تنتهي إلى خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه ... وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموحية المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة أو علم زائف ، أو بحث عقيم .

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة وساكن الكهف ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور ، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زاداً من الحق ، حين يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، وبشعور التطلع إلى الحق ، وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾^(٢) ، ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيخة بين القلب البشري والكون الناطق المبين لأنه في رؤوس مظموسة رانت عليها خرافة " المنهج العلمي " المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق الذي تعيش فيه .

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار " المنهج العلمي " في إدراك الحقائق المفردة ، ولكنه يزيد عليها ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ، لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي

(١) د. عبدالمنعم الحفني - نفس المرجع السابق - ص ٣٥

(٢) سورة ق : آية (٨)

لها بشيء من سرها الجميل - والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدي إليها ، بهذا الرباط الوثيق ... (١) .

السبب في عدم الإهتداء بأدلة الكون :

إن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموجهة ، إلا للقلوب الذاكرة العابدة ، لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب وتفتحت واتصلت بالكون العجيب ، فالقرآن والوحي الإلهي أقام الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل ، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون ، والتعرف إليه أثراً في هذا القلب البشري ، وقيمة في الحياة البشرية ، هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف ، ولذلك نص القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم صنف معين من الناس : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض * ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (١) .

هؤلاء هم الذين ينتفعون بآيات الكون لأنهم لم يقفوا عند حدود المنظر المشهود البادي للعيان بل ينظرون إلى اليد التي تسيره والقدرة التي تصنعه ، إنهم يستخدمون أبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأفكارهم على خير وجه في هذا المجال مسترشدين بآيات الكتاب التي تعين السمع والبصر والفكر والعقل على التوصل إلى خير ما يمكن للإنسان أن يصل إليه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢) .

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى

المطلوب (٤) .

١ (في ظلال القرآن - تفسير سورة (ق) آية (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) - المجلد السادس - ص ٣٣٥٩ - وما بعدها - دار العلم

٢ (سورة آل عمران : آية (١٩٠-١٩١))

٣ (سورة الروم : آية (٢١-٢٤))

٤ (النظر العقيدة في الله - عمر الأشقر - ص ١٤١)

أما الكفار فإنهم يشاهدون الحدث ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾^(١) ، ولذلك لم ينتفعوا بالآيات الكونية ، لأنهم لم ينظروا إليها من خلال المنظار القرآني : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾^(٢) .

ولذلك فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تركهم النظر والاعتبار : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾^(٣) .

(١) سورة الروم : آية (٧)

(٢) سورة يونس : آية (١٠١)

(٣) سورة الأعراف : آية (١٨٤)

المبحث الثاني .. إثبات النبوة

ويشتمل على ما يلي :

تمهيد : ومطلبان

. المطلب الأول : تعريف النبي والرسول والفرق بينهما .

. المطلب الثاني : الدعوة إلى إثبات النبوة بالمنهج الحسي .

ويتناول :

- ١ - استخدام المنهج الحسي لإثبات نبوة الأنبياء السابقين .
- ٢ - استخدام المنهج الحسي لإثبات نبوة النبي الخاتم .

المبحث الثاني : إثبات النبوة .

تمهيد :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يصطفى من خلقه من يعده لحمل رسالته إلى الناس ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ؟ يميزهم بالفطرة السليمة ؟ ويطلعهم على الغيب بإذنه ؟ ثم يتلقون من أمره ما يهين السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد للناس سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الأوامر والنواهي ما هو مناط سعادتهم وشقايتهم ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الإقناع بصدق الرسالة فيكونوا بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (١) ، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموا من شؤون ذاته وكمال صفاته ، أولئك هم الأنبياء والمرسلون الذين جعلهم الله الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأعمال والأخلاق ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلالة فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها والروح إلى حياتها فالناس جميعاً في حاجة إلى هدى النبوة ولما كان ذلك كذلك كان من الواجب علينا أن نتكلم عن النبوة وأدلة إثباتها والمنهج الحسي في ذلك ، ولكن قبل الحديث عن هذا لا بد لنا من توضيح معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما وأن نذكر ملامحها ومزاياها ، وأن نبين حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات ، ليتبين لنا الأثر العظيم الذي تركه الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم في المجتمعات التي ولدوا فيها ، وبين الأمم الذين بعثوا إليهم فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور ، وأخرجوهم من الضلالة إلى الهدى ، فكانت دعوة الأنبياء انقذاً للأمم من براثن الشرك والوثنية ، وتطهيراً للمجتمع من أدران التحلل والفساد ، والفوضى والإضطراب ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

ففي هذه الآية الكريمة يبين لنا الله عز وجل أن الناس كانوا على الهدى ودين الحق ، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض ، وحادوا عن الطريق القويم ، فبعث الله تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين .

(١) سورة النساء : آية (١٦٥)

(٢) سورة البقرة : آية (٢١٣)

ويوضح الباري جل وعلا الغاية من بعثه الرسل الكرام فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ رسلا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (١) .
ويبين سبحانه وتعالى أنه أرسل لإنقاذ أقوامهم من ظلمات الجهل والضلالة فقال جلت عظمته : ﴿
ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله ، إن في ذلك
لآيات لكل صبار شكور ﴾ (٢) .

(١) سورة النساء : آية (١٦٥)

(٢) سورة إبراهيم : آية (٥)

المطلب الأول : تعريف النبي والرسول والفرق بينهما .

النبي - في لغة العرب ^(١) - مشتق من النبا وهو الخير ، قال تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ؟ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٢) .
وإنما سمي النبي نبيا لأنه مُخَبَّرٌ مُخْبِرٌ ، فهو مُخْبِرٌ أي أن الله أخبره ، وأوحى إليه ، ﴿ قالت : من أنبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير ﴾ ^(٣) ، وهو مخبر عن الله تعالى أمره ووحيه ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور
الرحيم ﴾ ^(٤) ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ ^(٥) . وقيل النبوة مشتقة من النبوة ، وهي ما ارتفع
من الأرض ، وتطلق العرب لفظ النبي على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها .

وفي الإصطلاح : اصطفاء الله عبداً من عباده بالوحي إليه . ^(٦) .

والرسول لغة : هو الذي يتابع أخبار من بعثه ، أخذنا من قولهم جاءت الإبل رسلا ، أي متتابعة . وسمي
الرسول رسولا لأنه ذو رسالة والرسول اسم من أرسلت وكذلك الرسالة . وأرسلت فلان في رسالة ،
فهو مرسل ، ورسول ^(٧) .

وفي الإصطلاح : هو الذي ينبئه الله ثم يأمره بأن يبلغ رسالته من خالف أمره ، كنوح ، فقد ثبت في
الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيت وإدريس ^(٨) .

الفرق بين النبي والرسول :

النبي : هو إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع الرسول الذي قبله وتأييده وتبليغه للناس ،
والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء
والضراء ﴾ ^(٩) ، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ ^(١٠) ، ﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا
به يستهزءون ﴾ ^(١١) ، ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ ^(١٢) ، ﴿ إذهبوا إلى فرعون إنه

* (انظر لسان العرب ١/١٦٢ ، بصائر ذوي التمييز ٥/١٤)

١ (سورة النبا : آية (٢-١))

٢ (سورة التحريم : آية (٣))

٣ (سورة الحجر : آية (٤٩))

٤ (سورة الحجر : آية (٥١))

٥ (النبوات لابن تيمية ص ١٨٤ - المطبعة السلفية - القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ ، والعقيدة الإسلامية وأسسها - عبدالرحمن حنكة الميداني
ص ٢٦٦ - دار القلم - دمشق ط ٧ ، سنة ١٩٩٤ م .

٦ (لسان العرب - ابن منظور ٢٨٤/١١ طبعة صادر - بيروت .

٧ (النبوات لابن تيمية ص ١٨٤)

٨ (سورة الأعراف : آية (٩٤))

٩ (سورة الحجج : آية (٥٢))

١٠ (سورة الزخرف : آية (٧))

١١ (سورة مريم : آية (٥٣))

طغى * فقولا له قولاً لنا ﴿^(١)﴾ ، ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ ،
﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين ﴾ ﴿^(٢)﴾ ، ﴿ وكم أرسلنا من نبي في
الأولين ﴾ ﴿^(٣)﴾ .

وأما الرسول : فهو إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بكتاب وبشرع جديدين ، وأمر بتبليغه
للناس .

فالرسالة إذا أعلى مرتبة من النبوة .. لأن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا .
وجاء في كتاب الطحاوية : (وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول ، وأحسنها أن من نبأه الله
بخير السماء ، بأن أمره أن يبلغ غيره ، فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره ، فهو نبي وليس
برسول ، فالرسول أخص من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول) ﴿^(٤)﴾ .

ومما يدل على أن النبي غير الرسول ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله
أي الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم . قلت يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : نعم ، نبي مكلم . قلت يا
رسول الله كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا ، وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت
يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة
وخمسة عشر جما غفيرا ﴿^(٥)﴾ .

فالحديث يدل على أن النبي غير الرسول ، إذ لو كان معناه واحدا لتساوى عدد الأنبياء والرسل .
وما قاله أبو منصور عبد القاهر البغدادي في كتابه أصول الدين : أجمع أصحاب التواريخ من
المسلمين على أن عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . كما وردت به الأخبار
الصحيحة ، أولهم أبونا آدم عليه السلام وآخرهم نبينا محمد ﷺ . وأجمعوا على أن الرسل منهم ثلاثمائة
وثلاثة عشر ﴿^(٦)﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ ﴿^(٧)﴾ .
فهذه الآية الكريمة تبين كما يقول ابن جزى الكلبي أن : (النبي أعم من الرسول فكل رسول نبي وليس
كل نبي رسولا . فقدم الرسول لمناسبته لقوله أرسلنا ، وآخر النبي لتحصيل العموم ، لأنه لو اقتصر على

(١) سورة طه : آية (٤٣-٤٤)

(٢) سورة البقرة : آية (٢١٣)

(٣) سورة الزخرف : آية (٦)

(٤) شرح رسالة الطحاوية في العقيدة الإسلامية ص ١٦٧ المكتب الإسلامي - للعلامة ابن أبي العز الحنفي ط ٤ . سنة ١٣٩١ هـ بيروت .

(٥) مشكاة المصابيح ١١٢/٣ رقم ٥٧٣٧ رواه أحمد وقال عنه محمد ناصر الدين الألباني المحقق أن الحديث صحيح .

(٦) أصول الدين - عبدالقادر البغدادي ص ١٧٠ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ .

(٧) سورة الحج : آية (٥٢)

رسول لم يدخل في ذلك من كان نبيا غير رسول (١) ، ويقول ابن تيمية عن هذه الآية : (إنها دليل على أن النبي مرسل ، ولا يسمى رسولا عند الإطلاق ، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق) (٢) .

ويقول الألويسي في تفسير الآية أيضا : " هذا دليل بين على تغاير الرسول والنبي ، والرسول إنسان أرسله الله إلى الخلق لتبليغ رسالته وتبيين ما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدارين ، وقد يشترط فيه الكتاب ، بخلاف النبي فإنه أعم ، ويعضده ما روي أنه عليه السلام سئل عن الأنبياء فقال : (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا) قيل فكم الرسل منهم ؟ قال : (ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا) (٣) .

وإذا كان الله عز وجل قد ذكرهما مختلفين للدلالة على أن الرسول بخلاف النبي فإنه سبحانه وتعالى ذكرهما بوصفين لشخص واحد ، كما في قوله تعالى في وصف موسى عليه السلام : ﴿ إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ﴾ (٤) . وفي وصف إسماعيل عليه السلام : ﴿ إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ (٥) . فذكر الوصفين معا في مكان واحد يدل على التغاير .

أما عدد من بعثهم الله من الأنبياء والرسل على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرون ألفا (١٢٠) ألفا .. أما الرسل فهم قلة ، والذين ذكروا في القرآن الكريم (٢٥) خمسة وعشرون وكلهم من الرسل .

حكم الإيمان بالرسول والأنبياء :

يجب الإيمان بالرسول والأنبياء الذين ذكرهم الله عز وجل في القرآن الكريم (تفصيلا) . بمعنى أنه يتعين التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم ، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم ، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم (جملة) . بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز ، لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر عنهم بقوله ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك * وكلم الله موسى تكليما ﴾ (٦) .

١ (التسهيل لعنوم التنزيل ٤٤/٣ - الشيخ محمد بن أحمد جزري الكلبي - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥ هـ .

٢ (أنظر النبوات - ابن تيمية - ص ٢٥٦ .

٣ (تفسير روح المعاني - الألويسي ٤٩٠/٦ .

٤ (سورة مريم : آية (٥١))

٥ (سورة مريم : آية (٥٤))

٦ (سورة النساء : آية (١٦٤))

أسماء الرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم :

ذكر الله عز وجل ثمانية عشر رسولاً في أربع آيات من أي الذكر الحكيم هي قوله تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ، ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، كل من الصالحين . وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾^(١) ، وأما السبعة الباقون فقد ذكرهم الله عز وجل في آيات متفرقة من أي القرآن الكريم وهي قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾^(٣) ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾^(٤) ، ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾^(٥) ، ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾^(٦) ، ﴿ محمد رسول الله ﴾^(٧) .

النبوة هبة ربانية :

النبوة فضل إلهي وهبة ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويختص من يريد من خلقه ، وهي لا تدرك بالجد والتعب ، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة ، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي : ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾^(٨) .

وقد بين الله في أكثر من آية أن النبوة نعمة ربانية إلهية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا ﴾^(٩) ، وقول يعقوب ليوسف عليهما السلام في هذا المضممار كما حكى الله عنه : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾^(١٠) ، ويحكي سبحانه ما قاله لموسى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس

١ (سورة الأنعام : آية ٨٣-٨٧)

٢ (سورة آل عمران : آية ٣٣)

٣ (سورة هود : آية ٥٠)

٤ (سورة هود : آية ٦١)

٥ (سورة هود : آية ٨٤)

٦ (سورة الأنبياء : آية ٨٥)

٧ (سورة الفتح : آية ٢٩)

٨ (سورة البقرة : آية ١٠٥)

٩ (سورة مريم : آية ٥٨)

١٠ (سورة يوسف : آية ٦)

برسالاتي وبكلامي ﴿^(١)﴾ ، وقد طمع أمية بن أبي الصلت في أن يكون نبي هذه الأمة ، وقال الكثير من
الشعر متوجهاً به إلى الله ، وداعياً إليه ، ، ولكنه لم يحصل على مراده لأن الرسول لا بد وأن تتوفر فيه
ميزات ربانية معينة ولا تمتح بالتمني مطلقاً بل يختار لها الله من به مؤهلاتها ولذلك يقول سبحانه :
﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ^(٢) .

فهي إذا (اصطفاء واختيار) ولا تكون إلا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها ، ممن هو أهل
لحملها ، لأنهما حمل ثقيل وتكليف عظيم ، لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال ، وفي ذلك يقول
سبحانه مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً ﴾ ^(٣) ، والنبوة لا تكون بالوراثة
، ولا تكون بطريقة الغلبة والإستعلاء ، إنما هي اختيار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه ، وصفوة عباده
يختارهم لحمل الرسالة ، ويصطفاهم من بين سائر البشر لهذا العمل الجليل كما وضع الباري جل وعلا
ذلك في كتابه العزيز فقال : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾ ^(٤) ،
وقال جلت عظمتة : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ ^(٥) ،
وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل : ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ ^(٦) .

١ (سورة الأعراف : آية (١٤٤))

٢ (سورة الأنعام : آية (١٢٤))

٣ (سورة المزمل : آية (٥))

٤ (سورة الحجج : آية (٧٥))

٥ (سورة آل عمران : آية (٣٣))

٦ (سورة ص : آية (٤٧))

المطلب الثاني: الدعوة إلى إثبات النبوة بالمنهج الحسي .

تمهيد :

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ووجهه العقل والفطرة فالعقل يدرك به المحسوسات ويميز به الحق من الباطل ، والخير من الشر ويفكر فيما حوله من آيات الخلق وعجائب الكائنات والفطرة يعرف بها ربه وخالقه ، لكن العقل وحده لا يستقل بالمعرفة والتمييز ، والفطرة تحيط بها عوامل الانحراف من داخل النفس ومن خارجها فتجعلها تنحرف عن مسارها الصحيح ، لذلك كان من رحمة الله بعباده أن لا يتركهم سدى فاصطفى منهم نخبة ميزهم بالفطرة السليمة ، وبلغ بهم من الكمال ما يليقون معه لتحمل الأمانة . (اصطفاهم برسالته للبشرية ليبينوا للناس من أحوال الآخرة مالا بد لهم من علمه ، وأن يبلغوا عنه شرائع العامة التي تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وتحذيرهم مما فيه شقاؤهم ، ويؤيد هؤلاء الرسل بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات والمعجزات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونوا بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين ، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بما لامندوحة عن الازعان له ، يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ومأراد أن يعلموه من شئون ذاته وصفاته ^(١) ، وبلغ هؤلاء الرسل الرسالة لأقوامهم كاملة غير منقوصة وأقاموا عليهم الحجة ﴿ لئلا يكون للناس على حجة بعد الرسل ﴾ ^(٢) ، وفي سبيل تبليغ الرسل دعوة الله إلى أقوامهم جاهدوا جهاداً مريراً واستخدموا كل الوسائل والأساليب الممكنة لإقناع أقوامهم ، لكن معظم هذه الأقوام عتواً واستكبروا ونفروا من دعوة الله ورسله بل وعاملوا هؤلاء الرسل معاملة تتسم بالجهل والغباء ولعل أوضح مثال على ذلك ما حدث من قوم نوح تجاه نبيهم عليه السلام الذي مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم بدعوة الله ، لكنهم نفروا منه نفوراً شديداً ، بل وعاملوه بمتنهي القسوة والعنف وقد حكى الله بعضاً مما حدث منهم له في سورة (نوح) فيقول تجلت قدرته : ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتهم جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ ^(٣) ، كما حكى الله عز وجل أيضاً بعض ما قاله الرسل والأنبياء لأقوامهم منها ما جاء على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم ﴿ ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ^(٤) ، وإذا كان الله عز وجل قد أرسل الرسل الكرام لهداية الناس فإنه لم يتركهم دون أدلة وبراهين تدل على صدقهم في دعواهم بل إنه سبحانه وتعالى أيدهم

١ (انظر رسالة التوحيد للشيخ الإمام محمد عبده ص ٩٠ بتصرف - مطبعة المنار بالقاهرة ، الناشر مكتبة القاهرة .

٢ (سورة النساء : آية (١٦٥)

٣ (سورة نوح : آية (٩-٥)

٤ (سورة الشعراء : آية (١٠٦-١٠٨) و (١٢٤-١٢٦) و (١٤٢-١٤٤) و (١٦١-١٦٣)

بالدلائل والآيات والمعجزات التي تدل على صدقهم كي تقوم الحجة على الناس حتى لا يكون لأحد منهم عذر على الله وفي ذلك يقول سبحانه ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (١) ، ويقول عز وجل عن معجزاته التي أيد بها رسله ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ (٢) ، أي بالدلائل والبيانات التي تدل على صدقهم ، وفي ذلك يقول ابن حزم بعد أن تكلم عن ضرورة النبوة : (واذ قد تكلمنا على أنه لا بد من نبوة ، وصح ذلك ضرورة ، فلنتكلم على براهينها التي يصح بها علم صدق مدعيها إذا وقعت ، فنقول : انه قد صح أن الباري تعالى هو فاعل كل شيء ظهر ، وأنه قادر على اظهار كل متوهم لم يظهر ، وعلمنا بكل ما قدمناه أنه تعالى مرتب هذه الرتب في العالم ، ومجريها على طبائعها المعلومة منا ، الموجودة عندنا ، وأنه لافاعل في الحقيقة غيره تعالى ثم رأينا خلافا لهذه الرتب والطبائع قد ظهرت ، ووجدنا طبائع قد احييت ، وأشياء في حد الممتنع قد وجدت ووجدت كصخرة انفلقت عن ناقة ، وعصا انقلبت حية ، وميت أحياه إنسان وميتين من الناس رووا وتوضؤوا كلهم من ماء يسير في قدح صغير يضيق عن بسط اليد فيه لامادة له . فعلمنا أن محيل هذه الطبائع ، وفاعل هذه المعجزات هو الأول الذي أحدث كل شيء ووجدنا هذه القوى قد اصحبها الله تعالى رجلا يدعون إليه ويذكرون أنه تعالى أرسلهم إلى الناس ، ويستشهدون به تعالى ، فيشهد لهم بهذه المعجزات المحدثه منه تعالى ، في حين رغبة هؤلاء القوم إليه فيها ، وضراعتهم إليه في تصديقهم بها ، فعلمنا علما ضروريا لاجمال للشك فيه أنهم مبعوثون من قبله عز وجل ، وانهم صادقون فيما أخبروا به عنه تعالى ، اذ لا سبيل في طبيعة مخلوق في العالم الى التحكم على الباري ، ولا على طبائع خلقه بمثل هذا ، ووجوب النبوة اذ ظهر على مدعيها معجزة من احالة الطبائع المخالفة لما بنى عليه العالم) (٣) .

وقد نوع الله عز وجل هذه المعجزات فجعلها حسية وعقلية ، وجعل أكثر معجزات الأمم السابقة حسية لشدة تمردهم وعتوهم ، وكانت هذه المعجزات تذهب بذهاب أنبياء تلك الأمم ، فلم يشاهدها إذن إلا من حضرها وأبصرها ببصره ، أما الرسول محمد ﷺ فقد أعطاه الله معجزات حسية وعقلية ، ولكن عماد معجزاته ﷺ القرآن الكريم ، تلك المعجزة الخالدة التي تخاطب العقل والفكر وتحمل بين طبائنها معجزات كبرى كامنة فيه ، ويكشفها العلماء بين الفينة والأخرى مما يدل دلالة قاطعة على صدق الرسول وعلى أن القرآن من عند الله عز وجل وهو كلام الله وعلى رسوله نزل ، لأن كتاباً يصمد كل هذا الزمن ويتجدد هذا التجدد المستمر الذي شهد به أعداء الإسلام قبل أتباعه لدلالة صدق على صدقه ، وصدق الذي أتى به ، وقد ميز الله عز وجل معجزة القرآن بالتجدد والإستمرارية لأن محمداً ﷺ ختم الله به مسيرة الرسالات وبعث للناس كافة ، ورغم ما في القرآن الكريم من الدلالات القوية على إعجازه وصدقته إلا أن المشركين في عصره ﷺ أعلنوا عدم اقتناعهم به وطلبوا من

(١) سورة السماء : آية (١٦٥)

(٢) سورة الحديد : آية (٢٥)

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل - ابن حزم ص ٥٨-٥٩ ج ١ طبعة سنة ١٩٦٤م. مطبعة محمد علي صيغ - بمصر .

رسول الله ﷺ معجزات أخرى غيره لكن الله عنفهم بقوله : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (١) ، ففي هذه الآيات يخبر الله عز وجل أن القرآن الكريم آية من آياته سبحانه وتعالى دالة دلالة قاطعة على صدق الرسول ﷺ في دعوته وقائم مقام المعجزات الأخرى عند الأنبياء الآخرين ، وتبقى حجة تلك المعجزة على البشر عموماً ما بقي هذا القرآن الكريم إلى أبد الدهر ، مما لا يسع البشرية إلا القبول والطاعة بها (٢) .

ولذلك فمن الواجب على كل إنسان طاعة الله وطاعة رسوله والخضوع لما جاء به القرآن الكريم والالتزام به في حياته لأن ما فيه فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم ، هذا وإن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام - كما ذكرنا سابقاً - قد أمدهم الله بالدلائل التي توصل الناس إلى اليقين ، وتميز الأنبياء عن المفترين الذين يريدون إحتلال الناس ، ويدعون ما ليس لهم ، كما ميزهم عن غيرهم بصفات حميدة أكثر مما تحصى لعل من أبرز صفاتهم والدلائل التي تدل على صدقهم ما يلي :

١- سمة الصدق والأمانة والفظنة التي اتصفوا بها في حياتهم كلها قبل البعثة وبعدها ، وهي من

دلائل اصطفاء الله لهم واختياره ، وعلمه بأحقيتهم بهذه المنحة الإلهية العظيمة .

٢- المعجزات التي أظهرها الله سبحانه على أيديهم ، تأييداً منه سبحانه لهم وتصديقاً .

٣- إعراضهم عن الدنيا ، وزهدهم عما في أيدي الناس ، وابتغاؤهم الأجر على البلاغ من الله

وحده ، وصبرهم على البلاء في سبيل الله .

وهذه المعجزات التي أيد الله بها رسله لتكون آيات وحججاً وامتحاناً على صدقهم لدى

أقوامهم .

المعجزة - :

قبل أن نتكلم عن معجزات الأنبياء والرسل ودلالاتها على صدق النبوة لا بد لنا أولاً من بيان

معناها لغةً واصطلاحاً .

المعجزة في اللغة :

فالمعجزة فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشئ من عمل أو رأي أو

تدبير (٣) .

١ (سورة العنكبوت : آية (٥١))

٢ (نظر : الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي ج٢ ، ص ١٤٨ - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨م .

٣ (بصائر ذوي التمييز ٦٥/١)

المعجزة في الإصطلاح :

يعرف الفخر الرازي المعجزة : بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة^(١) . ويعرفها ابن حمدان الخنبلي بأنها ما خرق للعادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها على جهة التحدي ابتداءً بحيث لا يقدر أحد على مثلها ولا على ما يقاربها^(٢) . يقول السيوطي : (والمعجزة في لسان الشرع أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة)^(٣) .

ونخلص من هذا إلى أن المعجزة في الإصطلاح هي الأمر الخارق للعادة ، السالم من المعارضة ، المقرون بالتحدي يجريه الله على يد النبي ، تصديقاً له في دعوى النبوة .

ووجه دلالتها على صدق مدعي الرسالة :

إنها لما كانت مما يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها لم تكن إلا فعلاً لله سبحانه وتعالى ، وقد سماها القرآن الكريم آية ، وبينه ، وبرهاناً .

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلناهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب ﴾^(٤) . وقال تعالى : ﴿ ولقد جاءتهم * رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾^(٥) . وقال تعالى : مخاطباً موسى عليه السلام ﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾^(٦) .

ويقص علينا القرآن الكريم تعنت كثير من الأمم على أنبيائهم ، وطلبهم منهم الآيات الدالة على صدقهم ، فقد حكى الله تعالى عن قوم صالح عليه السلام قولهم : ﴿ إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾^(٧) .

وعن قوم هود عليه السلام قولهم : ﴿ قالوا يا هود ماجئتنا بينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾^(٨) . وعن فرعون قوله لموسى عليه السلام : ﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾^(٩) .

١ (لوامع الأنوار البهية ج٢/٢٨٩ - للسفاري - طبع على نفقة حكومة قطر

٢ (المصدر السابق ص ٢٩٠

٣ (الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ج٢/ص ١١٦

٤ (سورة الرعد : آية (٣٨)

٥ (سورة المائدة : آية (٣٢)

٦ (سورة القصص : آية (٣٢)

٧ (سورة الشعراء : آية (١٥٣-١٥٤)

٨ (سورة هود : آية (٥٣)

٩ (سورة الأعراف : آية (١٠٦)

أوصاف المعجزة :

- ١- أن تكون من جهته تعالى كاحياء الموتى وقلب العصا حية أو في الحكم كأنها من جهته تعالى عز وجل كقلب المدن ونقل الجبال وحنين الجذع .
- ٢- أن تقع عقب دعوى المدعي للنبوّة فلا يصح أن تقع قبلها أو متراحية عنها .
- ٣- أن تكون مطابقة لدعوى المدعي للنبوّة فإنه لو لم يكن كذلك وكان بالعكس لم تكن تتعلق بدعواه فلا تدل على صدقه .
- ٤- أن تكون ناقضة لعادة من بعث الرسول من بينهم لأنها لو لم تكن كذلك لم تكن لتدل على صدق من ظهرت عليه أصلا .

أقسام المعجزات :

والمعجزة تنقسم إلى قسمين :

أولها : المعجزة الحسية : وهي التي تجابه الحواس وتتحدى المقاييس المعروفة ، وأغلب المعجزات التي وقعت للأنبياء السابقين كانت تقع في مجال الحس ، ولا سيما حاسة النظر ، حيث أنها في هذا المجال تنكشف للناس على صورة تكاد تكون واحدة ، لا اختلاف عليها بينهم ، لأن الناس لا يختلفون كثيراً في مدلول المرئيات ، على حين يختلفون اختلافاً بعيداً في مدلول ما يقع للحواس الأخرى من مسموعات ومذوقات ومشموحات ، وملموسات ^(١) ومن أمثلتها :

أ - برودة النار التي أراد قوم ابراهيم عليه السلام إحراقه بها ، فصارت بردا وسلاما بأمر الله تعالى ، وفي ذلك يقول سبحانه تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ ^(٢) .

ب - إنفجار الماء من الحجر حينما ضربه موسى عليه السلام بعصاه حين طلب منه قومه السقيا ، يشير إلى ذلك قول الله تعالى : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ ^(٣) .

ج - ومثل إنباء عيسى عليه السلام قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم وأنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير ويرى الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله ، يؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿ ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جنتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه

١ (الإلتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢/١١٦)

٢ (سورة الأنبياء : آية (٦٨-٩٦))

٣ (سورة البقرة : آية (٦٠))

فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون
وماتدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿١﴾ .

وثانيها المعجزة العقلية :

وهي التي تواجه العقل ، وتلقاه بكل ما فيه من قوى الإدراك والإستبصار ، وهذا النوع من
المعجزات لا يقع من الناس موقِعاً متقارباً ، وإنما يلقيه كل إنسان بما لديه من إدراك وفهم ، وقدرة على
التمييز بين المدركات والتفرقة بين الخير والشر ^(٢) ، وأوضح مثال على ذلك :

القرآن الكريم ، المعجز بأسلوبه ، وبلاغة ألفاظه ، وبما يحتويه من أخبار عن المغيبات إلى غير
ذلك من سائر أنواع الإعجاز ، التي تحدث عنها العلماء ، وأفردوا لها مصنفات خاصة ، وصدق الله
حيث قال في مقام إعجاز القرآن : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها
الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ^(٣) .

هذا إلى جانب كثير من المعجزات الحسية التي ظهرت على يدي محمد ﷺ ، وفي كل ما سبق
يقول السيوطي : (وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات
هذه الأمة الإسلامية عقلية ... لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة ، لما كانت باقية
على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خضعت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر) ^(٤) .

ويقول شيخنا الفاضل مناع القطان : (ولكن العقل البشري كان في أطوار نموه الأولى لا يرى
شيئاً يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حيث لا يرقى عقلة إلى السمو في المعرفة والتفكير ،
فناسب هذا أن يعث كل رسول إلى قومه خاصة وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه
ليتحقق بعجزهم عنها إنها من قوى السماء ، فلما اكتمل العقل البشري أذن الله بفخر الرسالة المحمدية
الخالدة إلى الناس كافة ، وكانت معجزتها معجزة العقل البشري في أرقى تطورات نضجه ونموه ، فبينما
كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار ولا سبيل للعقل في معارضتها ، كمعجزة اليد
والعصا لموسى وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى ، كانت معجزة محمد ﷺ في
عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد ، وهي معجزة القرآن
بعلومه ومعارفه ، وأخباره الماضية والمستقبله فالعقل الإنساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية

١ (سورة آل عمران : آية (٤٩))

٢ (انظر الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي ج٢/ص ١١٦)

٣ (سورة البقرة آية : (٢٣-٢٤))

٤ (المرجع السابق ج ٢ ص ١١٦)

كونية لا قبل له بها لقصوره الذاتي ، فيكون هذا إقراراً منه بأنه وحي الله إلى رسوله ، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه ، وترقى مواهبه (١) .

وظيفة المعجزة :

بعد هذا نقول إنه يجب على المسلم أن يعتقد بأن الله عز وجل قد جهز أنبياءه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بالمعجزات الدالة على صدق دعوتهم والميينة للناس ارتباطهم صلوات الله وسلامه عليهم بالله جل جلاله وأنهم مؤيدون به . وما من نبي إلا وقد أكرمه الله عز وجل بمعجزة نبهت الناس إلى ضرورة الإيمان به والتمسك بهديه وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : ﴿ ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ﴾ (٢) .

يقول ابن كثير في البداية والنهاية : " كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرة أذكيا ، فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعانوا ما عانوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا بمن أيده الله ، وأجرى الخوارق على يديه تصديقا له أسلموا سريعا ، ولم يتلغنوا ، وهكذا عيسى بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجنون ، ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ، هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الأنس والجن أن يأتيوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرولن لافي الحال ولا في الاستقبال ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل والله تعالى لا يشبهه شيء لافي ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله " (٣) .

ولا شك أن هذه الآيات التي أيد الله بها رسله الخارجة عن سنن الكون المألوفة تجهز على كل شك في النفوس وتضمحل معها كل دعوى من شأنها التشكيك في صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(١) مباحث في علوم القرآن - للشيخ مناع القطان ص ٢٥٧ الطبعة السابقة سنة ١٩٨٠م - مؤسسة الرسالة بيروت .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب فضائل القرآن ٦١٨/٨ ، وكتاب الإعتصام ٢٦١/١٣ رقم (٧٢٧٤) ، ومسلم : كتاب الإيمان ١٣٤/١ رقم (٣٣١،٣٣٠)

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير ج٢/ص ٨٤ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ - الرياض - مكتبة النصر

وفي الصفحات التالية سوف نستعرض للمنهج الحسي الذي بينه الله عز وجل في تأييد رسله الكرام عن طريق المعجزات الحسية التي أظهرها على يد هؤلاء الرسل تصديقاً لهم في دعواهم وإفحاماً للمنكرين لهم علّهم أن يهتدوا إلى ما جاء به رسلهم من قبل المولى جلت قدرته ، فنقول وبالله التوفيق.

أولاً : استخدام المنهج الحسي لاثبات نبوة الأنبياء السابقين :

ذكر الله سبحانه وتعالى في القصص القرآني للأنبياء السابقين عددا من الآيات والمعجزات التي أيد بها بعض رسله عليهم الصلاة والسلام ، وبين عز وجل أنه غالباً ما كانت هذه الآيات سبباً في معالجة الأمم بالهلاك ، اذا ما أصروا على عنادهم وكفرهم بعد مجيئها .

ولعل من المناسب هنا أن نسوق بعض الأمثلة الدالة على ذلك :

أولاً : آية نبي الله صالح :

دعا صالح قومه إلى عبادة الله الواحد الاحد كما قال جللت قدرته : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله ﴾^(١) ، فكذبوه وطلبوا منه آية تدل على صدقه ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾^(٢) .

وفي ذلك يقول ابن كثير : (ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديتهم ، فجاءهم رسول الله صالح ، فدعاهم إلى الله ، وذكرهم ، وحذرهم ، ووعظهم ، وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة ، من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافاً سموها ، ونعتوها ، وتعتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة ، من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم نبيهم صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتمكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به ، وتصدقوني بما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له ، ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ، ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً ، فأمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم)^(٣) ، رغم استجابة الله لهم في طلبهم ، إذ أيد نبيه بما طلب قومه من استخراج الناقة لهم كما قال الله عز وجل حاكياً لنا ما قاله صالح عليه السلام : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾^(٤) . فسموها (بينة) ، و (آية) . كما وصفها الله سبحانه بأنها مبصرة : ﴿ وعاتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾^(٥) . أي واضحة الدلالة على صدق ما جاء به صالح عليه السلام .

(١) سورة النمل : آية (٤٥)

(٢) سورة الشعراء : آية (١٥٣-١٥٤)

(٣) البداية والنهاية ١/١٣٤ .

(٤) سورة الاعراف : آية (٧٣) .

(٥) سورة الاسراء : آية (٥٩)

وكان من الآيات البارزة فيها أنها كانت تشرب ماء شربهم يوماً دون يوم ، ويشربون منها في يوم شربها الماء كلهم لبناً^(١) . وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾^(٢) .

وقد حذرهم الله سبحانه من أن يمسوا الناقة بسوء - ومن باب أولى القتل - بأن يمنعوها من الأكل من أرض الله ، أو يمنعوها من الشرب ، أو يتعرضوا لها بأذى . ومعنى ذلك أن الناقة جعلت بمثابة حرم الله سبحانه ، كما جعلت سلامتها علامة على سلامتهم من عذاب الاستئصال العاجل : ﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾^(٣) .

عقر الناقة :

لم يطق الأشراف احتمال هؤلاء المؤمنين ، ولا وجود الناقة بينهم ، ولعلها كانت ضخمة الجسم فأرهبت أنعامهم ، ولعلها حالت بينهم وبين الماء حين اشتداد الحاجة إليه ، ولعلهم أفرغهم أن يكثر المؤمنون بسبب هذه الناقة ، ولعل هذا كله دفعهم إلى قتلها بالرغم من تحذير نبيهم بالعذاب وتوعده إياهم بالهلاك أن مسوها بسوء ، ولكنهم أقدموا على ذبح الناقة غير مباليين ، وطلبوا من نبيهم أن يعجل لهم العذاب الذي هددهم به ، ليثبت لهم أنه رسول من الله^(٤) .
أمام هذا التحدي الوقح والقيح لأمر الله أخرجهم صالح بأن عذاب الله واقع بهم بعد ثلاثة أيام : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾^(٥) .

والعجب العاجب أن يطلب هؤلاء القوم من رسولهم الناقة ابتداءً ويعلقوا إيمانهم بوجودها بينهم ، فلما تحقق طلبهم نكصوا على أعقابهم وكفروا ، ولم يكتفوا بذلك .. بل تعدوه إلى عقر الناقة ، ولقد كانوا مجترئين ، سراعاً إلى الشر والعدوان يؤذن بذلك حرف الفاء المتكرر في قوله تعالى : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ﴾^(٦) ، وليس يقدم على هذه الفعل الشنعاء إلا من بلغ من الشر منتهاه وفي حديث عبد الله بن زمعة

١ (انظر تفسير ابن جرير : ٢٢٥/٨ وابن كثير : ٢٢٨/٢ .

٢ (سورة الشعراء : آية (١٥٥) .

٣ (سورة هود : آية (٦٤) .

٤ (انظر مع الانبياء في القرآن الكريم - طباره : ٩٦ .

٥ (سورة الأعراف : آية (٧٧) .

٦ (سورة الشعراء : آية (١٥٦-١٥٨) .

أنه (سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يخطب وذكر الناقة والذي عقر فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾^(١): انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة)^(٢) .

قال ابن حجر : عزيز قليل المثل ، عارم : صعب على من يرومه كثير الشر والشهامة^(٣) ، ولم يكن من الكافرين نهاة يمنعون ذلك السفية عن حماقته ولذا أخذوا جميعا بالعذاب .
هلاک ثمود :

وفي الموعد المحدد أهلكهم الله عز وجل بالصاعقة^(٤) وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾^(٥) ، جزاءً وفاقاً لهم على سوء صنيعهم وتحديهم لله وأمره وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمون .

ثانياً : معجزة ابراهيم عليه السلام :

حطم ابراهيم عليه السلام الأصنام التي اتخذها قومه آلهة يعبدونها من دون الله بعد أن أخبرهم بذلك كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم يرجعون * قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فستلوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمتم ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾^(٦) .

فما كان من قومه إلا أن عزموا على إحراقه بعد أن أسقط في أيديهم ، حين عرفهم بتحطيمه الأصنام ، أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك الدفع عن نفسها ولا القدرة على الكلام ، ومن كان شأنه كذلك فكيف ينبغي لعاقل أن يتخذة معبوداً ، فيرجوه أو يخافه ، وكان في ذلك دحض

١ (سورة الشمس : آية (١٢) .

٢ (متفق عليه - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب سورة الشمس : ٥٧٥/٨ رقم (٤٩٤٢) ومسلم في كتاب : الجنة وصفة نعيمها ، باب (١٣) : النار يدخلها الجبارون : ٢١٩١/٤ رقم (٢٨٥٥) .

٣ (الفتح : ابن حجر : ٧٠٥/٨ .

٤ (عبر القرآن عن الصاعقة بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة ﴿ فأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ . ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ سورة الحاقة آية (٥) ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

٥ (سورة الذاريات : آية (٤٤)

٦ (سورة الأنبياء : آية (٥٧-٦٧)

لحجتهم ، وإظهار للحق ، وازهاق للباطل فلم يبق في أيديهم إلا أن ينجحوا إلى استعمال القوة في الانتقام من خليل الله إبراهيم عليه السلام فجاء قول الله معيراً عن ذلك ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين ﴾^(١) ، فبنوا بنياناً وجعلوا النار فيه ثم ألقوه في النار وفي ذلك يقول سبحانه موضحاً مدى ضخامة النار التي أوقدوها : ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾^(٢) .

فالأية تدل على أن النار صارت في ضخامتها وهولها بحيث لا يمكن وضعه فيها من مكان قريب منها ، لاتساع هبها ، وانتشار وهجها ، ومن أجل ذلك بنوا حولها بنياناً وألقوه فيها بواسطة المنحنيق^(٣) . وهنا تتجلى عظمة التقدير القاهر سبحانه في تحويل النار من طبعها وهو الإحراق إلى أن صارت برداً وسلاماً على إبراهيم وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾^(٤) ، وكما جعل الله سبحانه لنبيه إبراهيم الغلبة عند الحاجة ، جعل له الغلبة كذلك عندما أرادوا به كيداً ، فأعلى حخته وجعلهم الأسفلين^(٥) .

وهذه الآية العظيمة ، لم يجعلها الله عز وجل آية فحسب ، بل جعلها بمثابة الآيات قال تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأجابه الله من النار إن في ذلك لآيت لقوم يؤمنون ﴾^(٦) .

ومن الآيات التي أجراها على يد إبراهيم أحياء الموتى ، وقد قص الله علينا خير ذلك : ﴿ واذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى ، قال : أولم تؤمن قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾^(٧) .

والتأمل في هذا القول الإلهي يرى أن إبراهيم لم يكن مرتاباً في الإيمان بقدره الله وبعث الأموات يوم القيامة ولكنه طلب صورة من صور اليقين فسأل ربه (كيف تحيي) ولم يسأل (هل تحيي) فسؤاله كان سؤال إنسان يريد أن يطمئن في قرارة نفسه وأن لا يدع للريب مجالاً .

(١) سورة الأنبياء : آية (٦٨)

(٢) سورة الصافات : آية (٩٧)

(٣) راجع تفسير البغوي - بهامش الخازن - ٤/٣٠٠-٣٠١ وراجع ابن كثير : ٣/١٨٣ .

(٤) سورة الأنبياء : آية (٦٩)

(٥) انظر تفسير الرازي : ٢٦/١٥٠ .

(٦) وإلى هذا المعنى ذهب ابن جرير الطبري: ٢٠/٤١٤ والامام الرازي في التفسير الكبير: ٢٥/٥٣ . والآية من سورة العنكبوت ٢٤ .

(٧) سورة البقرة : آية (٢٦٠)

إنه سؤال عقل يريد أن يشبع نهمه في استجلاء الحقيقة سافرة ، فهو في ذلك يسأل ربه باسم العقل ويتلقى الجواب باسم العقل^(١) .

ومهما كان سبب هذا السؤال من سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فإن ما أجراه الله سبحانه على يديه من إحياء الموتى آية بينة ، وبرهان واضح على صدق ما جاء به من ربه سبحانه ، قال الإمام البغوي^(٢) - وهو يذكر الاختلاف في سبب هذا السؤال : (وقيل كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام ، أنه لما احتج على نمروذ فقال : (ربي الذي يحيي ويميت) قال نمروذ : (أنا أحيي وأميت) فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر . فقال إبراهيم : إن الله تبارك وتعالى : يقصد إلى جسد ميت فيحيه ، فقال له نمروذ : أنت عاينته ؟ فلم يقدر أن يقول : نعم . فانتقل إلى حجة أخرى . ثم سأل ربه أن يريه إحياء الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي . فإذا قيل : أنت عاينته فأقول : نعم ، قد عاينته) .

ولكن ماذا كان جواب ربه عليه ؟ لقد قال له : خذ أربعة من الطير الحي فضعهن اليك لتعرفهن جدا ، ثم جزئهن بعد ذبحهن ، واجعل على كل جبل من الجبال المحاورة جزءا منهن ، ثم نادهن فسيأتينك مسرعات طيرانا ومشيا وفيهن الحياة كما كن ، واعلم أن الله لا يعجز عن شيء ، وهو ذو حكمة بالغة في كل أمر .

ثالثاً : آيات نبي الله موسى عليه السلام :

ومن هذه الآيات ما أيد الله سبحانه بها نبيه ورسوله موسى عليه السلام ، وقد ذكر الله سبحانه جملتها ، فبين إنها تسع وفي ذلك يقول سبحانه في سورة الإسراء : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسنل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحوراً^(٣) . ويقول في سورة النمل : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين^(٤) .

قال ابن كثير : وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة هي : يده ، وعصاه ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي^(٥) .

(١) مع الانبياء في القرآن الكريم - طباره : ١٢٠ .

(٢) تفسير البغوي : بهامش الخازن - ٢٨٠/١

(٣) سورة الإسراء : آية (١٠١)

(٤) سورة النمل : آية (١٢)

(٥) تفسير ابن كثير : ٦٦/٣ .

وهذه هي الآيات التسع بصورة إجمالية :

١- العصا أعظم هذه الآيات وأكبرها فقد جعلها الله عز وجل تتحول إلى حية عظيمة عندما يلقيها على الأرض ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى قال : هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال : ألقها يا موسى فألقاها * فاذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾^(١) .

وكان من شأن هذه العصا أن ابتلعت عشرات من الخيال والعصي التي جاء بها سحرة فرعون ليغالبوا موسى ، ﴿ قالوا : يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل ألقوا ، فاذا حباهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر * ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾^(٢) .

وعندما عاين السحرة ما فعلته حية موسى ، علموا أن هذا ليس من صنع البشر ، إنما هو من صنع الله خالق البشر ، فلم يتمالكوا أن خروا أمام الجموع ساجدين لله رب العالمين ﴿ فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾^(٣) .

٢- إدخال يده في جيبه وإخراجها بيضاء من غير سوء وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾^(٤) ، كان موسى يدخل يده في جيبه (درع قميصه) ، ثم ينزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، أي من غير برص ، ولا بهق .

٣- أخذهم بالسنين ، وهي إصابتهم بالجذب والقحط ، بسبب قلة مياه النيل ، وانجباس المطر عن أرض مصر .

٤- نقص الثمرات عن طريق منع الأرض خيرها ، وما يخرج بصاب بالافات والجوائح .

٥- الطوفان الذي يتلف المزارع ويهدم المدن والقرى .

٦- الجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة .

٧- القمل ، حشرة تؤذي الناس في أجسادهم .

٨- الضفادع التي نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها .

٩- الدم الذي يصيب طعامهم وشرابهم .

(١) سورة طه : آية (١٧-٢١)

(٢) سورة طه : آية (٦٥-٦٩)

(٣) سورة طه : آية (٧٠)

(٤) سورة طه : آية (٢٢)

وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ (١) .

آيات اخرى :

ولم يكتف الله عز وجل بإظهار الآيات التسع السابقة على يد موسى عليه السلام ، بل أجرى الله على يديه أكثر من ذلك ، منها ضرب موسى البحر بعصاه وانفلاقه ، وضربه الحجر فينفلق عن اثنتي عشرة عينا ، وانزال المن والسلوى على بني إسرائيل في صحراء سيناء ، وغير ذلك من الآيات (٢) .

وفي ذلك يقول ابن كثير رحمه الله : (وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة واضحة وقوية الحججة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوا كفرا وجحودا) (٣) .

ولما كانت هذه الآيات بهذه الدرجة من الوضوح وقوة الحججة ، فقد كان لها تأثير في نفوس آل فرعون ، ولم يكن استمرارهم بعد ذلك على الكفر والنكران وجحود رسالة موسى عليه السلام وعدم تصديق ما جاءهم به من الله تعالى ، إلا محض عناد واستكبار ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر .. ﴾ (٤) .

وقوله عز وجل : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (٥) .

(١) سورة الأعراف : آية (١٣٠-١٣٣)

(٢) انظر الرسل والرسالات - د. عمر الاشقر ص : ١٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٦٦/٣ - ٦٧ .

(٤) سورة الإسراء : آية (١٠٢)

(٥) سورة النمل : آية (١٣-١٤) .

رابعاً : معجزات نبي الله عيسى عليه السلام :

وأيد الله نبيه ورسوله عيسى بآيات ومعجزات عدة منها :

(أ) تكليم الناس وهو صبي في المهد : وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾^(١) .

أي : يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، في حال صغره ، وهذه من أعظم المعجزات وأوضح الآيات ، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه^(٢) .

ويقول عز وجل مبيناً ما تكلم به عيسى عليه السلام في حال صغره : ﴿ قال اني عبد الله ءاتاني الكتب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا * وبرا بوالدي ولم يجعلني جبارا شقيا ، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾^(٣) .

(ب) إيجاد الحياة - بإذن الله سبحانه - في الجماد ، حيث يشكل من الطين كهيئة

الطير فينفخ فيها ، فتصير طيرا بإذن الله .

(ج) إبراء الأكمة^(٤) والأبرص بإذن الله تعالى .

(د) إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم .

(هـ) إخبار قومه عن ظهر الغيب - بما أطلع الله سبحانه - بما أكل أحدهم وما ادخر في

بيته وهذه الأمور ذكرها الله سبحانه في قوله : ﴿ ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبريء الأكمة والابرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾^(٥) .

وقوله سبحانه : ﴿ ... وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني

وتبريء الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني ... ﴾^(٦) .

وكرر كلمة (بإذني) عقب كل معجزة حتى لا تنسى أن هذه المعجزات ليست من صنع

عيسى عليه السلام بل هي من صنع الله تعالى على يد رسوله شأن سائر المعجزات^(٧) .

١ (سورة آل عمران : آية (٤٦) .

٢ (ابن كثير : ٣٦٤/١ .

٣ (سورة مريم : آية (٣٠-٣٣) .

٤ (الأكمة : هو الذي يولد مطموس العين . وقد يقال لمن تذهب عينه . مفردات الراغب الاصفهاني ، صفحة ٤٤٢ .

٥ (سورة آل عمران : آية (٤٩) .

٦ (سورة المائدة : آية (١١٠) .

٧ (دعوة الرسل الى الله تعالى - محمد أحمد العلوي ص : ٢٤٧ .

(و) ومن آياته كذلك هو حمايته من بني إسرائيل عندما أرادوا قتله وصلبه ، وكان ذلك الذي أرادوه في الوقت الذي جاءهم فيه بالآيات الواضحة الدالة على صدقه في دعوى الرسالة . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْت بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَنَّتْهُمْ بِالْبَيْنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

(ز) ومن آياته تلك المائدة التي أنزلها الله من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى أنزلها وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم وآخرهم ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ رِبِّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ قَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا ، وأنت خير الرازقين * قال الله : إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿ (٢) .

أي نحن نطلبها لأننا في حاجة إلى الطعام ، أو نريد أن نأكل منها أكل تترك ، ونريد أن نطمئن قلوبنا بمشاهدة حرق الله تعالى للعادة ، فنضم علم المشاهدة إلى علم النظر والاستدلال ، ونعلم بهذه المشاهدات أن قد صدقتنا فيما وعدتنا من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً (٣) .

خامساً : معجزات داود وسليمان عليهما السلام :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمُنَا مِنطِقُ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِن هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٤) .

وقد أفادت هاتان الآيتان الشريفتان عدة أمور هي :

١- أن الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام علماً .

٢- وأن سليمان ورث أباه في النبوة .

٣- وأنهما فضلاً بذلك على كثير من المؤمنين .

(١) سورة المائدة : آية (١١٠)

(٢) سورة المائدة : آية (١١٢-١١٥)

(٣) المرجع السابق : ص ٣٤٨ .

(٤) سورة النمل : آية (١٥-١٦) .

٤ - كما أنهما علما منطق الطير .

٥ - وأوتيا من كل شيء يكون به الملك والتسخير .

٦ - وأنهما حمدا الله على ذلك .

قال الفخر الرازي : (وجمع لداود الملك والنبوة .. وسخر لسليمان الإنس والجن والطيور والريح ولم يكن هذا حاصلًا لأبيه داود عليه السلام) (١) .

وقال ابن كثير في قوله : (وأوتينا من كل شيء) ، أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش من الشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم ، والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات (٢) .

١ - ما أيد الله تعالى به نبيه داود عليه السلام : أيد الله عز وجل نبيه داود بآيات عدة منها :

(أ) تسخيره تعالى الجبال لتردد معه التسييح وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ (٣) .

(ب) تسخيره الطير لتسبح معه كذلك ، مع كونها محشورة إليه من كل جانب : ﴿ والطير محشورة كل له أوأب ﴾ (٤) . أي كل من الجبال والطيور رجّاع للتسييح ، وقال سبحانه : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يجبال أوبى مع والطيور ... ﴾ (٥) . والتأويب الترجيع : أي رجعي معه التسييح .

(ج) لإئنة الحديد له وتعليمه صنع الدروع ، قال تعالى : ﴿ ... وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر في السرد ﴾ (٦) ، واعملوا صالحا اني بما تعلمون بصير ﴾ (٧) .

واشتمال القرآن المجيد على هذه الآيات من هذا الوجه يفيد الاتي :

١ - بيان قدرة الله ، التي لا تحد ولا تخضع لسنن الكون وقوانين الطبيعة كما هو حال المخلوقين ، وفي هذا - ولا شك - تصحيح لمفهوم الألهية لدى كثير من المدعويين المنحرفين في فهمهما ولا سيما بنو إسرائيل يهودهم ونصاراهم ، فالأولون وصفوا إلههم بالتعب والندم والحزن

١ (مفاتيح الغيب : ٢١٧/٦ .

٢ (قصص الانبياء : اسماعيل بن كثير ص ٦١٠ تحقيق عبدالحى الفرماوي - دار اليقين ط ١ ، سنة ١٩٩٢ المنصورة .

٣ (سورة ص : آية (١٨) .

٤ (سورة ص : آية (١٩) .

٥ (سورة سبأ : آية (١٠) .

٤ (السرد : فرز ما يخشن ويلفظ ، كسج الدرع ، وفرز الجلد : مفردات الراغب الأصفهاني : ص ٢٣٠ .

٦ (سورة سبأ آية : آية (١٠-١١) .

والبداة وبهذا تنطق التوراة المحرفة المتداولة اليوم ، والآخرون ضلوا فألحوا بشرا ضعيفا يأكل ويشرب .

٢- الاستدلال بهذه الظواهر على وحدانية الله وتفردة في الربوبية والألمية ، فتسبح هذه الجمادات والعجماوات بحمد ربها وانقادت لأمره وإرادته ، دليل وحجة على من تيلد حسه واثقل سمعه وخوى فكره من بني الإنسان .

٣- التسييح ، والإلانة ، وفهم منطق الطير : كل ذلك حقيقة ، لأن تقرير الأمر على هذا الوجه أبلغ في تقرير الأمرين السابقين وهو الذي عليه سلف الأمة ، ولا أرى وجها معتبرا لمن قال بالمجاز ، أو من قال إنه تسييح من رآها لعظم خلقها ^(١) ، أو قال إن إلانة الحديد كان بالتحمية والطرق وخص بنسبته لداود لكونه أول من عمل منها الدروع ^(٢) .

وهل غريب أن تجري على يدي داود معجزات خارقة للعادة وهو النبي المكرم عليه وعلى

نبينا الصلاة والسلام ؟

٢- ومعجزات سليمان عليه السلام التي بينها القرآن الكريم وهي :

١- الملك : ووجه كونه معجزة هو أنه أتم بخصائص انفراد بها ، فسليمان عليه السلام من الأنبياء الملوك ، وفي ذلك يقول سبحانه على لسان سليمان : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ ^(٣) ، وخصائص ملك سليمان تتمثل فيما يلي :

أ - أنه لا يتكرر لأحد من الخلق بعده .

ب- وأنه مقرون بالنبوة .

ج- ولا حساب عليه فيه ولا تبعة بمقتضى قوله تعالى : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو

أمسك بغير حساب ﴾ ^(٤) ، وهو اختيار أجلة المفسرين كابن جرير وابن كثير ^(٥) .

٢- تسخير الريح له : وهي آية كونية كثيرا ما يستدل بها في القرآن الكريم على وحدانية

الله وقدرته ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ ^(٦) ، وكونها عاصفة ، أي : شديدة الهبوب ^(٧) ، ويقول سبحانه : ﴿ ولسليمان الريح

١ (الكشاف : ٥٨٠/٢ .

٢ (التفسير القرآني للقرآن : ٧٨٥/٤ .

٣ (سورة ص : آية (٣٥) .

٤ (سورة ص : آية (٣٩) .

٥ (تفسير الطبري : ١٠٥/٢٣ وقصص الأنبياء لابن كثير : ص ٥١٣ .

٦ (سورة الأنبياء : آية (٨١) .

٧ (فتح القدير : ٤١٩/٣ .

غدوها شهر ورواحها شهر ﴿^(١)﴾ ، أي إنها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين ^(٢) ، وقال عنها كذلك : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ ^(٣) ، فها هنا ثلاثة وجوه اعجازية في الريح : انقيادها لسليمان ، ومجيئها بالخير والنفع من حيث هي عاصفة ، وسرعتها الفائقة .

٣- تسخير الشاطين له : فكانت له مطيعة ، ويفهم منطقتها ، كما في قوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ ^(٤) ، وقد ذكر السياق القرآني الجليل مهامها ﴿ والشياطين كل بناء وغواص * وأخريين مقرنين في الأصفاد ﴾ ^(٥) ، ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ ^(٦) ، أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك ^(٧) . والجن ، وهي تلك القوى الخفية التي لا ترى ، لم تسخر لغير سليمان كما يفهم من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - (إن عفريتاً من الجن يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة وإن الله أمكنني منه ، فذعته فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه كلكم ثم ذكرت قول أخي سليمان : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، فرده الله خاسئاً) ^(٨) ، قال ابن حجر : وفي هذا إشارة إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقدر على ذلك إلا أنه تركه رعاية لسليمان عليه السلام .. ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع ما يريد لا في هذا فقط) ^(٩) .

١ (سورة سبأ : آية (١٢) .

٢ (زاد المسير : ٤٣٨/٦ .

٣ (سورة ص : آية (٣٦) .

٤ (سورة سبأ : آية (١٢) .

٥ (سورة ص : آية (٣٧-٣٨) .

٦ (سورة الأنبياء : آية (٨٢) .

٧ (ابن كثير : ١٨٧/٣ .

٨ (متفق عليه : أخرجه البخاري عن أبي هريره رضي الله عنه : ٤٠٨/٨ رقم (٤٨٠٨) في كتاب التفسير - باب سورة ص -

ومسلم في كتاب المساجد باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ٣٨٤/١ رقم (٥٤١)

٩ (فتح الباري : ٤٥٩/٦ .

كما ذكر سبحانه في مكان آخر تسخير الجن لسليمان عليه السلام ، والجن أعم من الشياطين قال تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعلمون له ما يشاء من محاريب وتمائيل ﴾^(١) ، وجفان كالجواب وقدور راسيت ... ﴿^(٢) .

٤- تسخير الطير والحشرات والبهائم له : قال جل ذكره : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾^(٣) ، وقال سليمان عن نفسه ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ والمنطق : كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد^(٤) .

ولقد كان تعامله مع هذه المخلوقات خارقة لا عهد للبشر بها و أن كلامه - عليه السلام - مع الهدهد وفهمه منطق النملة من جملة معجزاته ، قال ابن حزم : (ليس للحيوانات تمييز دقائق العلوم والكلام فيها ... وإنما عنى الله بمنطق الطير : أصواتها ، لا تمييز العلوم والتصرف في الصناعات الذي من ادعاه لها أكذبه العيان وأما قصة النملة والهدهد فهما معجزتان خاصتان لذلك النمل ، وكذلك الهدهد وآيات سليمان رسول الله عليه السلام - ككلام الذراع وحنين الجذع وتسبيح الطعام لمحمد - ﷺ)^(٥) .

وقال ابن كثير شارحا ذلك أيضا : وكان سليمان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاغ أن

١ (قال عطية العوفي والضحاك والسدي : التمائيل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس وقال قتادة : من طين وزجاج . انتهى من تفسير ابن كثير : ٥٢٨/٣ . وفي هذا دليل على أن الصور المحسمة كانت في شريعة سليمان عليه السلام مباحة ، وقال ابن حجر - تعقبا على هذه الأقوال ، بعد أن ذكر احتمال أن يكون ذلك جائزا في تلك الشريعة - ما لفظه : (ويحتمل أن يقال : أن التمائيل كانت على صورة النقوش لغير الأرواح) . وإذا كان اللفظ محتملا لم يتعين الحمل على المعنى المشكل ، وقد ثبت في الصحيحين ، حديث عائشة في قصة الكنيسة التي كانت بأرض الحبشة ، وما فيها من التماثيل ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال : (كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله) فان ذلك يشعر بأنه لو كان جائزا في ذلك الشرع ، ما أطلق عليه صلى الله عليه وسلم أن الذي فعله شر الخلق ، فدل على أن فعل صور الحيوان فعل محدث ، أحدثه عباد الصور ، والله أعلم .

فتح الباري : ٣٨٢/١٠ .

وحديث عائشة المذكور رواه البخاري : كتاب الصلاة : ١١٨/١ وكتاب الجنائز : ١١٤/٢ وكتاب مناقب الانصار : ٦٤/٥ ، ومسلم : كتاب المساجد ٣٧٥-٣٧٦ والنسائي : كتاب المساجد : ٤٢-٤١/٢ .

٢ (سورة سبأ : آية (١٢-١٣) .

٣ (سورة النمل : آية (١٧) .

٤ (الكشاف : ١٤٠/٣ .

٥ (الفصل : ٨١/١ .

الحيوانات كانت تنطق كمنطق بني آدم قبل سليمان بن داود .. فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطير والبهائم ^(١) .

٥- إسالة عين القطر له : قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ ﴾ ^(٢) ، وإسالة عين القطر له معجزة - ولا ريب - سواء أسيلت له كعيون الماء أو أذيب له القطر وهو النحاس ، فكان يلين له بغير نار كما ألين الحديد لداود والعين على هذا تكون بمعنى الذات ^(٣) .

والقطر : النحاس الذائب ^(٤) . وإنما قال : (عين القطر : لأنه أساله من معدنه فنبع كما ينبع الماء من العين ، فتسميته بعين القطر باعتبار ما آل إليه) ^(٥) .

(١) تفسير ابن كثير : ٣٥٨/٣ .

(٢) سورة سبأ : الآية (١٢) .

(٣) البحر المحيط : ٢٦٤/٧ .

(٤) لسان العرب : ١٠٥/٥ .

(٥) الكشاف : للزمخشري : ٢٨٢/٣ بتصرف .

ثانيا : استخدام المنهج الحسي لإثبات نبوة النبي الخاتم - محمد صلى الله عليه وسلم .
معجزات خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام :

بعد إستعراض المنهج الحسي الذي جاء في كلام الله عز وجل لإثبات نبوة الأنبياء السابقين ، يجدر الآن ذكر استخدام هذا المنهج لإثبات نبوة الرسول الكريم محمد ﷺ فنقول : أيد الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً ﷺ بآيات ومعجزات كثيرة منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي عقلي ، وقد ثبت بعضها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ولا يمكننا استقصاء جميعها ، ولكننا سنكتفي بذكر بعضها مع التركيز في هذا الجانب على القرآن الكريم لأنه الآية العظمى ، والمعجزة الخالدة .
ولنبداً أولاً بذكر بعض المعجزات الحسية^(١) التي وقعت للرسول ﷺ ثم نعرض للحديث عن معجزة القرآن الكريم ، فمن تلك المعجزات :

١- الإسراء والمعراج :

فإن من الآيات البينات والمعجزات الخارقات إسراء الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث جمع الله له الأنبياء فصلّى بهم إماماً وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا... ﴾^(٢) ، ومن هناك عرج به إلى السموات العلا ، وهناك رأى من آيات ربه الكبرى ، رأى جبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وصعد به إلى سدرة المنتهى ، وجاوز السبع الطباق وكلمه الرحمن وقربه ﴿ أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾^(٣) .

ولقد استعظمت قريش دعوى رسول الله ﷺ - فقد كانت القوافل تمضي الأسابيع في الذهاب إلى بيت المقدس والعودة منها ، فكيف يتسنى لرجل أن يمضي ويعود في جزء من ليلة ! ذلك أمر عجيب ، وهو حقاً عجيب ، ولكن العجب يتلاشى إذا علمنا أنّ الذي أسرى به هو الله تعالى ، والله على كل شيء قدير^(٤) .

* قال ابن تيمية - رحمه الله - : (قد جمعت نحو ألف معجزة) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ١٥٨

(١) سورة الإسراء : آية (١)

(٢) سورة النجم : آية (١٢-١٨) ، وهذا هو الرأي الراجح في تفسير الرؤية .

(٣) انظر الرسل والرسالات ، عمر الاشقر ص ١٣٤ .

والتفصيل في أمر هذه الآية وما تبعها من المعراج إلى حيث شاء الله سبحانه ، وما أراه الله سبحانه من آيات عظيمة أبان هذه الرحلة المباركة يرجع له في مظانه . غير أنا اعتبرنا الإسراء واحداً من الآيات المؤيدة لرسول الله ﷺ ، فقد يقول قائل : كيف تجعل هذه الآية دليلاً مؤيداً لرسول الله ﷺ على رسالته وصدق ما جاء به ، والآية التي تكون بهذه المثابة من شأنها أن يراها القوم التي تكون عليهم حجة ، والحال أن قومه ﷺ لم يروا هذه الآية ، فمن أي وجه اعتبرت آية؟ .

والجواب : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما عاد من رحلته المباركة ، وأخيراً بما أكرمه الله تعالى به ، ازداد خصومه تكديماً له ، وطلبوا منه علامات تدل على صدق دعواه أنه أسرى به إلى المسجد الأقصى ، الذي لم يكن يعرفه من قبل فرفع الله له المسجد حتى نظر إليه ، وأخذ يصفه لهم ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (ما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلاً الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لقد رأيتني ، وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كربة ما كربت مثله قط قال : فرفعه الله لي أنظر إليه ، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ... الحديث)^(٢) .

وبهذا ثبت صدق الرسول ﷺ فيما أخبرهم به من أمر الإسراء ، ولزمت الحجة المكذبين ، ولم يكن استمرارهم على التكذيب ، بعد سؤالهم عن آيات المسجد ووصفه لهم إلا عناداً ومكابرة^(٣) .

٢- انشقاق القمر :

والتي ذكرت في قوله سبحانه : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾^(٤) .

قال ابن كثير وهو يفسر قوله تعالى : (وانشق القمر) ، لقد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة ، ... وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن

^(١) أخرجه البخاري : كتاب مناقب الانصار باب حديث الإسراء ٢٣٦/٧ رقم (٣٨٨٦) ومسلم : كتاب الايمان باب ذكر المسيح

ابن مريم والمسيح الدجال ١٥٦/١ رقم (٢٧٦)

^(٢) مسلم : كتاب الايمان : ١٥٧/١ .

^(٣) انظر معالم الدعوة ج ١ ص ٤٤٧ - عبد الوهاب النديمي - دار المجتمع .

^(٤) سورة القمر : آية (٣-١) .

انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات^(١) .

ومما ورد في الصحيح مما يدل على وقوع انشقاق القمر زمان رسول الله ﷺ ما يأتي : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقتين : فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا) . متفق عليه^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية . فأراهم انشقاق القمر مرتين) متفق عليه^(٣) .

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أنحاء الجزيرة العربية ، فإن أهل مكة لم يصدقوا ، وقالوا : سحرنا محمد ، ثم استدركوا قائلين : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، وفي اليوم التالي سألوا من وفد إليهم ، من خارج مكة ، فأخبرهم أنهم رأوه . بل شاهد هذه المعجزة الناس في خارج الجزيرة العربية ، وفي ذلك يقول ابن كثير : (شاهد انشقاقه في كثير من بقاع الأرض ، ويقال : إنه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند ، وبنى بناء في تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر)^(٤) .

٣- نبع الماء من بين أصابعه الشريفة :

كما روي البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس رضي الله عنه قال : (أتى رسول الله ﷺ بإناء وهو بالزوراء^(٥) ، فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ القوم ، قال قتادة قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة ، أو زهاء ثلاثمائة)^(٦) .

^(١) تفسير ابن كثير : ٢٦١/٤ .

^(٢) أخرجه البخاري : كتاب المناقب ٢٢١/٧ رقم (٣٨٦٨) وكتاب التفسير : ٤٨٣/٨ رقم (٤٨٦٤) ومسلم : كتاب صفات المنافقين : ٢١٥٨/٤ رقم (٢٨٠٠) .

^(٣) أخرجه البخاري : كتاب المناقب ٢٢١/٧ رقم (٣٨٦٨) وكتاب التفسير : ٤٨٣/٨ رقم (٤٨٦٤) ومسلم : كتاب صفات المنافقين : ٢١٥٨/٤ رقم (٢٨٠٠) .

^(٤) البداية والنهاية : ١٢٠/٣ .

^(٥) الزوراء : منطقة بالمدينة المنورة عند السوق والمسجد

^(٦) محمد بن اسماعيل البخاري / صحيح البخاري / باب علامة النبوة في الاسلام ٦٧٢/٦ وفتح الباري ج ٦ ص ٥٨٠ ، رقم الحديث ٢٥٧٢ ، ومسلم / باب في معجزات النبي ﷺ ج ٤ ص ١٧٨٢ ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي رقم الحديث ٦ .

٤- اشباع العدد الكثير من الطعام القليل :

فقد روى البخاري من حديث أنس بن مالك يقول أي أنس (قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ قالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا لها فلفّت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدي ولاتني^(١) ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال : فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس ، فقامت عليهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : أرسلك أبو طلحة ؟ فقلت نعم . قال : بطعام ؟ قلت : نعم . قال رسول الله ﷺ لمن معه : قوموا . فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم . فقالت : الله ورسوله أعلم . فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ﷺ : هلمي يا أم سليم ما عندك ، فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته ، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : إئذ لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : إئذ لعشرة فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : إئذ لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا . ثم قال : إئذ لعشرة ، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا)^(٢) .

- ٥- حين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم ونطقه وسماع منات الرجال الأخيار له ، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول ﷺ وهدده كما تهدد الأم طفلها ، فسكت^(٣) .
- ٦- رده ﷺ عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد فردها صلى الله عليه وسلم ، ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها^(٤) .
- ٧- تسييح الطعام بين يديه ﷺ يسمعون ، وهم عدد كبير من خيار البشر^(٥) .

* أي لفتني به يقال لاث العمامة على رأسه أي عصبها ، والمراد أنها لفت بعضه على رأسه وبعضه على أبطه . فتح الباري ج١/٥٨٩
(١) محمد بن اسماعيل البخاري / صحيح البخاري / باب علامة النبوة في الاسلام ٦/٦٧٨ فتح الباري ج٦ ص ٥٨٦، ٥٨٧ ، رقم الحديث ٣٥٧٨ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجمعة - باب الخطبة على المنبر ٢/٤٦١ رقم (٩١٨)

(٣) سيرة ابن هشام : ٣/٣٣ .

(٤) أخرجه البخاري : ٤/٢٣٥ .

٨- تسليم الحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع ، وعشرات المرات (١) .

٩- آيات الجوّ منها :

أ - من هذه المعجزات طاعة السحاب له ﷺ - بإذن الله تعالى في حصوله ونزوله وذهابه بدعائه ﷺ (٢) .

ب - ومن هذا النوع نصر الله النبي ﷺ بالرياح التي قال تعالى عنها : ﴿ إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ﴾ (٣) ، وهذه الرياح هي ریح الصبا ، أرسلها على الأحزاب ، قال ﷺ (نصرت بالصبا ، وأهلك عاد بالذبور) (٤) .

١٠- تأييد الله له بالملائكة :

أيد الله رسوله بالملائكة في عدة مواضع ، نصرة له ولدينه ، منها على سبيل المثال :

١- في الهجرة قال المولى - جلا وعلا - : ﴿ ... فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ (٥) .

٢- في بدر ، قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (٦) .

٣- في أحد ، قاتل جبريل وميكائيل - عليهما السلام - عن يمين النبي ﷺ وعن يساره (٧) .

٤- في الخندق ، قال الله تعالى - عز وجل : ﴿ .. إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ﴾ (٨) .

(١) حديث تسليم الحجر عليه صلى الله عليه وسلم بحمكة و اخباره بهذا ثابت في مسلم : ٥٨/٧ رقم (٢٢٧٧) وتسلم الحجر والأشجار عليه صلى الله عليه وسلم وسماع علي رضي الله عنه هذا في المناقب أخرجه الزمدي ٥/٥٩٢ ، برقم (٣٦٢٤) .

(٢) إنظر البخاري مع الفتح ، كتاب الإستسقاء في الخطبة يوم الجمعة ٢/٤١٣ ، ومسلم كتاب الإستسقاء باب الدعاء في الإستسقاء ٦١٤/٢

(٣) سورة الأحزاب : آية (٩)

(٤) أخرجه مسلم كتاب صلاة الإستسقاء ، باب في ریح الصبا والذبور ٦١٧/٢ رقم (١٧)

(٥) سورة التوبة : آية (٤٠)

(٦) سورة الأنفال : آية (٩)

(٧) البخاري مع الفتح ، كتاب المغازي ، باب : إذ همت طائفتان ... ٣٥٨/٧ ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب قتال جبريل

وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أحد ٤/١٨٠٢ رقم (٤٦)

(٨) سورة الأحزاب : آية (٩)

٥- في غزوة بني قريظة : جاء جبريل إلى النبي ﷺ بعد أن وضع السلاح من غزوة الخندق واغتسل ، فقال له جبريل : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم ، فسأله النبي (إلى أين ؟) فأشار إلى بني قريظة ، فخرج ﷺ ونصره الله عليهم ^(١) .

٦- في حنين ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ .. وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ ^(٢) .

هذه الآيات الخارقة للعادة كلها آيات حسية وهناك آيات أخرى لا يتسع المقام لذكرها وقد جاءت على يده ﷺ لا للتحدي بها ، وإنما لبيان أن نبوته ﷺ من جنس النبوات السابقة .

ثانياً : معجزة القرآن الكريم :

والحديث عن معجزات رسول الله ﷺ يطول بنا إذا ما أردنا حصرها ، غير أننا سنختتم هذا المطلب بالكلام عن القرآن الكريم ، الذي كان وما يزال أعظم آية ، وأجل مؤيد ، وأضخم معجزة أوتيتها خاتم الرسل ﷺ فهو المعجزة الخالدة الذي ما يزال يتحدى أهل كل عصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطاً مخالفاً لمعجزات الرسل ، وكان الله قادراً على أن ينزل معجزة حسية تذهل من يراها : ﴿ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ ^(٣) . أي لو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالاً ، ولا انصرافاً عن الإيمان ، ويصور سبحانه خضوعهم لهذه الآية - لو أنزلها الله تعالى - في صورة حسية : ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ ^(٤) ، أي ملوثة بحنية ، حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون .

يقول صاحب الظلال : (لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشاء أن ينزل آية قاهرة مادّية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم - ذلك أنّ هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة إلى الأمم كلّها ، وللأجيال كلّها ، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان ، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب ، لكلّ أمة ولكلّ جيل ،

(١) البخاري مع الفتح ، كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ٤٠٧/٧ ، ومسلم ، كتاب الجهاد . باب جواز قتال من نقض العهد ١٣٨٩/٣ رقم (٦٥) .

(٢) سورة التوبة : آية (٢٦)

(٣) سورة الشعراء : آية (٤)

(٤) سورة الشعراء : آية (٤)

والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعا يشهد .. فأما القرآن فما هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم - ويولي حاجاتهم كاملة ، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل ، وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد (١) .

وقد تحدى الله بهذا الكتاب فصحاء العرب ، وقد كانت الفصاحة والبلاغة وجودة القول هي بضاعة العرب التي نبغت بها ، وقد عادى العرب دعوة الإسلام ورسول الإسلام ، وكان مقتل هذه الدعوى أن يعارض فصحاؤهم هذا الكتاب ، ويأتوا بشيء من مثله ، ولكنهم عجزوا عن ذلك، وهذا العجز ليس مختصاً لمن كانوا في عصره بل يستمر هذا العجز منذ بعثته ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، فالله سبحانه وتعالى تحدى الإنس والجن في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وصدق تعالى حينما قال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٣) ، وقال سبحانه : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٤) .

وفي هذا التحدي نقول لكم إن كانت لكم شبهة في أن القرآن كلام الله .. فهذا الميدان دونكم .. تعالوا فأتوا أتم أيضا بكتاب مثل هذا القرآن الذي جاء به محمد - ﷺ - الأُمِّي الذي كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة .

فإذا لم تستطيعوا أن تفعلوا هذا أيضا .. فخذوا معكم جميع من تعتدون بهم من بلغائكم وخطبائكم .. بل وجميع آتار السابقين منهم .. واجتهدوا بكل قوتكم .. فاصنعوا نظيرا لهذا القرآن!! ..

فإن لم تستطيعوا أن تفعلوا هذا أيضا .. فاصنعوا أثرا يكون نظيرا لبلاغته وإحكامه فقط .. بغض النظر عن الحقائق القرآنية التي لا تقبل التقليد .. كما يقول القرآن .. ﴿ فأتوا بعشر سور مثله

(١) راجع في ظلال القرآن : المجلد الخامس ص ٢٥٨٥

(٢) سورة الإسراء : آية (٨٨)

(٣) سورة يونس : آية (٣٨)

(٤) سورة البقرة : آية (٢٣-٢٤)

مفتريات ﴿١﴾ .. أي إننا لا نطلب منكم صدق المعنى فيما تأتون به من نظير للقرآن إنما المطلوب أن يكون المأتي به نظيراً له في بلاغته وإحكامه فقط حتى ولو كان مفتریات وأكاذيب وحكايات باظلة !!

فإن لم تستطيعوا أن تفعلوا هذا أيضا .. فلا يكن بقدر هذا القرآن كله .. وأتوا بنظيره بعشر سور منه فقط !! ..

فإن لم تستطيعوا أن تفعلوا هذا أيضا .. فأتوا بنظيره بسورة واحدة منه فقط !! ..
وإن كان هذا الطلب عليكم عسيرا أو كثيرا .. فأتوا بمثل أقصر سورة من سوره تماثل القرآن مماثلة جزئية ولو كان في بعض نواحيه ، ولذلك جاءت (من) في موضعها وميقاتها لتؤدي نفس المعنى المطلوب بذاته في هذا المقام فقال تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ (٢) ، وكذلك عقب الله تعالى عليها هنا بالنفي العام ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ (٣) .

بيد أنهم عجزوا كذلك ، وإن كان العرب في عهد الرسول وهم أهل فصاحة وبلاغة وبيان، بل ويعد عصره ﷺ أعظم عصر وأرقاه من حيث البلاغة والفصاحة والبيان قد عجز أهله فيه عن كل التحديات السابقة فغيرهم الأقل حظاً في الفصاحة والبلاغة والبيان أعجز إلى يوم القيامة (٤) .
وعن تحدي القرآن للعرب يقول صاحب الظلال : (لقد تحداهم سبحانه أن يأتوا ولو بأقصر سورة من مثل القرآن في فصاحته وبلاغته . وهو بلغتهم التي تعودوا عليها .. وبأسلوبهم في البيان .. ولكن العرب عجزوا عن الإتيان بالمثل .. مع أنهم كانوا في ذلك العهد بمكان مرموق .. وفي ذروة من الفصاحة والبلاغة التي تكون تحت قدرة البشر .. لقد تحداهم بقوله : اتوا بمثل هذا القرآن .. أو اتوا بسورة .. أو بعشر سور .. دون ترتيب زمني .. لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن .. أو بعضه .. أو سورة منه على السواء ...

(١) سورة هود : آية (١٢)

(٢) سورة البقرة : آية (٢٢)

(٣) سورة البقرة : آية (٢٤) وانظر المدخل إلى التفسير الموضوعي - د. عبدالستار فتح الله سعيد ص ٨٠-٨١ دار الطباعة والنشر الإسلامية بمصر ط الأولى سنة ١٩٨٦ م .

(٤) انظر الجامع لأدلة الإيمان بالله - علي الهزاع ص ٨٥ بتصرف - مطبعة الفيصل .

فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره .. والعجز كان عن النوع لا عن المقدار ..
وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة (١) .

ومن جوانب إعجاز القرآن الكريم تلك الفوارق التي تميز طبيعة التأليف القرآني .. عن طبيعة التأليف الإنساني ما بينه الأستاذ الرافعي بقوله : لا ندري كيف يمكن القول بأن القرآن كلام إنساني .. وهو قد تم في هذه المدة على طريقة معجزة يستوي أولها نزولا وآخرها في الاطراد والنظم والبلاغة والغرابة .. بحيث لا يستطيع إنسان أن يعين فيما بين دفتيه موضع تنقيح .. أو يومئ إلى جهة منها تهذيب .. أو يستخرج ما يدل منه على ضعف في نسقه واطراده .. أو لفظه ومعناه .. ومتى عهد في تاريخ الأرض كله أن كلام إنسان من الناس يستمر على مثل هذه الطريقة بضعة وعشرين عاما .. ولا يكون أول ذلك إلا بعد أن يبلغ الأربعين .. ثم لا ينتقض ولا يضعف ولا تختلف طبقاته ولا يتفاوت أمره في كل هذه المدة .. مع اختلاف أحوال النفس وأمور الزمن .. ومع احصاء كلامه وجمعه لفظة لفظة والذهاب به حفظا وتلاوة حتى لا يجد السبيل إلى تغيير كلمة واحدة بعد أن تفصل عنه .. وخاصة إذا اعتبرنا بالكلام صناعة البلاغة ...

ثم يقول : لعمر الله . ما نظن في الأرض عاقلا يستطيع أن يدل على إنسان هذه صفته .. إلا أن يخرج هذا الإنسان من الوهم .. ثم يحكم في أمره بغير فهم .. ويكون دليل عقله هذا من دليل جنونه (٢) ...!

ومن أكد الدلائل والبراهين على أن هذا القرآن ليس أثرا بشريا .. بقاءه محافظا لم يندثر ولم يتبدل .. كما وعد تبارك وتعالى .. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر ، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بريانية هذا الكتاب - إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة - ونرى أن الأحوال والظروف والملايسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوننا محفوظا لا تتبدل فيه كلمة .. وتحرف فيه جملة .. لولا أن هناك قدرة خارجة عن إرادة البشر .. أكبر من الأحوال والظروف والملايسات والعوامل .. تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل .. وتصونه من العبث والتحريف ...

ولقد جاء على المسلمين زمان - ما نزال نعانيه - ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم .. وعن حماية عقيدتهم .. وعن حماية نظامهم .. وعن حماية أراضهم .. وعن حماية أعراضهم وأموالهم

(١) انظر : الظلال المجلد الرابع ص (١٨٦١) .

(٢) إعجاز القرآن (٢٥١-٢٥٢) مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي سنة ١٩٩٠م. بيروت .

(٣) سورة الحجر: آية (٩) .

واخلاقهم .. وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم ! وغير عليهم أعداؤهم كل معروف عندهم .
وأحلوا مكانه كل منكر فيهم .. كل منكر من العقائد والتصورات .. ومن القيم والموازين .. ومن
الأخلاق والعادات ومن الأنظمة والقوانين .. وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقع والتعري من كل
خصائص " الإنسان " وردوهم إلى حياة الحيوان .. وأحياناً إلى حياة يشتمز منها الحيوان .. ووضعوا
لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقية من "التقدم" و"التطور" و"العلمانية" و"العلمية" و"الانطلاق"
و"التحرر" و"تخطيم الأغلال" و"الثورية" و"التجديد" .. إلى آخر تلك الشعارات والعناوين ..
وأصبح " المسلمون " بالأسماء وحدها مسلمين . ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير .. وباتوا غشاء
كغشاء السيل لا يمنع ولا يدفع .. ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقوداً للنار .. وهو وقود هزيل! ..
ولكن أعداء هذا الدين - بعد هذا كله - لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا
تحريفها .. ولم يكونوا في هذا من الزاهدين .. فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف ولو
كان يبلغ .. وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال! ..

ولقد بذل أعداء هذا الدين - وفي مقدمتهم اليهود - رصيدهم من تجارب أربع آلاف سنة
أو تزيد في الكيد لدين الله .. وقدروا على أشياء كثيرة .. قدروا على الدس في سنة رسول الله ﷺ
وعلى تاريخ الأمة المسلمة .. وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم
ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون .. وقدروا على تخطيم الدول والمجتمعات
والأنظمة والقوانين .. وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأماجد .. ليقوموا لهم
بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون .. وبخاصة في العصر الحديث
.. ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد - والظروف الظاهرية كلها مهياة لهم - .. لم يقدروا على
إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ .. الذي لا حماية له من أهل المتسبين إليه .. وهم بعد أن
نبدوهم وراء ظهورهم غشاء كغشاء السيل لا يدفع ولا يمنع ... بل حماية له من الله عز وجل للعهد
الذي أخذه على نفسه بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ولذا فلقد دل هذا مرة
أخرى على ربانية هذا الكتاب .. وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقاً تنزيل من عزيز حكيم^(١)
ولقد بقي القرآن محفوظاً بحفظ الله له .. لأن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ..
وليست كاخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد .. ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك
الجيل ...

(١) انظر : الظلال ٤م (٢١٢٧-٢١٢٩) من سورة الحجر . دار العلم للطباعة والنشر بجدة .

ولما كان القرآن أعظم معجزة جاء بها رسول الله ﷺ كما أسلفت ، وفيه ما يعني عن كل معجزة لمن كان يريد الحق ، والاهتداء إلى الصواب ، فإن المشركين كانوا إذا طلبوا آيات من رسول الله ﷺ جاءت الاحالة أحيانا من الله سبحانه ، على القرآن لبيان أن فيه غناء لهم عن كل آية حسية يطلبونها ، يدل على ذلك قوله جلّت قدرته : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (١) .

وفي سورة الرعد يذكر الله سبحانه تعنت الكافرين في طلب إنزال الآيات على رسول الله ﷺ بقوله : ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ (٢) . ثم يعقب على ذلك بالرد على الكفار من وجوه :

الأول : أن الضلال والهدى بيد الله تعالى ، وإن كثرة الآيات ، لا تغني لمن طبع الله على قلبه : ﴿قل إن الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ (٣) .

الثاني : بيان أن ذكر الله وهو القرآن يعني عن سائر الآيات ، لأنه الذي تسكن به قلوب المؤمنين : ﴿الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٤) .

الثالث : أن القرآن أعظم آية : ﴿ولو أن قرءانا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ... ﴾ (٥) . أي : لكان هذا القرآن .

وقد ذكر الرسول ﷺ ما يمتاز به القرآن الكريم ، على سائر المعجزات ، وذلك في الحديث المتفق عليه ، عن أبي هريرة ؓ قال قال النبي ﷺ : ﴿ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ﴾ (٦) .

١ (سورة العنكبوت : آية (٥٠-٥١) .

٢ (سورة الرعد : آية (٧))

٣ (ذهب إلى هذا المعنى ابن جرير في تفسيره : ١٣/١٤٤ وذكره الرازي ، على أنه أحد الاحتمالات التي يمكن حمل الآية عليها . التفسير الكبير ١٩/٤٨ والآية من سورة : الرعد : آية (٢٧))

٤ (سورة الرعد : آية (٢٨) .

٥ (سورة الرعد : آية (٣١) .

٦ (أخرجه البخاري : كتاب فضائل القرآن : ٨/٦١٨ ، وكتاب الاعتصام : ١٣/٢٦١ رقم (٧٢٧٤) ومسلم : كتاب الإيمان ١٣٤/١ رقم (٣٣٠) ، (٣٣١) .

وفي التعبير بقوله : " ما من الأنبياء ... الخ " دلالة على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه ، ولا يضره من أصر على المعاندة ، ولكنه قد يجحد فيعاند ، كما قال الله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾^(١) .

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام الفرق بين القرآن الكريم وسائر المعجزات بقوله : ﴿ وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ﴾ .

أي : أن معجزتي - التي تحدت بها - الوحي الذي أنزل عليّ وهو القرآن ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، ولا أنه لم يؤت من المعجزات الحسية كمن تقدمه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره ، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به - لم يعطها بعينها غيره - تحدى بها قومه^(٢) .

(وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه ، فقد كان السحر فاشياً عند فرعون ، فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة ، لكنها تلقف ما صنعوا ، ولم يقع ذلك بعينه لغيره ، وكذلك إحياء عيسى الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، لكون الأضباء والحكماء ، كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور ، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه ، ولهذا لما كان العرب - الذين بعث فيهم النبي ﷺ - في الغاية من البلاغة ، جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فلم يقدرُوا على ذلك^(٣) . غير أن معجزة القرآن الكريم تتميز عن سائر المعجزات ، بأن القرآن حجة مستمرة دائمة ، قائمة في زمانه وبعد مماته ، فإن البراهين التي كانت للأنبيا انقضت بانقراض من شاهدها ، ولم يبق منها إلا الخبر عنها ، أما القرآن فما تزال حجته قائمة كأنما يسمعها السامع من في رسول الله ﷺ ، ولا استمرار هذه الحجة ، قال عليه الصلاة والسلام : (فأرجو أن أكون أكثركم تابعا يوم القيامة)^(٤) .

ولذلك كان من الضروري أن تكون هناك وسيلة تدل أهل كل جيل على صدق هذه الرسالة ، وتعتبر معجزة لكل من نظر فيه ، وتكون باقية بقاءه . من أجل هذا وجدت وجوه كثيرة من الإعجاز ، إذا فات أهل العصر بعضها ، لسبب من الأسباب ، فلن يفوتهم بعضها الآخر .

(١) فتح الباري : ابن حجر : ٦/٩ والاية من سورة النمل : ١٤ .

(٢) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم - عبد الوهاب الديلمي ص ٤٥٣ .

(٣) فتح الباري : الحافظ ابن حجر : ٦/٩ - ٧ .

(٤) البداية والنهاية : للحافظ ابن كثير ٩٦٧/٦ مع تصرف . والحديث سبق تخريجه .

وهذه الوجوه لا يمكن التحكم بحصرها ، لأنها خاضعة لدقة النظر في كتاب الله ، واختلاف الأشخاص ، والأحوال ، والعلوم ، والمكتشفات ، فربما اكتشف أهل الأجيال القادمة ، بما يتوصلون إليه من العلوم والمكتشفات ، ربما وضعوا أيديهم على وجوه جديدة من الإعجاز لم يستطع أهل جيلنا ولا أهل الأجيال السابقة معرفتها ، أو وضع أيديهم عليها .
وهذا في رأي نوع من أعظم أنواع الإعجاز في القرآن الكريم ، الذي لا تغنى غرائبه ، ولا تنتهي عجائبه ، كما سأشير إليه بعد قليل إن شاء الله .

فهذا القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ التي آمن عليها الناس في الصدر الأول ، وقد تكفل الله بحفظها إلى يوم القيامة : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ حتى تراها الأجيال التي جاءت بعد الجيل الأول إلى يوم القيامة ، وترى فيها ما يدل على صدق الرسول والرسالة ، ومن ثم يؤمن عليها فهي معجزة خالدة خلود الزمان ، يجد فيها أهل كل جيل من الإعجاز ما يدل على صدق الرسول والرسالة، ليؤمنوا بالله عن بينة حية ماثلة بين أيديهم ، لا عن أمر نظري تاريخي قابل لكثير من أنواع الاحتمالات.

وهذا هو السر في دخول الآلاف المؤلفة من الناس في الإسلام على مر التاريخ الإسلامي الطويل ، وفي أيامنا المعاصرة ، من العامة والعلماء ومن جميع الأمم والنحل والمبادئ .
فإنه ما من عالم منصف ينظر في القرآن نظرة تأمل وإنصاف إلا ويجد فيه من الآيات الناطقة ما يدل على أنه من عند الله ، مما يفرض عليه أن يحني رأسه مهما كان شائخاً ، وأن يعلن استسلامه مهما كان معانداً جباراً ، وأن يدخل في دين الله عن رضى وقناعة .
إنه الإعجاز الحي الناطق ، لكل زمان ومكان ، والذي لا يموت ولا يبلى ، ولا تزيد الأيام إلا شدة وقوة ، وظهوراً ووضوحاً .

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم :

إن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم - سوى الإعجاز اللغوي - كثيرة ومتعددة ، لا يستطيع الإنسان حصرها في جانب أو عدد معين بحيث لا يمكن الخروج عنه ، وذلك لأن الواقع علمنا أن هذا غير ممكن ، لما نجده كل يوم من الوجوه الجديدة في الإعجاز ، مما كان خافياً على أهل العصر السابق ، ومما عرفنا اليوم بتقدم العلوم ، وتطور الحضارات .
وكما ذكرت قبل قليل هذا نوع من أهم أنواع الإعجاز في القرآن ، إذ أن من أعظم ما يلفت النظر عند الإنسان المنصف ما يجده من الآيات المعجزات التي تتماشى مع أعظم ما وصل إليه الإنسان من تطور وحضارة .

إلا أنه رغم هذا يمكننا أن نحصر أهم وجوه الإعجاز التي تكلم عنها العلماء قديماً وحديثاً بما

يلي :

أولاً : وجوه الإعجاز التي لا تخفى على أحد في أي عصر من العصور أو أي مكان من الأمكنة ، وإن كان الناس يتفاوتون في مدى إدراكها بسبب تفاوت معارفهم وحضاراتهم وتلخص في ثلاثة وجوه هي :

١- الإعجاز اللغوي والبياني : لقد أجمع العلماء على القول بالإعجاز البياني وأن القرآن معجز ببيانه وفصاحته وبلاغته وإسلوبه ، وأجمعوا على اعتبار هذا الوجه هو أبرز وأظهر وأشهر وجوه الإعجاز ، وأنه بهذا يقدم شهادة للمسألة الأساسية ، وهي إثبات أن القرآن كلام الله ^(١) ،

٢- الإعجاز الغيبي : ويتعلق ببعض الأقوال الغيبية التي أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم أنها ستقع هذه الأمور التي أخبر القرآن عنها على نحو ما أخبر ، مما يعرفه المؤمن والكافر ، والفاجر .

٣- الإعجاز العلمي : وهو ما يتعلق بالآيات المتعلقة بعلوم الكون والحياة وما فيها من إعجاز .

والإعجاز العلمي والغيبي يعتبران ذروة الإعجاز لكل أمة في كل زمان ومكان ، بعد الإعجاز اللغوي الذي تحدى به العرب ، وهما من أنواع الإعجاز التي لا تخفى على أحد .
ثانياً : وجوه أخرى من الإعجاز ، أشار إليها العلماء قديماً وحديثاً تتفاوت في ظهورها وخفائها ، ويتداخل بعضها في بعض وربما كان وجه الإعجاز في بعضها غير ظاهر منها :

١- التناسب في جميع ما تضمنه القرآن ظاهراً وباطناً بحيث خلا عن التعارض والتناقض ، وهذا من وجوه الإعجاز العظيمة في القرآن .

٢- قوة تأثيره في النفوس ، بحيث جعلت كل من يسمعه يتأثر به ، على ما ذكرنا من أحوال المشركين حينما كانوا يسمعون القرآن الكريم ^(٢) .

^(١) من العلماء الذين على هذا الرأي ، رائد الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، ومن المعاصرين : الأساتذة : محمود شاكر والدكتور عدنان زرزور والدكتور محمد لطفي الصباغ . إنظر في ذلك : إعجاز القرآن - الرافي ص ١٣٩ ، البيان في إعجاز القرآن د. صلاح الخالدي ص ٧ المعجزة القرآنية د. محمد حسن هيتو ص ٦٨ ، ٦٩ ، الإعجاز القرآني عبدالغني بركة ص ١٧ ، وإعجاز القرآن للبيقلاني ومعجزة القرآن للشعراوي وغيرها من كتب علوم القرآن .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن - الزرقاني ج ٢ ، ص ٣٠١

- ٣- أنه توجد فيه روحانية جديدة تدب في جسد المؤمن فتحرّكه تحريك الروح للأجساد ،
وتجعل منه إنساناً جديداً ، بعقل جديد ، وفهم جديد ، وطاقه جديدة (١) .
- ٤- عدم ملال السمع له ، مهما تكرّر عليه ، أو تردد أمامه (٢) .
- ٥- هدايته للنفوس ، وإيجاده للديانة الجديدة بقهر الديانة القديمة (٣) .
- ٦- تضمنه علوم الحلال والحرام وسائر الأحكام " الإعجاز التشريعي " .
- ٧- احتواؤه على الحكم البالغة .

وغيرها كثير من وجوه الإعجاز يمكن للقارئ أن يطلع عليها في مضانها في كتب الإعجاز
القرآني وعلوم القرآن .

فإعجاز القرآن حقيقة قاطعة ، وبدئية مقررة ، أقر بها المسلمون والكافرون ، المسلمون
بتدبرهم للقرآن ، وتذوقهم له ، وإيمانهم به ، والكافرون بإقرارهم بعجزهم عن معارضته ،
وإعترافهم بإعجازه لهم .

ومن هنا تعددت وجوه إعجازه وكان في تعددها ما يتناسب مع طبيعة الرسالة الإسلامية ،
باعتبارها الرسالة الخاتمة لرسالات السماء ، والعامّة للبشر جميعاً ، ليبقى إعجاز القرآن متجدداً على
تعاقب العصور ، ولتبقى الرسالة الإسلامية محروسة بدليل صدقها حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

(١) دائرة المعارف - محمد فريد وجدي ٦٧٧/٧

(٢) محاسن التأويل : ٧٩-٧٧/٢

(٣) محاسن التأويل : ٧٩-٧٧/٢

المبحث الثالث .. إثبات البعث

ويشتمل على ما يلي :

تمهيد : ومطلبان

المطلب الأول : تعريف البعث وأهميته .

المطلب الثاني : الدعوة إلى إثبات البعث بالمنهج الحسي .

المبحث الثالث : إثبات البعث .

التمهيد :

من مقتضيات الإيمان بالله تعالى (الإيمان بالغيب) ، والدين يوجب الإيمان بأن حياة المادة معها حياة روحية وأن هناك عوالم من الأرواح يجب الإيمان بها ، فيجب الإيمان بأن هناك ملائكة وهي أرواح طاهرة مطهرة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأن هناك عالماً من الجن فيهم الأخيار وفيهم الأشرار وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطاباً ﴾^(١)

والإيمان بالبعث والحياة الآخرة قرين بالإيمان بالغيب ، لأن الغيب ليس أمراً مشهوداً بين أيدينا بل هو والحياة الآخرة أمران مغيبان ، والذين يؤمنون بالمادة ولا يدركون سواها ينكرون بعث الأموات للحياة مرة أخرى وينكرون أن تكون هناك حياة أخرى غير الحياة التي يعيشونها وقالوا كما حكى القرآن عنهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾^(٢) ، ولكن الله تعالى يقرر الحق الذي لا يصح أن يرتاب فيه مؤمن وهو أن الدار الآخرة هي الباقية وهي الحياة الحقيقية فيقول سبحانه ﴿ وأن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾^(٣) ، بل إنه في يوم القيامة يشعر الناس بأن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة حتى وكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف كما قال تعالى ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾^(٤) ، وكما قال أيضاً في شأن الجرمين ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾^(٥) ، وإن هذه الدار الآخرة هي موطن الجزاء والثواب والعقاب .

ولذلك جعل القرآن الكريم الإيمان بالغيب أول أركان الإيمان فقد قال الله تعالى في أوصاف المؤمنين : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾^(٦)

١ (الجن : آية (١٥،١٤،١١))

٢ (المؤمنون : آية (٣٧))

٣ (سورة العنكبوت : آية (٦٤))

٤ (سورة يونس : آية (٤٥))

٥ (سورة الروم : آية (٥٥))

٦ (سورة البقرة : آية (٣-٥))

وترى أول وصف للمؤمنين هو الإيمان بالغيب فلا تستولى عليهم مادة الحياة ، ولا يسيطر عليهم سلطانها ، فإن الفرق ما بين الإيمان والزندقة الإيمان بالغيب ، فمن حسب أنه لا وجود إلا للمادة المشاهدة المحسة ، فهو ليس بمؤمن وليس عنده استعداد للإيمان إلا من رحم ربك .

وقد ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين بقوله تعالى ﴿ وبالأخرة هم يوقنون ﴾ فأوجب الإيمان بالأخرة وأكدته بتقديم الجار والمجرور ، أي أن الآخرة وحدها هي الجديرة بالإيمان ، وأنه لا إيمان إلا باليقين الذي لا مجال للريب فيه ، وإن رقي الإنسان في أن تكون حياته غير مقصورة على الدنيا لأن التكليف شرف ، وهو يقتضي تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات إلا أن يكون ثمة يوم يجري فيه الحساب والثواب والعقاب .

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يؤمنون بقاء الله تعالى بأنهم الخاسرون ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون * وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون ﴾ (١) .

نعم خسر الذين لا يؤمنون بالآخرة ، خسروا إنسانيتهم ، فقد حسبوها عبثاً ليس لها غاية ، وخسروا العزاء إذا شقوا فيها ، فإن الإيمان بالآخرة عزاء روعي لمن يؤمن بها فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة ، وإنهم لم يترقبوا اللقاء ، فلم يستعدوا بالعمل الصالح .

وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يكون مخلوقاً سدى كاهمل إن لم يكن هناك يوم آخر ، حيث قال ﴿ أيجسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ (٢) ولذلك عنى القرآن الكريم بإثبات حقيقة البعث ، وبيان الحال في الحياة الآخرة وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يدركون إلا الحياة الدنيا ، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين .

وبين القرآن أن عقيدة البعث لب الإيمان ، وغاية من غايات الرسائل الإلهية ، ولذلك نجد القرآن يحتفي ببيان حقيقة البعث ، وتنبيه العقول إليه ، بل ما من موضع في القرآن الكريم ، إلا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه ، بقياس قدرة الله تعالى على الإعادة على قدرته على الابتداء ، وأن

١ (سورة الأنعام : آية (٣١-٣٢))

٢ (سورة القيامة : آية (٣٦-٤٠))

البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثاً لا جدوى فيها كما قال تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ (١)

ولقد شغلت قضية البعث عقول الناس منذ أمد بعيد ، وخاض فيها الفلاسفة وأهل الأهواء والملل المختلفة كل على ما ارتآه .

كما كانت مسألة البعث والنشور (وهي من كبرى موضوعات الدعوة) من جملة ما كذبت به رسل الله ، عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون * لقد وعدنا نحن وءاباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٢) ، وفي سورة النمل : ﴿ وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً وءاباؤنا أءنا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وءاباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٣) ، ولقد ذكرها الله في القرآن الكريم في ستمائة وست وسبعين آية (٦٧٦) تقريباً .

والمأمل في قصص الأنبياء يجد أنهم ، عليهم الصلاة والسلام ، سلكوا في إثبات البعث أقرب البراهين إلى قلوب الناس وأوضحها في عقولهم وفطرها مما هو مشهود محسوس في صفحة الكون ، من تعاقب الليل والنهار وآثارهما ، وجريان الشمس والقمر ، وإحياء الأرض واخضرارها بعد الموت والهمود إثر نزول الغيث وهو منهج - فضلاً عن وضوحه وتقبل العقول والفطر السليمة له - يفحم المنكرين ، ويقرب صورة البعث للمتشككين ويثبت المؤمنين ويزيدهم إلى إيمانهم إيماناً .

وللقرآن الكريم في تقرير البعث والنشور ودعوة المنكرين له ودحض شبههم والرد عليهم منهج متفرد بثت آياته البينات في ثنايا السور المكية على نحو معجز ، لو جمعت وصنفت واستخرج منها مناهج الدعوة وأساليبها المقررة لهذا الأساس الإيماني المتين وهو (البعث) استوعب رسالة ضخمة .

وسوف نحاول هنا إلقاء الضوء على هذا المنهج آمليين من الحق تبارك وتعالى أن يهدينا إلى

سبيل الرشاد .

(١) سورة المؤمنون : آية (١١٥)

(٢) سورة المؤمنون : آية (٨١-٨٣)

(٣) سورة النمل : آية (٦٧-٦٨)

المطلب الأول : تعريف البعث وأهميته :

أولاً : تعريف البعث لغة واصطلاحاً .

البعث في اللغة :

جاء في لسان العرب ^(١) : البعث في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإرسال ، كقوله تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ ^(٢) معناها أرسلنا ، والبعث : إثارة بارك أو قاعد ، تقول : بعثتُ البعير فانبعث أي أثرته فثار ، والبعث أيضاً : الإحياء من الله للموتى ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ ^(٣) أي أحييناكم ، وبعث الموتى : نشرهم ليوم البعث ، وبعث الله الخلق يبعثهم بعثاً : نشرهم والجمع أبعث ، وفي التنزيل : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ^(٤) .

البعث في الاصطلاح :

المراد بالبعث اصطلاحاً المعاد الجسماني ، وإحياء العباد في يوم المعاد : ومعناه أيضاً : إعادة الإنسان روحاً وجسداً كما كان في الدنيا ثم يخرج الله الناس من الأحداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حيثئذ : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ . ويقول المؤمنون : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ ^(٥) ، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن محمداً ﷺ هو أول من يخرج من قبره ، فقد قال : ﴿ يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فما أدري أكان فيمن صعق ﴾ ^(٦) . ويستلزم من تعريفنا للبعث تعريف النشور ، فالنشور هو مرادف للبعث في المعنى ، يقال : نشر الميت نشوراً إذا عاش بعد الموت ، وأنشره الله أحياء ، فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ، ويقوم الناس لرب العالمين ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ^(٧) .

١ (لسان العرب - ابن منظور ج٢ ص ١١٤٧ - دار صادر

٢ (سورة الأعراف : آية (١٠٣)

٣ (سورة البقرة : آية (٥٦)

٤ (سورة يس : آية (٥٢)

٥ (سورة يس : آية (٥٢) ، وانظر : اليوم الآخرة - القيامة الكبرى - د. عمر الأشقر ص ٥١ مكتبة الفلاح - الكويت - الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٦م.

٦ (صحيح البخاري من فتح الباري ج ٣١٢/١١ والبحاري - كتاب الرقائق - باب نفخ الصور ١١/٣٧٤، ٣٧٥ رقم (٦٥١٨، ٦٥١٧) .

٧ (سورة الزمر : آية (٦٨) ، وانظر اليوم الآخرة - القيامة الكبرى - ص ٥١

ثانياً : أهمية البعث :

والإيمان بالبعث له أهمية بالغة من وجوه :

أولها : أن الله تعالى قد أتقن صنع الكون ، وأوجد فيه هذا الإنسان المخلوق العجيب الذي ميزه بالعقل ، وكرمه في خلقه له في أحسن الهيئات ، ومكّنه من الاستمتاع بما أودع في هذه الأرض من كنوز وخيرات ، ووهبه العقل والسمع والبصر والفؤاد وسائر الخواس التي يفقه ويتنفع بها ، ويميز بها بين الخير والشر ، وفضله على كثير من مخلوقاته ، يقول الله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (١)

وإذا كان الأمر كذلك فهل تكون نهاية هذا الإنسان الذي ركب الله عز وجل فيه من العلم والأمل والفرائض ، ما لا تتسع لها هذه الحياة القصيرة الفانية ؟ وهل يمكن أن يستوي الإنسان - وهذا شأنه - مع سائر الحيوانات ، فينتهي كما تنتهي سائر الحيوانات دون أن يكون له رجعة أخرى إلى الحياة؟.

وإذا كان هذا الكون بصنعه المتقن سوف ينتهي ، فهل يليق بحكمة الحكيم أن ينقض ما بنى إلا أن يكون ذلك لحكمة أتم من حكمة النقض (٢) ، وهل الأتم إلا تلك الحياة التي أحرر عنها ربنا سبحانه في كتابه وعلى لسان رسله عليهم الصلاة والسلام .

ثانيها : تختلف أحوال الناس في هذه الحياة اختلاف أحوال الناس من حيث الصلاح ، والفساد ، والإيمان ، والكفر ، والهدى ، والضلال ، ويقع من بعضهم من ظلم وبغي وجور وعدوان ، وتسلبت القوي على الضعيف والغني على الفقير ، ولا نرى اطراد الجزاء حاصلاً في هذه الحياة لكل إنسان على إحسانه أو إساءته ، لذلك كان من أعظم مظاهر العدل والحكمة ، أن يبعث الله الناس حياة أخرى يجمعهم فيها ويحاسبهم ، ويجازيهم الجزاء الأوفى .

والله تعالى يريدنا أن نترك الناس بلا بعث ولا نشور هو ضرب من السفه الذي يتنزه الله تعالى عنه ، فكان من الواجب بمقتضى حكمة الله وعدله أن ينشر أجسام الناس من قبورهم ، ويعيد إليهم حياتهم ، ليحصدوا في تلك الحياة ما زرعوا في الدنيا ، ويجنوا ثمار ما قدموا (٣) ﴿ يحسب الإنسان ﴾

(١) سورة الإسراء : آية (٧٠)

(٢) مأخوذ من مقالة لبعض الحكماء ، كما يرويها ناصح الدين عبدالرحمن بن نجم ، المعروف بابن الخنيلي في كتابه : استخراج الجدل من القرآن : ص ٩٨

(٣) مقتبس من تفسير المنار : ٢١١/١١-٢١٣ ، ودعوة الرسل إلى الله - محمد العديوي ص ٣٨٣

أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى معنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴿ (١) .

ثالثها : قضية الإيمان بالبعث هي قضية المصير لهذا الإنسان لذا كان لزاماً عليه أن يهتم بها أشد الاهتمام وألا يحكم فيها برأيه وظنونه بل لا بد أن يكون الحكم فيها مبنياً على اليقين الذي لا يخالطه شك إذ أن التورط بالحكم فيها بغير علم والمجازفة في أمرها بغير يقين يعرض الإنسان للدمار المحقق والخسارة الأبدية والضلال البعيد ، وقد عاب الله عز وجل على المنكرين للبعث إنكارهم المبني على الظن فقال : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (٢) ، لقد كانوا ينظرون إلى الحياة تلك النظرة السطحية التي لا تتعدى ظواهر الأشياء فما هي في نظرهم إلا هذه المرحلة التي يقطعونها في الدنيا جيل يموت وجيل يحيى ، والأيام تمضي والدهر يطوي وظنهم هذا ظن فاسد لا يقوم على تدبر ولا يستند على علم ولا يدل على إدراك وتعقل .

رابعها : ومن أهمية الإيمان بالبعث أيضاً ، أنه يقوم عليه صلاح حياة الناس في الدنيا ، لأن إيمان الناس بأنهم سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم ، من أعظم الدوافع على القيام بأعمال الخير والبر ونشر الفضيلة ، والرغبة في الإحسان والإيثار لما يجده الإنسان من اليقين بأنه سيلاقي ثواب ما يقدمه عند الله ، كما يحمله ذلك أيضاً على الصبر واحتمال الأذى والشدائد في ذات الله تعالى ، كما أن الإيمان بالبعث والجزاء أيضاً مما يحمل على الكف عن اقتراب الشرور والآثام والكف عن البغي والظلم والفساد ، لما يعلمه الإنسان من أنه سوف يلقي ربه سبحانه ، ويجده قد أحصى عليه كل صغيرة وكبيرة من أعماله ، وأنه لن يفلت من قبضته ، وأن مرده إليه سبحانه .

(١) سورة القيامة : آية (٣٦-٤٠)

(٢) سورة الجاثية : آية (١٤)

المطلب الثاني : الدعوة إلى إثبات البعث بالمنهج الحسي .

إن من يؤمن بالقرآن وأنه وحي من الله العليم الحكيم إلى رسوله المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى ، يؤمن بلا ريب أن لنا بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى خالدة ، حياة أخرى يجزى كل إنسان فيها عما عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

تلك أمور بديهية لا تحتاج إلى بيان أو دليل بعد كتاب الله ، فهو ملئ بالآيات الحسية الدالة على البعث والحساب ، ونذكر هنا بعضاً منها :

ففي سورة يس يقول : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه * قال : من يحيى العظام وهي رميم ! قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (١) .

وفي سورة مريم يقول : ﴿ ويقول الإنسان إذا ما مات لسوف أخرج حياً * أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ (٢) .

ومن أدلة البعث قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئُ النشأةَ الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها مخيبي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٤) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ (٥) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في

السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٦) .

ومنها في سورة الأحقاف : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي

بخلقهن بقادرٍ على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً * قل كونوا

حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة

(١) سورة يس : آية (٧٨-٧٩)

(٢) سورة مريم : آية (٦٦-٦٧)

(٣) سورة العنكبوت : آية (٢٠)

(٤) سورة فصلت : آية (٣٩)

(٥) سورة الإسراء : آية (٥١)

(٦) سورة الروم : آية (٢٧)

(٧) سورة الأحقاف : آية (٣٣)

فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً * يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴿٢﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون * لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين * فانظر إلى ءاثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لحي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿٤﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴿٥﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب * بل عجبتم ويسخرون * وإذا ذكروا لا يذكرون * وإذا رأوا آية يستسخرون * وقالوا إن هذا إلا

١ (سورة الإسراء : آية (٤٩-٥٢))

٢ (سورة الحج : آية (٤-٧))

٣ (سورة المؤمنون : آية (٨١-٩٠))

٤ (سورة الروم : آية (٤٨-٥٠))

٥ (سورة سبأ : آية (٧-٩))

سحر مبین * أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعثون * أو ءابأؤنا الأولون * قل نعم وأنتم
ءاءرون * فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا
شئ عجب * أءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا
كتابا حفیظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مریج * أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف
بنیناها وزیناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقینا فیها رواسی وأنبتنا فیها من كل زوج
بهیج * تبصرة وذكری لكل عبد منیب * ونزلنا من السماء ماءً مبارکاً فأنبتنا به جنات وحب
الحصید * والنخل باسقات لها طلع نضید * رزقاً للعباد وأحیینا به بلدة میتاً كذلك الخروج ﴿٢﴾
فهذه الآیات وغيرها كثير في كتاب الله الذي لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه ،
دلیل قاطع علی أن حیاتنا لن تنتهی بالموت ، بل أن لنا حیاة أخرى فیها الحساب ، فیها الثواب
والعقاب .

ولئن كان البعث حقیقة من الحقائق التي جاء بها الدین ، فإنها أيضاً من الحقائق التي یأمر بها
العقل السلیم والمنطق الصحیح .

وكلما كان فهمنا وإحاطتنا بجوانب هذه الآیات الكونیة أشمل وأعمق وأوسع - وهذا لا
یکون إلا بالبحث العلمی التجریبی الجاد - كلما كانت الحجة علی التوحید والبعث - فی نفوسنا -
أعمق وأمكن

فالقرآن الکریم ، یتخذ من النظر فی الآیات منهجاً وطریقاً لعرض قضایا الإیمان ، والتذلیل
علیها ، والدعوة إلیها .

والملاحظ أن هذه الآیات الكونیة المبنیة فی القرآن كله ، لا تجئ إلا فی مجال عرض مسألة
من مسائل الإیمان أو التذلیل علیها ، فهي لا تجئ مستقلة مفردة برأسها .

وإن الدارس لقضية التوحید فی القرآن أو لقضية الوحي والنبوة والرسالة ، أو لقضية البعث
یدرك هذا بوضوح .

وسنشير إلى عرض قضية البعث - وهي أصل من أصول الإیمان - واستدلال القرآن علی
إمكانها .. ودعوته إلى الیقین والاعتقاد بها ، ولعل هذا یعطينا المثال أو النموذج للصلة والترابط بین
النظر فی الكون ، أي بین البحث العلمی فی الكون والإیمان والعقيدة .

(١) سورة الصافات : آية (١١-١٩)

(٢) سورة ق : آية (١-١١)

ولقد شغل عرض قضية البعث والاستدلال عليها ، والدعوة إلى الإيمان بها حيزاً كبيراً في الكتاب العزيز وقلّب الله فيها الأمر تقلبياً ، حتى يتفكر الإنسان وينظر ويتأمل^(١) .

١ (انظر مجلة هذه سبيلي - العدد الخامس سنة ١٤٠٢ هـ موضوع (الإسلام والعلم التجريبي) د. محمد عبداً لله الشرقاوي ص ١٥٤

منهج القرآن في عرض قضية البعث من خلال الآيات الحسية :

يتمثل في إستحاشة الإنسان وحثه على النظر والتفكر والتدبر والتأمل في الآفاق والأنفس وما بها من عظمة وسعة تعدد ، وما بها من حكمة ودقة وتوازن وانسجام ، حتى يمتلئ حسي الإنسان وعقله وقلبه بأن الذي خلق هذه الآيات قادر على بعث الأموات وإحيائهم !!

ومن الجدير ذكره : أن القرآن الكريم ، لم يحمل الناس على التصديق والإعتقاد بقضايا الإيمان الكبرى : كالوحدانية والرسالة والبعث عن طريق سوق آيات أو معجزات تخرق النظام والسنن المعتادة .

إن القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكررة قضايا كونية كبرى .. يكشف فيها عن التواميس الإلهية في الوجود .. وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود .. كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير .. وحياتاً للأرواح والقلوب .. ويقظة في المشاعر والحواس .. يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباحاً مساءً وهم غافلون عنها .. ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها ! ..

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة .. كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم .. ولا عن مألوف حياتهم .. ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم .. إنه لا يُبعد لهم في فلسفات معقدة .. أو مشكلات عقلية عويصة .. أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد .. لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة .. وتصوراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة .. ويتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني .. المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل .. والزرع .. والماء .. والنار .. والموت .. أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربهم ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة ، ومسقط ماء ، وموقد نار ، ولحظة وفاة ؟ .

وعلى هذا المنهج يسير القرآن الكريم .. وهو يعرض آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم .. وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم .. وفي الماء الذي يشربون .. وفي النار التي يوقدون - وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم - كذلك يصور لهم لحظة النهاية .. نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر .. اللحظة التي يواجهها كل أحد .. والتي تنتهي عندها كل حيلة .. والتي تقف الأحياء وجهاً لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقمة فاصلة .. لا محاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة وتبطل جميع التعلات^(١) ...

(١) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب ٦م/٣٤٦٦ من سورة الواقعة .

وقبل أن نبحت بالتفصيل في منهج القرآن في عرض قضية البعث من خلال الآيات الحسية ،
نتطرق إلى كيفية معالجة القرآن لهذه القضية .

أساليب القرآن في معالجة قضية البعث :

أما كيف عالج القرآن هذه القضية فقد استطعت أن أهتدي بفضل الله إلى معرفة ثلاثة
أساليب اتبعها القرآن في هذا الأمر ولا أقول بأن هذه الأساليب الثلاثة هي الوحيدة ولكنها أساليب
رئيسة يلمسها كل من تدبر هذا القرآن وعاش في ظلاله .

الأسلوب الأول :

إيراد وتعجب الكفار من إمكان وقوع البعث وإستبعادهم إياه والرد عليهم بتأكيد وقوعه
بالإجمال تارة وبالتفصيل أخرى .

ففي سورة الرعد يقول عز وجل ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنا تراباً أءنا لفي
خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون ﴾^(١) ، وفي سورة الصافات يقول الله عنهم ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أءذا
متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون * أو آباءؤنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون ﴾^(٢)

وقد أجاب الله على تعجبهم وإستغرابهم بالتأكيد فأمر نبيه ﷺ أن يقسم على أن البعث
كائن لا محالة فقال ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب ﴾^(٣)
وقال عز وجل ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾^(٤) وقال تبارك
وتعالى ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبون بما عملتم وذلك على
الله يسير ﴾^(٥) . ثم ذم الله المكذبين بالبعث وبيّن ضعف عقولهم وفساد فطرتهم وضلال طريقهم
فقال ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾^(٦) ، وأجاب بالتفصيل والتحدي العظيم
للمكذبين الذين قالوا ﴿ أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً * قل كونوا حجارة أو
حديداً * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة

(١) سورة الرعد : آية (٥)

(٢) سورة الصافات : آية (١٥-١٦-١٧-١٨)

(٣) سورة سبأ : آية (٣)

(٤) سورة يونس : آية (٥٣)

(٥) سورة التغاين : آية (٧)

(٦) سورة الشورى : آية (١٨)

فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً * يوم يدعوكم فتستجيون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴿١﴾ .

الإسلوب الثاني :

أسلوب الإقناع والحجة عن طريق ضرب الأمثلة ومخاطبة العقول ولفت الأنظار إلى أن أمر البعث ممكن الوقوع وأن حدوثه غير مستحيل من الناحية العقلية بالتذكير بالنشأة الأولى أو الاستدلال بشواهد حسية بطريق القياس ، ففي سورة مريم يقول عز وجل ﴿ ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾^(١) ، إن هذا الإنكار قد صدر عن كثير من الناس في العصور القديمة والحديثة فكأنما هي شبهة واحدة وإعتراض متكرر منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى فإن كان الإنسان لا يستبعد أمر الخلق الذي يحدث أمام ناظره كل لحظة وحين فكيف يستبعد أمر البعث الذي هو أقرب إلى الإمكان وفي سورة يس يقول عز وجل ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾^(٢) ، إن أصل الإنسان المجادل لربه الذي يطلب الدليل والبرهان على بعثه هو تلك النطفة المذرة وهو تلك النقطة من الماء المهيّن ولكن قدرة الله هي التي جعلت من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين ، أفيليق بالإنسان أن يستبعد على هذه القدرة العظيمة أن تعيد الإنسان بعد البلى والدثور ، لقد أجاب الله على جدلهم العقيم ومناهم التافه بكل بساطة ومنطق الواقع المشاهد فقال ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾^(٣) ، وفي سورة الحج يقول عز وجل ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾^(٤) ، يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية: إن البعث إعادة حياة كانت فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شئ أيسر ولا شئ أصعب فالبدء كالإعادة أثر التوجه والإرادة

(١) سورة الاسراء : آية (٤٩-٥٠-٥١-٥٢)

(٢) سورة مريم : آية (٦٦-٦٧)

(٣) سورة يس : آية (٧٧-٧٨-٧٩)

(٤) سورة الحج : آية (٥-٦-٧)

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) ، ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود والمعهود لهم وهو يقع كل لحظة وعمر بهم في كل برهة ، وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة والقلب المفتوح والخس المدرك ، ولكنهم يبرون به أو يمر بهم دون وعي ولا إنتباه ، فما هؤلاء الناس من أين جاعوا وكيف كانوا وفي أي الأطوار مروا إلى أن قال رحمه الله : إن إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين في مراحل تكوينه وتطور الطفل في مراحل حياته ، وإنبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود ذلك متعلق بأن الله هو الحق الذي لا تختل سننه ولا تتخلف ، وإن إتجاه الحياة هذا الإتجاه في هذه الأطوار ليبدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها ، فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق وبين هذا الاطراد والنبات والإتجاه الذي لا يجيد وأنه يحي الموتى ، فإحياء الموتى هو إعادة الحياة والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الثانية وأن الله يبعث من في القبور ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير^(٢) .

وفي سورة عبس يقول عز وجل ﴿ قتل الإنسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره ﴾^(٣) ، إن أصل الإنسان زهيد لا قيمة له فهو مخلوق من نطفة لا قوام لها ولكن الله هو الذي قدره وأحكمه وصوره في أحسن تقويم وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع إلى المقام الرفيع الذي أصبح به سيد الكائنات وقمة المخلوقات ، وقد يسر الله له سبيل الحياة فإذا انتهت فترة وجوده عليها إنتقل إلى بطن الأرض ليوارى فيها إلى أن يأتي الموعد المحدد الذي لا بد منه وهو البعث والنشور فليس متزوكاً سدى ولا ذاهباً بلا حساب ولا جزاء .

وفي سورة الطارق يقول عز وجل ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر ﴾^(٤) في هذه الآيات أمر من الله عز وجل إلى الإنسان أن ينظر ويتأمل ويفكر كيف خلق ومم خلق فإن ذلك مدعاة للإيمان بقدره الله العظيمة التي حولت الماء الدافق إلى ذلك البشر السوي لقد خلق من الماء الدافق الذي يخرج من الصلب وهو عظام ظهر الرجل الفقارية ومن الترائب وهي عظام صدر المرأة العلوية ولقد كان هذا كما يقول سيد قطب رحمه الله^(٥) ، سرّاً مكنوناً حتى كان نصف القرن الأخير

(١) سورة يس : آية (٨٢)

(٢) في ظلال القرآن م ٤/٢٤١١

(٣) سورة عبس آية (١٧-١٨-١٩)

(٤) سورة الطارق : آية (٥-٦-٧-٨-٩)

(٥) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٨٧٩

حيث إطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان ثم يقول رحمه الله والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير بين الماء الدافق الذي يخرج من الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والنفسي هذه المسافة الهائلة التي يصير بها الماء الدافق إلى إنسان ناطق توحى بأن هناك قدرة عظيمة خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشئ المائع الذي لا قوام له ، ولا إرادة ولا قدرة في طريق الرحلة العجيبة الهائلة حتى تنتهي به إلى هذه النهاية المائلة وتوحى بأن هناك حافظاً لهذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ومن الإرادة والقدرة ، في رحلتها الطويلة العجيبة وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته إلى أن قال رحمه الله : إن الله الذي أنشأه ورعاه إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت وإلى التجدد بعد البلى تشهد النشأة الأولى بذلك كما تشهد بتقديره وتدبيره ، فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزي جزاءها العادل .

الأسلوب الثالث :

اسلوب الحوار الأخروي بين أهل الإيمان وأهل الكفر أو ما يكون من تساؤل في الدار الآخرة ففي سورة الأعراف يقول عز وجل ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين إتخذوا دينهم هوأ ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾^(١) ، هذا الصوت وهذا النداء الممتلئ بالتعطف والترجي والإستجداء ينبعث من طباق النار يرجو أصحابه قطرات من ماء أو من رزق الله ، لقد كانوا يتمتعون بكل نعيم ، ويملكون كل ثمين فما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، ها هم اليوم فقراء يتمنون غرفة من الماء فلا يجدونها وليتهم يحرمونها وهم في منجى من العذاب ، ولكنهم يعوضون عنها بالضريع والزقوم والمهل والغسلين ويخاطبون بـ ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين الذين إتخذوا دينهم هوأ ولعباً ﴾^(٢) ، ولأنهم قد نسأ الله وكذبوا بلفائه فاليوم ينسأهم الله من رحمته ويقذفهم في النار ولا يبأى وما ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وفي سورة الصافات يقول عز وجل ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتسألون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أنك لمن المصدقين أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون * قال هل أئتم مطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تا الله إن كدت

(١) سورة الأعراف : آية (٥٠-٥١)

(٢) سورة الأعراف : آية (٥٠-٥١)

لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين *
إن هذا هو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون ﴿١﴾ .

هذا مشهد يصور ما يحدث بين عباد الله من سمر هادئ ، وحديث ممتع ، وهم يتذاكرون الماضي الذي ملفوه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة ، والجهاد ، والحاضر الذي ملأه الله بالنعيم المقيم والحبور والسرور فضلاً منه ورحمة وإذا بأحدهم يستعبد الذاكرة ويقص على إخوانه خير رفيقه وقرينه في الدنيا الذي كان يكذب باليوم الآخر ، ويستبعد وقوعه ويسفه حلم القائل به ، بل ويسائله في دهشة وإستنكار أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون ومحاسبون ، بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً ، وبينما هو في عرض قصته المثيرة وخيره الطريف يخطر في باله أن يتفقد قرينه ويرى منزله في النار فهو على يقين أنه قد صار إليها جزاء تكذبه بالبعث فيتطلع إليها ويدعوا إخوانه إلى النظر معه فيراه وهو يتقلب في أطباق الجحيم كالفحمة السوداء ، يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت النار تلفحه من كل جانب والحيات والعقارب تلدغه في كل عرق ، والزبانية تقمعه في كل عضو ، فيناديه يا هذا لقد كدت توردني موردك وتهلكني كما أهلكك نفسك بما ألقيت عليّ من شبهك الباطلة ووسوستك الشيطانية لكن الله قد أنعم عليّ فعصمني من الاستماع إلى هذيانك ، ثم يلتفت إلى إخوانه المؤمنين فيذكرهم بعظم النعمة التي من الله بها عليهم جزاء تصديقهم وإيمانهم وكيف أن الله كتب لهم البقاء والخلود في هذا النعيم المقيم ، إذا فليهنأوا بنعيم الله لهم ولمثل مصيرهم وسرورهم فليعمل العاملون .

وفي سورة المدثر يقول عز وجل ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين ﴾ (٢) ، يخبر الله هنا أن كل نفس معتقلة ومرهونة بعملها السئ الذي قدمته في الدنيا إلا أصحاب اليمين فقد بوأهم الله الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة جزاء أعمالهم الصالحة وإيمانهم الصادق فهم يتحادثون ويتساءلون في الجنة عن المجرمين الذين فرطوا في طاعة الله ، وضيعوا أعمارهم في معصية الله ، فخسروا أنفسهم ، وذلك هو الخسران المبين ، ثم يلتفتون إليهم ويسألونهم عن الأسباب التي أدت بهم إلى دخول النار ، ونزول تلك الطبقة وذلك الجزاء الملتهب (سقر) فيجيئون بقولهم ﴿ لم نك من المصلين ﴾ فقد قطعوا الصلة بينهم وبين الله ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ وقطعوا أيضاً الصلة بينهم وبين الناس ، فمنعوا الإحسان إلى المحتاجين ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي : لم يكن لهم إتجاه

(١) سورة الصافات : آية (٥٠-٦١)

(٢) سورة المدثر : آية (٣٨-٤٧)

معين ولا هدف مرسوم في هذه الحياة ، بل كانوا يعيشون في تيه وضلال وفي حيرة وضياح يميلون مع كل رياح ويطيرون مع كل ذي جناح ، ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ هذا التكذيب هو الذي جعلهم يقطعون الصلة بالله ، لأنهم يرون أن الصلاة والعبادة جهداً ضائعاً لا يعود عليهم بنفع مادي عاجل في الدنيا ، وجعلهم لا يحسنون إلى الفقراء ولا يرسمون لهم هدفاً في هذه الحياة ، فقد إختلت في أنظارهم جميع الموازين ، وإضربت في تقديرهم جميع القيم ، وضاق في حسهم ونظرهم مجال الحياة حين قصروها على هذا العمر المحدود ، فالخير عندهم هو ما وافق مصالحهم ، وحقق رغباتهم ، ولبي شهواتهم ، ولو على حساب آلام الآخرين ، فهم هناك يقولون بأننا قطعنا أعمارنا في الدنيا هكذا حتى جاءنا الموت ، ورأينا الأمر على حقيقته وذهب كل شك وريب وعلمنا علم اليقين بأننا قد خسرنا الصفقة وفوتنا على أنفسنا الفرصة (١) .

وبعد فهذه بعض الأمثلة اقتطعتها من القرآن الكريم للإستدلال بها على هذا المنهج الحسي الفذ الذي اتبعه كتاب الله عز وجل لتثبيت دعائم الإيمان ، اكتفيت بها ظناً بأنها عنيت عناية مباشرة بعلاج هذه القضية المهمة من قضايا الإيمان ، وإلا فالقرآن الكريم غني بالأدلة الوافية والبراهين القاطعة على البعث والجزاء وعرض ذلك في نماذج حية وضمنها شبه المنكرين للبعث ولم يتركها تمر دون مناقشة لها بالمنطق الصحيح وإبطال الشبه والملايسات بالبراهين العقلية التي تزيل فكرة الفناء الأبدي وتعيد للإنسانية طمأنينتها وتدفعها للعمل وتحبي فيها آمال التسابق في الدرجات العلا في حياة أفضل .

ولقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه منهجاً قوياً يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة.

(١) انظر سورة ق وقضية الإيمان بالبعث - الشيخ سعيد بن مسفر - ص ٢١ وما بعدها - دار حرش - ط الأولى سنة ١٩٩٠م .
خميس مشيط - السعودية .

المنهج الذي اتبعه القرآن في استدلاله على البعث :

أولاً : إحياء الله الموتى في الحياة الدنيا :

فمن أعظم البراهين التي تدل على البعث إحياء الله - عز وجل - بعض الموتى في الحياة الدنيا ، لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾^(١) .

ومن هذا النوع الأمثلة التالية :

١- قوم موسى حين قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأماتهم الله - تعالى - ثم أحياهم ، قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾^(٢) .

٢- قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو اسرائيل ، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ، ثم يضربوها ببعضها ، ثم فعلوا فأحياء الله ، فأخبر بمن قتله قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادراءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾^(٣) .

٣- قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ، قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾^(٤) .

٤- قصة الرجل الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله ، فأماته الله مائة سنة ثم أحياه ، قال تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير ﴾^(٥) .

١ (سورة لقمان : آية (٢٨))

٢ (سورة البقرة : آية (٥٥-٥٦))

٣ (سورة البقرة : آية (٧٢-٧٣))

٤ (سورة البقرة : آية (٢٤٣))

٥ (سورة البقرة : آية (٢٥٩))

٥- قصة إبراهيم عليه السلام حين سأل الله - تعالى - أن يريه كيف يحيي الموتى ؟ فأمره أن يذبح أربعة من الطير ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله ، ثم يناديهن فتجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض وتأتي إلى إبراهيم سعيًا^(١) ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَمَّنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّیَطْمِئِنَّ قَلْبِی قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّیْرِ فَصَرَّهُنَّ لِیْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَی كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ یَأْتِیَنَّكَ سَعِیًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَزِیزٌ حَكِیْمٌ ﴾^(٢) .

٦- ما أخبر الله به عيسى عليه السلام من أنه كان يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم بإذن الله تعالى : ﴿ وَأُحْيِی الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ ﴾^(٣) .

فهذه أدلة حسية واقعة ، وبرهان قطعي على القدرة الإلهية ، وأن الذي أماتهم ثم أحياهم قادر على بعثهم يوم القيامة ، فإنه لا يعجزه شيء سبحانه^(٤) .

ثانياً : الاستدلال ببدء خلق الإنسان من العدم :

الإستدلال ببدء خلق الإنسان وقد كان عدماً على إمكان الإعادة وأن من قدر على الخلق ابتداء ، فهو قادر على الإعادة من باب أولى يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ أُولَئِمُ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِی خَلْقَهُ قَالَ مِنْ مَّحْيِ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يَحْيِیْهَا الَّذِیْ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِیْمٌ ﴾^(٥) .

ففي قول الله سبحانه : ﴿ أُولَئِمُ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَّطْفَةٍ ﴾ ، لفت نظر الإنسان إلى التأمل في خلق نفسه التي لا تفارقه ولا تغيب عنه ، ليكثر من التأمل في عجيب صنع الله وخلقته ، لأن دليل النفس أكمل ، وإحاطته بها أسهل وأتم ، فإذا ما أهمل الإنسان النظر في نفسه ، وجهلها ولم يعلمها ، كان ذلك ما يدعو إلى الإنكار عليه ، والعجب من إهماله ، وهذا فيه إنكار على المشركين ومجادلتهم في البعث وكفرهم به ، والحال أن في أنفسهم دليلاً ناطقاً على قدرة الخالق المبدع سبحانه على البعث .

ففي التأمل إلى أصل خلق الإنسان وهي ﴿ النطفة ﴾ ما يبعث على الإيمان بالبعث ، لأن النطفة - وهي متشابهة الأجزاء - يخلق الله عز وجل منها بقدرته ، أعضاء متقاربة ، وأنواعها مختلفة من اللحم ، والعظم ، والعصب ، والشعر ، والظفر ، والجلد ... وغير ذلك ، وهذا من أعظم الأدلة

١ (انظر تفسير ابن كثير ٣١٥/١ والسعدي ٣٢١/١)

٢ (سورة البقرة : آية (٢٦٠))

٣ (سورة آل عمران : آية (٤٩))

٤ (انظر تفسير السعدي ٣٢١/١ ، ومناهج الجدل ص ٣٢٨ . وكتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم ص ٨٨-٨٩ . للإمام

ناصر الدين معروف بابن الحنبلي تحقيق زاهر الألمعي - مؤسسة الرسالة - ط الأولى سنة ١٩٨٠م .

٥ (سورة يس : آية (٧٧-٧٩))

على كمال قدرة الله سبحانه فكيف يستبعد المشركون البعث ، وهو عبارة عن إعادة الحياة إلى الأقسام ؟ والإعادة - في نظر الإنسان - أهون من البدء ، والكل عند الله سبحانه هين ، ولذلك بُدئت الآية بالاستفهام الدال على الإنكار والتعجب من حال المنكرين له والمستبعدين .

ومن أعظم الآيات الدالة على كمال قدرة الله سبحانه ، وأن أمر الإعادة إلى الحياة مرة أخرى ، في غاية اليسر بالنسبة لله سبحانه ، أن الإنسان في مراحل حياته الأولى ، التي أوجده الله عز وجل فيها من نطفة ، تنتهي إلى أن يصير خصيماً ميبناً ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

فنطقه وفهمه ، وقدرته على المخاصمة ، والإبانة لما يريد إبانته ، آيات عظيمة ، لأن سائر الأعضاء والأجزاء في الإنسان ، ناشئ - بقدرة الله سبحانه - عن الأطوار والمراحل التي ينتقل فيها الجسم من طور إلى طور (١) .

كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٢) .

فالنطق والفهم والقدرة على الإفهام أعجب وأغرب من إبداع الخلق ، كما أنها من أعلى الدرجات التي منحها الله سبحانه الإنسان في الخلق والتكوين ، وفي قوله سبحانه : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ إشارة إلى حال الإنسان الكفور الجحود لنعم الله سبحانه ، الذي ما يلبث - بعد أن تتكامل فيه هذه النعم الجليلة - حتى يبادر الله سبحانه المنعم المتفضل باستعمال جوارحه ونطقه وعقله وفهمه - التي أنعم الله بها عليه - في محاداة الله سبحانه ، ومحاربتة ، ويصبح خصيماً كفوراً لربه ، يبالغ في الخصومة والجدال بالباطل ، وينكر إنعام الله وإفضاله ، ويعبد غيره ، ويخاصم في أمر البعث والجزاء ، ويبين خصومته : أي يظهرها ويجاهر بها ، ويوضح سبحانه هذه الخصومة - التي يبارز العبد بها ربه - بقوله : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ .

وهو مثل ناشئ عن قصور علمه ، وسوء أدبه مع ربه سبحانه ، حين ينكر البعث وليس له من حجة تحمله على هذا الكفر ، سوى استبعاده البعث ، وتشبيهه قدرة الخالق سبحانه بقدرة المخلوق : ﴿ قال من يحي العظام وهي رميم ﴾ وهو مع ذلك ينسى دليلاً قائماً في نفسه على قدرة الله سبحانه على البعث ﴿ ونسي خلقه ﴾ (٣) .

١) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم - الدينمي ج ١ ، ص ٢٠٠

٢) سورة المؤمنون : آية (١٢-١٤)

٣) انظر معالم الدعوة في القصص القرآن الكريم ج ١ ، ص ٢٠١

سبب نزول الآيات :

ذكر المفسرون أن أبي بن خلف أتى إلى رسول الله ﷺ وفي يده رميم يفتته ويذره في الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟؟ فقال رسول الله : (نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار) ، فنزلت الآيات من آخر سورة يس .

وفي رواية أن العاص بن وائل السهمي ، أتى إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بين يديه ، فقال : يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعد ما أرم؟؟

قال : (نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم) فنزلت الآيات ^(١) ومن الملاحظ في أسباب النزول أن المشركين كانوا يعترضون على الرسول ﷺ في تقريره البعث ، وقد أكدوا انكارهم ذلك بما ضربوه من المثل لله تعالى ، فكان ضرورياً أن يرد عليهم انكارهم ، وأن يبطل لهم مثلهم ، والآيات وإن كان سبب نزولها خاصاً ، فهي عامة في كل منكر للبعث ، لما هو مقرر في الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وبينت الآيات أن استبعاد الاعادة للأجسام بعد الموت آت من انسان لم ينظر في مبدأ خلقه أولاً ، إذ لو نظر في نشأته الأولى نظر تبصر واعتبار ، لكفاه ، خلقه من نطفة ، ضعيفة حقيرة ، دليلاً على إعادته بعد موته ، فنسيانه لمبدأ خلقه من تلك النطفة هو الذي دعاه لهذا الإنكار ، ثم ضربه المثل لله القادر ، بقدرة الإنسان العاجز ﴿ أولم ير الإنسان ﴿ نشأته ، أي ألم يعلم ﴿ أنا خلقناه ﴿ أي ابتدأنا خلقه وإيجاده ﴿ من نطفة ﴿ من منى يمتنى وما أضعف النطفة وأعجزها ﴿ فاذا هو ﴿ بعد العجز والضعف انسان قوي ناطق ﴿ خصيم مبین ﴿ أي بعد تلك الأطوار الضعيفة أصبح يخاصم ويجادل أين جدال وأبلغ خصام ، ومن ذلك خصامه وجداله في أمر البعث والجزاء ينكر قدرة خالقه الذي أنشأه أول مرة ، ويدعى عدم قدرته على إعادته ثانياً ، ﴿ وضرب لنا مثلاً ﴿ أي صفة غريبة عجيبة يعارض بها قدرتنا الثابتة بالدليل القاطع على إعادته ، فجعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم الأول فقال : ﴿ ونسي خلقه ﴿ وكان من حقه أن لا ينسى فيستدل به على امكان عوده كما بدأه ، ولو تأمل في ذلك لعلم أن القدرة التي سوته أولاً لا يعجزها بأي حال اعادته ثانياً بعد أن صار كما يرى عظماً رميماً مفتتاً وأن تلك الرجعة ليست بعيدة على القوى القادر ^(٢) .

^(١) محمد بن جرير الطبري ، التفسير ج ٢٢ ص ٣٠ ، الطبعة الثانية سنة ١٢٧٣ هـ ، وابن كثير التفسير ج ٣ ص ٥٨١ -

١٩٥٤ مطبعة مسطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر .

^(٢) انظر الفخر الرازي - التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٠١ ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية - طهران

لا ينازع عاقل في أن للمخلوقات خالقاً ، ولقد قال تعالى عن المشركين : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾^(١) ، ولا نزاع - كذلك - في أن لكل خلق بداية بمقتضى ذلك الخلق ، والإنسان وإن كان أصله نطفة وأصلها تراباً كما قال تعالى : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾^(٢) ، إلا أن خلق الأصل الأول وهو التراب من العدم ، قال تعالى : ﴿ أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾^(٣) ، فبدء الخلق أو (النشأة الأولى) من العدم .

أما النشأة الثانية : وهي : إعادة الخلق ، التي قال عنها رب العرش العظيم : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾^(٤) ، فهي التي تكون بعد أن تتغير هيئة الإنسان إثر موته وتتناثر مكونات جسده وتختلط بالتراب والأحجار ، فمادته موجودة لكنها مبعثرة سرى عليها برد الموت ، فهي ثلاثة التراب والأحجار ، فالنشأة الثانية أو (إعادة الخلق) لا تكون إذن من العدم بل من موجود متفرق متناثر ، وملخص هذا الدليل الإلزامي :

- أن خلق الإنسان أول مرة إنما يكون من العدم .

- أما إعادة خلقه بعد موته فإنما يكون من مادة موجودة من قبل .

فأي الخلقين أهون في أعين الناس ، الخلق من العدم ... أم إعادة الحياة إلى رميم العظام؟؟
وفي سورة النمل عرض لهذا الدليل الناصع والبرهان الساطع ، وتبكيك لأولئك الذين يجدون ما يرهنون به على ميلهم عن الحق ثم هم في غيبهم سادرون : ﴿ أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أعله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾^(٥) ، وهذا اللون من الاستدلال معروض بكثرة في السور المكية الأخرى من وجوه عدة مما فيه رد على منكري البعث واستدلال على إمكانيته ، قال تعالى : ﴿ وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾^(٦) ، وقال : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾^(٧) ، وقال عز من قائل : ﴿ أولم يروا كيف يُبدئُ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير * يعذب من يشاء ويرحم من

(١) سورة الزحرف : آية (٨٧)

(٢) سورة الكهف : آية (٣٨)

(٣) سورة مريم : آية (٦٧)

(٤) سورة النجم : آية (٤٧)

(٥) سورة النمل : آية (٦٤)

(٦) سورة الأعراف : آية (٢٩)

(٧) سورة الأنبياء : آية (١٠٤)

يشاء وإليه تقلبون ﴿١﴾ ، قال الفخر : (علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال أولم يروا أن الله خلق أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول : هذا القدر من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يك شيئاً مذكوراً ، وأنه خلقه من نطفة وهي من غذاء هو من ماء وتراب ، هذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإن الإعادة مثله) (٢) ، وقال تقدست أسماؤه : ﴿ وهو الذي يبدو الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٣) ، فالإعادة أهون على الله من البدء ، والبدء عليه هين ، هذا على رأي من يعيد الضمير إلى الله ، ومن أعاده إلى الخلق فالمعنى وهو أهون على الخلق ، أي في نظرهم (٤) ، وقد يورد السياق الجليل لفظاً مرادفاً للإعادة كالإخراج والإحياء والخلق الجديد والبعث وهو كثير (٥)

ومن حديث النبي ﷺ قال الله تعالى : (كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقله : لن يعيدني كما بدّاني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد) (٦).

١ (سورة العنكبوت : آية (١٩-٢١))

٢ (مفاتيح الغيب : ٤٧/٢٥)

٣ (سورة الروم : آية (٢٧))

٤ (تفسير ابن كثير : ٤٣١/٣)

٥ (اقرأ الآيات في سورة يس : الآيتان ٧٨-٧٩ ، سورة طه آية (٥٥) ، وسورة قآية (١٥) ، وسورة لقمان آية (٢٨))

٦ (أخرجه البخاري في كتاب التفسير : باب سورة (قل هو الله أحد) : ٦١١/٨ رقم : (٤٩٧٤) .

ثالثاً : الإستدلال على إمكان البعث من خلال الآيات الكونية منها :

استدلال الله عز وجل على إمكان البعث بالآيات الكونية وها هي بعض من هذه الاستدلالات .

١) دلالة خلق السموات والأرض :

لا جرم أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس فهي أضخم جرمًا وأعظم تكويناً ، بل لا نسبة بين الإنسان في خلقه ومهانة أصله وبين السموات المرفوعة بلا عمد والأرض المثبتة بالوتد!

والإستدلال القرآني على البعث بخلق السموات والأرض مؤسس على تقرير قدرة الله المطلقة ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾^(١)

ففي هذه الآية الكريمة يرد الله على من استبعد إعادة الحياة إلى الإنسان بعد البلى ، فيقول سبحانه وتعالى : هلا تأملتم في قدرة الله سبحانه الذي خلق السموات والأرض وهما أكبر وأعظم من خلق الإنسان وإعادة فيزول استبعادكم ؟ لأن الله سبحانه الخلاق المحيط علمه بكل شيء ، ثم ارتقى في الإستدلال إلى ما هو أعم من خلق السموات والأرض ، لأنه الموصوف بـ (الخلاق) فقال سبحانه : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ .

كما بين تعالى فساد ضرب المثل ، الذي مآله إلى تشبيه قدرة الخالق سبحانه بقدرة المخلوق العاجز ، حيث نزه نفسه سبحانه عن أن يعجز عن أمر يسير بالنسبة لقدرته العظيمة ، وهو الذي بيده وتحت تصرفه ملكوت كل شيء فقال : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

ولقد دعا السياق القرآني الجليل إلى الإستدلال بخلق السموات والأرض على إمكانية البعث والنشور في مواضع عديدة على ضوء مقررات المفهوم الإيماني للقدرة الإلهية :

قال تعالى : ﴿ وقالوا إءذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ، أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾^(٢) .

١ (سورة يس : آية (٨١-٨٣))

٢ (سورة الإسراء : آية (٤٩-٥٠))

وقال داعياً إلى استشعار عظم قدرته في خلقه هذه الأكوام وتصرفه فيها : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لقي خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ تخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ (١) .

وقال مبيناً أصل الإنسان وأنه جزء بسيط من أجزاء هذا الكون المتزامي الأطراف : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً أمّن خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ (٢) .

وقال مقررراً قدرة الله المحيطة بكل شيء : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ (٣) .

وقال ملزماً للمشركين بإقرارهم أن الله خلق السموات والأرض ثم إنكارهم بعد ذلك ما هو أهون من ذلك ، وهو إحياء الموتى : ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٤) ، قال صاحب الكشاف : (فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهما بأنها خلق عظيم لا يقادر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهاتته أقدر وهو أبلغ من الإستشهاد بخلق مثله) (٥) .

وقال مذكراً أن خلق السموات أو الإنسان سواء عنده سبحانه فهو لا يلحقه من الخلق وصب ولا نصب : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٦) .

وتأمل في الآيات الآتية من سورة الرعد ، كيف ساق الله سبحانه في فاتحة السورة جملة من الآيات الكونية الباهرة ، التي تحمل على التفكير والتأمل في خلقها ، وتغرس الإيمان بكمال قدرة الله سبحانه وأن القادر على خلق مثل هذه الأمور ، قادر على ما دونها من باب أولى ، ولذلك كان في استبعاد الكفار إعادة خلق الإنسان - وهو بالنسبة لهذه الآيات العظيمة يسير وحقير - أمر يدعو إلى العجب ، يقول الله تعالى : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على

١ (سورة سبأ : آية (٧-٩))

٢ (سورة الصافات : آية (١١))

٣ (سورة الروم : آية (٢٥))

٤ (سورة غافر : آية (٥٧))

٥ (الكشاف : ٤٣٣/٣)

٦ (سورة الأحقاف : آية (٣٣))

العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١﴾ .

تأمل قوله تعالى: ﴿ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون ﴾ . كيف جعل الله تدبير أحوال العوالم بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، والإغناء والإفقار ، ... ومن المعلوم أنه من اشتغل بتدبير شئ فإنه لا يمكنه تدبير شئ آخر ، إلا الباري سبحانه وتعالى ، فإنه لا يشغله شأن عن شأن (٢) - وكذلك تفصيل الآيات والبراهين في الكتب المنزلة موصلين إلى اليقين بالبعث ، لأن النظر بالعقل في ملكوت الله يهدي إلى ذلك ، وتفصيل الآيات والأدلة ينبه العقول ويعينها على ذلك الاهتداء ويقربه (٣) ، ولما ذكر الله سبحانه هذه الدلائل العظيمة والآيات الجليلة الدالة على كمال قدرة الله وعلمه ذكر بعد ذلك أن استبعاد المشركين للبعث حقيق بأن يُتعجب منه ، لأن من قدر على إنشاء ما ذكر من الفطر العظيمة ، ولم يعي بخلقهن كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره (٤) .

وهذا البرهان الذي أقامه الله سبحانه دليلاً على إمكان البعث ، حيث ذكر من آياته العظيمة في ملكوته ما يُعلم بالتفكير فيه أن البعث أيسر من ذلك ، حين يستدل العقل بإمكان الأعلى على إمكان الأدنى بالأحرى ، قد ذكره الله سبحانه في مواضع كثيرة من كتابه الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً * أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ (٥) .

(١) سورة الرعد : آية (٢-٥)

(٢) تفسير الإمام الرازي : ٢٣٤/١٨ بتصرف

(٣) تفسير التحرير والتنوير : لابن عاشور ٨١/١٣ بتصرف

(٤) تفسير الكشاف : الزمخشري ١٨٦/٥ بشئ من التصرف

(٥) سورة الإسراء : آية (٩٨-٩٩)

فإذا كان المجادلون في أمر البعث والمنكرون له ، قد علموا أن الله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهما ما هما في كبر أجرامها ، وعظم إحكامهما ، وشدة أجزاءهما ، وسعة أرجائهما ، وكثرة ما فيها من عجائب الخلق أيستبعدون ما هو أدنى من ذلك ؟

ومما جاء في هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى أنه على كل شئ قدير ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ءأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحائها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ (٣) .

ذكر الله عز وجل في هذه الآية مظهراً عظيماً من مظاهر قدرته ، وآية عظيمة من أجل آياته ، وهي قيام السماء والأرض بأمره تعالى ، كما في قوله سبحانه ﴿ ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ (٤) ، قوله : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ (٥) .

ثم انتقل سبحانه إلى ذكر المعاد الذي يكون في أمد يسير ، بحيث لا يحتاج أكثر من أمر الله سبحانه الذي يقول للشئ كن فيكون ، ولذلك عبر بـإذا الفجائية : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ وهذا كقوله سبحانه : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ (٨) .

ففي الآية الكريمة استدلال على إمكان البعث ويسره ، بما هو أجل منه وأعظم .

٢) دلالة إحياء الأرض بعد موتها :

١ (سورة الأحقاف : آية (٣٣))

٢ (سورة النازعات : آية (٢٧-٣٣))

٣ (سورة الروم : آية (٢٥))

٤ (سورة الحج : آية (٦٥))

٥ (سورة فاطر : آية (٤١))

٦ (سورة الإسراء : آية (٥٢))

٧ (سورة النازعات : آية (١٣-١٤))

٨ (سورة يس : آية (٥٣))

إحياء الله الأرض بعد موتها برهان قاطع من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت ، لأنه برهان حسي يتجدد بين يدي الناس ، ويشاهدون فيه آثار قدرة الله - تعالى - في الإحياء المتجدد ، ولأن من أخرج النبات وجعل في الأرض من كل زوج بهيج فأحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم^(١) ، قال الله - تعالى - : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾^(٢) ، ﴿ فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لحي الموتى وهو على كل شئ قدير ﴾^(٣) ، ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لحي الموتى إنه على كل شئ قدير ﴾^(٤) وأنت ترى أن الله - جلت آلاؤه - وصف الأرض في الآية الأخيرة في حالتها الأولى بالهمود والخشوع والموت ، وهي صفات الأموات من بني آدم ، ثم وصفها في حالتها الأخرى بالنشور والإهتزاز والزيادة والإحياء ، وهذا من خصائص الأحياء فتطابق الوصفان مما هو محسوس مشهود فلزم تطابق الوصفان الآخران (أعني الأحياء) الذي أنبأنا به العليم الخبير .

وانظر إلى ظاهرة سقوط الأمطار وخاصة في الصحراء .. وهي جذب جرداء .. ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾^(٥) ...

وهذا المشهد كما يقول عنه سيد قطب : يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن ... مشهد الرياح ، تثير السحب .. تثيرها من البحار .. فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار .. والرياح الباردة هي المكثفة له حتى يصير سحاباً .. ثم يسوق الله هذا السحاب بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة .. فتذهب يميناً وشمالاً إلى حيث يريد الله لها أن تذهب .. وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات .. حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل .. إلى بلد ميت .. مقدر في علم الله أن تدب فيه الحياة بهذا السحاب .. والماء حياة كل شئ في هذه الأرض .. ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ .. وتم الخارقة التي تحدث في كل لحظة والناس في غفلة عن العجب العاجب فيها ، وهم مع وقوع هذه الخارقة في كل لحظة يستبعدون النشور في الآخرة ..

(١) أضواء البيان ١/٩٠، ١١٦، ٢٢٣/٣، ٣٣٦/٧، وشرح أصول الإيمان لمحمد بن صالح العثيمين ص ٤٩ .

(٢) سورة الروم : آية (١٩)

(٣) سورة الروم : آية (٥٠)

(٤) سورة فصلت : آية (٣٩)

(٥) سورة فاطر : آية (٩)

وهو يقع بين أيديهم في الدنيا .. ﴿ كذلك النشور ﴾ .. في بساطة ويسر .. وبلا تعقيد ولا جدل بعيد ! ..

هذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن لأنه دليل واقعي ملموس .. لا سبيل إلى المكابرة فيه .. ولأنه من جانب آخر يهز القلوب حقاً حين تتملأ وهي يقظى .. ويلمس المشاعر لمساً موحياً حين تتجه إلى تأمله .. وهو مشهد بهيج جميل مثير .. وبخاصة في الصحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهي محل جذب جرداء .. ثم يمر عليها غداً وهي ممرعة خضراء من آثار الماء .. والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم .. مما يمررون عليه غافلين .. وهو معجز معجب حين تتملأ البصائر والعيون (١) ...

ومن هذا الإستدلال أيضاً قوله تعالى : ﴿ وتسمى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ (٢) .

تأمل كيف يُلفت الله سبحانه النظر إلى حال الأرض وهي هامدة كالنار التي طُفئت حتى همدت ، قد يبس نباتها وتحطم ، فإذا هي بعد أن ينزل الله عليها الماء تسري فيها الحياة من جديد ، فتهتز بعد همود ، وتربو - بتخلل الماء ، وتفتق النبات - بعد يبس ، وتنبت ما فيه الحسن والنضارة من الثمار والزرورع وأشبات النبات .

وهذا من الأدلة الحسية على البعث ، ولذلك جاء الإنتقال من ذكر هذا الدليل إلى نظيره ، وهو البعث بعد الموت ، فقال تعالى : ﴿ وأنه يحي الموتى ﴾ ، ﴿ وأنه على كل شئ قدير ﴾ ، ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ ، ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ .

وكل جملة من هذه الأربع ، تدل مطابقة أو تضمناً على البعث .

ومما ورد في ذلك في السنة النبوية الشريفة ما روي عن أبي رزين العقيلي - رضي الله عنه - قال : (قلت يا رسول الله كيف يعبد الله الخلق ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : أما مررت بوادي قومك جدياً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قلت نعم قال : فتلك آية الله في خلقه كذلك يحي الله الموتى) (٣) .

١ (انظر الظلال المجلد الخامس (٢٩٢٩) - دار العلم .

٢ (سورة الحج : آية (٥-٧))

٣ (سنن ابن ماجه مقدمة : ١٣ ، وأحمد ١٢/٤ وجامع الأصول ج ١٠ ، من كتاب القيامة وأحوالها رقم ٧٩٤٣)

ولئن كان سر الحياة في الإنسان والحيوان والنبات مستغلقاً إلى اليوم ولم يدرك الناس كنه الحياة لكنهم يشاهدون آثارهم ويتعاملون معها .. فما الذي يمنعهم من الإيمان بالبعث بعد الموت وإن لم يدركوا سره ويكفيه سر بيان الحياة والحرارة والرطوبة في العظام النخرة البالية !! إن الذي فلق الحية الجلمد الصماء وأخرج منها الروض الأخاذ ذا الخضرة والألوان المبهجة والأغذية المتنوعة وذرات التسيم المنعشة وجعلها أشجاراً باسقة تملأ السهول والربى إبان هطول الغيث قادر على جمع الشتيت من جسد الإنسان وبث الحياة فيه من جديد : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنتبنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنتبوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ (١) .

ومن المشاهد المتكررة في دنيا الناس انبثاق الزرع الأخضر ذي النضارة والبهجة من التربة بعد نزول الغيث عليها .. وفي ذلك دلالة بليغة وبرهان ساطع على خروج الأموات من الأحداث بإذن بارئهم ، وعماد هذا الدليل قدرة الله تباركت أسماؤه في إخراج الحي من الميت والميت من الحي : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ (٢) . تلك العملية الدائبة التي لا تكف ولا تني لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان .. على سطح الأرض .. وفي أجواء الفضاء .. وفي أعماق البحار .. ففي كل لحظة يتم هذا التحول .. بل هذه المعجزة الخارقة التي لا تنتبه إليها لطول الألفة والتكرار .. في كل لحظة يخرج حي من ميت ويخرج ميت من حي .. وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة .. وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام .. ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات .. ويوجد الغاز الذي ينطلق في الجو أو تتغذى به التربة .. وتستعد للإخصاب .. وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين .. إنسان أو حيوان أو طائر .. والجنّة التي ترمي في الأرض وتحتلظ بالتربة وتشحنها بالغازات هي مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات .. فالحيوان والإنسان ! ومثل هذا يتم في أغوار البحار وفي أجواء الفضاء على السواء .. إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعي والقلب البصير .. ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله .. ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ .. فالأمر عادي واقعي لا غرابة فيه وليس بدعاً مما يشهده الكون في كل لحظة من لحظات الليل والنهار في كل مكان ! .. (٣)

(١) سورة النحل : آية (٦٠)

(٢) سورة الروم : آية (١٩)

(٣) نظر الظلال المجلد الخامس ص ٢٧٦٢

وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة في إقامة هذا الاستدلال دليلاً على البعث ، من ذلك قوله جل شأنه : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾^(١) .

قال السيد محمد رشيد رضا عند تفسير هذه الآية : (أي مثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء ، (نخرج الموتى) من البشر وغيرهم ، فالقادر على هذا قادر على ذاك ، ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث الذي عبرتم عنه بقولكم : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾^(٢) ، ﴿ أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون ﴾^(٣) ، ﴿ أءنا لمدينون ﴾^(٤) ، ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾^(٥) ،

وأمثال هذه الأقوال الدالة على أن إنكاركم لا منشأ له ، إلا ما تحكمون به بادي الرأي من امتناع خروج الحي من الميت ، ذاهلين عن خروج النبات الحي من الأرض الميتة ، وعن عدم الفرق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، في خضوعهما لقدرة الرب الخالق لكل شيء فوجه الشبه في الآية : هو إخراج الحي من الميت والحي في عرفهم يعرف بالنماء والتغذي ، كالنبات ، والتحرك بالإرادة ، كالحيوان)^(٦) .

ويقول الشاعر :

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ؟	وكيف صارت شجرة ؟
وابحث وقل من الذي	يخرج منها الثمرة ؟
وانظر إلى الشمس التي	جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها	حرارة منتشرة
وانظر إلى الليل فمن	أوجد فيه قمره
وزانة بأنجم	كالدرر المنتشرة
وانظر إلى الغيم فمن	أنزل منه مطره

١ (سورة الأعراف : آية (٥٧))

٢ (سورة يس : آية (٧٨))

٣ (سورة الصافات : آية (١٦))

٤ (سورة الصافات : آية (٥٣))

٥ (سورة ق : آية (٣))

٦ (تفسير المنار : ٤٧٠/٨)

بعد اغبرار خضره	وصير الأرض به
من شق فيه بصره	وانظر إلى المرء وقل
بقوة مفتكرة	من ذا الذي جهزه
أنعمه منهمرة	ذاك هو الله الذي
وقدرة مقتدرة ^(١)	ذو حكمة بالغة

فسبحان الله الذي له كمال القدرة ، كماله كمال العظمة والسلطان .. .

٣- دلالة تعاقب الليل والنهار :

الليل والنهار من الظواهر الكبرى المتجددة ذات الأثر البليغ في حياة الناس والدواب والأنعام والزرورع ، وتتضمن هاتان الظاهرتان وجوهاً عديدة من الدلالة على البعث والنشور بعد الموت ، وفي قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(٢) ، ما يدل على ذلك ففيه من وجوه الاستدلال ما يلي :

أ - فالنوم ومظنته الليل يحوي دلالة واضحة على البعث ، ذلك أن له سلطاناً على الإنسان لا يملك مقاومته كالموت ، وفي تكرار النوم على مر الأيام تذكير بالوفاة التي هي مصير كل حي ، ولقد سمي الله النوم والموت وفاة ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(٣) ، كما سمي الاستيقاظ من النوم بعثاً كسميته إحياء أصحاب القبور بعثاً ، قال في التفسير القرآني : (ونوم الإنسان ويقظته كل يوم فيه تذكير له بالموت والبعث إن كان مؤمناً ، وتصوير لهما إن كان شاكراً ، ومظاهره للحجة عليه إن كان منكراً كافراً)^(٤)

واستدل سبحانه وتعالى بمشاهدة الليل والنهار للدلالة على صدق البعث والجزاء في الآخرة في قوله تعالى : ﴿ وعنده مفتاح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين * وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(٥) .

(١) الآيات للشاعر العراقي معروف الرصافي .

(٢) سورة النمل : آية (٨٦)

(٣) سورة الأنعام : آية (٦٠)

(٤) التفسير القرآني : ٢٠٢/٢

(٥) سورة الأنعام : آية (٦٠)

ففي هذا النص الكريم تبرز حقيقة الألوهية متجلية شواهدا في علم الله الغيب وإحاطة علمه بكل ما يقع في هذا الوجود ، وفي هيمنته على الناس وقهره للعباد في كل حالة من حالاتهم في النوم والصحو وفي الموت والحياة وفي الدنيا والآخرة .

الآية الأولى : ترسم صورة فريدة لعلم الله المحيط بكل شئ ، إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ، الذي لا يند عنه شئ في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حي وميت ويابس ورطب ، إلى آخر ما يتناوله الخيال البشري وهو ينطلق وراء النص يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم المشهود ، في أرجاء الكون الفسيح وما وراء حدود هذا الكون المشهود في الماضي والحاضر والمستقبل مفاتيح كل ذلك عند الله لا يعلمها إلا هو بل إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائق لا يتجه إليه الفكر البشري ولا تلحظه العين البشرية وإنما يتكشف هكذا بجملة لعلم الله وحده المشرف على كل شئ والمحيط بكل شئ والذي تتعلق مشيئته وقدرته بكل شئ الصغير كالكبير والحقير كالجليل ، والمخبئ كالظاهر والمجهول كالمعلوم والبعيد كالقريب .

والآية الثانية : تضم حياة البشرية كلها في قبضة الله سبحانه ، وفي علمه وقدرته وتدييره ، صحوهم ومنامهم ، موتهم وبعثهم ، حشرهم وحسابهم ، كل ذلك في مشهد حركي يلمس المشاعر ويستجيش الوجدان ، ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ فهي الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس ، هي الوفاة في صورة من صورها بما يعترى الحواس من غفلة ، وما يعترى الحس من شهوة وما يعترى العقل من سكون وما يعترى الوعي من انقطاع ، وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث ، وهو الغيب في صورة من صورته الكثيرة المحيطة بالإنسان وهؤلاء هم البشر مجردين من كل حول وطول ، حتى من الوعي لا يرددهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا إرادة الله ، وهو سبحانه ، يعلم ما جرحتم بالنهار ، فما تتحرك جارحة من الجوارح لأخذ أو ترك إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر ، فهم مراقبون بعين الله لا يغيب عن علمه ما كسبته جوارحهم بعد الصحو بالنهار وهو سبحانه يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى : أي يوقظكم في النهار من سباتكم وإقطاعكم لتتم آجالكم التي قضاه الله ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ، حيث يؤوب إليه الخلق بعد انقضاء آجالهم ، ويعرض عليهم السجل الذي وعى ما كان منهم فيحاسبهم على ما كسبت أيديهم جزاء بما كانوا يعملون .^(١)

ومشهد الليل والنهار هنا وما يقع فيهما من نوم ويقظة متكررين دائمين لهما أكبر برهان على صدق البعث فبحوار ما قدمت الآيات من صفات الله العظيمة في مجال العلم والقدرة والسيطرة

(١) في ظلال القرآن ، المجلد الثاني ص ١١٢٣ .

والقهر يأتي مشهدا الليل والنهار وما يضمنان من موت وبعث مكررين يذوقهما كل كائن حي في ليله ونهاره ، فإذا كانت هذه هي الوفاة الصغرى والبعث الأصغر فإنما هما تمرين على النوم الأكبر واليقظة الكبرى .

وقد عبر الشيخ طنطاوي جوهرى على هذا المشهد وأثره في اثبات البعث ، أحسن تعبير حيث قال : (أما علمتم أيها الناس أن هذه الحوادث المتكررة التي لا مفر منها تشعر بطريق اليرهان الاقناعي والقياس الظاهر : أن هذا النوم وهذه اليقظة قد ضربا مثلاً للنوم الأكبر واليقظة الكبرى وأن ذلك تمرين على الموت والحياة فإذا متم فلا تجزعوا من انقطاع الحياة ولكن اجزعوا من غفلاتكم فإنكم لا بد مبعوثون بدليل استيقاظكم من نومكم)^(١) .

وقد شهد القرآن حال الموت بحال النوم ، وحال البعث بحال الإيقاظ في مثل قوله تعالى : ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾^(٢) ، حيث وردت الآية دلالة على البعث في معرض السؤال عنه والإستنكار له من المشركين كما حكي سبحانه في قوله : ﴿ عم يتساءلون * عن النبا العظيم * الذي هم فيه مختلفون ﴾^(٣) ، وفي ذلك يقول الألويسي - رحمه الله - : (ساق الله بعض الشواهد الناطقة بحقيقة البعث ، وكأنه قيل : قل لهم يا محمد كيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط ، والحكم الباهرة المقتضية أن لا يكون ما خلق عبثاً)^(٤) .

وقال الفخر الرازي أيضاً حول هذه الآيات : أعلم أنه تعالى لما حكي عنهم إنكار البعث والحشر ، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات ، وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث ، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عدّد أنواعاً من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان ، فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم ، ومتى ثبت هذان الأصلان ، وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض ، ثبت لا محالة كونه تعالى قادراً على تقريب الدنيا بسماواتها وكواكبها وأرضها ، وعلى إيجاد عالم الآخرة .^(٥)

١ (تفسير الجواهر ج ٤ ص ٣٧)

٢ (سورة النبا : آية (٩-١١))

٣ (سورة النبا : آية (١-٣))

٤ (روح المعاني - للألويسي جزء ٣٠ ص ٢)

٥ (التفسير الكبير ج ٣٠ ، ص ١٠٤ ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾) .

ب - وتبدل نور الصباح إلى ظلمة الليل والعكس من مظاهر قدرة الله دلالات على تبدل الحياة إلى موت ثم إلى حياة .. قال الفخر : (لما ثبتت قدرة الله على قلب النور إلى الظلمة وبالعكس ، فأى امتناع في ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة ومن الموت إلى الحياة أخرى ؟!)^(١)

ج - ومرور الزمن الذي يقف إحساسنا به على تعاقب الليل والنهار ذو دلالات بليغة على أن الحياة لا تدوم على نسق واحد فثمة شمس وظل وليل ونهار وظلام وضياء وطلوع وغروب .. قال أبو السعود في آية النمل : (الآية دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة ، كيف لا وإن من تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجه بديع مبني على حكم راتقة تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله عز وجل ، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة ، وعين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالإنباه الذي هو مثل الحياة ، قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، قضاء متقناً وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجاً له ودليلاً يستدل به على تحققه)^(٢) .

د - وعمل الإنسان وكسبه واكتسابه إنما يكون بالليل والنهار الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ، فكأنه تعالى قال : (ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثاً بل محنة وابتلاء ، ولا بد عند ذلك من ثواب وعقاب فإذا لم يكونا في هذه الدار فلا بد من دار أخرى ..)^(٣) ، وهذا ما يعرف بداهة ، وقد نطق به أعرابي في الجاهلية ، قال : (مطر ونبات وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، وآيات في أثر آيات ، وأموات بعد أموات ، ضوء وظلام ، وليال وأيام ، وغني وفقير ، وشقي وسعيد ، ومحسن ومسيء ، أين الأرباب الفعلة ، ليصلحن كل عامل عمله ، كلا بل هو الله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى وإليه المآب عدا ، أما بعد يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين الحسن الذي لم يشكر ؟ أين الظلم الذي لم ينتقم ؟ كلا ورب الكعبة ليعودن ما بدا ولئن ذهب يوم ليعودن يوم)^(٤) .

١ (مفاتيح الغيب : ٢٤/٢١٩ في موضع سورة النمل (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً) .

٢ (إرشاد العقل السليم : ٦/٣٠٣

٣ (التنسي : ٣/٢٢٣

٤ (خطبة قس بن ساعدة الأيادي : إعجاز القرآني ، للباقلاني : ١/١٩٩-٢٠٠

رابعاً : الإستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر .

قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ (١) .
فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة ، من البارد الرطب ، وذلك أبلغ في المنافاة ، لأن اجتماع الحرارة والرطوبة ، أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة .. (٢) .
وهذا معناه : إيجاد شيء مما ينافيه وينافره فلا بد من قوة من خارج تغلب على المتنافرين المتنافين بفعل ذلك ثم قال سبحانه : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ (٣) ، معناه من قدر على خلق السموات والأرض قدر على خلق هذا النوع اللطيف والشكل الضعيف وإذا قدر على إيجاد قدر على رده بعد نفاذه .

قال الفخر الرازي في قوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ الآية ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه ، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسهم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض ، وفي هذا عبرة عظيمة فإن الله تعالى جمع في الشجر الأخضر بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب .

وقد أوردت الآية أمثلة لإمكان الحشر من أوجه متعددة ...

أولاً : إن من أخرج لكم النار من الشجر الأخضر .. يستطيع أن يعطي الحياة للعظام الرميمة ..
فأنتم تشاهدون الأشجار الميتة تحيا فتخضر .. أفلا تقيسون عليها حياة العظام الشبيهة بالأشجار ! ..
ثانياً : إن من يخلق النار من الشجر الغض الأخضر .. فيجمع بين طبيعتين متضادتين كالأخضر والرطوبة .. مع اليابس والحرارة .. لا يستبعد منه إخراج الإنسان من التراب من جديد .. الإنسان الذي خلق من التراب .. ثم تحول إلى التراب ! .. فالذي سيحييكم مرة أخرى في الحشر .. هو مولى ، جميع الكائنات في حكمه كمجدد مطيع بكمال الانقياد أمام أمر (كن فيكون) فسبحان الذي جعل هذا العالم .. مداراً لحكمته .. ومظهراً لقدرته ! .. (٤) .

(١) سورة يس : آية (٨٠)

(٢) درء تعارض العقل والنقل : ٣٣/١ لابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم طباعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م.

(٣) سورة يس : آية (٨١)

(٤) نظر الجامع لأدلة الإيمان بالله - على المزاح ص ١٥٨ ، ١٥٩

وفي الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ أفرايتم النار التي تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ ^(١) ، استدلال بتولد النار مع حرها وييسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته .
قال ابن كثير : وللعرب شجرتان إحداهما المرخُ والأخرى العُفار إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار ^(٢) .
وقيل إراد جميع الشجر الذي توقد منه النار لما روى عن ابن عباس أنه قال (ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العناب) ^(٣) .
ثم يبين سبحانه وتعالى أنه جعل النار التي في الدنيا تذكيراً للنار الكبرى في الآخرة (نار جهنم) لأن الإنسان إذا رأى نار الدنيا خشى الله وخاف عذابه في نار جهنم وفي الحديث الشريف ﴿ ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا يا رسول الله - إن كانت لكافية !! فقال : والذي نفسي بيده لقد فضلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها ﴾ ^(٤) .

١ (سورة الواقعة : آية (٧١-٧٢))

٢ (مختصر تفسير ابن كثير ٤٣٨/٣)

٣ (حاشية الصاوي على الجلالين ١٦٦/٤)

٤ (أخرجه البخاري - كتاب بدء الخلق - باب صفة النار وأنها مخلوقة : ٦/٣٨٠ برقم (٣٢٦٥) .

بعض شبهات منكري البعث :

أورد الله سبحانه وتعالى في سورة "ق" الشبه التي أثارها منكروا البعث وسنقلها مع تعليق جميل حولها للإمام ابن قيم الجوزية حيث يقول : في قوله تعالى : ﴿ إِنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآتِافِ إِذْ يَسْأَلُونَ عَنْ أَعْيُنِهِمْ الَّذِينَ قَامُوا وَهُمْ فِيهَا فَيَّامُتُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ سَوَاحِرَ أَعْيُنِهِمْ وَهُمْ لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة ق: ٨٠] ، ولو كان الجزء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً بل يكون ابتداء ولم يكن لقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [سورة ق: ٨٠] كبير معنى فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر وهو : هل يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ؟ فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم أنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقتها وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته ، فإن شبهة المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معها تمييز شخص عن شخص .

الثاني : أن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : أن ذلك أمر لا فائدة منه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء هكذا أبداً وكلما مات جيل خلفه جيل آخر ، فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك .

وعلى هذا جاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول : أحدها : تقرير كمال علم الرب سبحانه ، كما قال في جواب من قال : ﴿ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿^(١)﴾ ، وقال : ﴿ وَإِن السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فاصْفَح الْصَفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ * إن ربك هو الخلاق العليم ﴿^(٢)﴾ ، وقال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ ﴿^(٣)﴾ .

(١) سورة يس : آية (٨٠)

(٢) سورة الحجر : آية (٨٥)

(٣) سورة ق : آية (٤)

والثاني : تقرير كمال قدرته كقوله تعالى : ﴿ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ ^(٣) .

الثالث : كمال حكمته كقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ أيجسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ﴾ ^(٦) .

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه وأنه منزّه عما يقوله منكروه ، كما ينزّه كماله عن سائر العيوب والنقائص ، ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ ، مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتمامه ، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض ، وكيف بسطها وهياها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع ، وأثبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، ثم دعاهم إلى التفكير في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء ، الذي أنزله الله من السماء وبارك فيه حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ، وأنبت به الحبوب كلها على اختلاف منافعها وصفاتها ومقاديرها ، كل ذلك بينه في قوله ﴿ وأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ ثم قال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أي مثل هذا الإخراج من الأرض والفواكه والثمار والأقوات والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبت فيها .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ أي : أعجزنا عن خلقهم أول مرة حتى يلتبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان وإحاطة علم الله به حتى علم وساوس نفسه ، وأنه سبحانه قريب إليه بالعلم والإحاطة وأن ذلك أدنى إليه من العرق

(١) سورة يس : آية (٨١)

(٢) سورة القيامة : آية (٤)

(٣) سورة الحجج : آية (٦)

(٤) سورة ص : آية (٢٧)

(٥) سورة القيامة : آية (٣٦)

(٦) سورة المؤمنون : آية (١١٥)

الذي هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق ، فقال سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾^(١) .
ومعذرة إذا كنت قد أطلت الوقوف مع ابن القيم فإن الذي حملني على ذلك هو بيان أمر قد استفاض ابن القيم في تعميقه ورسوخه وهو : أن الله سبحانه وتعالى جعل من مشاهد الكون ومظاهر الخلق الميثوقة في الأنفس والآفاق ، أدلة صدق على إثبات البعث وغيره من أصول الإيمان ، وهذا هو طريق القرآن في إثبات العقائد ، والذي أحاول أن أؤكد في رسالتي ، وبهذا يصبح صدق البعث أمراً لا شك فيه ، وأن ما في الآخرة مما أخبر الله عنه من حساب وميزان ومن دار النعيم المقيم للمحسنين الذين أخلصوا ، ودار العذاب الأليم للكافرين الجاحدين الذين كذبوا الله ورسوله ، تصبح هذه الأمور كذلك أمراً لا شك فيه ، وأن النعيم والعذاب في الآخرة أمران ماديان وفيهما صفة الخلود والدوام ، كما قال سبحانه في شأن أهل النعيم : ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾^(٢) ، وكما قال في شأن أهل الجحيم : ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾^(٣) .

الوعيد الشديد لمنكري البعث :

وبعد أن قرر سبحانه وحدانيته وأقام الأدلة والبراهين على البعث وإحياء الموتى أردف ذلك بالتهديد والوعيد لمن يكذب وينكره وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾^(٤) ، يقول العلامة النيسابوري تعقيباً على هذه الآية (يجوز أن يراد أن ما تعلقوا به ليس شبهة عالية في نفس المسألة ، بل إنما حملهم على ذلك تكذيبهم بالساعة اشتغالاً للإستعداد لها)^(٥) .

ومثال التهديد الحسي قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقيوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثوراً * لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً وادعوا ثوراً كثيراً ﴾^(٦) .

١ (الفوائد لابن القيم الجوزية من ص ٩-١٥ دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م. وتم النقل بتصرف .

٢ (سورة آل عمران : آية (١٥)

٣ (سورة البقرة : آية (١٦٢)

٤ (سورة الفرقان : آية (١٠)

٥ (هامش جامع البيان : ١٢٧/١٨

٦ (سورة الفرقان : آية (١١-١٣)

فقد رسمت هذه الآية كما هو ظاهر صورة حسية للعذاب مفزعة مروعة ضمن شدة هول هذه النار التي أعدها سبحانه لهؤلاء الكفرة المكذبين إنها إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا تغيظها وزفيرها حنقاً عليهم وغضباً منهم كما وصف سبحانه حال السعير وهم بعيدون عنها ، وصفهم وهم يلقون فيها في مكان ضيق ، وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم أو قرنوا مع شياطينهم في الأغلال والأصفاد ، وزيادة في شدة الكرب والضيق ، عندئذ يدعون بالويل والثبور على أنفسهم لأن العذاب أنواع وألوان وأشده ما يتمنى مع الموت ، فكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب الشديد الأبدي الذي لا خلاص منه ، وبذلك يكون الله عز وجل قد جمع على أهل النار أنواع البلاء حيث ضم إليه العذاب الشديد الضيق ^(١) .

خلاصة القول :

وخلاصة القول في هذا المطلب أن من الأسباب التي دعا إليها رسل الله عليهم الصلاة والسلام الإيمان بالبعث والجزاء ، وهو من أركان الإيمان ، التي لا يعتد بإيمان العبد ما لم يؤمن بالبعث ، ولقد رأينا الأدلة الحسية للبعث من خلال الآيات الكونية والإنسانية كيف يفتح لها الحس ، ويدركها العقل ، فينطلق يبحث عن الخالق مصدر النور والهداية ، فلا يدركه إلا صاحب إيمان يسعى إلى شكر الله أو من عنده استعداد للإيمان ، أما الآخرون الذين لا يستجيبيون يضلون ويمضون في الضلال لأنهم لا يرون هذا النور حتى يسعوا إلى معرفته والاعتقاد فيه ، وقد رأينا مجادلة الكفار في شأن البعث واستبعادهم له ، وأن الله سبحانه أقام البراهين على صحته وامتحانه وقال في شأن المكذبين به : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ ^(٢) .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ ^(٣) .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ ^(٤) .

وبهذا كله يعلم أهمية الإيمان بالبعث والجزاء ، وأنه من أعظم الأسباب التي يقوم عليها صلاح حياة الناس في دينهم ودنياهم ، وأنه ينبغي للدعاة الاهتمام بشأنه من حيث الدعوة إليه ،

(١) أنظر ابن جرير الطبري ، جامع البيان ١٤٠/١٨ ، والرازي ٥٦/٢٤ ، والكشاف ١٤٢/٤ .

(٢) سورة الأنعام : آية (٣١) .

(٣) سورة يونس : آية (٧-٨) .

(٤) سورة الأعراف : آية (١٤٧) .

وغرسه في القلوب ، حتى يكون ضمير المسلم يقظاً ، وحسه مرهفاً ، ومراقبته لربه دقيقة ، وشعوره الدائم بأن الله عز وجل لا يخفي عليه من أمره شيء ، وأنه يحصي عليه كل صغيرة وكبيرة ، كما ينبغي لفت الأنظار إلى العبر للاعتبار والاتعاظ والتذكر ، وبيان حقارة هذه الحياة ، وأنها لا تسدوم لأحد ، ولا يخلد فيها مخلوق ، وأنها دار اختبار وابتلاء ، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يخلد إليها ، ويطمئن بها ، وهو يرى ما فيها من الهموم والأكدار والأحزان ، وإن سعادة الإنسان في الدنيا مرهونة بالإيمان والصلاح وفي الآخرة بنيل مرضاة الله حين يجد الإنسان ثمرة ما قدم .

المبحث الرابع: الدعوة إلى الطاعات

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الطاعة وأهميتها.

المطلب الثاني: الدعوة إلى الطاعات من خلال الآيات

الحسية في القرآن الكريم.

المبحث الرابع : الدعوة الى الطاعات

المطلب الاول : مفهوم الطاعة وأهميتها :-

اولا : مفهوم الطاعة :-

أ : المعنى اللغوى :-

جاء فى لسان العرب ، قال ابن سيده وطاع يطاع وأطاع : لان وانقاد ، وأطاعه إطاعة وانطاع له كذلك .

وفى التهذيب : وقد طاع له يطوع إذا انقاد له ، بغير ألف ، فإذا مضى لامره فقد أطاعه ، فإذا وافقه فقد طاعه .

وفى الحديث فإن هم طاعوا لك بذلك^(١) . ورجل طيع ، أى : طائع . قال : والطاعة : اسم من أطاعه طاعة ، والطواعية : اسم لما يكون مصدرا لطاوعه ، وطاوعت المرأة زوجها طواعية . قال ابن السكيت : يقال طاع له وأطاع سواء . فمن قال : طاع يقال : يطاع ومن قال : أطاع ، قال يطيع . فاذا جئت إلى الأمر فليس إلا أطاعه ، يقال : امره فأطاعه بالألف ، طاعة لا غير .

وفى الحديث : هوى متبع ، وشح مطاع^(٢) ، هو أن يطيعه صاحبه فى منع الحقوق التى اوجبهها الله عليه فى ماله . وفى الحديث - أيضا - : لا طاعة فى معصية الله^(٣) ، يريد طاعة ولاة الأمر إذا أمروا بما فيه معصية ، كالقتل والقطع أو نحوه ، وقيل : أن الطاعة لا تسلم لصاحبها ولا تخلص إذا كانت مشوبة بالمعصية ، وإنما تصح الطاعة وتخلص مع اجتناب المعاصى ، قال والاول أشبه بمعنى الحديث لأنه قد جاء مقيداً فى غيره كقوله : لا طاعة لمخلوق فى معصية الله وفى رواية : فى معصية الخالق^(٤) .

ب - الطاعة فى النصوص الشرعية :

ورد لفظ الطاعة فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية . اما فى القرآن الكريم : فقد وردت مادة طوع فى عشرات المواضع منه ، ذات دلالات متقاربة ، تعود فى جملتها إلى المعنى اللغوى السابق . قال الراغب : الطوع : الانقياد وبيضاده الكره ، قال تعالى ﴿إِيتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾^(٥) ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٦) والطاعة : مثله لكن أكثر ما تقال فى

١ (أخرجه البخاري باب وجوب الزكاة ٣/٣٠٧ رقم (١٣٩٥) .

٢ (أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الملاحم باب الأمر بالتهيء ٤/١٢٣ رقم (٤٣٤١) . وابن ماجه فى الفتن ٢/١٣٣٠ رقم (٤٠١٤)

٣ (عون المعبود ج٧ ، ص ٢٨٩-٢٩٠

٤ (لسان العرب ج ٨ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ وانظر القاموس المحيط ص ٩٦٢ باب العين فصل الطاء بتصرف .

٥ (سورة فصلت : آية (١١)

٦ (سورة آل عمران : آية (٨٣)

الائتمار لما أمر ، والارتسام لما رسم ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾^(١) ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾^(٢) .

أى أطيعوا ، وقد طاع له يطوع وأطاعه : يطيعه ، قال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾^(٣) .
وجاء فى المجموع المغيث فى غريب القرآن والحديث : قوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(٤) .
يقال : طاع له يطوع يطيع ويطاع : اذا انقاد له ، وأقرب بما يريد ، ولهذا قال : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾
لأنه إذا مضى لأمره فقد أطاعه وهو مطيع ، والاسم : الطاعة ، فإذا وافقه فقد طاوعه^(٥) .
وأما فى السنة . فقد وردت هذه المادة ومشتقاتها فى عشرات الأحاديث وهى تعود فى جملتها إلى المعنى اللغوى ، وإلى المعنى الشرعى فى القرآن الكريم ومنها :-

(١) عن أبى سلمه بن عبدالرحمن أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى)^(٦) .

(٢) وعن على رضي الله عنه قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بعث جيشاً وأمر عليهم رجالاً وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأجج ناراً وأمرهم أن يقتحموا فيها ، فأبى قوم أن يدخلوها وقالوا : إنما فررنا من النار وأراد قوم أن يدخلوها ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لو دخلوها أو دخلوا فيها لم يزلوا فيها ، وقال : لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف)^(٧) .

(١) سورة النساء : آية (٨١)

(٢) سورة محمد : آية (٢١)

(٣) سورة التغابن : آية (١٢) وانظر مفردات غريب القرآن ص ٣١٠ للربغ وأنظر بصائر ذوي التمييز ٥١٩/٣ .

(٤) سورة فصلت : آية (١١)

(٥) المجموع المغيث للأصفهاني ٣٧٠/٢ ، تحقيق الغربارى .

(٦) أخرجه البخاري - كتاب الجهاد ص : ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، حديث رقم (٢٩٥٦) ط دار السلام، الرياض سنة ١٩٩٧ .

(٧) أخرجه أبو داود : ٤٠/٣ حديث (٢٦٢٥) ، دار إحياء التراث بيروت .

(٣) وعن عبد الله عن رسول الله ﷺ انه قال : (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (١).

(٤) عن أم الحصين الأحمدية قالت سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع وعليه برد قد التفع به من تحت إبطه قالت : وأنا أنظر الى عضلة عضدة ترتج سمعته يقول : (يا أيها الناس : اتقوا الله وإن أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام لكم كتاب الله) (٢).

(٥) عن عبد الله بن مسعود ان النبي ﷺ قال : (سبلى أموركم بعدى رجال يطفؤون السنة ويعملون بالبدعة ، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها)

فقلت : يا رسول الله ! إن أدركتهم ، كيف أفعل ؟ قال (تسألني يا ابن أم عبد كيف تفعل ؟ لا طاعة لمن عصى الله) (٣).

(٦) عن ابن سيرين قال : (كان أبو بكر وعمر يأخذان على من دخل في الإسلام فيقولان : تؤمن بالله ، لا تشرك به شيئاً وتصلى الصلاة التي افترض الله عليك لوقتها ، فإن في تفريطها الهلكة ، وتؤدى زكاة مالك طيبة بها نفسك ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتسمع وتطيع لمن ولي الله الأمر ، قال : وزاد رجلاً مرة تعمل لله ولا تعمل للناس) (٤).

(٧) عن جنادة بن أبي أمية (أن عبادة بن الصامت قال له : ادن حتى أحررك بمالك وما عليك ، إن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومكرهك ومنشطك ، والأثرة عليك وألا تنازع الأمر أهلهم ، إلا أن تؤمر بمعصية الله براحاً) (٥) ، فان أمرت بخلاف ما في كتاب الله فاتبع كتاب الله) (٦).

المعنى الاصطلاحي المراد هنا :

والمراد بالطاعة هنا : هي الإتيان لشرع الله من كتاب أو سنة ولمن تجب طاعته شرعاً في المعروف .

وقد ورد استعمال الشرع لهذه اللفظة (الطاعة) مقروناً بلفظة أخرى هي (السمع) فيقال السمع والطاعة ، وسمعنا وأطعنا ، وذلك في مواضع كثيرة جداً .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٧) .

(١) المرجع السابق ص ٢٩٠ .

(٢) أخرجه الترمذي - كتاب الجهاد - باب ما جاء في طاعة الإمام : ٢٠٩/٤ رقم (١٧٠٦) .

(٣) ج ٢ ص ٩٥ سنن ابن ماجه - الحافظ أبي عبد الله محمد القزويني ابن ماجه - رقم (٢٨٦٥) - عيسى الباني الخليلي - القاهرة .

(٤) ج ١١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ المصنف ، للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصهفاني - المكتب الاسلامي - بيروت .

(٥) (براحاً) نبي جهاراً .

(٦) المرجع السابق ص ٣٣١ .

(٧) سورة البقرة : آية (٢٨٥) .

وقال ﴿ ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم ﴾ (١) .

وفى الحديث (على المرء المسلم السمع والطاعة) (٢) .

والمراد بالسمع (سماع الكلام وفهمه وامتناله بالطاعة) .

ثانيا : أهمية الطاعة

الطاعة ناموس إلهي ، فطرت عليه الخلائق كلها ، من حيوان ، ونبات ، وجماد فى السماء والأرض ، فلم يبق ذرة فى الأرض إلا وقد أذعنت لربها وخضعت ، بحيث تسير وفق إرادة إلهية كونية لا تتخلف عنها أبدا .

يقول الحق تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو

كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ (٣)

ويقول تعالى : ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها ﴾ (٤)

ويقول : ﴿ والله يسجد من فى السموت والأرض طوعاً وكرها ﴾ (٥)

فالكون كله خاضع ومستسلم له تعالى ، وهو بهذا المعنى طائع لله سبحانه . غير أن الثقيلين منحهما الخالق تعالى إرادة وقوة بهما يستطيعان التصرف والاختيار للخير ، أو الشر ، وبسبب ذلك تمرد أكثر الثقيلين عن التزام الطاعة المطلقة القائمة على الاختيار ، ولكنهم لا يدركون أنهم - بالرغم من هذا التمرد - يتحركون وفق إرادة كونية محيطية ضمن ملك الله وملكوته ، قال بعض أهل التفسير عند قوله تعالى : ﴿ وله أسلم من فى السموت والأرض طوعاً وكرها ﴾ (٦)

(إن الله خلق الخلق على ما أراد منهم ، فمنهم الحسن والقيح والطويل والقصير ، والصحيح والمريض ، وكلهم منقادون اضطرارا ، فالصحيح منقاد طائع محب لذلك ، والمريض منقاد خاضع وان كان كارها ، والطوع : الانقياد والاتباع بسهولة ، والكره : ما كان بمشقة وإباء من النفس) .

فالطاعة إذن ناموس فطرى لا تستقيم أمور الحياة بدونها ، فالفرد أو الأسرة أو المجتمع أو

الدولة لا يمكن أن يقوم أحدها بدون طاعة .

(١) سورة النساء : آية (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الأحكام - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ص ١٤٩٧ برقم (٧١٤٤)

(٣) سورة فصلت : آية (١١) .

(٤) سورة آل عمران : آية (٨٣) .

(٥) سورة الرعد : آية (١٥)

(٦) سورة آل عمران : آية (٨٣) .

ولهذا خلق الله البشر متفاوتين في عقولهم ومواهبهم وقدراتهم وأخلاقهم ، وذلك لتنظيم الحياة بالتعاون والتناصر وفق ناموس الطاعة كما قال جل وعلا :

﴿ أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾^(١)

ومن هنا شرعت طاعة الوالدين ، وطاعة الزوجة لزوجها ، وطاعة الرقيق لسيده ، وطاعة التلميذ لأستاذه^(٢) .

كما شرعت الرحمة بالصغير ، والتوقير للكبير . وشرعت طاعة العلماء ، وطاعة ولاة الأمر . وقد كانت العرب في الجاهلية لا تسمع لأحد ولا تطيعه فلما جاء الإسلام وشرع الطاعة للأمرأت أنكرت ذلك نفوسهم وامتنع بعضهم عن الطاعة فجاءت التأكيدات الكثيرة في الاحاديث النبوية على السمع والطاعة^(٣) .

غير أن هذه الطاعة ليست مطلقة كطاعة الله ورسوله ، بل هي مقيدة ولهذا فإن الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ جاءت بأسلوب بديع معجز وضع هذه الطاعة في مكانها اللائق بها . قال الألوسى : (وأعاد الفعل^(٤)) وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله اعتناءً بشأنه عليه الصلاة والسلام ، وقطعا لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن ، وإيدانا بأن له - ﷺ - استقلالا بالطاعة لم يثبت لغيره ، ومن ثم لم يعد^(٥) في قوله سبحانه ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ إيدانا بأنهم لا استقلال لهم فيها استقلال الرسول ﷺ^(٦) . إذن فطاعة أولى الأمر تابعة لطاعة الله ورسوله ، وليست مستقلة، ولهذا قال ابن قيم الجوزية (إن الامراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم فطاعتهم تبع لطاعة العلماء ، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف ، وما أوجبه العلم ، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء)^(٧) .

(١) سورة الزخرف : آية (٣٢)

(٢) انظر قواعد الأحكام لأبن عبدالسلام ١٣٤/٢ ، وتفسير الرازى ١٥٠/١٠ .

(٣) انظر : فتح البارى ٧/١٢ .

(٤) يعنى فى قوله (وأطيعوا الرسول) .

(٥) أى لم يعد الفعل أطيعوا .

(٦) روح المعانى ٦٥/٥ ، وانظر : فتح البارى ١١٢/١٣ .

(٧) أعلام الموقعين ٣٧/١ وانظر : تفسير الرازى ١٥٠/١٠ .

المطلب الثاني : الدعوة إلى الطاعات من خلال الآيات الحسية في القرآن الكريم :

القرآن مليء بالدعوة إلى الطاعات وإلى السلوك القويم والنهي عن المعاصي والإنغماس فيها فلا تكاد تخلو سورة من سوره الكريمة من الدعوة إلى الفضائل والحض عليها بالترغيب حيناً ، والوعد بالجزاء في الآخرة حيناً آخر ، أو النهي عن الرذائل والتحذير منها بالترهيب تارة والوعيد عليها بالعقاب وسوء المصير تارة أخرى .

وساكتفى هنا نظراً لكثرة الآيات المتعلقة بالمنهج الحسي بذكر بعضها الداعي إلى الطاعات ، ولفت أنظار المسلمين وغيرهم إلى ما في القرآن الكريم من الدرر النفيسة ، والجواهر الثمينة التي لا توجد في غيره من الكتب السماوية أو الأرضية ، مع إلقاء الضوء عليها بشيء من الإيجاز مستشهداً ببعض أقوال العلماء والمفسرين .

وإليك بعضاً من هذه الآيات معنوياً لها بما تحدثت عنها من موضوعات .

أولاً : الدعوة إلى الذكر والصلاة في أوقاتها :

ليكن أول ما نبدأ به هو أن نسوق هذه الطائفة من الآيات الكريمة التي يبين الله سبحانه وتعالى في بعضها الأوقات التي يطلب الله منا ذكره عندها أو يقسم ببعضها الآخر ليلفت أنظارنا إلى عظمة الخلق في مثل هذه الأوقات فنرى عندها الجلال والكمال وشواهد الألوهية ووحداية الربوبية ، ونرى التسبيح والذكر في أوقات الصلاة الخمس ، وكذلك مطلق التسبيح والتنزيه والدعوة إلى التأمل والتدبر، وسوف نجد في التنبيه على هذه الأوقات وتكرارها والأمر بالذكر عندها ، نجد في ذلك من الحكم البالغات ما نحب أن نلفت النظر إليه .

فانظر معي إلى هذه الآيات البينات : يقول تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق

الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ﴾^(١) ويقول تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل

الليل سكناً ﴾^(٢) ويقول تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾^(٣) ويقول تعالى : ﴿ وتعزروه وتوقروه

وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾^(٤) ويقول تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون

الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾^(٥) ويقول تعالى : ﴿ إنا سخرننا الجبال معه يسبحن بالعشى

والإشراق ﴾^(٦)

(١) سورة الاسراء : آية (٧٨)

(٢) سورة الانعام : آية (٩٦)

(٣) سورة التكويد : آية (١٨)

(٤) سورة الفتح : آية (٩)

(٥) سورة الاعراف : آية (٢٠٥) .

(٦) سورة ص : آية (١٨)

ويقول تعالى: ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾^(١) ويقول سبحانه: ﴿ والضحى والليل اذا سجد ﴾^(٢) ويقول سبحانه: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾^(٣) ويقول سبحانه: ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ﴾^(٤) ويقول سبحانه: ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾^(٥) ويقول سبحانه: ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾^(٦) ويقول سبحانه: ﴿ ومن أناة الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾^(٧) ويقول سبحانه: ﴿ فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق ﴾^(٨) ويقول سبحانه: ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ﴾^(٩) ويقول سبحانه: ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطناً وأقوم قبلاً ﴾^(١٠) ويقول سبحانه: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾^(١١) ويقول سبحانه: ﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم ﴾^(١٢) وهذه الآيات وغيرها كثير فى القرآن الكريم .

وإذا كان هذا هو شأن القرآن الكريم فى التنبيه على الذكر والصلاة عند هذه الأوقات ، فإنَّ السنة النبوية قد حفلت أيضاً بالأحاديث الكثيرة التى تبين كيف أن رسول الله ﷺ كان يذكر الله على كل أحواله وفى كل أوقاته وكيف كان يستقبل النهار بالذكر والخضوع لله عز وجل حينما كان يقول فى أول النهار (أصبحنا وأصبح الملك لله وحده)^(١٣) ، وكيف كان يوجه أصحابه لمثل ذلك ، كما حفلت السنة بما كان يقوله ﷺ عندما تشرق الشمس ، وعندما يشتد حر النهار فى وقت الظهر ، وعندما تغيب الشمس ، وعندما يقبل الليل ، وما يقوله عندما يشتد الظلام ، وعندما يقوم من نومه فى وقت السحر ، ، وينظر إلى السماء ، وعندما يطلع الفجر .

(١) سورة ق : آية (٣٩)

(٢) سورة الضحى : آية (١ - ٢)

(٣) سورة الروم : آية (١٧ - ١٨)

(٤) سورة العصر : آية (١ - ٢)

(٥) سورة مريم : آية (١١)

(٦) سورة غافر : آية (٥٥)

(٧) سورة طه : آية (١٣٠)

(٨) سورة الانشقاق : آية (١٦ - ١٧)

(٩) سورة هود : آية (١١٤)

(١٠) سورة المزمل : آية (٦)

(١١) سورة النازيات : آية (١٨)

(١٢) سورة الطور : آية (٤٩)

(١٣) أخرجه البخاري فى الأدب المفرد ، باب ما يقول إذا أصبح ٦٣/٢ رقم (٦٠٤)

إن هذه الأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ في الأوقات المذكورة لتدل دلالة واضحة على أن الدعوة إلى التأمل والتسبيح والخضوع والتنزيه عند هذه الأوقات ليس مقصوراً على القرآن الكريم وحده بل شاركه السنة في ذلك .

وستتناول نصاً من هذه النصوص بالشرح والتوضيح في ضوء ما قاله علماء التفسير ليكون نموذجاً لدراسة غيره من النصوص التي ذكرنا بعضها منها ، وليكن هذا النص هو النص الأول الذي جاء في سورة الإسراء وهو قوله تعالى ﴿ اقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

قال ابن كثير في تفسيره لهذا القول الكريم : يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها (أقم الصلاة لدلوك الشمس) ودلوك الشمس غروبها كما قال ابن مسعود ومجاهد وابن زيد ، أو دلوكها : زوالها ، وقال بذلك ابن عباس وابن عمر ، وقال ابن جرير : هذا هو الأرجح لما رواه عقبه ابن عامر أن رسول الله قال : أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر .

قال ابن كثير : فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس ، فمن قوله لدلوك الشمس إلى غسق الليل وهو ظلامه : أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقوله (وقرآن الفجر) يعنى صلاة الفجر ^(١) .

وقال الزمخشري : دلكت الشمس : زالت واشتقاقه من الدلك ، لأن الإنسان يدللك عينيه عند النظر إليها في ذلك الوقت ، وعلى هذا فالآية جامعة للصلوات الخمس ، والغسق : الظلمة وهو وقت صلاة العشاء ، وقرآن الفجر : صلاة الفجر ، سميت قرآناً وهو القراءة لأنها ركن ، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً ^(٢) .

وقال الألويسي : فسر قوم الدلوك بالزوال ومنهم عمر وغيره من التابعين ، وفسره آخرون بالغروب ومنهم علي بن أبي طالب وغيره من التابعين ، ولعل أصل اللغة ، يسمح بهذين المعنيين ، لأن مادة ذلك ، تدل على الانتقال ، فهي في الزوال : انتقال الشمس عن دائرة نصف النهار إلى ما يليها ، وفي الغروب : انتقال من دائرة الافق إلى ما تحتها ، وعلى كل : فمع الفريقين فوق إباحة اللغة أدلة من السنة ، وقال المبرد : دلوك الشمس : من حين زوالها إلى غروبها ، فالأمر بإقامة الصلاة لدى دلوكها هو أمر بصلاتين : الظهر والعصر ، وقوله تعال ﴿ إلى غسق الليل ﴾ أى : إلى

(١) تفسير ابن كثير - المجلد الرابع ص ٣٣ - دار الأندلس .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري - المجلد الثالث ص ١٨٩ .

شدة ظلمته - كما قال الراغب^(١) وغيره - وهو وقت العشاء ، وقد قال قوم بأن ما فى الآية هو صلاة المغرب وقد حددت الآية وقتها بداية ونهاية ، وهم بذلك فسروا الدلوك بالغروب وهو أول الوقت وفسروا الغسق بغروب الشفق وهو نهاية المغرب .

وقال الألويسي : والمعتمد عليه عند جمهور المفسرين ، أن دلوك الشمس وقت الظهر وغسق الليل وقت العشاء كما ينبى عنه اقحام الغسق وعدم الاكتفاء بإلى الليل (وقرآن الفجر) أى صلاة الفجر ، وفى إسناد القرآن إلى الفجر ، دليل على أفضلية التغليس^(٢) فى صلاة الفجر ، لأن الفجر هو أول طلوع الصبح ، وسمى فجراً لأنه يفجر ظلمة الليل عن نور الصبح حينئذ كما فيه أيضا دلالة على أفضلية صلاة الفجر لأنها صلاة مشهودة^(٣) .

وقد وجدت لابن القيم رأياً جميلاً حول قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ قال فيه : (فسر الدلوك بالزوال ، وقيل الغروب ، بل اللفظ يتناولهما معا فإن الدلوك هو الميل ، ودلوك الشمس ميلها ، ولهذا الميل مبدأ ومنتهى فمبدؤه الزوال ومنتهاه الغروب فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار وليس هذا من قبيل استعمال اللفظ المشترك فى معنيه كليهما أو استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه بل هذا استعمال له فى حقيقته الواحدة المتضمنه للأمرين جميعاً)^(٤) .

ونخلص بعد عرض هذه الآراء : إلى أن فى الآية الكريمة إشاره على وجه الاجمال إلى أوقات الصلوات الخمس : وأن دلوك الشمس : يشير إلى وقتى الظهر والعصر ، وإلى غسق الليل يشير إلى وقتى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر : يشير إلى صلاة الفجر ، والله أعلم .
وإنه من فضل الله علينا أن السنة قد تكفلت بالبيان الشافى لتحديد هذه الأوقات قولاً وعملاً ، حتى لا يتركنا الله إلى دلالات الألفاظ وحدها فيأخذ كل واحد منا على قدر فهمه واحاطته باللغه فتكون الفرقة والاختلاف .

ومما لاشك فيه أن الله عز وجل ما أمرنا بالذكر والصلاة فى هذه الأوقات إلا لفضيلتها وإلا لحكم جليلة لا نستطيع إدراكها ومقصود الله عز وجل لا نستطيع الإحاطة به ، لكننا سنحاول أن نستشف بعضاً من هذه الأحكام بقدر طاقتنا البشرية المحدودة والتي منها^(٤) :
أولاً - عدم الغفلة عن الله عز وجل فى أى لحظة : فكما أن مدده لا ينقطع عن الكون لحظة ، فقد وجب على الكائنات ألا تغفل عن ربها لحظة ، إنه يجب عليهم أن يذكره عند الفجر ،

(١) الراغب - مفردات القرآن ص ٣٦٠

* (التغليس : إجتماع الظلمة والسواد - معاني مفردات القرآن - محمد سند الطوخى ص ٥١

(٢) روح المعاني للالوس المجلد الخامس ج ١٥ ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٣) منهج ابن القيم فى التفسير ص ٣٥ د. محمد احمد السيناوى مطبوعات مجمع البحوث .

(٤) رسالة (أيضاً الليل والنهار ودلالتهما فى الدعوة الى الله) - حلمى عبدالمنعم صابر - ص ٣٠٣ - وما بعدها بتصرف .

ويذكروه عندما يسفر الصبح ، وعندما تشرق الشمس فتجعل الخلق فى صحوة بعد أن كانوا فى موة ، ويذكروه فى وقت الضحى بينما هم فى نشاطهم وكامل يقظتهم ، ويعلموا أن يد الله من ورائهم وتحيط بهم ، وتقدر عليهم مهما كانت صحوتهم وتبهم وحرصهم ﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾^(١) ويذكروه عندما ينتصف النهار وتشتد حرارة الشمس ، وتنزل عن كبد السماء ، ويتحول الظلال من المغرب إلى المشرق ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفيرا ظلاله عن اليمين والشمال سجدا لله وهم داخرون ﴾^(٢) ويذكروه عند العصر وعندما تأخذ الشمس فى الغروب فى وقت العشى والأصيل ، ويذكروه عندما تغيب الشمس ويظهر الشفق ، ويذكروه عندما يخيم الظلام ويلف الكون فى ظلامه الخالك كل الكائنات اللهم إلا من نجوم تلمع هنا وهناك هداية للسائرين فى الظلمات ، ويذكروه ويستعيذوا به من شر غاسق إذا وقب ، ويذكروه حينما ينتصف الليل وحينما يأتى وقت السحر وتنزل الرحمات ، وحينما يتقلب الإنسان فى نومه وحينما يستيقظ وينظر إلى السماء فى ذلك الوقت الهادئ الساكن ، وكل شئ فى الكون يوحى باليقظة والرهبه وعلموا ان وراء هذه المملكة العظيمة فى ليها ونهارها قدرة حكيمة مقتدرة ، خلقت فأبدعت ودبرت فأحكمت إنها يقظة دائمة من العبد نحو ربه فى كل وقت وفى كل حين فى نهاره وفى ليله ، فى صبحه وفى مساءه ، فى بكرته وأصيله - وفى صحوته وسحره وفجره .

وصدق الله العظيم : ﴿ وفروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾^(٣) .

ثانيا : مشاهدة الجمال والجلال والكمال فى عظمة الخلق عند هذه الأوقات : إنه فى تكرار المشاهد وتنوعها واختلافها ما يجب أن يلتفت له الناس ، حيث أن وراء كل مشهد فى كل وقت من أسرار العظمة وابداع الصنعة ما تبهر له العقول وتنخلع له الافئدة ولننظر بامعان إلى وقت الصبح وهو يتنفس ، لننظر إليه وهو يسفر ، وينقشع الظلام شيئا فشيئا ، وينسلخ الليل عن النهار ، وتتحرك الحياة فى الكائنات بعد أن كانت أشبه بالعدم إنه مشهد أجمل من أن يوصف ، إنه مشهد تنسم عبيره القلوب المطمئنة ولتنظر معى إلى الشمس وهى تشرق ، هذا القرص الأحمر الذى غاب تحت الأفق من أخرجه ، ومن أشرقه ومن جعل أشعته تمتد فى وقت الشروق وكأنها خيوط ذهبية تشد الناس إلى الحركة واليقظة ، فتغرد الطيور وتفتح الزهور ويخرج كل كائن إلى حال سبيله يطلب لقمة عيشه ؟ ومن حولها تستوى فى وسط السماء وتصب حرارتها على الكون لتبخر المياه

(١) سورة الاعراف : آيه (٩٨)

(٢) سورة النحل : آيه (٤٨)

(٣) سورة الذاريات : آيه (٥٠)

وتطهر الحياة من كل تنن أصابها ؟ وتعمه بالدفء والحرارة بعد أن ذاق البرودة والرطوبة فى ليل غابت فيه ؟ ومن جعلها تغيب فى مغربها لتؤذن بذلك إلى أن النهار قد انصرم وأن للخلق أن يستريحوا بعد تعب وعناء طول يومهم ؟ من يأتي بالليل فى سكونه وفى هدوئه وفى ظلامه ليكون سكنا كما كان النهار معاشا ؟ أين هذه الهدأة من تلك الضجة ؟ أين هذه الظلمة التى لفت الكون فى ثوب حالك من ذلك الضؤ الذى عم النهار وبعث فى الناس اليقظة والحركة ؟ من فعل ذلك كله ؟ ومن زين السماء فى ليلها بتلك المصابيح ؟ أليس منظر الليل فى ظلامه وتلك النجوم التى تلمع فى طياته من الأوقات التى تتخلع لها القلوب ؟ أليس وقت السحر من الأوقات التى تثير فى النفس كل الجلال والروعة ؟ هذا الوقت الذى يذاق لا يوصف ، أليس بعد ذلك كله يجد الانسان فى كل وقت من هذه الأوقات عظمة الخالق وإبداع القادر ؟ وأن وراء كل مشهد من تلك المشاهد بدأ مقتدره محيطه عظيمة مدبرة ؟ أليس كل مشهد من ذلك يوحى بعظمة الألوهية ووحداية الربوبية ؟ بلى إنه على كل شئ قدير .

ثالثا : عدم انقطاع العبادة على الأرض لحظة : حيث أنه فى اختلاف المشارق والمغارب وأنه فى كل دقيقة للشمس مشرق ومغرب ، وتبعاً لذلك تتابع الأوقات على ظهر الأرض ، بمعنى أنه فى الساعة الواحدة على ظهر الأرض تكون الأوقات كلها حاصلة ، فحينما نصلى الظهر - هنا مثلاً - تجدد فى الوقت ذاته - من يصلى الضحى فى مكان آخر ، ومن يتأمل فى شروق الشمس وعظمة الخلق ، ومن يسبح بحمد ربه مع إسفار الصباح ، ومن يصلى الفجر ، ومن يقوم بين يدي ربه فى وقت السحر ، ومن يصلى العشاء ، ومن يصلى المغرب ومن يعيش مع الشفق ويتأمل لحظات الغروب ومن يتمتع بوقت الأصيل ، ومن يصلى العصر وهكذا تتجمع كل الأوقات فى لحظة واحدة على ظهر الأرض ، وتتعاقب الأوقات وتتوالى وبذلك يكون الله جل جلاله معبوداً فى كل الأوقات فى كل لحظة تمر على ظهر الأرض ، وكما أن مدده لا ينقطع عن الكون لحظة اقتضت حكمته ألا يخلو الكون من العبادة والتوجه إليه لحظة ، فالكون كله فى عبادة لله لا تنقطع فى كل آن من أناته وفى كل لحظة من لحظاته ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً ﴿ ^(١) ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ^(٢) .

(١) سورة المزمل : آية (٨ - ٩)

(٢) سورة الاسراء : آية (٤٤)

رابعاً : اظهار الخضوع لله والتذلل له والشكر على نعمه الجليلة : إذا كنا قد بينا طلب الذكر عند كل وقت من تلك الأوقات فإن الذكر كما قال الشيخ ابن حجر الهيتمي يكون أوجب عند طلوع الشمس واستوائها وغروبها ، حيث إن الطلوع فيه أول ظهورها فى هذا العالم تتناسب اظهار الخضوع والذلة لله والثناء عليه بهذه النعمة العظمى التى لو غابت لتوقفت مصالح الخلق ولخرب العالم وفسدت الأقوات والمعاش ، وناسب سؤال الإستعاذة من العذاب الذى استوجبه عابدها بسجوده لها عند طلوعها ، والشهادة لله عز وجل باستحقاقه لكل صفة كمال وتنزيهه عن كل نقص ، وأما الاستواء فهو وقت تسعر جهنم عنده ، وهو وقت غضب ، ، فناسب التسبيح والتنزيه والثناء عليه والاعتراف بأنه ما من شئ إلا ويسبح بحمده إلا إبليس وجنوده ، وأما عند الغروب فهو وقت ذهابها لتسجد تحت العرش فناسب أن يذكر الانسان ربه من حين دنوها إلى الغروب حتى تغرب ، والاستعاذة بالله من كل شئ ومن الشيطان الذى حمل أقواما على أن يسجدوا لها حتى عند الغروب ، وعلى ذلك فالذكر والاستغفار والتسبيح والتنزيه لله واظهار الخضوع والذلة له واجب فى هذه الأوقات التى هى من أجلّ النعم والى غفل فيها أقوام فسجدوا فيها لغير الله ، سبحانه وتعالى عما يقولون وعما يفعلون علوا كبيرا^(١).

(١) الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي المكي - ص ٧٠ (مرجع سابق) .

ثانياً : الدعوة الى التقوى :

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى التقوى وتحت عليها وتبين منزلة المتقين عند الله عز وجل من هذه الآيات قوله تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾^(١)

أى : ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه من عبادته تعالى وحده واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام . . . لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يعهدوها من قبل ، فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التي عهدوا في صفاتها وغمائها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزلنا عليهم الأمطار النافعة التي تخصب الأرض وتكسب البلاد رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفهم سنن الكون ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل^(٢) فيقرر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أنه سبحانه ينعم على المؤمنين المتقين ببركات من السماء والأرض ، وبالتالي يمنع بركات السماء والأرض عن غير المؤمنين المتقين ، ولكننا قد نرى في الواقع المعاصر ما يخالف هذا القول الكريم فنرى أن أئمة يقولون : إنهم مسلمون - مضيق عليهم في الرزق ، لا يجدون إلا الجذب والمحق ! . . ونرى أئمة لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ . . فيتساءل : وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف ؟ .

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون . . لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتأطون عليهم ، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين ، فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره . . ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقا . دانت لهم الدنيا وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق .. فهذه هي السنة : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾^(٣) ! فهو الإبتلاء بالنعمة وهو أخطر من الإبتلاء بالشدة .. وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون

(١) سورة الأعراف : آية (٩٦)

(٢) تفسير المراغي ج ٩ ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة الأعراف : آية (٩٥) .

مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والإرتياح .. وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة ، مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الإنحلال . فهي قوة بلا أمن ، وهو متاع بلا رضى . وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد . وهو الإبتلاء الذى يعقبه النكال .. إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى ، بركات فى الأشياء ، وبركات فى النفوس ، وبركات فى المشاعر ، وبركات فى طيبات الحياة .. بركات تنمي الحياة وترفعها فى آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردى والإنحلال^(١) .

وهذه التقوى التي جعلها الله إحدى شرطي البركات يبين عز وجل أن نفس المؤمن تستشعرها عن طريق ائتماره بما أمر به من طاعته والانتهاه عما نهى عنه من معاصيه ومخالفته ، على سنن العمل الصالح والخشية لله - عز وجل - وقد عبر الله عز وجل عن ذلك كله باللباس في أسلوب بليغ ، وجعله خيراً كله ، لأنه دليل الإيمان والإخلاص والصدق فى مراقبة الله - عز وجل - وإخلاص العبادة له وحده ، ذلكم قوله تعالى فى الآية السادسة والعشرين من سورة الأعراف ﴿ يبنى اءادم قد أنزلنا عليكم لباسا يورى سوءتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾^(٢) .

أخرج الإمام الطبرى بسنده عن قتادة والسدى وابن جريج أن المراد بلباس التقوى فى الآية : الإيمان ، كما أخرج عن معبد الجهنى قوله : ﴿ ولباس التقوى ﴾ الذى ذكر الله فى القرآن هو الحياء ، ونجد عنده فى إحدى روايتين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قول حير الأمة : لباس التقوى : العمل الصالح ، كما نجد فى الرواية الاخرى أنه السمت الحسن ، والمروى عن عروة بن الزبير - رحمه الله - فى ذلك قوله : (لباس التقوى خشية الله) ، كما أخرج أبو جعفر عن ابن زيد قوله : (يتقى الله فيوارى عورته ، ذلك لباس التقوى)^(٣) .

ولعل مما يؤيد التقارب بين تلك المعانى التي تسمو بالمؤمن إلى منازل القرب ومرضاة الله - عز وجل - الحديث الذى رواه شيخ المفسرين ، حيث قال : حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحاق بن الحجاج ، قال : حدثنا إسحاق بن اسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن ، قال : رأيت عثمان بن عفان - رضى الله عنه - على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قوهي محلول الزر ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب ، وينهى عن اللعب بالحمام ، ثم قال : أيها الناس اتقوا الله فى هذه السرائر فيانى سمعت رسول الله ﷺ يقول (والذى نفس محمد بيده ، ما عمل أحد قط سراً إلا ألبسه الله رداء علانية ،

(١) انظر فى ظلال القرآن م ٣ ص ١٣٣٩ .

(٢) سورة الأعراف : آية (٢٦)

(٣) جامع البيان : ٢٦٧/١٢ دار المعارف وانظر تفسير ابن كثير ٣/٣٩٦ .

إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ ورياشا ﴾ ولم يقرأها ﴿ وريشا ﴾ . ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ﴾ قال السميت الحسن^(١) .

هذا : وفي الآية الكريمة ما يضع أيدينا على واحد من نماذج السمو في الأسلوب القرآني الحكيم ، فقد جاء قوله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ بعد قوله جل شأنه : ﴿ بينى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يورى سوءاتكم وريشاً ﴾ فتزى الكلام المعجز بعد أن جاء على ذكر اللباس الحسي نبه بهذه النقلة العظيمة تنبيها أرشد فيه إلى اللباس المعنوي وهو الإيمان الصادق ، والخشوع ، والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع لما أنه سبيل النجاة في الآخرة بعون الله - تعالى - وفضله ، ونظير ذلك ما مر بنا من قبل في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب ﴾^(٢) .

وقد كشف أبو جعفر عن العلة فيما ذهب إليه من هذا التأويل ، بالإشارة إلى معهود العرب في معنى اللبس ومتى يكون المرء لابساً وكيف انسابت البلاغة القرآنية من خلال استعمال كلمة تفي كل الوفاء باستشعار النفس والقلب ، ذلك المراد من الوقاية ، فقال - رحمه الله - : (وإنما قلنا : عنى بـ ﴿ لباس التقوى ﴾ : استشعار النفس والقلب ذلك ، لأن اللباس إنما هو أدراع ما يلبس واجتباب ما يكتسى ، أو تغطية بدنه أو بعضه به ، فكل من أدرع شيئاً أو اجتابه حتى يرى عينه وأثره عليه ، فهو له لباس ، ولذلك جعل - جل ثناؤه - الرجال للنساء لباساً وهن لهم لباساً وجعل الليل لعباده لباساً^(٣) .

ويا نَعَمَ ما يفضّل الله به على من يدرعون لباس التقوى من عباده ، فيتجلى عليهم برضوانه ، ويلبسهم جزاء ما عملوا حلل الكرامة ، وسبحان من لا راداً لفضله وإحسانه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾^(٤) .

من هنا جد أهل الجد القارون إلى الله ، وراحوا يسارعون في الخيرات ، ويتقربون إلى مولاهم بالجهاد والطاعات ، فتراهم وقد أسهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم وانساحوا في ميادين الشهادة لا يعرفون لخشية الله بدلا ، ولا ييغون عن الإخلاص في القول والعمل حولا ، وهل حقيقة التقوى إلا هذا ؟ فإذا رزق العبد ذلك ، طاب مسعاه ، وتفتحت له آفاق الهدى ، واستنار قلبه

(١) جامع البيان : ٢٦٧/١٢ وانظر تفسير ابن كثير ٣/٣٩٦ .

(٢) سورة البقرة : آية (١٩٧)

(٣) جامع البيان : ٣٧١/١٢ ، ٣٧٢ .

(٤) سورة السجدة : آية : (٣٢) .

بالطمأنينة والفرح بفضل الله ، وكان في كنف الله حيثما حل وحيثما ارتحل ، وأدخله مالك الملك برحمته في الصالحين .

ثالثاً : الدعوة إلى ايقاظ الفطرة :

ونسوق مثلاً من أمثلة القرآن الكريم الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على ما قلناه وهذا المثل هو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرْبُ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْتُمْ وَمِنْتُمْ وَإِنْ يُسْئَلُ عَنْهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَدْرُوا فِي الْبَحْرِ شَيْئًا سِوَا اللَّهِ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴾ (١) . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً * أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ؟ * أم أمنتكم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴿ (١)

ففي هذه الآيات الكريمة كما يقول شهيد الإسلام سيد قطب : يعرض لنا السياق القرآني نموذجاً للحظات الشدة والخرج والخوف - فيتجلى فيه الشعور بعظمة الله ، لأن الشعور بقدرة الله في الخضم أقوى وأشد حساسية ... فالفلك في هذا البحر الواسع يبدو نقطة من الخشب أو المعدن ، تائهة في الخضم تتقاذفها الأمواج والتيارات ، والناس متشبثون بهذه النقطة ويتطلعون إلى رحمة الله!..

إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك ، صغيراً كان أو كبيراً ... حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبج (٢) الموج الجبار .

والتعبير القرآني عن هذا الموقف ، هو من آيات القدرة يلمس القلوب لمسة قوية ، وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله (٣) : ﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٣) . فالرحمة المقترنة بقدرة الله هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان .

ثم يستطرد قائلاً : (ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرخسي إلى الاضطراب العتي ، حين ينسى الراكب ، في الفلك المتناوح بين الأمواج ، كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر المحدق من كل جانب ، لا يدعون أحداً سواه (٤)) . ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرْبُ

(١) سورة الاسراء : آية (٦٧ - ٦٩) .

* (ثبج : أي وسط

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب م ٢٢٤٠/٤ .

(٣) سورة الاسراء : آية (٦٦)

(٤) في ظلال القرآن سيد قطب م ٢٢٤٠/٤ (مرجع سابق) .

في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴿ هذا الالتجاء إلى الله وحده ، والاستغاثة به دون سواه ،
ينجمان عن الشعور القوي بأن قدرة الله هي الغوث الوحيد ، والقوة المطلقة في مواقف الخطر
والضرر المهدق بالإنسان ، وهذا الشعور الذي ينم عن الفطرة الدينية الأصيلة في الإنسان وعن حاجته
إلى خالقه وخضوعه له - من أعظم الآيات أو الدلالات على وجود الله وعلى رحمته بخلقه ، وعلى
أن الإنسان لا تستقيم حياته إلا باعتناق عقيدة التوحيد ، وأداء ما يلازمها من إخلاص العبادة
والدعاء والاستغاثة بالله وحده ، فهو برهان نابع من أعماق الإنسان باعترافه وإقراره . والاعتراف
سيد البراهين .

ويورد ابن كثير مثلاً في ذلك فيقول : أن عكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله
ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف فقال
القوم بعضهم لبعض : إنه لا يعني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه ، والله إن
كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن
فلأضعن يدي في يد محمد فألجده رعوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ
فأسلم وحسن إسلامه ﷺ وأرضاه ، وقوله تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي نسيتم ما
عرفتم من توحيد الله في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾
أي سحيتته هذا ينسى النعم ويحدها إلا من عصم الله (١).

وهنا يستمر السياق القرآني في عرض هذه الآية من آيات القدرة الإلهية ، مستثيراً وجدان
المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر ، مبيناً قدرة الله على إلحاقه بهم في البر ، أو
إرجاعهم إليه في البحر ، ليشعروا ألا مفر من قدرة الله المحيطة بكل شيء وأن الأمن والقرار لا يكونان
إلا في جوار الله وحماه ، لا في البحر ، ولا في البر ، لا في الموجة الرخية والريح المواتية ، ولا في
الملح الحارين والمنزل المريح .

وعندما تستعيد النفس الإنسانية صفاءها وتخضع لهذه الآية الدالة على قدرة الله توقن (أن
البشر في قبضة الله في كل لحظة ، وفي كل بقعة . فهم في قبضته في البر ، كما هم في قبضته في
البحر فكيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة
لقدرته الله ، أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون
الله وكيلاً يحميهم) (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٢٧

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب (٤/٢٢٤٠) مرجع سابق .

رابعاً: الدعوة إلى التأمل والخشوع :

دعى الله عز وجل الإنسان وحثه على التأمل والخشوع عند قراءته للقرآن الكريم أو سماعه له ، وأثار في نفسه الدافع الذي يدفعه لذلك عن طريق بيان أن القرآن لو أنزل على جبل من الجبال لرأيناه مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم متشققاً من خشية الله ، حذراً من عقابه وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ^(١) .

فإذا كان هذا حال الجبال الصلبة أفليس من الواجب على الإنسان صاحب العقل والتمييز أن يخشع من خشيته من ربه سبحانه وتعالى ؟ وفي كل ما سبق ويقول عز وجل ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ ^(٢) سبحانه الله هذه الجبال الراسخة القوية الصلبة إزاء القرآن الكريم تخشع وتتصدع من خشية الله ، والناس معظمهم لا يتأثرون به ، ولا بما فيه من آيات كما قال سبحانه مع أنه من الواجب على الإنسان المؤمن أن يتضرع إلى الله بقراءة القرآن ويتأمل آياته الكونية .

ويستجيب قلبه ، وربما لسانه ^(٣) ، لأسئلة القرآن وأوامره ، استجابة مصحوبة بانفعال الخضوع والشكر لله ، والخشوع له ، والاعتراف بفضله ، والحنين إلى مرضاته وجناته ، ويتكرر هذا التهيج الانفعالي السار ، حتى يصبح عند المؤمن استعداداً لمثل هذا التهيج كلما مر ذكر الله ، أو عرضت آية من آياته .

استجابة لقول الحق عز وجل : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ ^(٤) ففي هذا النص حض على الخشوع ، وهو انفعال ينتج عن إيقاظ العاطفة الربانية وعن تأمل عظمة الله وتذكر نعمه علينا وآياته ، وعن تأمل ما في القرآن من الحق وفيه ذم للذين نضبت عندهم العواطف الربانية ، ولم تكن قلوبهم وانفعالاتهم مستعدة للتهيج عند تلاوة كلام الله والوقوف بين يديه للعبادة ، بل كانوا غارقين في الدنيا وملذاتها .

^(١) انظر زبدة التفاسير من فتح القدير لمحمد سليمان عبداً لله الأشقر ص ٧٣٣ بتصرف - ط ثانية سنة ١٤٠٧ هـ سنة ١٩٩٨ م.

^(٢) سورة الحشر : آية (٢١)

^(٣) كان رسول الله ﷺ إذا قرأ { أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى } (القيامة : ٤٠) قال (سبحانه فلي) وإذا قرأ { سبح اسم ربك الأعلى } (الأعلى : ١) قال سبحانه ربي الأعلى - انظر : صحيح الإمام مسلم ٩/٢ ، ط دار الطباعة العامرة سنة ١٣٣٠ هـ

^(٤) سورة الحديد : آية (١٦) .

وكان ابن مسعود يقول عند سماع قول الله تعالى ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾^(١) (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين) وقال ابن عباس (إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن) وقال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾^(٢) .

والخشوع الذي حث الله عز وجل الناس عليه خشوع خال من النفاق والرياء ، وفي ذلك يقول ابن القيم في المدارج عن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان : (إياكم وخشوع النفاق، فقيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع) .

ورأى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رجلاً طأطأ رقبتة فى الصلاة ، فقال : (ياصاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب ، إنما الخشوع فى القلوب) .

ورأت عائشة - رضى الله عنها - (شباباً يمشون ويتماوتون فى مشيتهم ، فقالت لأصحابها : من هؤلاء ؟ فقالوا : نساك ، فقالت : كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وكان هو الناسك حقاً)^(٣) .

ولو قارنا بين المؤمن والكافر نجد أنه بينما يكون قلب المؤمن لنا رقيقاً فى احساسه بالآخرين لكنه قوى بحمله كتاب الله العزيز الذى عجزت الجبال عن حمله - بعكس الكافر الذى يكون قلبه قاسياً أقسى من الحجارة والجبال ﴿ ولكن قست قلوبكم فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾^(٤) ولكنه ضعيفاً جداً لأنه ليس فيه قرآن ولا إيمان .

وقال ابن كثير عن المراد بقسوة قلوب الكفرة (قست قلوبهم) فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيده)^(٥) .

ولم يقتصر القرآن على بيان أن القلب هو مصدر الخشوع وغيره من الانفعالات ، بل وصف الله لنا آثار بعض هذه الأشياء على جسم الإنسان ، قال سبحانه ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم

(١) سورة الحديد : آية (١٦) .

(٢) سورة المؤمنون : آية (١ - ٢) .

(٣) انظر مدارج السالكين - ابن القيم ج ١ ص ٥٢٠ .

(٤) سورة البقرة : آية (٧٤) .

(٥) تفسير ابن كثير ٤/٣١٠ (مرجع سابق) .

وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهذى به من يشاء ، ومن يضل الله فماله من هاد ﴿١﴾ .

قال ابن كثير (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) أي هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، لما يفهمونه من الوعد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ، (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه ﴿٢﴾ وقال تعالى يصف النبيين ﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ ﴿٣﴾ .

خامساً : الدعوة إلى الصبر والشكر :

قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ، ليريكم من آياته ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله سبحانه ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

فهاتان آيتان من دلائل قدرة الله : أولاهما تشير إلى جريان الفلك في البحر بما أودع الله الماء من خصائص جعلته يحمل الأجسام المعبأة بالهواء ، وجعلت الفلك تنزلق على سطحه ... إن البراعة الفكرية لا تقف في هذا المجال عند اكتشاف قوانين الطفو على سطح الماء ، ولكنها تكمن في الصبر على الاستقراء وبعد النظر والمقارنة ، حتى يصل العقل إلى البحث عن جعل ماء البحار في هذا الكوكب الأرضي يختص بهذه الخصائص ، لأنه كوكب أعد للحياة البشرية ، وللعقول البشرية أن تستخدم ما سخر الله لها فيه وتشكر الخالق على ذلك ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فالصبر على البحث والتفكير للوصول إلى الحق نتيجة عفوية لتتبع هذه الآية وتفهمها ﴿٥﴾ .

والآية الثانية تذكرنا (بالريح) هذا المخلوق الشائر العجيب ، الذي نحسه ، ونلمس آثاره ونراها دون أن نراه ، والذي يدل دلالة واضحة صارخة على قدرة الله ، وقوته ، وجبروته .

كم دمرت الريح بعواصفها مدنا ، وكم قوضت أبنية وقصورا ظن أهلها أنهم قادروا عليها ، وكم خربت مزارع وجنات وأشجارها الباسقة ، وكم أهلك الله بها أمما من الأقوام البائدة

(١) سورة الزمر : آية (٢٣) .

(٢) تفسير ابن كثير : ٥٠/٤ - ٥١ (مرجع سابق) .

(٣) سورة مريم : آية (٥٨) .

(٤) سورة لقمان : آية (٣١) .

(٥) التزيية بالآيات - عبدالرحمن التحلاوي ص ٦٣ دار الفكر المعاصر - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٩ م .

﴿ وسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فزرى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾^(١) وكم أهلك الله بها بواخر ضخمة أودع فيها الإنسان ، بما أوتى من حضارة القرن العشرين عصارة علمه وخبرته التقنية وسماها (ربة البحار) أو (قاهرة البحار) فقهرها رب البحار منذ خروجها من مرفئها ، وأهلكها حين ساق إليها جبلاً من الجليد تقوده الرياح بإذن ربها . فارتطمت به ففرقت .

ولكن عندما تسكن الريح وتدفع الزوارق الشراعية بقوتها المعتادة أو تترك البواخر البخارية أو ذات المحركات ، تسير من غير أن تفرقها الأمواج ، تصبح نعمة تستحق منا شكرنا لخالقها : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

وهاتان الآيتان الكونيتان ، أعقبهما الله بالتبويه بخلق الصبر ، ذلك الخلق العلمى : الصبر على طلب الحق واستبعاد الهوى ، وعدم الوقوف عند الفائدة أو عند الفرح بالمصلحة القريبة المادية العاجلة ، وبخلق الشكر على نعم الله ، والاعتراف لله بالفضل ، واستبعاد الغطرسة والغرور ... - كل ذلك - لتكونا نموذجين لباقي الآيات الكونية ... فكل آية منها تربي مثل هذا الصبر والشكر ...!

وذكر الصبر فى القرآن فى حوالى سبعين موضعاً وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً . والصبر نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . وهو يأتى فى القرآن بأنواع كثيرة ، فيأمر به فى موضع كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾^(٢) وقوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾^(٣) ويأتى فى القرآن بصيغة الثناء على أهله كما فى قوله تعالى : ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا . وأولئك هم المتقون ﴾^(٤) ويأتى القرآن يخبر بأن الصبر خير لأصحابه كقوله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم هو خير للصابرين ﴾^(٥) ومن عناية القرآن بالصبر نستطيع أن نصف الصبر بأنه الفاصل بين الحياة الروحية والمادية ، ولذلك يقول عفيف طبارة (لولا الصبر لانهارت نفس الإنسان من البلايا التي تنزل عليه ، ولأصبح عاجزاً عن السير فى ركب الحياة وأصبح فى حالة يكفر فيها بالقيم الأخلاقية فضلاً عن أنه يصبح عنصر شر لا نفع منه)^(٦) .

(١) سورة الحاقة : آية (٧) .

(٢) سورة البقرة : آية (٤٥) .

(٣) سورة البقرة : آية (٤٥) .

(٤) سورة البقرة : آية (١٧٧) .

(٥) سورة النحل : آية (١٢٦) .

(٦) روح الدين الإسلامى ص ٢٠٧ الطبعة السادسة

هذا وقد وردت الأحاديث الكثيرة الدالة على أهمية الصبر منها قوله ﷺ (والصبر ضياء)^(١) ، وقوله : (ومن يتصبر يصبره الله)^(٢) ، وفي الحديث الصحيح (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له)^(٣) ، وقال عمر بن الخطاب (خير عيش أدركناه بالصبر) .

وقد قيل عن الصبر كما ورد في مدارج السالكين^(٤) :

- (الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب) .

- (هو الفناء في البلوى ، بلا ظهور ولا شكوى) .

- (تعويد النفس الهجوم على المكاره) .

- (هو ترك الشكوى) .

وقال عمرو بن عثمان : (هو الثبات مع الله ، وتلقي بلائه بالرحب والدعة) .

ومن الآيات الكونية التي تنوه في نهايتها عن الصبر قوله تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا . فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل ، وشئ من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازى إلا الكفور * وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير : سيروا فيها ليلياً وأياماً آمنين * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾^(٥) .

فالصبر هنا ضروري لاستنطاق الآثار التاريخية ، آثار سد مأرب ، ولتتبع الأخبار التاريخية حول هذه الحادثة ، التي ملأت الأحاديث عنها خيام العرب ، وحواسرهم ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ ، وكل هذا الصبر من أجل الوصول إلى الآية المطلوبة وإلي دلالة هذا الحدث الرهيب : لدلالته على قدرة الله ، وعدله ، وعلى عاقبة التكبر وبطر النعمة وكفرانها وعاقبة الظلم الناشئ عن ذلك كله ﴿ وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ فالصبر هنا ، هو أيضاً

(١) هو جزء من حديث أخرجه مسلم - كتاب الطهارة ٢٠٣/١ برقم (١)

(٢) هو جزء من حديث أخرجه البخاري - كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة ص ٢٩٣ برقم (١٤٦٩) ومسلم كتاب الزكاة ٧٢٩/٢ برقم (١٢٤)

(٣) أخرجه مسلم - كتاب الزهد ٢٢٩٥/٤ برقم (٦٤)

(٤) هذه الأقوال من مدارج السالكين ج ١٥٨/٢

(٥) سورة سبأ : آية (١١ - ١٧)

خلق علمى يهبنا التآني والمعانة الفكرية ، وبعد النظر من أجل الوصول إلى الحق ، إلى التعليل الصحيح لحوادث التاريخ ، التعليل بسنن الله في الأمم وفي تاريخ البشر ، ومن هذه السنن ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(١) وأن الله لا يجازى بالعقوبة والحرمان إلا الكفور ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازى إلا الكفور ﴾ أما الشكر فهو هنا شكر الله على نعمة الاستقامة ، والتواضع لله ، على نعمة الأمن من كوارث السيول والزلازل والأعاصير ومن غضب الله الذي هدانا لاتباع شريعته^(٢) .

وأشد ما يكون الإنسان محتاجاً إلى الصبر ، في مواقف الخطر ، كالغرق والحروب والكوارث، والزلازل والأعاصير والمرض العضال ، حيث يمتاز الصابرون المؤمنون بالثبات ورجاحة العقل ، ورباطة الجأش وقوة البأس والشجاعة ، فلا يأسون ، ولا يفقد أحدهم صوابه ولا تدبيره ، فهو يعلم أنه مهما طالبت به الشدة راجع إلى ربه إلى ثوابه وجناته . وقد مدح الله هؤلاء المؤمنين الذين يذكرون ربهم عند الشدائد بقوله :

﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله ، وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾^(٣) .

وقد ضرب الله لنا أروع المثل في آياته على صبر (أيوب) ، وصبر بنى إسرائيل ، وصبر يونس الملقب (ذا النون) وكان النصر والظفر والفوز في هذه الآيات هو المكافأة على الصبر المصحوب بالالتجاء إلى الله وتسييحه ، والاستغاثة به دون سواه والتوبة إليه ، فشفى الله أيوب وأعاد إليه أهله ومثلهم معهم ، ونجى بنى إسرائيل من فرعون وجنده وأورثهم ديارهم وأموالهم قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾^(٤) ،.... ونجى ذا النون من بطن الحوت كما قال جل جلاله ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناها من الغم وكذلك نتجى المؤمنين ﴾^(٥) .

(١) سورة الرعد : آية (١٢)

(٢) انظر التوبة بالآيات ص ٦٥ (مرجع سابق)

(٣) سورة البقرة : آية (١٥٦ - ١٥٧)

(٤) سورة الأعراف : آية (١٣٧)

(٥) سورة الانبياء : آية (٨٧ - ٨٨)

وقال سبحانه ﴿ وَإِنْ يونس لمن المرسلين . إذ أبقى إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلنا إلى مائة ألف أو يزيدون ﴿^(١) واصبح بصره وتسيحه وتوبته نبيا ورسولا هداية مائة ألف .

(١) سورة الصافات آية : ١٣٩ - ١٤٧ .

سادساً : الدعوة الى توفير الحياة الطيبة للانسان :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (١).

ففى هذه الآية الكريمة يحث الله عز وجل الإنسان على السعي والنشاط والعمل ويُعد عبادة وجهادا ، ولكنه يهدف من وراء سعيه ونشاطه الى هدف إنسانى هو تحقيق حياة طيبة للإنسان ، يتذوق فيها طعم السعادة التى ينشدها كل بشر لنفسه ولمن يجب .

ولا عجب أن ينشد الإنسان المسلم الحياة الطيبة الهنيئة الرغيدة ، فقد جعلها الله سبحانه وتعالى مثوبة لأهل الإيمان والاستقامة من عباده فى قوله سبحانه ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ (٢) ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (٣) ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ (٤) .

والحياة الطيبة تتكون - فى نظر الإسلام - من عنصرين لا غنى لأحدهما عن الآخر :

١- عنصر مَادى . ٢- عنصر معنوى .

أولاً : العنصر المادى فى الحياة الطيبة :

فأما العنصر المادى .. فعنني به تمتع الإنسان بما أودع الله فى الأرض من طيبات وزينه ، فقد أكد الإسلام إباحة ذلك ومشروعيته ، لأنه لا يليق أن يخرج الله عز وجل هذه الطيبات وتلك الزينة ثم يجرمها على عباده ، لكن شياطين الإنس والجن هم الذين حرموها وحللوها من عند أنفسهم كذباً وإفتراءً على الله عز وجل وفى هذا يقول الحق جلت قدرته : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (٥) .

أباح الإسلام كما تنص هذه الآية الكريمة للناس أن يستمتعوا بما فى الأرض من خيرات ، وأن ينعموا بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، غير مطالبين إلا بالتزام حدود ما أحل الله واجتناب ما حرمه .

وهو سبحانه ما أحل لهم إلا كل طيب ، وما حرم عليهم إلا كل خبيث قال تعالى :

(١) سورة البقرة آية : (١٦٨) .

(٢) سورة الجن آية : (١٦) .

(٣) سورة الاعراف آية : (٩٦) .

(٤) سورة طه آية : (١٢٣ - ١٢٤) .

(٥) سورة البقرة آية : (١٦٨) .

﴿ ويسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾^(١) وقال عز وجل فى بيان صفة رسوله وخصائص رسالته التى يعرفها أهل التوراة والانجيل ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾^(٢) .

وقد ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية جملة من طيبات الحياة المادية التى امتن الله بها على

عباده منها :

طيبات المأكل والمشرب :

أحل لهم من الطعام والشراب ما لذ وطاب من لحم وفاكهة ولبن وعسل وماء عذب فرات سائغ شرابه .. فلا حرج على المؤمن فى الاستمتاع بها وانتقاء أطيبها الذى تشتتة نفسه كما ذكر الله تعالى عن الفتية المؤمنين من أصحاب الكهف انهم قالوا ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ﴾^(٣) وكان الرسول ﷺ يعجبه لحم الذراع ، ويحب الحلوى ، ويستعذب له الماء .

ولم يطلب القرآن فى مقابل التمتع بهذه الطيبات إلا تقوى الله عز وجل وشكره على نعمه العظيمة وفى ذلك يقول سبحانه ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾^(٤) ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾^(٥) .

طيبات الملبس والتجمل :

أباح الله للناس طيبات الملبس والتجمل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾^(٦) ، ففي هذا القول الكريم يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس مهمته ستر العورات - وهى السوءات - والريش ما يتجمل به ظاهراً فالأول من الضروريات ، والريش من التحسينات ، وهذا يدلنا على أن الله تعالى يريد لعباده شيئاً فوق ستر العورة وهو التجمل والتزين وقد جاء فى الحديث الصحيح (إن الله جميل يحب الجمال)^(٧) ، ولهذا جاء فى الآية الاخرى ﴿ خذوا

(١) سورة المائدة : آية (٤) .

(٢) سورة الاعراف: آية (١٥٧)

(٣) سورة الكهف : آية (١٩)

(٤) سورة المائدة : آية (٨٨)

(٥) سورة سبأ : آية (١٥)

(٦) سورة الاعراف : آية (٢٦)

(٧) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان ٩٣/١ برقم (١٤٧)

زينتكم عند كل مسجد ﴿^(١) وهذا ما جعل رجلا كالحسن يتهياً للصلاة في أبهى حلله وأجمل ثيابه ، فلما سئل في ذلك قال : أتزين لربي ، ثم قرأ الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ وكان ﷺ يقول إذا اكتسى ثوبا (الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري عورتى) (٢) .

طيبات المسكن :

كما أباح لهم سبحانه طيبات المسكن والمأوى التى امتن الله بها عليهم وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ (٣) وقد ذكر القرآن فى معرض الامتنان والإنعام بيوت ثمود التى نحتوها من الجبال التى ذكرهم بها نبيهم صالح قائلاً : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبؤاكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (٤) .

وكان الرسول ﷺ يحب الدار الفسيحة ويعدها من أسباب السعادة ، وكان يدعو فى وضوئه كثيراً فيقول : (اللهم اغفر لي ذنبي ووسع لي في داري وبارك لي في رزقي) فلما سأله أنس : ما أكثر ما تدعو بهذه الدعوات ؟ قال (فهل تراهن تركن شيئاً) (٥) فإنها جمعت بين المغفرة وسعة الدار والبركة فى الرزق فجمعت خيري الدنيا والآخرة .

طيبات المركب :

ومن الطيبات التى أباحها الله للناس طيبات المركب - حيوانياً كان أو آلياً - قال تعالى : ﴿ والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ (٦) وقبلها قال فى الأنعام : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ (٧) وفى سورة أخرى يقول : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (٨) وفى أخرى يقول : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستروا على ظهوره

١) سورة الاعراف : آية (٣١) .

٢) أخرجه أحمد ١٥٧/١ وانظر تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢ .

٣) سورة النمل : آية (٨٠) .

٤) سورة الاعراف : آية (٢٠) .

٥) أخرجه الترمذي - كتاب الدعوات باب حدثنا الأنصاري ٥٢٧/٥ برقم (٣٥٠٠) .

٦) سورة النحل : آية : (٨) .

٧) سورة النحل : آية (٨٠) .

٨) سورة غافر : آية (٧٩ - ٨٠) .

ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين *
 وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴿١﴾ وقد جعل النبي ﷺ من عناصر السعادة (المركب الصالح) أو (المركب الهنىء) كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال : ﴿ من سعادة المرء المسكن الواسع ، والجار الصالح والمركب الهنىء ﴾ (٢) ، وقد كان الفقهاء قديماً يُعدون (الفرس) من الخوائج الأصلية للمسلم . وليس أهناً من السيارة الآن ، تقرب البعيد ، وتطوى المسافات ، فإن لم تكن سيارة فدراجة بخارية أو نحوها ، فإن لم يتيسر المركب الهنىء الخاص ، فالمفترض أن تتوافر للناس مواصلات عامة جيدة وميسرة .

طيبات الحياة الزوجية :

ومن هذه الطيبات المباحة طيبات الحياة الزوجية والعائلية قال تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفده ورزقكم من الطيبات ﴾ (٣) ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (٤) . ولم يجد القرآن غضاضة في الإشارة إلى المتاع الحسى بين الزوجين فإنه تلبية لنداء الفطرة ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ (٥) حتى إنه ليذكر هذا الأمر فى أثناء آيات الصيام والدعاء والتعبد فى شهر رمضان ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ (٦) .

وفى الحديث (الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة) (٧) .

طيبات اللهو :

ومن تلك الطيبات طيبات اللهو المباح ، والقيام بالألعاب الفروسية والرياضة وألعاب التسلية أو مشاهدتها ، والمزح بغير الكذب ، وغير ذلك من كل ما يدخل بهجة على الحياة ، والسرور على النفس بشرط عدم مخالفته للشرع الخفيف ، فإن الجهد المستمر والحياة الصارمة - على الدوام - لا تطاق .

(١) سورة الزحرف : آية (١٢ - ١٤)

(٢) الأدب المفرد - للإمام البخاري - ترتيب وتقديم كمال يوسف الحوت ص ١٦١ رقم ٢١٤ عالم الكتب ط ٢ ، سنة ١٩٨٥م .

(٣) سورة النحل : آية (٧٢)

(٤) سورة الروم : آية (٢١)

(٥) سورة البقرة : آية (٢٢٣)

(٦) سورة البقرة : آية (١٨٧)

(٧) أخرجه مسلم - كتاب الرضاع ١٠٩٠/٢ برقم (٦٤)

وقد قال النبي ﷺ لبعض أصحابه (ساعة وساعة)^(١) وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا ، وكان أصحابه يمزحون وكان يسابق عائشة فسبقته مرة وسبقها مرة ، فقال (هذه بتلك) وقد سبق بين الخيل وأعطى السابق ، وسمح بغناء جاريتين في بيته .. وحمل عائشه لتتنظر إلى الخبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد^(٢) .

وبهذا نرى أن اللهو البرئ المهدب حاجة من حاجات الفرد والجماعة ، يجب أن ييسر لهما .. أما الإسراف فيه أو الانحراف به ليكون معول هدم للقيم والأخلاق ، وأداة تضليل وتمزيق للضمائر والأفكار .. فهذا هو الحرام المحظور .

طيبات الجمال والزينة :

ومن الطيبات طيبات الجمال والزينة ، قال تعالى في معرض الإنكار على الذين حرموا الزينة والطيبات من الرزق ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾^(٣) .

ففي هذا القول الكريم أمر الله بنى آدم بأخذ الزينة ، كما أمرهم بالأكل والشرب ، ليتحقق في الحياة عنصر الجمال بالزينة وعنصر البقاء بالطعام والشراب ، فلم يقصر الإسلام اهتمامه على ما ينفع بل شمل ما ينفع وما يلد معا .

وقد لفت القرآن الأنظار إلى عنصر الجمال والزينة في الحياة في أكثر من موضع ، كقوله تعالى في معرض الامتنان بفوائد الانعام : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾^(٤) إلى أن يقول عن دواب الركوب : ﴿ والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾^(٥) .

فانظر كيف اهتم كتاب الله بذكر الجمال والزينة في سياق ذكر المنافع المادية المباشرة ليرقى بالذوق الإنساني ، ويغرس في وجدان المسلم الشعور بالجمال ، والإحساس بنعمة الله تعالى فيه .

(١) قاله لحظظه عندما قال حظظه للرسول ﷺ : ناقظ حظظه ، فقال له : يا حظظه (ساعة وساعة) رواه مسلم في كتاب التوبة

٢١٠٦/٤ رقم (٢٧٥٠)

(٢) انظر السوره النبويه .

(٣) سورة الاعراف : آيه (٣١ - ٣٢)

(٤) سورة النحل : آيه (٥ - ٦)

(٥) سورة النحل : آيه (٨)

وبعد ذلك بآيات قليلة فى السورة نفسها ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حليه تلبسونها ﴾ ^(١) فاخلية شئ جميل لا شئ نافع كأكل لحم السمك الطرى . ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ ^(٢) فالمعدن يطرق أو يصهر أو يصقل بواسطة النار ابتغاء أمرين ، إما الانتفاع به فى صناعة أو زراعة أو حرب ونحو ذلك ، وهذا هو المتاع ، وإما ابتغاء التجميل والتزين كالسوار والطوق والخاتم والقرط وغيرها وهذا هو الحلية ، ومما له دلالة هنا أن القرآن قدم الحلية على المتاع ^(٣) . هذه هى نظرة الإسلام إلى طيبات الحياة وشرعية الإستمتاع بها .

ثانيا : العنصر المعنوي فى الحياة الطيبة :

والحياة الطيبة لا تقوم بالجانب المادي وحده فقد يتوافر للإنسان المطعم الهنىء ، والمشرب المرئ والملبس الفاخر ، والمركب الفاره ، والمسكن الواسع ، والمرأة الجميلة ، ومع هذا كله لا تتحقق له الحياة الطيبة .

إن أساس الحياة الطيبة هو سكينه النفس وانسراح الصدر ، وطمأنينة القلب .

روى الإمام أحمد وابن ماجه عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : كنا فى مجلس فطلع علينا رسول الله ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يارسول الله ، نراك طيب النفس ! قال : (أجل) ثم خاض القوم فى ذكر الغنى فقال رسول الله ﷺ (لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل ، والصحة لمن اتقى خير من الغنى وطيب النفس من النعيم) ^(٤) .

وهكذا بين لهم أن الغنى لا بأس به ولا حرج فيه ، ولكن الصحة خير منه . ذلك أن المريض الذى يعانى الآلام لا ينعم بغناه ، وخير من هذا وذاك طيب النفس ، فهو فى الحقيقة نفحة من نعيم الخلد ، يعجل الله بها فى الدنيا لمن يحب من عباده فهى من عاجل بشرى المؤمن .

وفى مثل هذا ورد الحديث النبوى (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وآتته الدنيا وهى راعمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له) ^(٥) .

(١) سورة النحل : آيه (١٤) .

(٢) سورة الرعد : آيه (١٧) .

(٣) موضوع (لاقتصاد الاسلامى اقتصاد إنسانى) أ . د يوسف القرضاوى ص ١٦ وما بعدها ، من مجلة النور الكويتية العدد ١٣٣ .

(٤) أخرجه أحمد ٣٧٢/٥ وابن ماجه - كتاب التجارات - باب الخث على المكاسب ٧٢٤/٢ برقم (٢١٤١)

(٥) أخرجه الترمذى - كتاب صفة القيامة - باب حدثنا قتيبة ٦٤٢/٤ برقم (٢٤٦٥) .

وفي عصرنا كم رأينا من أصحاب الملايين من يعيش طول عمره محروماً مما يجده الفقير والمسكين ، لما يعانيه من مرض السكر ، أو ضغط الدم ، أو عسر الهضم ، أو ضعف الكبد ، أو قرحة المعدة ، أو غيرها مما يزداد انتشاراً بين الأثرياء .

كل هذا يؤكد لنا أن السعادة في شئ آخر وراء وفرة الغنى ، وكثر المال ، واقتناء الملايين ، هذا الشئ هو الإيمان الصادق ، والعمل الصالح فهما ينبوع السعادة الحقة ، والحياة الطيبة كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

أما المال ولزومه فالذي يعنى المؤمن لسعادته منه هو ما يكفيه ، ويغنيه عن سؤال غيره ، فهذا حسبه مع العافية والأمن . وفي الحديث (من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا) (٢) .

بل لقد التفت الشيخ طنطاوى جوهرى إلى أسرار الايات الكونية أكثر من غيره ، وكيف أنها سرت فى القرآن واختلطت بكل أمر وكل حكمه وكل مثل وكل إنذار أو تبشير حيث يقول رحمه الله : (انظروا أيها الاخوان ما جاء فى القرآن من الأدلة وأنواع التشبيهات تروها نحو المشاهدات المحسه وعلوم الطبيعه :

١ . فإن امر بالعبادة قال : ﴿ يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٣) . ووصف إنزال الماء وحياء الحقول والبساتين ونوه بالحلب والتمر والكلأ .

٢ . وان استدل على التوحيد قال : ﴿ واهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم أن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس .. الخ الآيه ﴾ (٤) واخذ يشرح اختلاف الليل والنهار وسير الفلك فى البحر والسحاب والمطر والنبات .

(١) سورة النحل : آيه (٩٧) .

(٢) أخرجه الترمذى كتاب الزهد - باب حدثنا عمرو بن مالك ٥٧٤/٤ برقم (٢٣٤٦)

(٣) سورة البقرة : آيه (٢١ - ٢٢)

(٤) سورة البقرة : آيه (١٦٣ - ١٦٤) .

٣. وإن طلب منا الشكر قال : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١)
- فليكن الشكر على تسخير البحر والسمك والدر والسفن الجارية .
٤. وإن ذكر الحكمة والحكماء والعلم والعلماء قال : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها إلى قوله إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٢) فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر فى الالوان والاشكال فى الانسان والحيوان والجبال والدواب .
٥. وان حرص على الإنفاق فى المنافع العامة كأن يصف زيادة الحسنات للمنفق بازيداد الحب فى السنايل كما فى قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة ﴾ (٣) الخ الآيه .
٦. وان ذم النفاق مثل بالليل وظلمته والنار وإيقادها وسرعة ذهاب نورها ، وإن مثل الكفر جعله كالظلمات ، او القرآن جعله كالمطر ، أو الوعيد جعله كالرعد ، أو الحجج والبراهين جعلها كالبرق . كما فى قوله تعالى ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون إلى قوله تعالى إن الله على كل شئ قدير ﴾ (٤) .
٧. وان ذكر الاخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث كما فى قوله تعالى ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة ﴾ (٥) .
٨. وان ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار فقال لهم ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ... تولى الليل فى النهار وتولى النهار فى الليل ﴾ (٦) إلى غير ذلك مما ذكره الشيخ من المسائل .
- وهكذا ففى هذه المشاهد وأمثالها مظاهر العبادة وأدلة التوحيد ومطالب الشكر ، ومبادئ الحكمة ، وموجبات الخشية ، ودلائل البعث والقيامة ، ومثال ازدياد الحسنات ومشابهات النفاق ،

(١) سورة النحل : آيه (١٤)

(٢) سورة فاطر : آيه (٢٧ - ٢٨)

(٣) سورة البقرة : آيه (٢٦١)

(٤) سورة البقرة : آيه (١٧ - ١٨)

(٥) سورة البقرة : آيه (٢٦٥)

(٦) سورة آل عمران : آيه : (٢٦ - ٢٧) .

وما يناسب الكفر ، وما يوافق العدل ، وما يوضح الرياء ، وما يشرح الإخلاص ، وما يبين انقلاب الدول ، ذلك هو الذى اتجهت إليه وجهة القرآن^(١) .

وبعد فهذه بعض الآيات الكونية التى تدعو إلى الطاعات من خلال المنهج الحسى^(٢) ، لتكن أسرع فى توصيل ما يريد الله عز وجل من عبادة .

وهكذا فإن القرآن الكريم جاء ليكون آية فى الإعجاز ، ومنبعا للهداية ، وأنه قد سلك فى سبيل الهداية طريقا سهلا ميسورا وهو مخاطبة الفطرة الانسانية بما بينها وبين الكون ومشاهدة من تجاوب وانسجام ، كما سلك فى بيان الإعجاز مناحى غير الناحية البلاغية ليكون حجة الله على العالمين .

كما أنه سبحانه وتعالى ذكر عدداً هائلاً من الآيات القرآنية المتناولة للآيات الكونية فى الانفس والآفاق مع مزجها بكل أمر وكل توجيه من الله لعباده حتى تسوقهم سوقاً لمراد الله عز وجل .

(١) تفسير الجواهر - المجلد الاول ص ٢٦٥ (مرجع سابق) .

(٢) انظر الايات التى تدعو الى الطاعات من خلال المنهج الحسى :-

◀ ادب المشى : البقرة آيه : ١٥٥ - ١٥٧ .

◀ الإطعام : الحج آيه : ٢٦ - ٢٨ .

◀ الاعتبار : النور آيه : ٤٤ الروم آيه : ٤٣ .

◀ التمساق إلى الخيرات : الحديد آيه : ٢١ .

◀ التفكره فى الموت : الزمر : آيه : ٤٢ .

◀ الخدر : المنافقون آيه : ٤ .

◀ الخشية : البقرة آيه : ٧٤ .

◀ السعى فى الأرض : المثلث آيه : ١٥ .

◀ القوه : الانفال آيه : ٦٠ .

◀ الحماسية : الاسراء آيه : ١٤ .

◀ مصاحبة الأخيار : الكهف آيه : ٢٨ .

◀ مطابقة القول للفعال : الصف : آيه : ٢ .

◀ النظر إلى نعم الله : عبس : آيه : ٢٤ - ٣٢ .

◀ النظر فى آيات الله : يونس آيه : ٦ .

◀ الدعوه إلى الهجرة : النساء : آيه : ٩٧ - ١٠٠ .

◀ الوفاء بالعود : المائدة : آيه : ١ .

◀ بذل الأسباب : مريم : آيه : ٢٣ - ٢٥ .

المبحث الخامس : التحذير من المعاصي

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : مفهوم المعصية وآثارها .

**المطلب الثاني : التحذير من المعاصي من خلال الآيات
الحسية في القرآن الكريم .**

المبحث الخامس : التحذير من المعاصي .

المطلب الأول : مفهوم المعصية وآثارها :

أولاً : مفهوم المعصية :

أ - المعنى اللغوي للمعصية :

المعصية مصدر عصى يعصي ، وأصله من عصوت الجرح : إذا شددته ، ويقال : اعتصت النواة : إذا اشتدت .

والعاصي : هو العرق الذي لا يرقاً ، والفصيل الذي لا يتبع أمه .

وتقال : عصاني فعصوته : ضاربي بها فغلبته ، والعصيان : خلاف الطاعة ^(١) .

ب - موارد استعمال لفظ المعصية في القرآن الكريم :

قال الراغب : عصى عصياناً : إذا خرج من الطاعة ، وأصله أن يتمنع بعصاه ، قال تعالى :

﴿ وعصى آدم ربه ﴾ ^(٢) ، ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ ^(٣) ، ﴿ ءالتن وقد عصيت قبل ﴾ ^(٤) ،

ويقال فيمن فارق الجماعة فلان شق العصا ^(٥) .

وهذه المادة (عصى) ورد ذكرها في القرآن والسنة كثيراً ، وأغلبها يأتي مقارناً للطاعة .

ج - المعنى الاصطلاحي للمعصية :

المعصية ضد الطاعة والمراد بها مخالفة العبد ربه فيما أمره أو نهاه .

ثانياً : آثار المعاصي :

للمعاصي الكثير من الآثار السيئة على صاحبها ... من أهمها ما ذكره ابن القيم في كتابه

الجواب الكافي ^(٦) حيث بين الآثار السيئة للمعاصي في النقاط التالية :

أولاً : حرمان العلم : وصعوبة تحصيل العلوم : ذلك لأن العلم عماده التقوى لقوله تعالى :

﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ ^(٧) ، والتقوى هي باب المخارج للمشكلات والتيسر للمعسررات

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ^(٨) ، فالعاصي يحرم بعصيانه من

١ (انظر القاموس المحيط باب الواو والباء فصل العين ص ١٦٩١ ، ولسان العرب باب الواو والياء ، فصل العين ٦٣/١٥)

٢ (سورة طه : آية (١٢١))

٣ (سورة النساء : آية (١٤))

٤ (سورة يونس : آية (٩١))

٥ (المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٧)

٦ (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - ابن القيم ص ٣٤ بتصرف دار الكتب العلمية .

٧ (سورة البقرة : آية (٢٨٢))

٨ (سورة المائدة : آية (٣))

فائدة العلم ونوره في القلب .. لأن المعصية تضع حاجزاً بين العلم والقلب من أجل ذلك فقد حذر الإمام مالك الإمام الشافعي من المعاصي لأنها تطفئ العلم فقد جلس الامام الشافعي - رحمه الله - بين يدي مالك يوماً ، وقرأ عليه فأعجبه ما رأي من وفور فطنته ، وتوقّد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال مالك - رحمه الله - إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية ، وقال الإمام الشافعي ^(١) - رحمه الله - :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال : أعلم بأن العلم فضل
وفضل الله لا يؤتاه عاص

ثانياً : حرمان الرزق : فالمعصية تحرم العبد من الرزق فقد ورد في السنة أن الرسول - ﷺ - قال : (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) ^(٢) ، وعلى التقيض فإن تقوى الله وترك المعاصي يستجلبان الرزق للعبد .

ثالثاً : وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقربها لذة ترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حرياً بتركها ، وشكى رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال : إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت وأستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب .

رابعاً : الجفوة والهجران : ذلك أن العاصي يبنده أهل الخير ويرفضه عامة الناس ، فيعيش كأنه في عزلة وحياة هجران ، وبذلك يحرم بركة التعامل ، ودعاء المخلصين ، ومجالسة العلماء .

خامساً : سواد القلب وظلمته : لا شك أن قلب العاصي يسودّ من كثرة المعاصي ، لأن القلب كالزجاج كثرة الذنوب تسودّه فتحجب فيه الرؤية فلا يهتدي بنور الإيمان ، بل يتخبط في دياجير الظلمات ، ويتبع خطوات الشيطان ، ويهجر السنن ويعشق البدع ويخاف من كل شيء ولا يخاف الله ، إنها قلوب عميت فضلت .

سادساً : وهن في القلب والبدن : فقلب العاصي قلب مريض لأنه صاحب بصر زائف ، وسمع متجسس ، ومطعم مريب ، يهوي الرذائل ، ولا تستهويه الفضائل ، فكل ذلك يورث العاصي وهن بالقلب ، وإذا كان العبد يستمد قوة بدنه من قوة قلبه ، وضعفه من ضعفه فإن بدن العاصي يكون ضعيفاً ، وضعفه هذا ناتج عن وهن القلب ، ولا يغرنك ضخامة الأجسام فالقيل أضخم الحيوانات وليس أشجعها ولا أفضلها ، والسابقون من الأوائل انتصرت أجسامهم لقوة إيمان قلوبهم .

١ (ديوان الشافعي ص ٧١ جمع وشرح نعيم زرزور دار الكتب العلمية - بيروت .

٢ (أخرجه أحمد ٢٧٧/٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، وابن ماجه في الفتن باب العقوبات ١٣٣٢/٢ ، ١٣٣٣ ، برقم (٤٠١٩))

سابعاً : حرمان الطاعة : فالمعاصي تحجب القلب عن نور الطاعة وتبعده عن طريق التقوى وتحرمه من نور الله ، فمن حرم الطاعة فقد حرم الخير كله ، وما قيمة العبد بدون الطاعة !؟ ، إنه كالحَيوان الذي يعيش حياته بدون هدف ، حتفه في سمنته ، كذلك العصاة أبدانهم وقوة نار جهنم إلا من رحم ربك ، وتاب عليه .

ثامناً : نسيان الله : فأصحاب المعاصي قلوبهم قاسية وأفئدتهم قاسية لا يخطر ببالهم إلا ما ينتج عن أهوائهم ونزواتهم ، ولا يعرفون الله إلا في الشدائد ، يعيشون عيشة الضنك ويحشرون وهم يتخبطون من ظلمة بصائرهم ، يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (١) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .. قال رب لم حشرتني أعمى * وقد كنت بصيراً ؟ .. قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (٢) .

تاسعاً : المعاصي تزيل النعم : فكما أن الشكر والطاعة والتقوى تستجلب الرزق وتفتح أبواب الخير كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (٣) ، فإن المعاصي تزيل النعم ، لأن النعم تعرقلها الذنوب ويقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : (ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع بلاء إلا بتوبة) (٤) ، ويقول تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٥) .

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما : " إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في القلوب ، وإن للسيسة سواداً في الوجه ، وظلمة في القبر والقلب ، ووهنا في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق " (٦) .

عاشراً : ومن آثار المعاصي الفتن : لا أقوال الفتن المادية التي هي فقد الأرواح ، أو فقد الأموال ، أو فقد الأمطار ، أو فقد الثمار ، ولكن ما هو أعظم من ذلك ، وهو الفتن الدينية ، قال الله عز وجل

(١) سورة الحشر : آية (١٨-١٩)

(٢) سورة طه : آية (١٢٤)

(٣) سورة إبراهيم : آية (٧)

(٤) وانظر أجواب الكافي ص ٣٦ .

(٥) سورة الشورى : آية (٣٠)

(٦) ففروا إلى الله - لأبي ذر القلموني ص ٣٠ - المكتبة التجارية - دار مصر للطباعة .

: ﴿ فَمَا نَقْضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١) .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الحق جلت قدرته أنه بسبب نقضهم ميثاقهم عاقبهم الله عز وجل بأربع عقوبات هي: ١- لعناهم ، ٢- وجعلنا قلوبهم قاسية ، ٣- يحرفون الكلم عن مواضعه ٤- ونسوا حظاً مما ذكروا به، وما أعظم هذه العقوبات ! إنها والله أعظم من أن تترك البلاد فلاة ليس فيها أهل ولا مال ، هذه أعظم منها ! ويقول عز وجل مبيناً ما يقع على العصاة بسبب توليهم عن دين الله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (٢) ، فجعل تولي الإنسان عن طاعة الله وشريعته مصيبة بسبب بعض ذنوبهم ، فدل ذلك على أن إعراض المرء عن طاعة الله وانصرافه من أسباب المعاصي .

وإذا تأملنا مجتمعنا المعاصر وما حل فيه من بلاء ومصائب ومشاكل وأمور لم تكن موجودة قبل ذلك لاعتقداً اعتقاداً جازماً أن سبب كل ذلك هو إنغماس الناس في المعاصي وبعدهم عن الطاعات التي أمرهم الله عز وجل بها وهذا شهادة صدق على قول الحق : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (٣) .

الحادي عشر : ومن آثار السيئة أن بها ينهدم جزء من الإسلام لا سيما إذا فشلت وانتشرت بين العامة إذ قد يصل الأمر إلى حد أن يظن بعض الناس أن هذه المعصية طاعة ! أو على الأقل لا بأس بها ! انظروا مثلاً إلى المعازف وآلات اللهو ، حيث كانت في بلادنا هذه من قبل أمراً منكراً ، لا يعلمها الا أفراد من الناس ، ومن ذلك إذا عصر الناس عليها فإن الآلات تكسر ، وصاحبها يوبخ ، وربما يؤدي ضرباً أو حبساً ، ثم لما فشلت هذه المعصية وانتشرت وكثرت ، أصبحت كأنما هي معروف لا منكر ، فظن كثير من النشء الذين لم يكونوا في العهد الأول ، أن هذا أمر مباح لا بأس به ، وبهذا انطمس جزء من الشريعة ، كيف ؟ لأن الشريعة تحرم ذلك حيث صح عن الرسول ﷺ أنه قال : (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف) (٤) ، فالحر : يعني الفرج ، أي الزنى ، والحرير معروف (٥) .

١ (سورة المائدة : آية (١٣))

٢ (سورة المائدة : آية (٤٩))

٣ (سورة المائدة : آية (٤٩))

٤ (أخرجه البخاري - كتاب الأشربه - باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ص ١٢٠٥ ، رقم (٥٥٩٠))

٥ (انظر الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع - الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ٢٣ - دار المسلم للطباعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ)

فالمهم إن من آثار المعاصي السيئة أنها إذا شاعت وفشت في المجتمع انهدم بذلك جزء من الشريعة ، حيث ينسى الناس أو يتناسون أن حكم الشريعة في هذا الأمر الشائع خلاف ما هو عليه .
المعاصي وهلاك المجتمعات :

لقد شهد التاريخ كثيراً من المجتمعات التي أهلكتها المعاصي ومحقتها الذنوب ، فكان ذلك عقاباً لها وردعاً لغيرها وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وكم أهلكننا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ ^(١) ، ولا نستطيع هنا حصر هذه المجتمعات فليس المجال مجال حصر ولكننا نود أن نبين هنا أن الله عز وجل أرسل الرسل للأمم يذكرونهم بالسابقين وأحوالهم لعلهم يعتبرون وبهم يتعظون لكنهم نسوا ما ذكروا به فأخذهم الله بغتة ، وفي ذلك يقول جلت قدرته : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ ^(٢) ، فهذه الآية الكريمة تبين أن هلاك الأمم إنما وقع بهم لخروجهم عن الطريق المستقيم وتكذيبهم رسل رب العالمين ، واستهزائهم بآيات الله واتباع خطوات الشياطين ، والميل نحو الهوى والإنغماس في الشهوات وحب النساء وعشق حياة الترف والنعم .
والتاريخ حافل بقصص هؤلاء الذين أخذهم الله بذنوبهم وأهلكهم بمعاصيهم بأنواع شتى من العذاب .

بقول عز وجل : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه * فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة * ومنهم من خسفنا به الأرض * ومنهم من أغرقنا * وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الإسراء : آية (١٧)

(٢) سورة هود : آية (١٠٢)

(٣) سورة العنكبوت : آية (٤٠)

آثار المعاصي على المجتمعات :

وللذنوب والمعاصي آثار سيئة على المجتمعات منها :

أولاً : إحلال النقم وكثرة الخن :

ينعم الله على البشرية ويطلبهم بالشكر والذكر وفعل الطاعات ، وعمار الأرض وعدم الإفساد ، أي عبادته وحده وتطبيق شريعة السماء ، ولكن سرعان ما ينسى الإنسان فيستعمل نعم الله في غير ما أمره ويظغى ويتكبر وتمتلئ القلوب حقداً والنفوس ظلماً ، فتحل عليهم النقم وتنزل بهم البلوى ، وتتوالى الخن ، ويطلب العصاة من ربهم أن ينقذهم وهم على حالهم فيطالبهم الله بالرجوع إليه أولاً والتوبة بين يديه ، وتغيير ما بأنفسهم حتى تنزل عليهم رحمة العليّ القدير وفي ذلك يقول عزّ وجل : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم * وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ (١) .

(وهكذا تقتضي سنة الله وعدله أن يجزي الإحسان إحساناً والسوء عقاباً وعذاباً ، فإن أحسن الناس كان إحساناً لأنفسهم ، لأنهم يجنون ثماره نعماً ورحمة وإن أساءوا فعواقب إساءتهم راجعة إليهم لا يضررون إلا أنفسهم) (٢) ، ويجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى استجاب لرسوله ﷺ في دعوته أن لا يهلك أمته بسنة عامة حيث قال عليه الصلاة والسلام (إن الله لا يهلك أمة محمد ﷺ بسنة عامة) (٣) .

ثانياً : ضياع الأمن وانعدام الإستقرار :

إن الإيمان سلاح قوي وزاده التقوى ، وما من أمة أخلصت لله وتقربت إليه بالطاعات إلا وغمرها الله بنعمه وستره حتى تعيش في أمن واستقرار ، هادئة البال ، هانئة الحياة ، فإن استشرى فيهم الترف وفسدت الأخلاق وكثرة الذنوب وتآلق العصاة في المجتمعات ، واستحقت من الله العقاب ، فيأخذها بذنوبها .

يقول الله عز وجل : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان * فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٤) .

١ (سورة الرعد : آية (١١))

٢ (سنن الله في المجتمع من خلال القرآن - محمد صادق عرجون ص٤٧ - الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة .

٣ (أخرجه مسلم - كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم لبعض ٢٤٠/٩ رقم (٢٨٨٩))

٤ (سورة النحل : آية (١١٢))

وتنقلب أحوال الناس من هناء إلى شقاء ومن سعد إلى همّ وغمّ بل ويذهب الله بهم ويأتي بغيرهم يرثون نعم الله عز وجل التي كان قد منحها لهؤلاء الذين كفروا بأنعم الله كما بينت الآية الكريمة التي ضربها الله مثلاً لهم ، ذلك بما كسبت أيدي العصاة .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : ﴿ إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ﴾ (٢) .

ثالثاً : انتشار الأمراض :

الإيمان أمان والتقوى زاد للقلب وعافية للأبدان ، والإستقامة طريق الفلاح لأن الشرع يحفظ النفس من المحرمات المهلكات ، ويحفظ البدن من النجاسات والخبائث ، ولذلك فإن الصحة نعمة من الله ، والأسقام يزلزل الله بها العصاة فتكون في البداية نذيراً ثم بعد ذلك عقاباً ، وكم من أمم تفتت فيها الأسقام نتيجة ذنوبها وإفساد عصاتها فمن الأمراض التي تفتت نتيجة إنتشار جريمة الزنى هناك الزهري والسلان ، وضعف الذاكرة والطاعون ، وحديثاً الإيدز والكثير الكثير الذي يموت به أصحابه وتلك لعنة من الله .

وهذا ما أخبره رسول الله ﷺ في حديثه الذي قال فيه : ﴿ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ﴾ (٣) .

رابعاً : الهزائم :

لا شك أن العصاة ضعاف لضعف إيمانهم وتشتت فكرهم ، وزيع أبصارهم وعمى بصائرهم ، لأن من يتعد عن طريق الحق يتخبط طريق الضلال ، ومن ينصر الله ينصره ، ومن يحفظ الله في حدوده وأوامره ونواهيته يحفظه .

وكم من فئة مؤمنة نادى ربها فاستجاب لها ، وذلك يقول تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ (٤) .

(١) سورة الدخان : آية (٢٦-٢٨)

(٢) الحديث سبق تخريجه .

(٣) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن - باب العقوبات ١٣٣٢/٢ ، ١٣٣٣ برقم (٤٠١٩) والحاكم ٥٤٠/٤ وصححه

الألباني ١٦٧/١

(٤) سورة الحج : آية (٤٠)

ويقول سبحانه : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ^(١) ، ولذلك كم من إنتصارات عظيمة رائعة - سجلها التاريخ - كتبها الله للمسلمين لطاعتهم واستقامتهم وإقامة حدود ربهم والالتزام بالإسلام عقيدة وعبادة وسلوكاً والله سبحانه وتعالى لا يكتفي بإثابة المؤمنين في الدنيا بالنعم العظيمة بل يزداد فضله سبحانه على أهل الطاعات ويمتد إلى اليوم الآخر ، يقول تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ^(٢) .

وإذ كان الله عز وجل يستجيب لأهل الطاعات ويكتب لهم العزة في الدنيا والآخرة فإنه في المقابل ينتقم من أهل المعاصي ويوقع بهم العذاب في الدنيا والآخرة كذلك ، فكم من هزائم وقعت للمسلمين بسبب مخالفتهم وعصيانهم ، ونحن لو ضربنا مثلاً بمعصية حصلت للصحابه رضي الله عنهم ، والنبي - ﷺ - بين أظهرهم ، وهم يجاهدون في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله .. ففي غزوة أحد رتب النبي - ﷺ - الجيش أحسن ترتيب ، وصفهم وجعل لكل إنسان عملاً خاصاً به ، وجعل للرماة مكاناً في الجبل ، وقال : ﴿ لا ترحوا عنه سواء ظهروا علينا أم ظهرنا عليهم ﴾ ^(٣) ، والذي حصل أنه لما كانت الغلبة للمؤمنين ورأى بعضهم الرماة أن المشركين انهزموا ، تركوا الموضع الذي أمرهم النبي - عليه الصلاة والسلام - ألا يرحوه وذهبوا مع الناس ، وبهذا كر العدو عليهم من الخلف ، وحصل ما حصل من الإبتلاء والتمحيص للمؤمنين ، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلة بقوله : ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ ^(٤) ، فهذه المعصية الذي فات بها نصر انعقدت أسبابه ، وبدأت أوائله ، هي معصية واحدة ، والرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم ، فكيف بالمعاصي الكثيرة ؟ ولهذا نقول : إن المعاصي من آثارها أن الله يسלט بعض الظالمين على بعض بما كانوا يكسبون ، ويفوتهم من أسباب النصر والعزة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم .

فلا تقتصر آثار المعاصي على الحياة الدنيا بما فيها من آثام وهمّ وغمّ بل تمتد إلى الحياة الآخرة حيث غضب الله وسخطه والعذاب الأليم .. ولذلك فالذنوب هموم في الدنيا وخسران في الآخرة كما يقول سبحانه : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى *

(١) سورة محمد : آية (٧)

(٢) سورة غافر : آية (٥١)

(٣) انظر غزوة أحد ، محمد أحمد ياشميل ص ٩٩ بتصرف ، دار الفكر الطبعة الأخيرة سنة ١٩٨٣ م . وانظر البخاري كتاب المغازم باب غزوة أحد ج ٥ ص ٣٥ رقم (٤٠٤٣) طبعة دار الكتب العلمية سنة ١٤١٣ هـ .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٥٢)

قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿١﴾ .

وذكر الله عمار للقلوب ، ، ونور للأبصار ، وفلاح في الدنيا وفوز بالآخرة وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢) . وهذا رسول الله ﷺ يبين لنا أن من كان همّه وشاغله الآخرة فإن الله يملأ قلبه غنى ويكتب له أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة ، وفوزاً كريماً في الآخرة ، وأما من كان همه وشاغله الدنيا بشهواتها وملذاتها فإن له فيها المتعة وليس له في الآخرة إلا الخسران .

فقد روى الترمذي وابن ماجه عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ من كانت الدنيا همّه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأتيه من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته وهي راغمة ﴾ (٣) .

١ (سورة طه: آية (١٢٤))

٢ (سورة الرعد : آية (٢٨))

٣ (أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب اهم بالدنيا (١٣٧٥/٢) برقم (٤١٠٥) ورواه الترمذي (٧٦/٢))

المطلب الثاني : التحذير من المعاصي من خلال الآيات الحسية في القرآن الكريم :

من الأساليب التي استعملها القرآن في التحذير من المعاصي الآيات الحسية التي يصل بواسطتها إلى إقناع الناس بالإقلاع عن المعاصي والبعد عنها ، لعلمه سبحانه وتعالى أن هذا الأسلوب من الأساليب الناجحة التي تؤثر في النفوس ، وتسوقهم سوقاً إلى ترك المعاصي والإبتعاد عنها .
وسنختار هنا في هذا الموضوع بعضاً من الآيات الحسية التي يحذر الله بين ثناياها الناس من المعاصي ، ونقف معها بعضاً من الوقت ذاكرين أقوال بعض العلماء ، وأهل التفسير وغيرهم ، لكي تكون لنا نبراساً في الحياة نستوحي من خلالها ما يحرك النفس البشرية لكي تعود إلى بارئها وخالقها ومدبر أمرها .

١- التحذير من الشرك :

وأول ما نتناوله في هذا المضمار بعض الآيات المحذرة من الشرك :

■ من ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾^(١) ، ففي هذه الآية الكريمة يقول تعالى لنبية محمد ﷺ كما يقول الإمام الطبري : (قل يا محمد هؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام ، والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان ، أشيئاً غير الله اتخذ ولياً أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث وأقر له بالربوبية ، والله سبحانه وتعالى : ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ ومبتدعها وخالقهما وهو ﴿ يطعم ولا يطعم ﴾ أي وهو يرزق خلقه ولا يرزق ؟ وبعد عرض القدرة الإلاهية على الإبداع في خلق السماوات والأرض وعلى الإحتياج إليه للحياة والرزق عقب بقوله : ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ أي قل يا محمد للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله ويحثونك على عبادتها : أغير الله فاطر السماوات والأرض وهو رزقي وغيري ولا يرزقه أحد اتخذ ولياً وهو له عبد مملوك وخلق مخلوق ، وقل لهم أيضاً إني أمرني ربي أن أكون أول من أسلم وأول من خضع له بالعبودية وتذلل لأمره ونهيه وإنقاد له من أهل دهري وزماني ثم يأمره أن يقول لهم بأن الله نهاني عن الشرك وذلك في قوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي : وقل لهم قيل لي : لا تكونن من المشركين بالله الذين يجعلون الآلهة والأنداد شركاء)^(٢) .

ويقول الإمام البغوي عن هذه الآية : ﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً ﴾ ، وهذا حين دعى إلى دين أبائه ، ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ يعني من هذه الأمة ، والإسلام بمعنى

١ (سورة الأنعام : آية (١٤))

٢ (تفسير الطبري ج٧ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩)

الإستسلام يعني أمرت أن أستسلم لأمر الله وأنقاد إلى طاعته وقيل لي يا محمد لا تكونن من المشركين^(١) .

ويقول الإمام الرازي عند تفسيره لقوله : ﴿ قل إنني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ والسبب أن النبي ﷺ سابق أمته في الإسلام لقوله تعالى : ﴿ وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾^(٢) .
ولقول موسى : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾^(٣) ، ويبين المراد من قوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ، " أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك " ^(٤) .

■ وعن هذه الآية يقول الشيخ رشيد رضا : (أن الآية بعد أن ورد فيها الآيات والحجج الداعية إلى وجوب عبادة الله وحده ، وعدم إتخاذ غيره ولياً أمرت الرسول بأن يقول لهم إنني أمرت من لدن ربي الموصوف بما ذكر من الصفات أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لدينه من هذه الأمة التي بعثت فيها ، فلست أدعو إلى شيء لآخذ به بل أنا أول مؤمن وعامل بهذا الدين ، ثم نهت الآية الرسول ﷺ عن الشرك : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي وقيل لي بعد هذا الأمر بالسبق إلى الإسلام ، وإسلام الوجه له لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يزعمون أنهم يقربونهم إليه زلفاً فأنا أتبرأ من دينكم ومنكم ، وحاصل المعنى إنني أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك وبعد هذا القول المبين أصل الدعوة وأساس الدين وكون الداعي إليه مأمور به كغيره) ^(٥) .

وقد تعددت الآيات التي تنبه عقول المخاطبين وتبين لهم بأن أولئك الشركاء ، المدعويين مع الله لا يستطيعون تقديم شيء لمن دعاهم ، بل إنهم عاجزون عن نصره أنفسهم فيما إذا اعتدى عليهم فكيف يسوغ دعاؤهم عند أصحاب العقول والفطر السليمة ، يقول تعالى : ﴿ أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، لهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل أدعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم

(١) معالم التنزيل ج ٣ ص ١٢٢ ، وانظر لباب التأويل ج ٢ ، ص ١٢٢

(٢) سورة الأنعام : آية (١٦٣)

(٣) سورة الأعراف : آية (١٤٣)

(٤) الفخر الرازي ج ١٢ ، ص ١٧٠ ، وانظر روح المعاني ج ٧ ، ص ١١٠ ، وفتح القدير ج ٢ ، ص ١٠٤

(٥) تفسير المنار ج ٧ ، ص ٣٣٢

ولا أنفسهم ينصرون، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿١﴾.

فهذه الآيات تضمنت الإنكار الشديد من الله تبارك وتعالى على المشركين الذين يعبدون مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، إذ كيف يسوغ لمخلوق منحه الله العقل والسمع والبصر أن يعبد مخلوقاً مثله، مصنوع مربوب لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا يملك من الأمر شيئاً بل إن أكثر هذه المعبودات جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك ^(٢).

وأن الله أنكر على المشركين بعد أن أخذ إقرارهم ببعض دلائل أو آيات ربوبيته وأنه هو خالق السماوات والأرض، أنكر عليهم كيف ينصرفون عن عبادته وتوحيده، وعن الإقرار برسالة نبيه؟ فقال جل جلاله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله * فأنى يؤفكون﴾ ^(٣)، أي كيف ينصرفون عن الخضوع لله في تنظيم شؤون حياتهم وفق شريعته وإخلاص العباد له مع إعترافهم بأنه الخالق؟ وفي هذا إنكار لتناقضهم لأن الإقرار بالخلق نوع من الخضوع الكلي لربوبيته جلّ جلاله على الكون الذي لا يبلغ الإنسان إلا ذرة صغيرة من ذراته، فكيف يخضعون له في الخلق ولا يخضعون له في إخلاص العباد والعبودية والتبعية؟.

وكذلك أنكر الله سبحانه في سورة الأنعام، على المشركين انصرافهم عن توحيد الله بالعبادة، بعد أن ساق لهم الآيات والدلائل على ربوبيته فقال: ﴿إن الله فالق الحب والنوى * يُخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾ ^(٤).

وفي سورة (المؤمن) أو (غافر) نجد تصريحاً بالدلالة على توحيد الألوهية إذ جاءت الدلالة مقترنة بقوله: ﴿فأنى تؤفكون﴾ مما يؤكد أن معناها كما مر في الآيات السابقة (كيف تصرفون عن توحيد الله بألوهيته عليكم؟ أي كيف تعبدون معه غيره) وكذلك في قوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ ^(٥).

١ (سورة الأعراف: آية (١٩١-١٩٨))

٢ (تفسير ابن كثير: ٢٦٦/٣)

٣ (سورة العنكبوت: آية (٦١))

٤ (سورة الأنعام: آية (٩٥))

٥ (سورة غافر: آية (٦١-٦٣))

فهذه المقدمات والدلالات على قدرة الله وحكمته في تعاقب الليل والنهار لمصلحة الإنسان كانت نتيجتها : ﴿ ذلكم الله خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ فدللت على أن الغاية منها إثبات توحيد الله بإقرار أن : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وأن الغاية العملية ألا ينصرف الناس عن توحيد الله بالعبادة لذلك وبخهم وعنفهم بقوله : ﴿ فأنى توفكون ﴾ وفي موطن آخر ذكر الله جلّ - جلاله آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، دليلاً على قدرته وحكمته ، ثم نهى عن عبادة الشمس والقمر فقال سبحانه : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١) ، فدل على أن الهدف العملي من هذه الآيات وأمثالها الإذعان لله وحده بالعبادة ، والخضوع لشريعته دون شرائع البشر الوضعية (٢) .

فهي إما أفراد الله سبحانه بالتوجيه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور ورفض إشراك غيره معه فيها ، وولاء القلب والعمل ، فالشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك .

إما هذا كله فهو الإسلام ، وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام .

لقد أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونهم إلى الملاينة والمداهنة ، ليجعل لأهلهم مكاناً في دينه ، مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين ، وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها بقاء على مكائهم وكبرياتهم ومصالحهم وأولها تقاليد التحريم والتحليل في مقابل أن يكفوا عن معارضته وأن يجعلوه رئيساً فيهم ويجمعوا له من مالهم ويزوجوه أجمل بناتهم لقد كانوا يرفعون يداً للإيذاء والحرب والتنكيل ، ويمدون يداً بالإغراء والمصالحة واللين ، وفي وجه هذه المحاولة المزودة أمر رسول الله ﷺ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف ، وبهذا الحسم الصريح وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالاً للتميع (٣) .

(١) سورة فصلت : آية (٣٧)

(٢) انظر الزبية بالآيات ، النحلاوي ص ٧٢ وما بعدها بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن م ٢ ، ص ١٠٥٤ - بتصرف .

٢- التحذير من مخالفة العمل للقول :

فإن الله سبحانه وتعالى قد حذر رسوله الكريم من أن يخالف عمل الداعية قوله ، لأن الداعية عن طريق سلوكه الحسن يهدي أكثر مما يقول بلسانه ولذا فإن الله سبحانه وتعالى يقول مقررأً وموجأً : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ (١) .

وإن كانت هذه الآية قد نزلت في بني إسرائيل إلا أنها عامة في قاعدتها لا تختص بقوم دون قوم ولا يجيل دون جيل ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كذلك يقول الله عز اسمه : ﴿ يأبى الله الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (٢) .

كما أنه عز وجل يوبخ اليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها بقوله : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً * ينس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٣) .

فبنوا إسرائيل حملوا التوراة ، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة (ثم لم يحملوها) فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقہ ، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع ، لكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم - وكما هي في حقيقتها - تدل على أنهم لم يقدرُوا هذه الأمانة ، ولم يفقهوا حقيقتها ، ولم يعملوا بها ، ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها ، فهو ليس صاحبها ، وليس شريكاً في الغاية منها ! .

وهي صورة زرية بائسة ، مثل سيء ولكنها معبرة عن حقيقة صادقة ﴿ ينس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها ، والمسلمون الذين عبرت بهم أجيال كثيرة ، والذين يعيشون في هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين ، وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ، وهم لا ينهضون بما فيها ، أولئك ، كالحمار يحمل أسفاراً ، وهم كثيرون ! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس ، إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب (٤) .

(١) سورة البقرة : آية (٤٤)

(٢) سورة الصف : آية (٣٠٢)

(٣) سورة الجمعة : آية (٥)

(٤) انظر في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٥٦٧

ومما هو مشاهد في واقع الحياة أن الأزمة العنيفة التي يعيشها بعض الناس في المجتمع الإسلامي ، والتردد الذي يصيب نفوسهم وأفئدتهم من جراء سماعهم لقول بعض الدعاة ، هو ما يروونه من سلوك مخالف لمنهج الحق الذي يدعون إليه بألسنتهم .

وهنا يكون رد الفعل المعاكس على الدعوة نفسها لا على الدعاة فحسب ، لأن مثل هذا السلوك من شأنه أن يبلبل الأفكار وأن يضعف ثقة الناس في إيجابية الدعوة ، وذلك لأنهم يسمعون قولاً جميلاً طيباً ويرون فعلاً قبيحاً ذمياً ، فتستبد بهم الحيرة بين ما يسمعون ويشاهدون فيفتروا في أرواحهم الحماس الذي أشعلته العقيدة بمنطقها السديد ، وينطفئ تبعاً لذلك نور الإيمان الذي كان مقدراً له أن يضيء القلوب ويبدد عنها حجب الظلام التي أطبقت عليها بفعل السيئات المكتسبة والناجمة عن مثل هذا السلوك الخاطيء ، إن الألفاظ المنمقة والعبارات المنسقة مهما صاحبها من انفعال ظاهري فإنها لا تصل إلى قلب السامع بل تذهب كالزبد جفاءً لأنها لم تنطلق من قلب لم يترجم هذا الذي يقوله للناس بلسانه ويدعوهم إليه إلى واقعه العملي ، ولو أن هذه العبارات كانت ضعيفة في الأسلوب والأداء ، من حيث اللمعان والريق لكنها مصحوبة بعمل الداعية لها وتأديته إياها ، فإنها ولا شك تستمد من عمل الداعية لها قوة وفعالية وإيجابية .

وقد علق الرازي رحمه الله على هذا الموقف بقوله : (إن من وعظ الناس وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية ، لأن الناس يقولون ، أنه مع هذا العلم لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات ، إلا لما أقدم على المعصية فيصير داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجرأة على المعصية فإذا كان غرض الواعظ الزجر عن المعصية ثم أتى بفعل يوجب الجرأة على المعصية فكأنه جمع بين المتناقضين وذلك لا يليق بأفعال العقلاء .

لهذا قال (أفلا تعقلون ؟) ثم يقول إن من وعظ فلا بد أن يهتم في أن يصير وعظه نافذاً في القلوب .

والإقدام على المعصية مما ينفر القلوب عن القبول ، فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثراً على القلوب ، ومن عصى كان غرضه ألا يصير وعظه مؤثراً في القلوب ، فالجمع بينهما متناقض وغير لائق بالعقلاء ولهذا قال علي عليه السلام ، (قسم ظهري رجلان ، عالم متهتك وجاهل متنسك)^(١) ، رحم الله الإمام علي عليه السلام ، فما أضر بالدين وحجب هيبته عن القلوب إلا العباد الجاهلون والدعاة الذين يقولون مالا يفعلون .

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي الجزء الثالث ص ٤٦/٤٧

(إن الداعية يؤدي وظيفة سبقه النبيون إليها وإنه أحق الناس باقتباس شمائلهم والافتداء بهداهم وأخذ الأسوة من محياهم ومماتهم !! وأنجح الناس في أداء هذه الرسالة من ترى وراثات النبوة في خلقه وسلوكه وعبادته وجهاده وتضحياته ، وكبريائه على الدنيا ، ومقاومته لفتنتها ومعاملته لذوي السلطان غير راغب ولا راهب .

ولنعلم أن الخطبة البليغة المعجبة ، والكتاب المبين الذكي والجماهير العاشقة المتعصبة لا تساوي كلها قشرة نواة إذا كانت علاقة المرء بربه واهية (^١) ، ومن أجل هذا كان عقاب الدعاة الذين يقولون مالا يفعلون شديداً جزاءً بما اغتروا من آثام وبما سببوا لمسيرة الدعوة من تعويق وعقبات وضعوها في الطريق ، لصدهم الناس عنها بسلوكهم المشين .
وليس هذا الذي نقوله وسبقنا به غيرنا ، كلاماً انشائياً ، وإنما هو واقع عايشناه من خلال تجاربنا في حقل الدعوة مع الجماهير والدعاة مدة ليست بالقصيرة .

ورأينا كيف تتجاوب الجماهير المؤمنة مع من تتق في سلوكه وتطمئن ، وكيف أنها تنفر وتشمئز من كلام مهتك وتأباه ، مهما كان منمقاً وسلساً ، كما رأينا من الجانب الآخر من الجماهير ، جانب الذين اتبعوا خطوات الشيطان بسلوكهم المعوج كيف أنهم وجدوا في المنحرفين من الدعاة سلوة وعزاء وامتعة نفسية شيطانية ، فكانوا قدوة سيئة زادوا هؤلاء القوم بعداً على بعدهم وحرماناً على حرمانهم وشقاء على شقائهم فاستحقوا أليم العذاب جزاء وفاقا ، وهؤلاء المنحرفون قد أئذرهم الرسول ﷺ بعذاب يليق بهم يوم القيامة فقد روى مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية) (^٢) .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال رأيت ليلة أسرى بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ (^٣) ، ومن أجل كل ما سبق فإن المسلمين

١ (مع الله - لفضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ص ٢١٩ طباعة ، دار الكتب الحديثة بمصر الثالثة ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م .

٢ (أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد ٤/ ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ ب رقم (٥١))

٣ (ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ، وابن حبان في صحيحه ، والنفظ له والبيهقي نقلاً عن الترغيب والترهيب للإمام المنذري - الجزء الثاني ص ٢٣٢ ، الطبعة الثانية ١٩٥٤ م .

الأوائل قد تحلوا في معاملاتهم وأخلاقهم بما عملوه فكانوا خير دعاة إلى الدين الإسلامي بسلوكهم وأخلاقهم .

وفي هذا تقول الكاتبة الألمانية (زيفريد هونكه) (١) : (واستطاع العربي (٢) بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية ألدياته لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلق الكريمة وسلوكه الحميد ، فكسب بذلك لدينه عدداً وفيراً لم تكن أي دعوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله) (٣) .

٣- التحذير من كيد الشيطان :

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) (٤) .

وأول كيده ومكره : أنه كاد لأدم وحواء مؤكداً كيده لهما بالآيمان الكاذبة : أنه ناصح لهما ، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة ، وعن ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فذلاهما بغرور ﴾ (٥،٤) .

وأول كيده ومكره للإنسان ما كاده لأدم وحواء حينما وسوس لهما بالأكل من الشجرة التي نهاهم الله عن الإقتراب منها مدعياً لهما أنهما إذا أكلا منها فسيخلدان في الجنة ثم أكد كلامه هذا بإيمانه الكاذبة وكان هدفه الأساسي من وراء وسوسته لأدم وحواء هو إيقاعهما في المعصية ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما لعلمه أن المعصية تهتك سير ما بين الله وبين العبد وتبيدي السوءة الباطنة والظاهرة ، وبالفعل عصياً ربهما فتهتك الستر فبدت لهما سوءاتهما .

(١) هي المستشرقة الألمانية الشهيرة ، زوجة الدكتور المستشرق الألماني الكبير الذي اشتهر بصداقته للعرب وتعمقه في دراسة آدابهم والإطلاع على آثارهم ومآثرهم ، ولقد أحبت الكاتبة العرب وما زالت وصرفت وقتها كله باذلة الجهد للدفاع عن قضاياهم والوقوف إلى جانبهم ، ولها مؤلفات عديدة أكدت فيها فضل العرب على الحضارة الأوروبية ومن أشهر كتبها شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية في أوروبا / نقلاً عن التعريف بالمؤلفة من كتابها .

* وتقصد بالعربي : العربي المسلم .

(٢) كتابها شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضوي دسوقي ص ٣٦٦ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ ، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت .

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن القيم ج ١ ص ١١١ ، وما بعدها بتصرف دار المعرفة - بيروت .

(٤) سورة الأعراف : آية (٢٠-٢٢)

(٥) قال القاسمي : قوله (فوسوس لهما الشيطان) أي : ابليس يأكل الشجرة مخيلاً لهما النفع (ليبيدي لهما) أي : يظهر لهما (ما ووري) أي : ستر (عنهما من سوءاتهما) أي ك عوراتهما ، واللام في (ليبيدي) اما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدورهما منها ، أي : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوءاتهما ، أو للتعليل والغرض ، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريق ما (محاسن التأويل للقاسمي ج ٧ ، ص ٣٦،٣٥) .

وهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوءاتهم^(١) .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ أي إلا كراهة أن تكونا ملكين ، وكراهة أن تخلدا في الجنة ، ومن ههنا دخل عليهما من الطريق الذي يجبانه وهو تطميعهما في الخلود في الجنة لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها ، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ، ويخالطه ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علم إخوانه وأولياؤه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه وبهونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام عليهم الدخول من غيره فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مسدود ، فشام^(*) عدو الله الأبوين ، فأحس منهما إنساناً وركوباً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم ، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، ثم قاسمهما بالله قائلاً لهما : ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ ثم قال لهما : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

ولكي يقنعهما بفعل ما يريد أكد قوله بتأكيدات عدة :

أحدها : تأكيده بالقسم .

الثاني : تأكيده بأن .

الثالث : تقديم المعمول على العامل ، إيذاناً بالإختصاص ، أي : نصيحتي مختصة بكما وفائدتها إليكما لا إلي .

الرابع : آتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم دون الفعل الدال على التجدد : أي النصح صفتي وسجيتي ، ليس أمراً عارضاً لي .

الخامس : آتيانه بلام التأكيد في جواب القسم .

١ (وري البخاري عن سمرة بن جندب قال (كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم من رؤيا : فيقص عليه ما شاء الله أنه يقص ، وأنه قال لنا ذات غداة : أنه أتاني الليلة اثنان وأنهما استبعاني وأنهما قالوا لي : انطلق ورائي معهما - فذكر الحديث - وفيه : فانطلقا فأتينا على مثل التنور ، قال : فأحسب إن كان يقول : فإذا فيه لفظ وسواط . قال : فاطنعا فإذا فيه رجال ونساء عراة . فإذا هم يأتيهم هب ، فإذا أتاهم ذلك النهب ضوضوا ، وذكر أنهما قالوا له : فإنيهم الزناة والزواني) أخرجه البخاري - كتاب الجنائز باب (٩٣) ٢٩٥/٣ رقم (١٣٨٦)

* (شام : أي دنا وقرب .

السادس : أنه صور نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين ، فكأنه قال لهما : الناصحون لكما في ذلك كثير ، وأنا واحد منهم ، كما تقول لمن تأمره بشيء : كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به .

ثم قال تعالى : ﴿ فدلهم بغرور ﴾ قال أبو عبيدة : خذلما وخلاهما ، من تدلية الدلو ، وهو إرسالها في البئر ^(١) .

ومن كيد الشيطان للإنسان : أنه يورده الموارد التي يخيل إليه بأن فيها منفعته ، ثم يصدره المصادر التي فيها عطية ، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به ، ويضحك منه ، فيأمره بالسرقه والزنا والقتل ، ويدل عليه ويفضحه .

ومما يدل على ذلك قوله : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ ^(٢) ، ففي هذا القول الكريم يبين المولى جلت قدرته أن الشيطان تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقه بن مالك ، وقال لهم : أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء ، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم وأسلمهم .

الشيطان ومدى تأثيره في حياة الإنسان :

لا يعدو الشيطان في حياة الإنسان أنه مخلوق باستطاعته أن يوسوس في صدر الإنسان بالشر ، ويزين له إرتكاب الخطيئة ، ثم إن الإنسان هو الذي يرتكب الخطيئة بإرادته ، ويعتبر مسؤولاً عنها مسؤولية تامة .

ففي المفاهيم الإسلامية عدة حقائق ^(٣) ، عن الشيطان تبين موقعه في حياة الإنسان ، وأثره على إرادته ، والحكمة الربانية من وجوده .

الحقيقة الأولى : تتلخص في أن الشيطان ليس له سلطان على إرادة الإنسان ، إلا من سلم قيادة نفسه له وتبعه مختاراً لنفسه طريق الغواية ، والدليل على هذه الحقيقة ورد في عدة نصوص قرآنية

(١) انظر : إغارة اللهبان من مصائد الشيطان : ص ١١٣ وما بعدها - بتصرف .

(٢) سورة الأنفال : آية (٤٨)

(٣) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها - عبدالرحمن حنيفة الميداني ج ١ ، ص ١٧٣ وما بعدها دار القلم - دمشق الطبعة الثالثة

١٩٩٢م .

، منها قول الله تعالى يخاطب إبليس رأس الشياطين في سورة الحجر : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١) .

ومنها قول الله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكُفَىٰ بَرِيكَ وَكَيْلًا ﴾ (٢) . وقوله سبحانه في سورة النحل : ﴿ فَبِإِذَا قرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

فهذه الآيات الكريمة تبين أن الله تبارك وتعالى لم يجعل للشيطان سلطاناً على الإنسان ، وأن سلطانه لا يكون إلا على الذين يتولونه ويجعلونه قائداً لهم ، ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الغواية . ومن أجل ذلك فإن الشيطان سيعلن هذه الحقيقة يوم القيامة للذين استجابوا لوساوسه في الدنيا ، ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتَكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوَّأْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يُظَاهِرَ لَهُمُ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

ومعنى الآية : أن الشيطان سيقول لأتباعه يوم القيامة ما أنا بمغيثكم مما أنا فيه ، وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان في تلك الحالة مبتلي بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه ، فكيف يطمعون في إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه ؟ (٥) .

الحقيقة الثانية : تلخص في أن وظيفة الشيطان في حياة الإنسان إنما هي الوسوسة في صدره وليس في القدرة على أكثر من ذلك ، ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة في صورة خواطر تزين له الإثم والمعصية ، وتزين له الإنحراف عن سواء السبيل ، وقد تصوغ له ذلك بحجج مغرية وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى في سورة الناس : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (٦) .

١ (سورة الحجر : آية (٤٢))

٢ (سورة الإسراء : آية (٦٥))

٣ (سورة النحل : آية (٩٨-١٠٠))

٤ (سورة إبراهيم : آية (٢٢))

٥ (فتح القدير للشوكاني ج ٣ ، ص ١٠٤)

٦ (سورة الناس : آية (١-٦))

ويقول عز وجل في سورة محمد : ﴿ إن الذين إرتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملي لهم ﴾ (١) .

وكيد الشيطان للإنسان في الاضلال كيد ضعيف ، وبذلك وصفه الله بقوله في سورة النساء

: ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ (٢) .

الحقيقة الثالثة : تتلخص في أن الله تبارك وتعالى جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير ودوافع الشر والمحرضات عليهما ، وليطرح الإنسان عليه قسماً من مسؤولية الخطيئة التي يقع بها ، فيجد لنفسه عذراً بأن فعل الشر من فطرته ، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له ، وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلة في نفس الإنسان ، إذ يشعر بأن القبح في العمل ليس من شأنه ، وهذا الشعور الذي يشعر به المخطئ قد يساعده على تقويم نفسه ، مستعيذاً بالله من الشيطان ، ساعياً في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي ، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله وتاب إليه ، فمن وسائل الإصلاح التربوي فتح باب الذر لمن نريه إذا ارتكب الخطيئة ، ولو عاقبناه عليها نظراً إلى مسؤوليته ، وذلك لنبقي له مجالاً يحتفظ فيه بصورة الكمال التي يجب أن يتصورها الناس فيه ، ولنبقي له مجالاً للإرتقاء في مراتب الكمال الإنساني .

العلاج الديني للتخلص من وساوس الشيطان :

وللتخلص من وساوس الشيطان وتوسيلاته علاج ديني أرشدنا القرآن إليه ، وهو الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستغذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (٣) .

فمتى استعاذ الإنسان بالله من الشيطان ونزعته قويت بالله إرادته ، خنس الشيطان وخاب وخسى ، وحينها يقع الإنسان في الخطيئة ثم يستغفر الله فيغفر له ، فإن الشيطان يصاب بالخزي والخيبة ، وضياح الجهد في الأغواء .

٤- التحذير من فتنة الحياة الدنيا :

ما قيمة الحياة الدنيا هذه وما حقيقتها ؟ تصور الله هذه الحقيقة في مشهد من مشاهد القرآن التصويرية الحافلة بالحركة والحياة ، وهي مع ذلك من المشاهدات التي تقع في كل يوم ، ويمر عليها الأحياء دون إنتباه .

١ (سورة محمد : آية ٢٥)

٢ (سورة النساء : آية ٧٦)

٣ (سورة الأعراف : آية ٢٠٠-٢٠١)

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ * وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ * كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعاً ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى .

فهي مثل الماء الذي ينزل من السماء ، فيساقط على الأرض فيمتصه النبات فيأكل الناس والأنعام منه ثم تأخذ الأرض زخرفها به حتى تصبح وكأنها عروس محلوة تتزين لعرس وتتبرج ، وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها يجهدهم إزدهرت ، وبارادتهم تزينت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، لا يغير عليها مغير ، ولا ينازعهم فيها منازع .

وفي وسط هذا الخصب المرع ، وفي نشوة هذا الفرح المللع ، وفي غمرة هذا الإطمئنان الوائق ، ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ ﴾ ، وفي ومضة ، وفي جملة وفي خطفة ، وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والإطمئنان . وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس ، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع ، هذه هي لا أمن فيها ولا اطمئنان ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنِ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ (٥) .

فالكلام كله موجه إلى ذم إرادة الحياة الدنيا ، لا على مجرد الحصول عليها أو التمتع بطبيعتها، ومن هنا يقسم القرآن إلى صنفين فقط :

(١) سورة يونس : آية (٢٤)

(٢) إنظر في ظلال القرآن م ٣ ص ١٧٧٥

(٣) سورة النجم : آية (٢٩-٣٠)

(٤) سورة النازعات : آية (٣٧-٣٩)

(٥) سورة هود : آية (١٥-١٦)

صنف يريد الدنيا ولذاتها العاجلة ، وصنف يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ولكل منهما جزاؤه ثواباً أو عقاباً عند الله : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ (١) .

فما هو الفيصل بين الفريقين ؟ إنه الإرادة ، أي الباعث والغاية ، لا جمع المادة ولا الحرمان منها ، فقد يكون الإنسان محروماً من الدنيا وهو مع ذلك يريد لها ، مولع بها ، مؤثر لها ، وقد تكون الدنيا في يده ، ومع هذا يسخرها ولا تسخره ويملكها ولا تملكه ، إنها هي التي تريده ، وليس هو الذي يريد لها ، إنها أداة في يده ، وليست غاية في قلبه وفكره .

ومن هنا قال الرسول ﷺ لأصحابه في أحد المواقف ، (فوالله لا أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تيسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتكم) (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) (٣) .

وعنه أنه ﷺ قال : (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء) (٤) .

واتقاء الدنيا هنا مثل اتقاء النساء المراد به : التنبيه لفتنتها ، وليس إعتزالها ، إذ لا تبطل ولا رهبانية في الإسلام .

وعن أنس : أنه ﷺ كان يقول : ﴿ ولا عيش إلا عيش الآخرة ﴾ (٥) .

(١) سورة الإسراء : آية (١٨-١٩)

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الجزية - باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ص ٦٤٤ برقم (٣١٥٨) ، ومسلم كتاب الزهد ٢٢٧٣/٤-٢٢٧٤ برقم (٦)

(٣) أخرجه البخاري - كتاب الزكاة - باب الصدقة على اليتامى - ص ٢٦١ برقم (١٤٦٥) ومسلم - كتاب الزكاة ٧٢٢/٢ رقم (١٢١)

(٤) أخرجه مسلم - كتاب الذكر والدعاء ٢٠٩٨/٤ برقم (٩٩)

(٥) أخرجه البخاري - كتاب الرقاق - باب الصحة والفراغ ص ١٣٥٦ ، برقم (٦٤١٢) ومسلم - كتاب الجهاد والسير - ٤٣١/٣ برقم (١٢٧)

ويهون النبي ﷺ من قيمة الدنيا إذا قرنت بالآخرة ، وقيس عُمر هذه بعُمر تلك ، ومتاع هذه بنعيم تلك فيقول : (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه - وأشار بالسبابة - فليُنظر بم يرجع)^(١) .

ويحذر النبي ﷺ أمته من أعظم فتنة في الدنيا ، وهي فتنة المال ، الذي أغوى الكثيرين حبه والحرص عليه ، فأصمهم وأعمى أبصارهم وفي هذا يقول : (إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال)^(٢) . من أجل ذلك يعلم الإسلام أبناءه أن المال ليس هو كل شيء في الحياة ، بحيث يحصر الإنسان كل همه فيه ، وكل سعيه له ، وكل حماسته ونشاطه في طلبه وجمعه ، بحيث لا يدع في عقله وقلبه مكاناً للرجائب الكبيرة ، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار ، وتشرب نحوها الأعناق . إن المثل الأخلاقية العليا والقيم الروحية الرفيعة ، من الإيمان والعمل الصالح والخلق الكريم ، هي الثروة التي لا تنفذ ، والكنوز التي لا تفسد ، والباقيات الصالحات على مر الأعوام والأعصار ، ولهذا يوجه إليها القرآن همم المؤمنين وآمالهم مع حثه لهم على ترك التعلق بالدنيا وما فيها من نعيم زائل ، يفتن الله عز وجل به الناس وذلك بمثل قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ﴾^(٤) ، وقوله في قصة قارون : ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾^(٥) ، وقوله تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾^(٦) ، فرزق ربه هنا ليس هو الموعود في الجنة فحسب ، بل ما أنعم الله به عليه من معاني الإيمان ، ومنازل التقوى ، ومكارم الأخلاق ، وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم ، ويقول تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة

١ (أخرجه مسلم عن المستورد بن شداد - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٩٣/٤ برقم (٥٥))

٢ (أخرجه الرمذي عن كعب بن عياض - كتاب الزهد - باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال ٥٦٩/٤ برقم (٢٣٣٦))

٣ (سورة الكهف : آية (٤٦))

٤ (سورة القصص : آية (٦٠))

٥ (سورة القصص : آية (٧٩-٨٠))

٦ (سورة طه : آية (١٣١))

الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿١﴾ .

٥- التحذير من الرياء :

والرياء نوع من النفاق ، وهو صفة ملازمة للمنافقين ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر * ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (٣) ، ويقول سبحانه : ﴿ فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ﴾ (٤) ، ويقول عز وجل : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ﴾ (٥) .

وكل هذه الآيات وغيرها تحذر تحذيراً شديداً من الرياء ففي الآية الأولى من هذه المجموعة جعل القرآن الكريم المرائي قرين الشيطان لأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وفي الثانية نهى المؤمنين عن المن والأذى في الصدقات وحذرهم من التشبه بالمرائين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وفي الآية الثالثة وعيد شديد للمتهاونين بالصلاة وفي الآية الرابعة وصف المنافقين في حالة قيامهم للصلاة ، والرياء نوع من الكذب لأن صاحبه يبطن خلاف ما يظهره فهو في الحقيقة نوع من النفاق .

ونقف هنا وقفة مع آية الصدقة تلك الآية التي ينادي الله عز وجل فيها المؤمنين ناهياً إياهم فيها عن إبطال صدقاتهم بالمني والأذى وذلك على طريقة التصوير الفني في القرآن تلك الطريقة التي تفرض المعنى صورة ، والأثر حركة ، والحالة مشهداً شاخصاً للخيال .

يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (٦) ، فالآية الكريمة توقفنا أمام قلب صلد : ﴿ كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

(١) سورة آل عمران : آية (١٤-١٥)

(٢) سورة النساء : آية (٣٨)

(٣) سورة البقرة : آية (٢٦٤)

(٤) سورة الماعون : آية (٤-٦)

(٥) سورة النساء : آية (١٤٢)

(٦) سورة البقرة : آية (٢٦٤)

فهو لا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته ، ولكنه يغطي هذه الصلادة بغشاء من الرياء ، هذا القلب الصلد المغشي بالرياء يمثل " صفوان عليه تراب " حجر لا خصب فيه ولا ليونة ، يغطيه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين ، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان ، ﴿ فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾ .

وذهب المطر الغزير بالتراب القليل ! فانكشف الحجر بجذبه وقساوته ، ولم ينبت زرعة ، ولم يثمر ثمرة ، كذلك القلب الذي أنفق ماله رياء الناس ، فلم يثمر خيراً ولم يعقب مثوبة ^(١) ! .
وفي الآية كذلك نهى لنا أن نبطل صدقاتنا بالمن والأذى ، كما يفعل ذلك المرابي الذي لا يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، ويظهر أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليشكر بين الناس ، أو يقال أنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله ، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ، ثم ضرب الله مثلاً لذلك المرابي ومشابهته في بطلان الصدقة ، بذاك الذي يتبع نفقته منا أو أذى ، فمثله كمثل صخر أملس عليه تراب ، فأصاب الصخر مطر شديد ، فترك المطر الشديد هذا الصخر أملس يابساً ، لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرابين وأمثالهم ، تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولكنهم لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوه عند الله ^(٢) .
ذلك أن الحق - سبحانه - مضت سنته في خلقه ألا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له ، وابتغي به وجهه وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً * ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ ^(٣) .

والمرابي جعل لنفسه وللناس حظاً من عمله ، وأنى لذلك أن يقبل الله منه عملاً ، أو أن يثيبه عليه ، وصدق الله : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم * وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ ^(٤) ، ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ^(٥) ، وصدق النبي ﷺ : ﴿ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : إذهبوا إلى الذي كنتم ترءون في الدنيا ، فانتظروا :

(١) انظر في ظلال القرآن ١٢ ص ٣٠٢

(٢) الأساس في التفسير - سعيد حوى ١٢ ص ٦١٥ دار السلام للطباعة الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ م. القاهرة .

(٣) سورة الكهف : آية (١١٠)

(٤) سورة طه : آية (١١١)

(٥) سورة الفرقان : آية (٢٣)

هل تجدون عندهم الجزاء ﴿^(١)﴾ ، ويقول الله تعالى في الحديث القدسي : (أنا أغني الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا منه بريء ، وهو للذي أشرك) ^(٢) . وهكذا ينتهي الرياء بصاحبه إلى بطلان العمل ورده ، وعدم قبوله .

٦- التحذير من الكبر والتكبر والخيلاء :

الآيات والأحاديث الواردة في الكبر وتحريمه من شأنها أن تجعل المسلم ذا القلب الحلي ، والإيمان الصادق ، والضمير اليقظ يقف صاغراً أمام عظمة الله وجلاله ، ويندم خاشعاً ذليلاً على كل ما فرط منه من كبر أو عجب أو خيلاء ، ويضرع إلى الله تائباً منيباً راجياً منه أن يرحم ضعفه ، ويشفي من مرض الكبر نفسه ، ويرزقه التواضع للحق ، والتضامن للخلق ، وأن ينير ربه له طريق الهدى ، ويرده عن أسباب الهلاك والردى ، وإليك أمثلة من الآيات الحسية في القرآن الكريم حول هذا المرض الخطير : قال تعالى : ﴿ ولا تصعر خدك للناس * ولا تمش في الأرض مرحاً * إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك * إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ ^(٣) ، والمراد بالمرح في الآية الإحتيال والتكبر ، وقال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً * والعاقبة للمتقين ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً * إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ ^(٥) .

يقول الشيخ حسن أيوب : فالآية الأولى دالة على أنه لا يستكبر عن الحق إلا من لا يؤمن بالآخرة ، ويكفيه خزيماً أن الله تعالى لا يحبه ، ومعلوم أن الله لا يكرم إلا من أحبه ورضى عنه . وفي الآية الثانية إعلان بغيض الله لمن أداه الكبر إلى الإحتيال والفخر .

١ (الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد به وأخرجه ابن ماجه في السنن : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة ١٤٠٥/٢ بنحوه من حديث أبي سعد ابن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة : ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل له الله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك ﴾ .

٢ (الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة ١٤٠٥/٢ رقم ٤٢٠٢ من حديث أبي هريرة - مرفوعاً به ، وأورده البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة ص ٢٣٦/٤ ، وعقب عليه بقوله : هذا إسناد صحيح رجاله موثقون ، رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي ، ورواه أحمد بن منيع في مسنده .

٣ (سورة لقمان : آية (١٨-١٩)

٤ (سورة القصص : آية (٨٣)

٥ (سورة الإسراء : آية (٣٧-٣٨)

وفي الآية الثالثة تهكم بالمتكبرين وأشعار لهم بضآلتهم وتفاهتهم ، فمهما استطالوا فإن فوقهم ما لا يظولونه ، ومهما دقوا الأرض إختيالاً وانتفاخاً بالكبر فلن يخرقوها أو يؤثروا فيها نتيجة كبرهم ، بل حفنة تراب تثيرها ريح كفيفة بأن تغشى عيونهم ، وتجعلهم سخرية الناس^(١) .

تعريف الرسول للكبر :

عرف الرسول ﷺ الكبر بأبرز مظاهره في السلوك ،، فيقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ﴾ فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسن ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس ﴾^(٢) .

عرف الرسول ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس : وهو تعريف له بأبرز مظاهره السيئة في السلوك ، ونشرح هذا التعريف النبوي فنقول : البطر يستعمل في عدة معان ، ففي المشي حركة والعمل يدل على التبختر والخيلاء والخروج عن حد الاعتدال والإتزان في ذلك ، والبطر عند مفاجأة النعمة يدل على التصرف المعبر عن الدهش والخيرة وقلة الإحتمال ، والبطر عند دوام النعمة الكثيرة يدل على الطغيان فيها والخروج عن حد الاعتدال إلى الإسراف والتبذير والإستهانة ، والبطر في أحوال المسرة يدل على شدة المرح والإفراط فيه ، والبطر عند مواجهة الحق يكون بالإستعلاء عليه والإستكبار عن قبوله والتفريط في شأنه ، والإستهانة به ، وكما أن بطر النعمة يكون بالإستهانة بها الطغيان فيها ، والتعالي عليها ، كذلك بطر الحق يكون جحوداً له ، وتفريطاً فيه ، واستهانة بشأنه ، والحق من أعظم النعم التي تساق إلى الإنسان ، والتي يجب أن تقابل منه بالإحترام والقبول والشكران ، فبطر الحق يعني جحود الحق ، والإستهانة به ، والإستعلاء عن قبوله ، وهذا أقبح صور الكبر .

أما الجزء الثاني من التعريف الذي عرف به الرسول الكبر ، وهو " غمط الناس " ، فالغمط : هو الإحتقار ، والإزدراء والإستصغار ، وعدم مقابلة الإحسان بالشكر ، فغمط الناس هو احتقارهم واستصغارهم والإزدراء بهم ، والإستهانة بأقدارهم ، وعدم شكرهم على إحسانهم ، والترفع عن الثناء عليهم بفضلهم ،، وعدم الإعتراف بحقوقهم الأدبية بغية احتفاظ المستكبر بالمكانة الإجتماعية لنفسه دون الآخرين ، فهو إذا لم يستطع أن يعتلي مكانة المجد بكمالاته فليعلمها بتحطيم كمالات الآخرين ، وتهديم مكاناتهم الإجتماعية ، هكذا تأمره نفسه الشريرة الأنانية المستكبرة^(٣) .

(١) انظر السلوك الإجتماعي في الإسلام - حسن أيوب - الجزء الأول ص ٨٥ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤م .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان ٩٣/١ رقم ١٤٧

(٣) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها - حنكة ١/٧٢٣، ٧٢٤

تحذير الإسلام من الكبر والغرور بالنفس :

تبين لنا أن الكبر من أقبح الإنحرافات الخلقية وأسوأها ، ولذلك شدد الإسلام في تحريمه والتحذير منه ، وشدد على المستكبرين ، وأوعدهم بالعقاب الشديد ، كما رغب في التواضع وحث عليه ، ومجد المتواضعين وأثنى عليهم ، ووعدهم بالثواب الجزيل ، حيث ورى مسلم عن عياض قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخِرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ﴾^(١) .

وأخيراً بعد أن استعرضنا بعض الآيات الحسية التي تحذر من المعاصي من خلال المنهج الحسي في القرآن الكريم فيما نراه أنه واضح للدلالة في هذا الموضوع وإتماماً للفائدة نشير إلى الآيات المتعلقة بهذا ليرجع إليها من أراد المزيد^(٢) .

(١) أخرجه مسلم - كتاب الجنة ٤/٢١٩٨ - ٢١٩٩ برقم (٦٤)

(٢) هذه بعض الآيات الحسية التي تحذر من المعاصي في القرآن الكريم . - إنكار الأصوات : لقمان : ١٩ . - النهي عن اتباع الشيطان : البقرة آية : ١٦٨-١٦٩ ، الأنعام : آية ١٤٢ . - النهي عن الإحتيال : الإسراء آية : ٣٧ ، - النهي عن الإسراف : الأنعام : آية ١٤١ . - النهي عن الإكتناز : التوبة آية : ٢٤ ، - النهي عن أكل مال اليتيم : النساء : آية ١٠ . - النهي عن البخل : آل عمران آية : ١٨٠ ، النهي عن التحدث بغير علم : الإسراء : آية ٣٦ ، الحج : آية ٨-١٠ . - النهي عن تحريم الزينة : الأعراف آية ٣٢ ، - النهي عن التصغير الخد : لقمان آية : ١٨ . - النهي عن الخمر والميسر : المائدة آية ٩٠ ، - النهي عن الغيبة : الحجرات آية ١٢ . - النهي عن الفتن : الأنفال آية ٢٤-٢٦ ، - النهي عن قذف المحصنات : النور آية ٢٣-٢٥ . - النهي عن قهر اليتامي : الضحى آية ٩-١١ . - النهي عن قول الوزر : الحج : آية ٣٠ . - النهي عن اهمز واللمز : الهمزة آية كلها . - الحذر من المصير المحتوم : الأعراف آية ٩٧-٩٩

الفصل الثاني :

أساليب العرض للمنهج الحسي في القرآن الكريم .

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث :

المبحث الأول : اسلوب المثل .

المبحث الثاني : اسلوب القصة .

المبحث الثالث : اسلوب الترغيب والترهيب .

المبحث الرابع : اسلوب القسم .

الفصل الثاني : أساليب العرض للمنهج الحسي في القرآن الكريم :

تمهيد :

لا شك أن الدعوة إلى الله من أفضل الأعمال وأشرفها ، وهي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد مدح الله عز وجل في القرآن الكريم وكذلك رسوله الكريم ﷺ الدعوة إلى دين الله المستزمين بمنهج ربهم ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ (١) .

وقول الرسول ﷺ : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) (٢) ، وقد أرشدنا الله تعالى إلى اختيار الأسلوب المناسب في الدعوة مع المدعويين قال عز وجل : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٣) ، وحيث أن أساليب الدعوة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وأحوال المدعويين ، وتباين أفكارهم وبيئاتهم (٤) ، فعلى الداعية أن ينزل الناس منازلهم ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله) (٥) ، فينبغي على من يقوم بمهمة الدعوة أن يدرس ميول الناس ورغباتهم ، وأن يعرف الأساليب التي تؤثر في نفوسهم ، وتجذبهم إلى الحق ، سالكاً في ذلك أسلوب القرآن الكريم في دعوة الناس فقد خاطب كل صنف بما يناسب حاله فعندما يخاطب المؤمنين يحرك الإيمان في قلوبهم ، ثم يخوفهم من عقابه الذي أعده للعصاة ، ثم يرغبهم في طاعته قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٦) ، فلاحظ أنه سبحانه وتعالى ناداه باسم الإيمان ، ثم خوفهم بذكر النار التي أعدها لمن خالف أمره وزاد في التخويف بذكر القائمين على تلك النار ، فهم ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله أمراً ، فإذا سمع المؤمن مثل هذا الوعيد ووعاه ، ارتدع عن الذنوب والمعاصي ، وأقبل على طاعة الله تعالى ، وعندما يخاطب أهل الكتاب يردهم إلى أصل دينهم وإلى العقيدة الصحيحة التي هي أساس الإيمان

١ (سورة فصلت : آية (٣٣))

٢ (أخرجه مسلم كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سبىة أو دعا إلى هدى أو ضلالة ٤/٢٠٦٠ برقم (١٦) .

٣ (سورة النحل : آية (١٢٥))

٤ (انظر فقه الدعوة جمعه الخولي ص ٣٠٠ ، المكتبة الفقهية ، القاهرة ط ١ ، سنة ١٣٩٦ هـ .

٥ (فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً كراهية ألا يفهموا ١/٢٢٥ ، وانظر اسس الدعوة محمد الوكيل ، دار المجتمع للنشر ط ٢ ، سنة ١٤٠٦ هـ ، وانظر أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي ، عبد الله محمد آل موسى ، عالم الكتاب ، الرياض ، ط ١ ، سنة ١٤٠٥ ، ص ٢٧٠-٢٧١ .

٦ (سورة التحريم : آية (٦))

وهي أصل لجميع الديانات السماوية التي جاء بها الرسل عليهم السلام من عند الله ، ويذكرهم بما جاءت به رسالهم ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾^(٢) ، وعند مخاطبة الملحدّين يستخدم أسلوباً آخر ، فيخطب عقولهم ، ويوجه الخطاب إلى مشاعرهم وأحاسيسهم ليثبت لهم وجود الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴾^(٣) .

وفي حديثه للوثنيين يستخدم أسلوب الحوار ، فيناقشهم في زعمهم أن مع الله إلهاً آخر - سبحانه وتعالى - ويقدم لهم الأمور المسلم بها عندهم ويتدرج معهم ، وهم في كل مرة يسلمون من غير جدال أو اعتراض ، حتى إذا تهيات عقولهم ألقى إليهم ما يجب عليهم أن يؤمنوا به ، ويسمّلوا بأحقيته ، قال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فإني تسخرون ﴾^(٤) ، فهذه هي طريقة القرآن ، في مخاطبة الناس ، وإقناعهم بالحق^(٥) .

مما سبق يتضح لنا أنه من الواجب على الدعاة أن يسلكوا مسلك القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة في الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم ولا يجيدوا عنهما ، لأن الإعتصام بالكتاب والسنة ، يؤدي إلى إستمرار دعوتهم ، على أسس قوية لا تؤثر فيها التيارات والأفكار الخارجية بل تدحضها وتصححها وتبين للناس أخطارها .

١ (سورة آل عمران : آية (٦٢))

٢ (سورة المائدة : آية (١٩))

٣ (سورة الطور : آية (٣٥-٣٧))

٤ (سورة المؤمنون : آية (٤٨-٨٩))

٥ (أسس الدعوة وآداب الدعوة الوكيل ص ٤٤ ، وانظر الدعوة قواعد وأصول جمعه أمين ص ١٨٠، ١٨١ ، ط ٢ الإسكندرية ، دار الدعوة ، سنة ١٤٠٩ هـ .

تعريف أساليب العرض للمنهج الحسي :

الأسلوب في اللغة : الطريق الممتد ، والسطر من النخيل والفن .

يقال : أخذ فلان بأساليب من القول : أي : بأفانين منه ^(١) .

ويقال : سلكت أسلوب فلان في كذا : أي : طريقته ، ومذهبه وطريقة الكاتب في كتابه ^(٢) .

الأسلوب في الإصطلاح :

يمكن أن نعرفها بأنها (كفيات تطبيق مناهج الدعوة) أو الطرق التي يسلكها الداعي في

دعوته ^(٣) .

أرشدنا الله عز وجل لأساليب متعددة لعرض المنهج الحسي في القرآن الكريم ، وذلك لأنه عز وجل هو الخالق للإنسان ويعلم ما يدفعه للإقتناع بما يريد أن يقنعه به سبحانه وتعالى ، لذلك فقد جعل من هذه الأساليب ضرب الأمثال أو ذكر بعض قصص الأمم السابقة كما أرشدنا إلى الترغيب تارة والترهيب أخرى والقسم وغير ذلك من أساليبه المختلفة وذلك للفت الحس البشري إلى التعرف على المحسوسات للوصول عن طريقها إلى القناعات .

أهمية هذه الأساليب :

وأهمية هذه الأساليب تكمن في سرعة تأثيرها بالمدعو لكونه يعتمد على المحسوسات التي سلم بها كل إنسان ، ولصلاحيه استثماره مع الناس على اختلاف أجناسهم وأعمارهم وثقافتهم . فتأثير هذه الأساليب ذاتي متجدد لا يختص بشخص دون آخر ولا بجنس دون جنس ولا بمستوى ثقافي دون آخر ، فمتى وجه الإنسان فكره وعقله إلى هذا السبيل ، ثارت عليه أسئلة ملحة تدفعه إلى التعمق في التفكير والبحث ، ومن ثم إلى الإقتناع ، إلا أن يكون هناك مكابرة تمنع من ذلك .

ولما لأساليب المنهج الحسي من أهمية قصوى كان من أول الأساليب التي استخدمها الرسل عليهم السلام في دعوتهم لأقوامهم .

وفي الصفحات التالية سوف نستعرض لبعض أساليب المنهج الحسي التي استخدمها القرآن

الكريم في دعوة الناس إلى دين الله عز وجل والتي منها :

١ (اللسان مادة سلب ٤٧٣/١)

٢ (المعجم الوسيط ٤٤١/١)

٣ (مدخل إلى علم الدعوة د. البيانوني ص ٤٧) .

المبحث الأول : أسلوب المثل :

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : تعريف المثل .

المطلب الثاني : علاقة الأمثال القرآنية بالمنهج الحسي .

توطئه :

الأمثال وعاء وحكمة الأمم وخزائن تجاربها ووسيلة من أهم وسائل حفظ تلك التجارب والحكم تناقلها بين الأجيال ، وهي قبل ذلك وبعده من أدق أساليب التعبير وأجزها وأبلغها تأثيراً في النفوس ، وحين تقصر أساليب التعبير الأخرى عن استيعاب مراد المتكلم ، أو يضيق إدراك المخاطب عن فهم المراد منه فإن ضرب المثل يجعل ذلك كله سهلاً ميسراً (مع إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه)^(١) ، ولذلك اعتبرت العرب الأمثال جزءاً من أهم أجزاء ديوانها تعود إليها تستنطقها لتستفيد منها تاريخ أحداث ووقائع وسير وأشخاص وغير ذلك من مكنون الحكم وصميم الفوائد التي اشتملت الأمثال عليها .

أما أمثال القرآن العظيم فهي مظهر من مظاهر بلاغته ، وإعجازه ودقة تصويره الفني ، وسحر أسلوبه فإنها قد سحرت العرب مؤمنهم وكافرهم ، وبيانت حلاوتها ، وظهرت طلاوتها لعامتهم وخاصتهم ، وبأن تأثيرها فيهم أجمعين .

والأمثال القرآنية تمثل علماً من علوم القرآن الهامة^(٢) ، وبحثاً لم يغفله أحد من المفسرين أو البلاغيين أو الكاتبيين في علوم القرآن .

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة ، التذکر ، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والإعتبار ، والتقدير وترتيب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث يكون نسبه للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس ، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر ، قال تعالى : ﴿ **وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ** ﴾^(٣) ، فامتن علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ**

١ (الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق د. عبد المجيد قطاش ص ٣٤ ، طبعة أولى ١٤٠٠ هـ ، ١٤٨٠ م . دار المأمون دمشق .

٢ انظر هذا العنم وما كتب عنه في مختلف كتب (علوم القرآن) القديمة والحديثة خاصة (الاتقان) للنسوي و (البرهان) للزركشي و (مناهل العرفان) للزرقاني وغيرها .

٣ (سورة إبراهيم : آية (٤٥))

ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴿^(١)﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ^(٢) .

والأمثال القرآنية أسلوب من أساليب العرض للمنهج الحسي في القرآن الكريم ، لأنها تشكل معلماً بارزاً من معالم منهاج القرآن العظيم ، فهي في بعض جوانبها تبرز النموذج الخير وتوضح معالنه ، وتبين دقائق تكوينه حتى إنه ليكاد يرى ماثلاً وشاخصاً أمام الناظرين ، فلا يملك الإنسان إلا أن يتمنى أن يكون مثل هذا النموذج المائل أو قريباً منه ، ويمتلئ قلبه ونفسه وعقله ومشاعره بعوامل الرغبة بالتأسي به ، والسير على منواله ، ودوافع الأخذ بما به أخذ ، والسير على ما سار عليه .

وبعض أمثال القرآن تجسد النموذج وتشخصه حتى لنكاد ننظر إليه ماثلاً شخصاً وعملاً وسلوكاً وأخلاقاً وتصرفات ، فتشهد أقبح إنسان وأسوأ عمل ، وأردأ سلوك يمكن أن يصدر عن إنسان ، وأسوأ مصير يمكن أن يصير إليه ، فلا تملك إلا أن تفر بنفسك وبدينك من مشابهته ومماثلته بأي شيء من الأشياء .

وعن ذلك يقول الشيخ مناع القطان : (الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسي يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني ، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان ، بتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظر على النظر ، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضرور بيانه ونواحي إعجازه) ^(٣) .

(١) سورة الروم : آية (٥٨)

(٢) سورة العنكبوت : آية (٤٣) ، وانظر البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي جـ ١ ، ص ٤٨٧ ، دار الفكر الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٠م .

(٣) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٢٨١ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة ١٩٨٠م .

المطلب الأول : تعريف المثل :

أولاً : المثل في اللغة :

- ذكر اللغويون ^(١) للفظ (المثل) بفتحين عدة معان على اختلاف في عددها ، وأهم ما ذكروا من معانيها- بعد ضم بعضها إلى البعض الآخر - ما يلي :
- ١- التشبيه .
 - ٢- المثل (بالكسر) والنظير .
 - ٣- الصفة .
 - ٤- العبرة والحجة والآية والحديث .
 - ٥- المثال والحذو والشاخص .

وقال الزمخشري : المثل في الأصل بمعنى المثل ، أي النظير ، يقال : مثل ومثل ومثيل ومثيل كشبهه وشبه وشبيه ، ثم قال : ويستعار للحال ، أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ^(٢) .

قال السيد رشيد رضا في (تفسير القرآن الحكيم الذي اشتهر بتفسير المنار) في معنى قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ ^(٣) : المثل بفتحين ، والمثل بالكسر ، والمثيل كشبهه والشبه والتشبيه وزنا ومعنى في الجملة ، وهو من (مثل الشيء مثولاً) إذا انتصت بارزاً فهو مائل ، ومثل الشيء بالتحريك ، صفة التي توضحه وتكشف عن حقيقته ، أو ما يراد بيانه من نعمته وأحواله ، وقد يكون تمثيل الشيء ، أي وصفه والكشف عن حقيقته عن طريق المجاز ، أو الحقيقة ، بتشبيهه وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصورة الحسية ، وعكسه ومنه الأمثال المضروبة ^(٤) .

يقول الراغب الأصبهاني : (المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والمساوي فيما يشارك في الكمية فقط ، والشكل فيما يشارك في القدر والمساحة فقط) ^(٥) .

١ (مادة (مثل) في : الجوهري ، الصحاح : ١٨١٦/٥ - ابن منظور ، لسان العرب : ١٣١/١٤ - الفيروزى ابادي ، القاموس المحيط : ٩٤/٤ :

٢ (الكشاف - الزمخشري : ٧٢/١

٣ (سورة البقرة : آية (١٧)

٤ (تفسير القرآن الحكيم - محمد رشيد رضا - ج ١ ، ص ١٦٧ ، مطبعة المنار سنة ١٣٤٦هـ

٥ (المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصبهاني : ص ٤٦٢

ثانياً : المثل في الإصطلاح :

يمكننا تعريف المثل اصطلاحاً بأنه : صورة حية ماثلة لمشهد واقعي أو متخيل ، مرسومة بكلمات معبرة موجزة ، يؤتي بها غالباً لتقريب ما يضرب له من طريق الإستعارة أو الكناية أو التشبيه (١) .

وبأنه كما يقول عبدالحميد الهاشمي (١) : تقديم الأفكار والمعاني بصورة مثل يضرب لتجسيد تلك الأفكار .. (أي) تقديم الأفكار المجردة بصورة محسوسة ملموسة يعرفها كل الناس أو أكثرهم على أقل تقدير .

وقد ورد في القرآن الكريم عشرات الأمثال ، ويكفي المرء أن يفتح أحد المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن على مادة (مثل) ليجد منبعاً زاخراً من الأمثال ، بالإضافة إلى ورود عدد من الأمثال باستخدام أدوات التشبيه الأخرى (الكاف وكان) .

وعرفه صاحب فتح البيان بأنه عبارة عن قول يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره (٢) ، ويقول الشيخ محمد عبده مشيراً إلى هذا النوع من المثل : (وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسية وعكسه) (٤) .

ثالثاً : المثل في القرآن :

لقد حدد سليمان البلخي في كتابه الأشباه والنظائر والمثل القرآني بأربعة معان هي : الشبه ، السير ، العبرة ، العذاب ، فقد أرسى بعض معاني المثل القرآني على أساس لغوي تارة ، وأساس بلاغي تارة أخرى (٥) .

وقال الزركشي : (ولما كان المثل السائر فيه غرابة ، استعير لفظ المثل للحال أو الصفة ، أو القصة ، إذا كان لها شأن وغرابة) (٦) .

١ (الصورة الفنية في المثل القرآني د. محمد حسين على الصغير ص ٦٢ ، دار الهادي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م .

٢ (الرسول العربي المرابي - عبدالحميد الهاشمي - ص ٢٨٨ ، دار الثقافة للجميع ط ١٩٨١م . ، ١٤٠١ هـ .

٣ (فتح الباري في مقاصد القرآن - لأبي الطيب صديق بن حسن القنوجي ج ١ ، ص ٦٢ ، المطبعة الكبرى الأمريكية ، الطبعة الأولى القاهرة .

٤ (تفسير المنار ج ١ ، ص ١٦٧

٥ (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم - مقاتل بن سليمان البلخي : ٢٠٨، ٢٠٧/١

٦ (الزركشي ، البرهان : ٤٨٨/١

وضرب لهذه المعاني المستعارة والمختارة الأمثلة والشواهد القرآنية ، وقال : (أما استعارته للحال ، فكقوله : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾^(١) ، أي حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً .

وأما استعارته للوصف ، فكقوله تعالى : ﴿ والله المثل الأعلى ﴾^(٢) ، أي الوصف الذي له شأن وكقوله تعالى : ﴿ مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾^(٣) .

وكقوله تعالى : ﴿ كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾^(٦) .

وأما استعارته للقصة فكقوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾^(٧) ، أي فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة ، ثم أخذ في بيان عجائبها^(٨) .

مما سبق يتضح أن يكون المثل في القرآن قد استعير لكل شأن ذي بال ، ولكل حدث مستغرب ، ولكل قصة أريد بها العبرة ، ولكل وصف لم يتعارف عليه العرب من ذي قبل ، ولكل معنى لم تستطع الأفهام سبر غوره ، وتشخيص فحواه إلا بتقريبه تنظيراً وتمثيلاً حتى تداوله الناس واستوعبته العقول .

وهو بهذا التحديد يوافق المثل في اللغة من وجه ، والمثل في الإصطلاح من وجه فالمشابهة والتنظير والوصف والإبانة من اللغة في المتبادر إلى إدراك معنى اللفظ .

والعظة والعبرة - باعتبارهما سببين لضرب المثل - والشأن العجيب - والغرابة ، والسيرورة من الإصطلاح ، وزاد المثل القرآني على هذه المعطيات بما له من رصيد مجازي وأفق استعاري وطبيعة تشبيهية ، مضافاً إلى الاستعمال في المورد الحقيقي .

وقد امتازت صيغة المثل القرآني بأنها لم تنقل عن حادثة معينة ، أو واقعة متخيلة ، أعيدت مكرورة تمثيلاً ، وضرب موردها تنظيراً ، وإنما ابتدع المثل القرآني ابتداءً دون حذو احتذاه ، وبلا

١ (سورة البقرة : آية (١٧))

٢ (سورة النحل : آية (٦٠))

٣ (سورة الفتح : آية (٢٩))

٤ (سورة البقرة : آية (٢٦٤))

٥ (سورة العنكبوت : آية (٤١))

٦ (سورة الجمعة : آية (٥))

٧ (سورة الرعد : آية (٣٥))

٨ (الزركشي ، البرهان : ٤٨٩/١)

مورد سبقه ، فهو تعبير فني جديد ابتكره القرآن حتى عاد صبغة متفردة في الأداء والتركيب والإشارة^(١) .

ينتج مما تقدم أن للأمثال في القرآن واللغة معان لتحقيق غايات نفسية وتربوية منها^(٢) :

١- بيان حسن الشيء أو قبحه ، كتشبيه معبودات المشركين ببيت العنكبوت تحقيراً ، قال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾^(٣) .

٢- ذكر حال من الأحوال ، ومقارنتها بحال أخرى ، مع وجود جامع بينهما لبيان الفارق ، قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم * كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم * كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾^(٤) ، فالجامع أن كليهما بشر ، والفارق كلاً منهما سلك طريقاً مغايراً .

٣- استخالة التماثل بين شيئين ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له * إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾^(٥) ، فالهة المشركين لا يعقل بحال من الأحوال أن ترقى إلى المماثلة مع الخالق فتعبد معه ، فكيف يعبدون هذه الآلهة التي بلغ بها من الضعف ما بلغ ؟

٤- تقريب المعنى إلى الأفهام ، قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة * أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾^(٦) .

١ (الصور الفنية في المثل القرآني ص ٧٢)

٢ (أصول التربية الإسلامية وأساليبها - عبدالرحمن النحلوي - ص ٢٢٢ ، دار الفكر الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ، دمشق .

٣ (سورة العنكبوت : آية (٤١))

٤ (سورة محمد : آية (٣-١))

٥ (سورة الحج : آية (٧٣))

٦ (سورة إبراهيم : آية (٢٤-٢٦))

٥- تقييح الصورة والتنفير منها قال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً * بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (١) ، حيث يثير اختيار الحمار إنفعال الإشمزاز من هؤلاء ، والشعور بتفاهتهم وضياع عقولهم .

٦- تربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي : حيث ينطوي معظم الأمثال على قياس تذكر مقدماته ، ويطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة ، قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق بالباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض * كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٢) .

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً للحق والباطل ووصف الشبه به (الماء ، والسيل ، والزبد ، وما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، ويذهب جفاء) ثم اكتفي بإشارة سريعة إلى النتيجة (كذلك يضرب الله الحق والباطل) وترك للعقل أن يكشف أن الحق يبقى ، وأن الباطل يذهب جفاء كما يذهب الزبد بعد إنتهاء السيل .

(١) سورة الجمعة : آية (٥)

(٢) سورة الرعد : آية (١٧)

المطلب الثاني : علاقة الأمثال القرآنية بالمنهج الحسي :

إن المتأمل في الأمثال القرآنية ، يلاحظ أن معظمها تركز بشكل واضح دون غيرها على أن تبرز المعاني في صورة محسوسة في ذهن السامع أو المدعو .

قال الإمام الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن : (إن الحكم والأمثال تصور المعاني ، تصور الأشخاص ، فإن الأشخاص الأعيان أثبت في الأذهان لإستعانة الذهن فيها بالحواس ، بخلاف المعاني المعقولة ، فإنها مجردة عن الحس ، ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجرباً مسلماً به عند السامع)^(١) ، فالعلاقة إذاً بين الأمثال القرآنية والمنهج الحسي علاقة وثيقة وسوف نحاول إلقاء الضوء على هذا الموضوع هنا من خلال عدة نقاط .

أولها : المثل أسلوب من أساليب الدعوة :

ساق القرآن الكريم أمثاله لتكون أسلوباً من أساليب ابلاغ الدعوة ولذلك نراها تشتمل على

الخصائص التالية :

أولاً : إن الأمثال لا تترك الداعية وحده أمام معارضيهِ المعاندين بل تمده بسلاح الصبر والتحمل وتعرفه أن الإبتلاء ليس مقصوداً عليهم وحدهم ، فإن المؤمنين السابقين أوذوا في سبيل عقيدتهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ونزل بساحتهم كثير من العناء والتعب والجهد والمشقة فما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً بسلامة جهادهم وعملهم ، قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾^(٢) .

فهذه الآية تذكر مثلاً من شأنه أن يقوي الإرادة ويجعل المؤمن يتحمل المعاناة من أجل مبادئه ، فما البلاء إلا إبتلاء نهايته فوز محقق ، يقول العلامة أبو السعود : (خوطب بهذه الآية رسول الله ﷺ والمؤمنون معه حثاً لهم على الثبات والمصابرة على مخالفة الكافرين وتحمل المشاق من جهتهم إثر بيان إختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام ، وقد بين فيه مآل إختلافهم وما لقي الأنبياء ومن معهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم ، وإن عاقبة أمرهم النصر)^(٣) .

وحتى يملك الداعية ثقة بنفسه أمام المظاهر المادية التي يملئها المعارضون وفيها الجاه والمال والمظهر ، ضرب الله مثلاً للمؤمن الموحد ومثلاً للكافر المشرك ، يبين به ميزة المؤمن وأفضليته على

١ (البرهان في علوم القرآن - الزركشي ج ١/٤٨٨)

٢ (سورة البقرة : آية (٢١٤))

٣ (تفسير أبي السعود ج ١ ، ص ١٦٤)

الكافر فقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً مسلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١) .

فهذا مثل ضربه الله للمشرك حيث شبهه بالعبد يتولى أمره شركاء متنازعون متغالبون لكل منهم رغبة واتجاه مما يجعل العبد في حيرة وضلال ، وضربه كذلك للمؤمن الموحد بالرجل الذي يلي أمره شخص واحد فقط فلا منازعة ولا مغالبة مما يحقق للعبد المؤمن الإستقرار والهدوء يقول الرازي (وهو مثل ضرب في غاية الحسن في تقييح الشرك وتحسين التوحيد) (٢) ، وهكذا يحمي المؤمن بوضعيته في هذا الوجود فلا يتألم إن تعالى أمامه كافر معاند ويثق في النصر الإلهي له ، والداعية من المؤمنين يكتسب منهم الصبر والتحمل واليقين .

ثانياً : وهي تبصر بالدعوة وتوضح أساسيتها وتعطي الداعية مبادئها لكي يعمل على هدى بها ، وأول هذه الأساسيات معرفة الله تعالى والإيمان به عن اقتناع كامل ويقين دقيق ، وفي هذه النقطة يضرب القرآن الأمثال هادماً إدعاء تعدد الآلهة موضحاً الأدلة السليمة لوجود الإله الحق سبحانه .

وهذا مثل يبين أن الآلهة المدعاة لا تستحق أن تكون آلهة لأنها ضعيفة لا تخلق شيئاً ما حتى ولو كان ضعيفاً ، ولا تستطيع أن ترد عن نفسها إيذاء ولو من ضعيف ، هذا المثل يذكره الله في قوله تعالى : ﴿ يأيتها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (٣) .

ولقد بين هذا المثل ضعف الشركاء ومهانة سائر الآلهة المدعاة وعجزها ، بين ذلك بصورة حية شاخصة أمام البصر والبصيرة ، ذلك بأن صدر المثل بالنداء فقال (يا أيها الناس) فإذا ما تجمع الناس بالنداء أخبرهم أنهم أمام مثل يضرب ليضع قاعدة ويقرر حقيقة يجب أن يستمع لها ، ويتدبر فيها ، وهي أن الآلهة الكاذبة رغم تعددها وتنوعها ، من صنم ووثن وأشخاص وكواكب وغيرها ، هذه الآلهة جميعاً لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإيجاد الذباب كإيجاد غيره من المخلوقات الكبيرة الحجم لأنها جميعاً تحتوي على الروح سر الحياة ، ولكن القرآن الكريم اختار الذباب حين ضرب هذا المثل لأن العجز عن خلقه يلقي في الخس صورة الضعف بينه أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل مثلاً ، ثم يعطينا المثل واقعاً بيناً عن الضعف المزري لهذه الآلهة حين يذكر أن الآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها منها (٤) .

١ (سورة الزمر : آية (٢٩))

٢ (مفاتيح الغيب ج ٧ ، ص ٢٦١)

٣ (سورة الحج : آية (٧٣))

٤ (انظر الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د. أحمد أحمد علوش ص ٣٦٤)

ثالثاً : وهي تبصر بالمدعويين وتعرف بهم وبالدينا التي يعيشونها ، وذلك لكي تساهم مع بقية الوسائل في تبصير الداعية بالجو العام الذي يدعو فيه فينصرف في وسائله على ضوء ما يرى وبذلك يساهم المثل في البيان والبصيرة ، ومن هذه المساهمة توضيحه لما يلي :

(١) الجدل طبيعة إنسانية :

الإنسان جدلي بطبعه ، ودائماً يثير المحاوره والمناقشة حول كل ما يعرض له ، ولقد جادل الأقسام رسلهم وما آمنوا إلا بعد حوار طويل ، وجدل كثير ، والجدل في الإنسان حقيقة بينها الله في قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ (١) ، وهكذا جادل الإنسان رغم كثرة الآيات ، وشمولها ، ووضوحها ، وملائمتها للطبيعة البشرية لأنها جاءت مناسبة لسائر الناس ، ولو ترك الإنسان بحريته لآمن وصدق ، هذه الحقيقة عن الإنسان بينها المثل في قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا ءآهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ (٢) .

(٢) ضالة الدينا :

الدينا فترة امتحان للبشر والآخرة بعدها دار قرار ، ونتيجة أعمال الدينا تظهر في الآخرة ، ومن هنا كان على الإنسان أن يقدر هذا الواقع ويقصر سعيه كله على أن يحافظ على سعادة الآخرة ، وأمنها ولكنه كثيراً ما يفتن بمباهج الدنيا ، ويفتر بسيطرته عليها ويكفر بالله ونعمه ، وينسى أن تملك الدينا آية إلهية تدفع إلى الإيمان بدل الكفر وتحس على الواقعية بدل الضرر .

إن على الإنسان أن يعمل للآخرة ، ويأخذ نصيبه من الدنيا وبهذا فقط يكون على الطريق المستقيم ، لأن الدنيا قصيرة العمر ، قليلة النفع ، والآخرة خير وأبقى ، ولو أحس الناس يقيناً حقيقة الدينا لآمنوا بالله وبسائر تعاليم الله ، ولذلك يبين الرسل للناس حقيقة الدينا ، وقد وضحتها الدعوة للناس إيما وضوح بكافة الوسائل ، ومن هذه الوسائل الأمثلة ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣) .

فقد ضرب الله للدنيا مثلاً بالمطر ينزل فيختلط بالنبات فتزين الأرض بألوان ذات بهجة كالعروس ، هنا يفتر الإنسان صاحب هذه الأرض بجمالها ، وزخرفها ولا يذكر سواها إلا أنه فجأة

(١) سورة الكهف : آية (٥٤) .

(٢) سورة الزخرف : آية (٥٧-٥٨) .

(٣) سورة يونس : آية (٢٤) .

تأتي نعمة عظيمة دفعة واحدة ، في ليل أو نهار تهلك الزرع والثمار ، وهنا يتحسر المالك ويشتمد حزنه ، يقول الرازي : (فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها ^(١)) ، وهذا المثل ضربه الله ليبين سرعة زوال الدنيا حتى لا يطمئن أحد إليها كما هو الواجب ، ويبقى عاملاً للأخرة التي هي دار القرار الحقيقي ، ومن هنا كانت معرفة هذه الحقيقة عن الدنيا من أساسيات النجاح للداعي والمدعويين .

رابعاً : وهي موعظة حسنة لأنها تثير الإنفعال وتخطب الوجدان وتنقل المعقول والمحسوس ، وتغري على الخير ، وتبعد عن الشر ، يقول الشيخ محمد عبده : (وإنما اختير للمثل لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وقصد الإنفعال) ^(٢) ، ويلجأ هذا الأسلوب إلى المثل به الواضح المعروف سلفاً ليجعله دليلاً للمثل ، وبذلك فهو إقناعي تلمح فيه المناصحة والإرشاد والدليل يقول الإمام السيوطي نقلاً عن الشيخ عز الدين عبدالسلام : (إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو نحوه ، فإنه يدل على الإحكام) ^(٣) ، وهكذا يشتمل المثل على التذكير والوعظ ونتيجة العمل والمدح والذم مما جعله موعظة حسنة ، وأخيراً يأتي المثل على قدر الطاقة البشرية من أجل أن يستنزل المعاني الصعبة ، ويجعلها في متناول العقل الإنساني وذلك في بيان معجز وترتيب عجيب .

ثانيها : عرض طائفة من أمثال القرآن :

قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف

لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ ^(٤) .

فالقرآن يضرب مثلاً لأعمال الكافرين التي ظاهرها الخير لا تنفعهم بشيء عند الله مع دوامهم على فساد عقيدتهم ، حيث شبه أعمالهم التي لا تنفعهم يوم القيامة حين يكونون في أشد الحاجة لها بالرماد لمجتمع ، ولا تماسك بين ذراته وهو ضعيف ، لا وزن له حين تشتد به الريح في يوم عاصف فتتسفه ، وتبدده ، فإن مشهد الرماد الذي تشتد به الريح في يوم عاصف مشهد مشهود ومعهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ولا الانتفاع به أصلاً .

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ، ص ٨٢٩

(٢) تفسير المنار ج ١ ، ص ٢٣٦

(٣) الإلتقان في علوم القرآن - للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي : ج ٢ ص ١٣١ ، طبع ونشر الحلبي بمصر سنة ١٩٥١ م .
الطبعة الثالثة .

(٤) سورة إبراهيم : آية (١٨)

قال الإمام الطبري : (وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار فقال : (مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة التي كانوا يعملونها في الدنيا يزعمون أنهم يريدون الله بها مثل رماد عصفت الريح عليها ، في يوم عاصف فنسفته ، وذهبت به فكذلك أعمال أهل الكفر به يوم القيامة لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عند الله ، فينجيهم من عذابه لأنهم لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأوثان والأصنام : ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ ، وهي أعمال عملت على غير هدى واستقامة ، بل على جور عن الهدى بعيد) (١) .

وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة المحسوسة وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر ، كما نلاحظ كيف صورت الآية ذلك المشهد بأسلوب لفت الخس إلى التعرف على المحسوسات للوصول عن طريقها إلى القناعات وهو من أبلغ أساليب المنهج الحسي .

وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بخر لجي يغشاه موج من فوق موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٢) .

فإن هذا المثل القرآني يعرض لنا صورتين متماثلتين :

الأولى : صورة الساعي إلى سراب وهو ظمآن يحسبه ماء ، فلما وصل إليها أصابته خيبة أمل قاتل إذا لم يجده شيئاً .

الثانية : صورة المتخبط في الظلمات المتراكمة .

فقد ضرب الله هذا المثل لمن أعرض عن نور الهداية الربانية ، وذهب في صحراء ميتة يلتمس سعادته بوسيلة أخرى .

فقد جاء المثل مبتدئاً بتمثيل عاقبة أعمال الذين كفروا ، ومثلياً بتمثيل تخبطهم في الضلالة وهم يقومون بالأعمال التي يرجون منها سعادتهم ، فنتيجة سعيهم هذا ، مثل نتيجة الساعي إلى سراب وهو يحسبه ماء .

(١) تفسير الطبري : ٨١٦/٢

(٢) سورة النور : آية (٣٩-٤٠)

وأما تخبطهم في الضلالة إذا أعرضوا عن نور الهداية الربانية الذي هو النور الوحيد في الوجود ، يمثل تخبط من هو ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، في بحر لحي تخيط به المخاوف والمخاطر من كل جانب (١) .

٢- مثل للحق وأهله والباطل وحزبه :

قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٢) ، فعن عطاء : (ضرب الله تعالى مثل الحق والباطل فمثل الحق السيل الذي يمكث في الأرض فينتفع الناس به ، ومثل الباطل مثل الزبد الذي لا ينفع الناس ، ومثل الحق مثل الحلي الذي يجعل في النار ، فما خلص منه انتفع به أهله ، وما خبث منه فهو مثل الباطل) (٣) .

وقال الرمنشيري : (هذا مثل ضربه الله للحق وأهله وللباطل وحزبه ، وكما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به في صواغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، ولو لم يكن إلى الحديد الذي فيه البأس الشديد ليكفي به ، وإن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه ، وتبقى آثاره في العيون والآبار والحبوب والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكنز ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة .

وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب) (٤) .

وصفوة القول : إن الله تعالى ضرب مثلاً للحق في ثباته وبقائه ، وللباطل في فئائه واستصالة بهذه الأمور المدركة ، للإستدلال من ورائها على عنصرى الصلاح والفساد ، وبيان عاقبة المتقين في الآخرة ، والفجرة عند الحساب ، ليستبين الحق لسالكيه ، ويبرز الباطل لناظره ، والحق معنى متمثل بأهله ، والباطل رمز مشخص بحزبه ، وبتمثيلها عياناً تتجلى الحقائق من كل شائبة ، مجردة عن كل زيف ودرن ، كما خلق الماء المتحدر في الأودية فأخرج نباته زاهياً بقدر وحكمة ، وكما امتازت

(١) بحث تكميلي للماحستير (الأمثال القرآنية وأثرها في الدعوة إلى الله) : سلطان بن علي شاهين ، ص ٥٤ . كلية الدعوة ، المدينة المنورة سنة ١٤١٣ ÷

(٢) سورة الرعد : آية (١٧)

(٣) السيوطي ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور - القاهرة : ٤/٥٥

(٤) الرمنشيري ، الكشاف : ٢/٥٢٣

المعادن عن غنائها جواهرها وأصولها النافعة فأزبل وضربها وثبت جوهرها فانتفع بذلك الناس في شتى شؤونهم ومرافقهم في الحياة ، وكما خلصت هذه الأجناس من زبدها وجفائها فكذلك يخلص الإيمان في النفوس ، ويستقر التوحيد في القلوب ، أما تلك الأوضار الضارة فهي كالباطل فيما يجلبه من كوارث نفسية ومعنوية في الدنيا والآخرة (كذلك يضرب الله الأمثال) أي (مثل الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده ، واللفظ بهم)^(١) .

ولتقف وقفة مع ما ذكره الله سبحانه في قوله : ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ ، والزبد رغوة لينة ذات فقائيع تظهر على وجه الماء ، ثم لا تلبث أن تذهب جفاء تاركة تحتها الماء الصريح النافع ، وذلك تمثيل لحال الحق والباطل ، فالباطل في تفاهته وسرعة زواله كرغوة الزبد ، والحق في أصالة وجوده وعموم نفعه كالماء الذي لا حياة للوادي بدونهُ ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .

وكذلك شأن الباطل بازاء الحق ، فالحق جوهر الأصالة لكل شيء في الوجود ، والباطل لا أصالة له ، أي لا وجود له ، ونسبته إلى الحق كنسبة فقاعة الزبد إلى الماء ، فهو ظاهرة من الوهم وغرور الأهواء ، يحاول أن يبدو للناس في أنواب الأصالة التي يبدو فيها الحق ، فيتخذ من شارات الواقع صوراً وأوضاعاً حسية ، قد ينخدع بها أهل الغفلة وقصار النظر، ولكن العقبي للجانب الذي يتضمن عناصر البقاء وخصائص النفع ، فإنك إذا ذكرت أن فقاعة الزبد حين تستعير من ليونة الماء إنما تستعير لتستر لا شيء : أدركت أن الباطل بما يصطنع من مظاهر لدعم وجوده إنما يحاول في الحقيقة دعم لا شيء ، وأدركت تبعاً لذلك هوان هذا الباطل في هذا الوجود ، وضعته التي لا يماثلها إلى تفاهة الفقاعة المتطايرة الضائعة^(٢) .

قال تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أي : وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لا يثبت له ، ولا دوام أمام الحق : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ .

قال الفراء : (الجفاء الرمي والأطراح : يقال جفا الوادي غثاءه يجفوه جفاء إذا رماه والجفاء اسم للمجتمع منه المنظم بعضه إلى بعض)^(٣) ، قال تعالى : ﴿ يمكث في الأرض ﴾ أي : يبقى ولا

١ (الشوكاني ، فتح القدير : ٧٦/٣ - دار المعرفة .

٢ (انظر تذكرة الدعاة ، البهي الخولي ص ٨٢ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، المطبعة السابعة سنة ١٩٨٤م .

٣ (معاني القرآن للفراء أبي زكريا يحيى بن زياد ، تحقيق أحمد بن يوسف نجاتي . وحمد على النجار . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م .

يذهب ، والمعنى : أن الزبد الذي يعلو السيل يذهب في جانبي الوادي فيعلق بالشجر فتتسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ، وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكن في الأرض ، فالماء نشربه ونسقي به الأرض فينبت جيد الزرع الذي ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها في الحلبي وصك النقود ، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها في متاعنا من الحرث والحصد وفي المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك ، وكذلك فإن الباطل يضمحل وينمحق ، وإن علا على الحق في بعض الأوقات ، والحق ثابت باق ، أي أن الحق في إفادته وثباته كالماء النافع الذي يستقر في الأرض ، وكالمعدن الذي ينتفع به في صواغ الحلبي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة ، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله كزبد الماء أو غثائه ورغوته ، وخبث المعادن وشوائبه .

قال تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ الأمثال : جمع مثل وهو تمثيل حالة بحالة للتعريف بها أو مدحها أو القدح فيها ، والمعنى : أي مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللفظ بهم (١) .

٣- مثل المنافقون :

أولاً : يبدأ حديث المثل القرآني عن المنافقين بقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ (٢) .

وقد مثلهم الله بالمستوقد للنار لم يستفد سناؤها ، وبقي يخبط في متاهات الضلال ودياجير العمي ، حتى انطمست عليه طرق الهدى وسبل الرشاد ، وكذلك المنافقون في إحاطة الظلمات بهم حتى فقدوا وسائل المعرفة الإنسانية التي تهيئها عوامل النقد الثقافي والتعليمي في السمع واللسان والبصر والعقل ، فعادوا كمن استضاء بنار فانطفأت عنه تلك النار فبقى متحيراً في أمره ، وهكذا كان المنافقون حينما فتح لهم الإسلام رحابه ، فحقن دماءهم ، وصان أمواهم ولكنهم جحدوا النعمة ، وفرطوا بتلك الفرصة ، قال ابن عباس : (هذا مثل ضربه الله للمنافقين إنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه) (٣) .

(١) سورة الرعد دراسة تحليلية - د. أحمد عبدالغني الجمل ص ٢٤٧ - مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ م.

(٢) سورة البقرة : آية (١٧-١٨)

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : ٩٤/١

وقد رسم الله في هذه الآية صورة دقيقة لإعراضهم عن النور الذي جاء به محمد ﷺ وعدم انتفاعهم به ، ورسم لهم صورة أخرى تكشف عن تحبطهم وحيرتهم وقلقهم واضطرابهم وتناقضهم مع أنفسهم وتخوفهم من عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم بالإسلام والمسلمين ومخالفتهم للفطرة التي فطرهم الله عليها ، وهي تدعوهم إلى الهدى وتأمريهم بإجابة الداعي فيكايرون في نهاية الأمر فيرتكسون في الضلالة ويبحثون على ركبتهم في الكفر ، فلا يستطيعون قياماً ولا مضياً وإن ظلت في قلوبهم بارقة من النور والأمل .

واكتفوا بالإسم عن المضمون دون اهتداء وانتفاع عقائدي ، وفي هذا النور الجديد الذي عمهم دون الاستفادة به ضرب الله مثلاً (للإيمان الذي أظهوره لاجتناء ثمراته بنار ساطعة الأنوار موقدة للإنتفاع والإستبصار ، ولذهاب أثره وانغماس نوره باهلاكلهم وافشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وازهاب نورها)^(١) ، فنزع عنهم نور الإيمان فهم صم بكم عمي لأنهم قد سدوا أذانهم عن سماع الحق فهم صم ، وأمسكوا ألسنتهم بالحديث فيه فهم بكم ، وعطلوا عيونهم عن الأبصار فهم عمي ، فلا رجعة إلى الهدى ، ولا معاودة لهم مع النور ، وحينما فقدوا هذا النور وذلك الشعاع انغمسوا بظلمات لا أول لها ولا آخر ، وجاء المثل الثاني منسجماً مع طبيعة فقدان هذا النور الإلهي ، وتعويضاً عنه قال تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾^(٢) .

وهذا المشهد الفظيع مشهد غني بضخامة التمثيل وهول التصوير ورعب الأضواء الكاشفة ، انصب في مناخ يسرد البعد النفسي لفراغ المنافقين وحيرتهم ، فهم في كزة من الإضطراب كمن قذفته السماء بمطر متقاطر تدفعه الظلمات عاصفة بأصوات الرعد ، ولعان البرق ، وسكون الليل ، فعادوا في ظلمات متراكمة ، ظلمة الغمام ، وظلمة الليل ، وظلمة المناخ ، فأنحجب عنهم الضياء تماماً ، وتلاشى الأمان حتى بالغوا في إدخال أصابعهم في آذانهم نتيجة لاصطكاك الصواعق بأجرام السحاب ، وما يحدثه ذلك من هزات وأصوات تقربهم من الموت ، فهم يحذرونه ولات حين مناص ، إذ أحاط الله بهم من كل جانب فأين يذهبون ؟ والبرق يكاد يأخذ بأبصارهم ويستلب نورها كلمح البصر .

(١) الألويسي ، روح المعاني : ١٦٨/١

(٢) سورة البقرة : آية (١٩-٢٠)

وهم في هذه الخيرة لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ولم ينجح أي تدبير ، إلا بقدر ما يتيحه لهم البرق من مجال ، فإن أضاء لهم الطريق ساروا واستقاموا ، وإذا سكن ارتج عليهم وثبتوا في مكانهم . هذا شأنهم في تأرجحهم بين الدين والبراءة منه ، فهم والحالة هذه من الإسلام على طرفي نقيض ، فكلما فتح الإسلام فتحاً ودر بالفنائم عليهم تلبسوا بالدين ، وإذا أصابهم البلاء وتعرضوا لمواطن التجربة فروا من الدين (لا يرجعون إلى الحق إلا خلسة كما يلمح البرق ثم يعودون إلى خلاصهم وأصلهم الذين عليه تابعون وإليه يرجعون وهم في أثناء ذلك يحذرون الوعيد والعذاب العاجل إن أظهروا الكفر كما يحذرون الصواعق من الرعد فيضعون أصابعهم في آذانهم ارتياحاً وانزعاجاً في الحال ثم يعودون إلى الخيرة والضلال)^(١) ، ولو أراد الله أن يذهب بأسماعهم بدوي الرعد ، وأبصارهم بوميض البرق ، لذهبت أسماعهم وانطمست أبصارهم عقوبة لهم ، ولكان الله تعالى الاستظهار عليهم فهو على كل شيء قدير .

ثانياً : وقد حمل أبو الأعلى المودودي توجيه الكلام بآية النور ومثلها في قوله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾^(٢) .

على المنافقين تعبيراً عن عدم استفادتهم بهذا النور الهادي فكانوا على دعواهم للإيمان لا يستفيدون قليلاً ولا كثيراً بذلك النور الذي كان قد بزغ في العالم بسبب القرآن ومحمد ﷺ ، فالذي قد قيل في هذه الآية عن المنافقين - بدون أن يكون الخطاب لهم - قد أريد به ثلاثة أمور :

الأول : أن يتذكروا لعل الذكرى تنفعهم ، لأن من أول مقتضيات رحمة الله وربوبيته أن يبذل السعي إلى آخر ساعة في تذكير من ضل عن صراط الإسلام المستقيم بدون أن يؤبه لشروره ورذائله .

الثاني : أن يبين الفرق بكل إيضاح بين الإيمان والنفاق حتى لا يتعسر على أحد له مسحة من العقل أن يميز بين المؤمنين من المنافقين من أفراد المجتمع المسلم ، حتى إذا وقع أحد في مكر المنافقين وانخدع بمكائدهم أو دافع عنهم بعد ذلك فلا تكون تبعة علمه إلا عليه نفسه .

الثالث : أن ينبه المنافقين على أن الوعد التي قطعها الله تعالى للمؤمنين في كتابه إنما هي للذين يؤمنون بصدق قلوبهم وينجزون مقتضيات إيمانهم ، وما هي للذين يعدون من المسلمين لأجل أسمائهم وظواهر أعمالهم فلا يرجو المنافقين والفاسقون أن ينالوا من هذه الوعود في الآخرة^(٣) .

(١) التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، تحقيق أحمد حبيب القصير ، المطبعة العلمية سنة ١٩٧٥م . النصف

(٢) سورة النور : آية (٣٥)

(٣) تفسير سورة النور : أبو الأعلى المودودي ص ١٦٩ دار ابن قتيبة - الكويت .

والحق أن مضامين آية النور تتحمل هذه التوجيه لأنها في بيان عظمة الله وقدرته وسيطرته على الكون ، فهو نور السماوات والأرض وهاديها ، ومزينها بالأنبياء والدعاة ، وإضافة النور إلى ذاته تشريف لهذا النور الدال على توحيده ، والمتمثل في قلب المؤمن ، ليرى المنافقون مجال قدرته وشدة تأثيره ، فجمع إلى نوره نور الهدى ونور التوحيد ليهدي بهما لدينه من يشاء من عباده ، أما المنافقون فقد لمخوا هذا النور وابتعدوا عنه ، وهنا تتجلى أهمية الصورة الحسية في تحميل الألفاظ أكثر من المعنى الظاهر لها .

وضرب الحق جل شأنه لبيان بلاذة إحساسهم وجمود مشاعرهم وخداعهم المغلف بالآيمان المغلظة مثلاً في سورة سميت بإسمهم فقال جل شأنه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْتَدْعٍ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْهَبْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

وهكذا تتضح العلاقة بين المنهج الحسي والأمثال القرآنية حيث تبدو لنا هذه العلاقة في الأمور التالية :

- ١- أن المثل رسم لنا صوراً حسية واقعية حافلة بالحركة والحياة .
- ٢- أن المثل يخاطب حواس المدعو بشكل واضح .
- ٣- أن المثل جاء بأسلوب لفت الحس إلى التعرف على المحسوسات وأسلوب التجربة وهم في الأهمية بمكان بالنسبة للمنهج الحسي واستخدامها في الدعوة إلى الله .
- ٤- اتضح لنا بجلاء كيف أن الأمثال تساعد في تقريب الأفكار المجردة الصرفة إلى الأذهان ، عن طريق نقلها إلى ما يدل عليها من الصور المحسوسة ، وهو أسلوب بالغ الأهمية في مجال الدعوة إلى الله تعالى إذ يساعد الداعية في توضيح المعاني والأفكار في صورة محسوسة في ذهن المدعو ، وهذا مما يؤكد مدى الصلة الوثيقة بين الأمثال القرآنية والمنهج الحسي .

(١) سورة المنافقين : آية (٤)

المبحث الثاني :

اسلوب القصة

ويشتمل على توطنه ومطلبين :

المطلب الأول : مفهوم القصة في القرآن وفوائدها .

المطلب الثاني : القصة القرآنية وعلاقتها بالمنهج الحسي .

توطئة :

تحتل القصة مكانة رفيعة فى نفوس البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم . ومللهم ونحلهم . وذلك لما فيها من أستهواء للنفوس . ولما فى أسلوبها من مسايرة للفترة تستوجب الولوع بها . والحرص على تحصيلها .. فهى موجه قريب المنال سهل التأثير مع قوة فاعليته فى النفوس . بما يحدثه من إثارة وتشوق ..

ولما للقصة من هذه الأهمية فإن القرآن الكريم اعتنى بأمرها فذكر بعضاً منها بين ثناياه لتوجيه النفوس عن طريقها ، ذاكراً فيها العبر والعظات التى يستفيد منها أولو الألباب كما يقول سبحانه : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ﴾ (١) ولما للقصص من ميزات عدة فإن الله عز وجل قد امتن على رسوله ﷺ بها وذلك فى قوله عظمت قدرته : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن * وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ (٣) .

والقصص القرآنى هو أحد الأساليب التى استدل رب العزة ليحاج بها الناس ، وليقطعهم عن الجدل والمماحكة ، شأنه فى هذا شأن ما جاء فى القرآن من أساليب الاستدلال والمنظرة ، والتعجيز ، والوعد ، والوعيد ، والتهديد . وغيرها من المشاهد والمواقف الماثورة فى القرآن الكريم كله ، ومن قصار السور إلى طواها . لانبجذ سورة - مهما قصرت - تخلو من مشهد أو موقف ، يمهد للدعوة الإسلامية ، ويضع معلماً أو معالم للهدى إليها والتبصرة بها ، فى منطق محكم، وبيان معجز ((٤) .

والذى يتأمل القصص القرآنى بوعي وتدبر يقف خاشعاً أمام كلام الله العليم الخبير ، وهو يقص أخبار الدعاة من المرسلين وأتباعهم ، ويسط الأساليب التى استخدموها والوسائل التى انتقوها لمختلف حالات المدعوين ، ويعرض فى أسلوب معجز كيف وصلوا إلى تحقيق أهداف الدعوة من أقرب الطرق وبأيسر السبل ، كل ذلك عبر الأحقاب المتطاولة لتاريخ البشرية ، وأنت إذا أجهدت بصيرتك فى القصص القرآنى وقفت على جلال الموضوع وكمال العرض وأتساق التركيب . وهذا ، ولاريب ، جانب تطبيقى عملي ، يوضح الجانب النظرى ، وكلاهما موضوع القصة فى القرآن العظيم .

(١) سورة يوسف : آية (١١١)

(٢) سورة يوسف : آية (٣)

(٣) سورة هود : آية (١٢٠)

(٤) القصص القرآنى فى منظوقه ومفهومه - عبدالكريم الخطيب ص٨ ، دار الفكر العربى مطبعة المدني ، القاهرة سنة ١٩٧٤م .

المطلب الأول : مفهوم القصة القرآنية وفوائدها:

القصة في اللغة :

تتبع الأثر ، يقال : قصصت الشيء إذا تتبعته أثره شيئاً بعد شيء^(١) ، وترد بمعنى : البيان والخير^(٢) ، ولذا يقال : القصص : الأخبار المتتابعة^(٣) ، كما ترد بمعنى الحديث ، والأمر ، والشأن....

القصة في الاصطلاح :

والقصة : هي أحد أنواع النثر الفني ، ونمط من أنماط الأساليب الجمالية ، تقوم على عوامل كثيرة ، من التشويق ، والحوار ، والحبكة ، والوحدة الموضوعية ، وحل المشكلات عن طريق تسلسل الأحداث وربط المشاهد بعضها ببعض .

والقصة عامة لون من ألوان الأدب قديماً وحديثاً تقدم الحقائق المختلفة ، كما تقدم إلى جانب ذلك الخيالات والمبالغات ، والأساطير ، وما إليها .

وقد يكون هدفها التعبير ، والنصح ، والتوجيه .. كما يكون هدفها مجرد المتعة الذهنية والعاطفية .. وقد تتخذ وسيلة للحق أو للباطل ، وللخير أو للشر^(٤) .

ولذا نعرف القصة بأنها : (حكاية نثرية طويلة تستمد من الخيال أو الواقع أو منهما وتبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي)^(٥) .

القصة القرآنية :

تدور تعاريف العلماء للقصة القرآنية حول بيان الأحوال التي مرت بالأمم السابقة ، وعلاقتها بأنبيائها والفترة الزمنية التي حصلت لكل أمة ، وكذلك تبين هذه التعاريف الهدف من القصة القرآنية وعرضها في القرآن وهو العبرة والعظة : وأذكر من هذه التعاريف مايلي :

أولاً : عرفها الشيخ مناع القطان بقوله : (قصص القرآن : إخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة و الحوادث الواقعة)^(٦) .

(١) لسان العرب : ٧/٧٤

(٢) المرجع السابق .

(٣) مفردات الراغب : ص ٦١٠

(٤) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، العدد ٥٢ لسنة ١٤٠١ هـ ص ١٠٨

(٥) المعجم الوسيط ٢/٧٤٠

(٦) مباحث في علوم القرآن - الشيخ مناع القطان ص ٣٠٦

ثانياً : وعرفها الشيخ محمد بن صالح العثيمين بقوله : (قصص القرآن : الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً)^(١)

ثالثاً : وعند تفسير الإمام الرازي لقوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ حيث عرّف القصة بقوله : (والقصص يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى الاقتصاص . ويجوز أن يكون من باب تسميته المفعول بالمصدر فإن أريد الأول كان الحسن راجعاً إلى الاقتصاص من كون ألفاظها فصيحة بالغة في الفصاحة حد الإعجاز . وإن أريد الثاني كان الحسن في القصص لما فيها من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها)^(٢) .

فترى الإمام الرازي يدور بالحسن في قصص القرآن بين ألفاظه ومعانيه إلا أنه في موضوع آخر يعرف القصة ، فيقول (والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة)^(٣) . فيزيد على الحسن الذي تضمنه القصص شيئاً آخر إذ يثبت للقصة القرآنية قوة التأثير والهداية والإرشاد والإنجاء .

وعلى ضوء ما ذكر يتبين لنا أن القصة القرآنية هي :

(كلام حسن في لفظه ومعناه مشتمل على أحداث حقيقية سابقة ومتضمن ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الخير)^(٤) .

دلائل اهتمام القرآن بأسلوب القصة في تبليغ الدعوة :

اهتم القرآن الكريم بأسلوب القصصي بين ثناياه لأنه وسيلة محببة إلى النفس لتبليغ دعوة الله عز وجل إلى الناس ومن أهم دلائل هذا الإهتمام ما يلي :

أ- ورودها منسوبة إلى رب العزة والجلال في قوله : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾^(٥) .

وقوله : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾^(٦) .

وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾^(٧) .

-
- (١) مقدمة في أصول التفسير - الشيخ محمد بن صالح بن العثيمين ص ٤٨
 - (٢) مفاتيح الغيب ج ٥ ، ص ١٥٠
 - (٣) مفاتيح الغيب ج ٣ ، ص ٧٠٢
 - (٤) الدعوة الإسلامية د. أحمد غلوش ص ٢٨٨
 - (٥) سورة يوسف : آية (٣)
 - (٦) سورة يوسف : آية (٩٩)
 - (٧) سورة الأنعام : آية (٥٧)

ب - وأمر الله رسوله أن يقص على الناس ما أوحى إليه كما في قوله عز وجل - بعد أن ذكر طرفاً من أخبار بني إسرائيل - ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾^(١) ، أي : قصص الذين كفروا وكذبوا أنبياءهم^(٢) .

ج - والقصة معلم بارز من معالم القرآن الكريم لتوضيح الحقائق وتبيين السبل كما في سورة النمل : ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾^(٣) .

(د) والقص - بالمفهوم العام - كان من مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولذا قال تعالى : ﴿يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾^(٤) . وقال : ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٥) .

هـ - وحياة الأنبياء - والقصص تصوير لها - في موضع القدوة والأسوة ، ولقد أمر الله خاتم المرسلين بالاعتداء بهم بعد أن سرد طرفاً من أخبارهم فقال : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^(٦) .

(و) وأحداث القصص القرآني تدور في محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الإله الواحد الخالق رب العالمين ، ولذلك كانت دعوات الأنبياء هي الشخصية الغالبة في قصص القرآن^(٧) .

ما تنفرد به القصة القرآنية عن غيرها :

تنفرد القصة القرآنية عن سائر القصص بعدة أمور من أهمها ما يلي :

- ١ - بأنها منزهة عن أى نقص فى شكلها وفي مضمونها ، ومنزهة عن الخيالات والأوهام ، والأساطير ، والأباطيل ...
- ٢ - وهى عفيفة الأسلوب ظاهرة اللفظ والمعنى ، حية السياق والعرض ، بارعة التركيب ، سامية القصد ، حسنة الهدف ...

١ (سورة الأعراف : آية (١٧٦))

٢ (زاد المسير (مرجع سابق) : ٢٩١/٣)

٣ (سورة النمل : آية (٧٦))

٤ (سورة الأنعام : آية (١٣٠))

٥ (سورة الأعراف : آية (٣٥))

٦ (سورة الأنعام : آية (٩٠))

٧ (القصص القرآني ، عبدالكريم الخطيب ص ٤٣)

٣ - وهي تضم إلى جانب الإيضاح ، والتعليم ، والنصح ... جوانب الإقناع الذهني والنفسي والعلمي والأدبي وتضم إلى جانب عرض الحقائق الدينية الحقائق التاريخية والاجتماعية والثقافية^(١) .

ومن هنا جاءت القصة في القرآن الكريم تحمل لواء الدعوة إلى الإسلام وتعرض مبادئه ، وكانت أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الله (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)^(٢) أغراض وفوائد القصة القرآنية :

ورود القصة في القرآن جاء لتحقيق اغراض وفوائد من أهمها^(٣) :

- ١ - الاعتبار : و العبرة من القصة إنما يتوصل إليها صاحب الفكر الواعي والعقل الذكي الفاهم المتفحص للأمر المدقق في كل ما يقرأه ويسمعه البذي لا يطغى هواه على عقله وفطرته ، فيستطيع المتصف بكل ما سبق من صفات أن يستنبط من القصة المغزى الحق . قال تعالى معقياً على قصة يوسف : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾^(٤) ، وقال تعالى معقياً على غزوة بدر : ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾^(٥) ، وقال تعالى معقياً على غزوة بني النضير : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾^(٦) ، ووجه العبرة في الغزوتين هو : أن هناك قوة فوق جميع القوى تؤيد المؤمنين وتخذل الكافرين .
- ٢ - تعليم المؤمنين أن الوحي والرسالة من الله ، فالرسول الأمي الذي لا يقرأ ولا عرف عنه أنه جلس إلى أحبار اليهود والنصارى يتلو على قومه هذه القصص ، وقد جاء بعضها في دقة وإسهاب ، فلا يشك عاقل في أنها وحي من الله يبلغها عنه رسوله ، محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ينص على هذا الغرض في مقدمات بعض القصص ، أو في أواخرها ، فقد جاء في أول سورة يوسف قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾^(٧) ، وجاء في سورة هود ، وبعد قصة نوح

١ (مجلة الجامعة الإسلامية (مرجع سابق) ص ١٠٨ العدد ٥٢

٢ (سورة يوسف : آية (١١١)

٣ (انظر التصوير الفني في القرآن - سيد قطب ص ١٤٤-١٥٥ ، وأصول التربية الإسلامية النحلاوي (مرجع سابق) ص ٢١٤-٢١٧

٤ (سورة يوسف : آية (١١١)

٥ (سورة يوسف : آية (١١١)

٦ (سورة آل عمران : آية (٣)

٧ (سورة يوسف : آية (٢)

، قوله تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب ، نوحها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (١) .

٣ - تعليم المؤمنين أن الدين كله من عند الله ، وأن الله سينصر رسله والذين آمنوا ، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة ، والله واحد ، فهناك العديد من القصص الواردة عن الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة معروضة عرضاً سريعاً بطريقة خاصة تؤيد هذه الحقيقة ، وبخاصة ما ورد في سورة الأنبياء (٢) .

٤ - تثبيت قلب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومن اتبعه من أمته ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ (٣) .

٥ - تشبيه أبناء آدم إلى خطر غواية الشيطان . وإبراز العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى وأدعى للحذر ، ولذلك تكررت قصة آدم في مواضع شتى ، منها قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٤) .

١ (سورة هود : آية (٤٩))

٢ (سورة الأنبياء : آية (٤٨-٩٢))

٣ (سورة هود : آية (١٢٠))

٤ (سورة الأعراف : آية (٢٧))

المطلب الثاني : القصة القرآنية وعلاقتها بالمنهج الحسي :

توطئه :

إن الدعوة التي تلت أنظار المدعو إلى الأشياء المحسوسة منهج له أهدافه وغاياته يوصل الإنسان إلى الاقتناع ، ولا يزال هذا المنهج موصلاً إلى عبادة الله وطاعته والرغبة في ثوابه والنجاة من عقابه ، وسيظل ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن الآيات التي تلت أنظار الناس إلى الآيات المحسوسة قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ﴾ (١) .

فهذه القناعة بالعبودية لله وطلب النجاة من العذاب والرغبة في الثواب ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾ (٢) كانت نتيجة المنهج الحسي . ولهذا كان المنهج الحسي أحد المناهج التي أستخدمها الأنبياء في دعوتهم والدعاة من بعدهم ، وهذا المنهج له أساليب من أهمها أسلوب القصة القرآنية الذي أحاول إبرازه في هذا الموضع .

ففي قصة هود قال تعالى : ﴿ واتقوا الذي أمركم بما تعلمون ، أمركم بأنعام وينين ، وجنات وعيون ، إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٣) .

فهنا يلفت هود نظر قومه إلى ما يرونه وما يعلمونه من نعم محسوسة لديهم من الأنعام والبنين والبساتين وغيرها ، ليكون ذلك سبباً في عبادتهم لله وعودتهم إليه واتباعهم لما جاء به هود .

وفي قصة لوط نراه يعظ قومه بقصص أخبار الأمم السابقة حين يقول لهم الله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (٤) . فدعوة لوط لقومه للنظر في أحوال من سبقهم إما مشاهدة حسية يرى قومه آثارها ، فتكون أسلوباً من أساليب المنهج الحسي ، أو تكون دعوة للتفكير في تجربة من مضى ، وكذلك تدخل في المنهج الحسي الذي نحن بصدد الحديث عن أساليبه .

وفي قصة شعيب كذلك يدعو قومه لمشاهدة أحوال الأمم السابقة قال تعالى عنه : ﴿ وانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (٥) ، ومن المشاهد الحسية لقصص القرآن قصة عاد وثمود وإبقاء آثارهما لمشاهدة الأمة لها .

ومن علاقة القصة القرآنية بالمنهج الحسي تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات ، حيث يرى المدعوون المعجزات أمامهم ، وينظرون إليها بأبصارهم ، ويحسون بها في واقعهم والهدف من هذه المعجزة

١ (سورة آل عمران : آية (١٨٩-١٩٠))

٢ (سورة آل عمران : آية (١٩١-١٩٢))

٣ (سورة الشعراء : آية (١٣٢-١٣٥))

٤ (سورة الأعراف : آية (٨٤))

٥ (سورة الأعراف : آية (١١٧-١٢٢))

دعوتهم إلى الله وإظهار الحق وإبطال الباطل الذي هم عليه . ولنأخذ مثالين من قصص القرآن أحدهما ما ورد في قصة موسى عليه السلام مع السحرة قال تعالى : ﴿ وَأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾ (١) .

فهنا لمارأى السحرة عصا موسى علموا أن هذا لا يدخل في السحر المبني على الكذب ، وإنما هذا تاييد من الله لهذا النبي (موسى) عليه السلام ، فكان هذا المنهج من موسى عليه السلام هو المنهج الحسي الذي قاد السحرة إلى الإيمان بالله تعالى .

وثانيهما ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام عندما قال الله تعالى حاكياً ما قاله سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ (٢) .

وكان هذا الكيد هو قوله تعالى : ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ (٣) ، حيث رجح قوم إبراهيم من عيدهم ليجدوا آلهتهم حطاماً متناثراً على الأرض وكبيرهم قد علق الفأس في عنقه إذ لم يشأ الخليل عليه السلام إحقاقه برفاقه ليقيم لعبدته دليلاً محسوساً على بطلان ما يعبدون (٤) .

ولا شك أن هذا المنهج له آثاره العميقة في النفس وسرعة الإستجابة من المدعو لما يراه من قناعة ، ولهذا فإن كثيراً من الكفار اليوم يسلمون بسبب مشاهدتهم لإعجاز الله في خلقه ، فينبغي للدعاة تفهم هذا المنهج واستخدامه في مواطنه الصالحة التي تؤثر في المدعويين فيها .

(١) سورة الأعراف : آية (١١٧-١٢٢)

(٢) سورة الأنبياء : آية (٥٧)

(٣) سورة الأنبياء : آية (٥٨)

(٤) أنظر إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم ، أحمد الأميري ص ٨٤ دار المنار سنة ١٤٠٦ هـ

* القصة أسلوب من أساليب الدعوة :

يبين العلماء أن للدعوة ثلاثة أركان :

- ١ - الداعي .
- ٢ - المدعو .
- ٣ - وموضوع الدعوة (١) .

(ولو نظرنا إلى القصة القرآنية وجدنا أنها تحتوى على الأركان الثلاثة ، فنجد مثلاً أن شخصية الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآني ، ولذا اشتهرت تسمية هذا القصص باسم صاحب الدعوة فيقال قصة يوسف ، قصة موسى ، قصة يونس (٢) ونجد أيضاً القصص القرآني يقدم لنا المدعوين مبيناً أحوالهم فهم بين مؤمنين وكافرين وضعفاء وأذلاء ورجال صادقين أقوياء . ونجده كذلك يقدم لنا موضوع الدعوة : وهو الدعوة إلى العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من الشرك والشبهات ، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والتحذير من الأخلاق الرذيلة "والذى يتبع القصص القرآني يجد أن أحداثه كلها تقريباً تدور في محيط الدعوة إلى الله (٣) .

ولما كانت القصة القرآنية مهمة لأنها مليئة بالعبر والعظات التي يستشفها أصحاب العقول النيرة فإن الله عز وجل قد ضمن القرآن الكريم الكثير من قصص الأمم السابقة مع أنبيائهم لتكون أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل . لأن الله سبحانه وتعالى يستعرض فيها ما حدث من مؤمني الأمم السابقة وكافريهم مع أنبيائهم ورسولهم . كذلك يستعرض فيها المحاورات والمجادلات بين كل منهما متضمناً إياها بين طياتها ما يدفعهم دفعاً إلى الإيمان بالله عز وجل ، وعن ذلك يقول الدكتور جمعة الخولي في كتابه تاريخ الدعوة : (لقد عرض القرآن الكريم لدعوات الرسل السابقين وتاريخهم مع أقوامهم في تلك القصص التي تحتل مساحة واسعة من المصحف الشريف ، وجميعها يعرض لنا قصة الدعوة إلى الله ومالقيت من كيد وما واجهت من خصام (٤) .

ويتبين لنا من العرض السابق أن القصة القرآنية بجميع محتوياتها تدور في نطاق الدعوة سواء فيما يتعلق بالدعاة أو موضوع الدعوة أو المدعوين أو وسائل الدعوة ومناهجها وأساليبها فهي مصدر عظيم ومنبع جليل للدعوة عامة .

١ (انظر المدخل إلى علم الدعوة ، البيانوني ص ١٥٢ ، وأصول الدعوة ، زيدان ص ٢٩٧ .

٢ (القصص القرآني منظوفه ومفهومه ، عبدالكريم الخطيب ص ٤٣ .

٣ (المرجع السابق : ص ٤٣

٤ (تاريخ الدعوة د. جمعة الخولي ص ٣ ، دار الطباعة المحمدية ، مصر ط ١ ، سنة ١٤٠٤ هـ .

الملاحم التي تدل على أن القصة القرآنية أسلوب من أساليب الدعوة :
اشتملت القصة القرآنية على الملاحم التي تجعلها أسلوباً من أساليب الدعوة وتقوم بدورها
على وجه متقن دقيق فهي :

أولاً :

تلازم الداعية وتملؤه انفعالاً بدعوته . وتصيره متحمساً لها . وتجعله مجاهداً ضد أعدائها .
واتقاً من النصر والنجاح للدعوة في نهاية الأمر . وذلك كله يتضح بما أفاضه القصص القرآني من
طمأنينة على نفسية النبي صلى الله عليه وسلم مكنته من مواصلة دعوته بعد أن كاد اليأس يجد سبيله
إلى نفسه . وقد دارت القصة معه موضحة أخبار السابقين مبينة ما كان من الأمم ، حيث كذبوا
الرسول واتهموه في عقولهم وألقوا الأذى بهم ، لكن الرسل عليهم السلام صبروا وثبتوا حتى
أنتصروا . وبذلك تطمئن قستهم نفس الداعية وتثبت فؤاده . قال الله تعالى : ﴿ وكلا نقص
عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾^(١) .

ويقول الإمام الرازي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : لقد ذكر الله في هذه الآية
فائدة وهي تثبيت فؤاد الرسول ﷺ على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى ، وذلك لأن
الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبليّة ، فإذا رأى له فيها مشاركاً خف ذلك على قلبه كما يقال : المصيبة إذا
عمت خفت فإذا سمع الرسول ﷺ هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى^(٢) .

والإنسان عندما يتجه إلى الدعوة فيرى عدم الاستجابة وقوة المعارضة من قومه قد يصاب
عند ذلك بنوع من اليأس وشدة الحزن ، ولذا خفف الله عن نبيه ﷺ شيئاً من ذلك بقصه القصص
لأنه (كان يجد من قومه انحرافات في نفوسهم ومن أعباء الدعوة ما يحتاج معه إلى التسلية والتسرية
والتثبيت من ربه وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه)^(٣) .

وقد استفاد النبي ﷺ والدعاة معه من القصص وعلموا أن عليهم أن يتحملوا الأذى وإن
كان من أقرب الناس إليهم ولا يتأثروا به . فان قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام تفيد أنه حين دعا أباه
إلى الإيمان رد عليه بقسوة وشدة . ﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك
وأهجرني ملياً ﴾^(٤) .

(١) سورة هود : آية (١٢٠)

(٢) تفسير الرازي : ١٨ / ٨١

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٤ / ١٩٣٤

(٤) سورة مريم : آية (٤٦)

فما تأثر من موقف أبيه بل رد عليه قائلاً : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان

بى حفيّا ﴾^(١) .

ثانياً :

تُعرّف بمبادئ الدعوة . وتوضح دعائمها الأساسية مع ذكر أدلة الصدق لهذه المبادئ ، وهذه المعرفة ضرورية لكي يعمل الداعية على أسس محددة ، ويشعر المدعوون انهم أمام وضع بين ومعروف .

والناظر في القصة القرآنية يرى هذه المبادئ واضحة والتدليل عليها أوضح ، خاصة في عرضها لجاني الإيمان بالله وتقرير الرسالات .

١ - ففي جانب الإيمان بالله مثلاً نرى في قصص القرآن الكريم تضافر الأدلة الحسية والشواهد الكونية ونداءات الفطرة على وجود الخالق المعبود المتفرد بالملك والتصرف ، له الأسماء الحسنى والصفات العلا .

قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج

الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾^(٢) .

قال الشوكاني : (قل يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقيقة التوحيد وبطلان ما هم عليه من

الشرك قل : من يرزقكم من السماء والأرض)^(٣) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم

نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم

صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم

صادقين * أ لهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان

يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾^(٤) .

وقال تعالى في شان من عبدوا العجل من بنى اسرائيل : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً

ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾^(٥) . وقال تعالى : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر

أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾^(٦) .

(١) سورة مريم : آية (٤٧)

(٢) سورة يونس : آية (٣١)

(٣) فتح القدير ، الشوكاني : ٤٤٣/٢

(٤) سورة الأعراف : آية (١٩١-١٩٥)

(٥) سورة طه : آية (٨٩)

(٦) سورة الأنبياء : آية (٤٣)

وقال تعالى حاكياً ما دار بين إبراهيم وقومه عن هذا الأمر: ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ (١) . وقال تعالى فى سورة يس عن مؤمنهم : ﴿ وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ﴾ (٢) .

وقال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وياقوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لاجرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ (٣) .

وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ : ﴿ قل رأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات اتنوني بكتاب من قبل هذه أو آتارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ (٤) .

ففى هذه الآيات الكريمة المقتطفة من بعض القصص القرآنى يبين الله عز وجل حال الآلهة المعبودة من دون الله وعجزها والمهانة بها ، لدرجة أنه عز وجل يبين أنها أقل شأنأ من عابديها وذلك لتقرير وترسيخ توحيد الألوهية بدلاً عن هذه الآلهة .

ولا يقف القصص عند حد طلب توحيد الله وعبادته . بل نراه يذكر الأسباب التى من أجلها يجب أن يوحد الإنسان ربه ويعبده ، فالله هو صاحب النعم . وهو الخالق وواهب الهداية وواهب الطعام والشراب والمرض والشفاء والموت والحياة وغافر الذنب وقابل التوب ، كل هذا بينه الحق سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام فى قوله : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقئ وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ (٥) .

وهكذا فالله هو الخالق ، الهادى ، الرزاق ، صاحب المغفرة والرحمة ، وهى كلها نعم أعطاها الله للإنسان .

(١) سورة العنكبوت : آية (١٦-١٨)

(٢) سورة يس : آية (٢٢-٢٣)

(٣) سورة غافر : آية (٤١-٤٣)

(٤) سورة الأحقاف : آية (٤)

(٥) سورة الشعراء : آية (٤١-٤٣)

٢ - وفي جانب تقرير الرسالات نرى المجادلة العنيدة من المكذبين حول بشرية الرسل ، وكونهم من عامة الناس لا يتبعهم إلا الأردلون وأن بهم ضروب السحر والكهانة والجنون والسفه والضلال لأنهم يدعون إلى نبد الآلهة وتقويض مجدها .

فإذا بالقصة تناقش وتجاوز هؤلاء المكذبين في إدعاءاتهم وتبين زيف ما هم عليه وحقيقة وصدق ما جاء به الرسل الكرام رضوان الله عليهم .

فمثلاً إنكار الأقوام لرسولهم وتكذيبهم بسبب بشريتهم وتصرفاتهم البشرية تناول الله عز وجل هذا الأمر ورد عليه في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى على لسان قوم نوح عليه السلام ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ والله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ (١) وكقوله سبحانه على لسان قوم صالح ﴿ أبشراً منا وحداً نتبعه ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ (٢) ، ومن ذلك ما جاء في دعوة هود عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملائكة الذين كفروا من قومنا إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أوعجتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا ءالاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (٣) .

وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى حاكياً ما قاله أهل مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون) (٤) ، ولا يقتصر الأمر على اللبس بل تعداه إلى ما هو أبعد من ذلك فإن الله عز وجل إذا لم يجعل الرسول من البشر وجعله من جنس الملائكة مثلاً ثم كذب الناس به فيهلكون مباشرة دون إمهال بخلاف ما كان من بشراً ثم كذب فيمهل قومه مرات ومرات ، وفى ذلك يقول عز وجل ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ﴾ (٥) وكقولهم حين تعجبوا وقالوا ﴿ أبعث الله بشراً رسولا ﴾ (٦) فرد الله عليهم بقوله ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً

(١) سورة هود : آية (٢٧-٣١)

(٢) سورة القمر : آية (٢٤-٣١)

(٣) سورة الأعراف : آية (٦٥-٦٩)

(٤) سورة الأنعام : آية (٩)

(٥) سورة الأنعام : آية (٨)

(٦) سورة الإسراء : آية (٩٤)

السماء ملكاً رسولاً ﴿١﴾ ، فالله عز وجل في قصص القرآن الكريم ذكر هذا الاعتراض الصادر منهم ضد بشرية الرسل الكرام ثم رد عليهم بعدة ردود منها :

أنه عز وجل أيد هؤلاء الرسل الذين من البشر بالمعجزات التي أظهرها على أيديهم ليظهر صدقهم عملياً أمام المكذبين نظرياً بدعواه ، ولقد كانت المعجزة تأتي من جنس ما تفوق الناس فيه ليتمكنوا من إدراك صدقها ، وكونها خارقة للعادة ، وليست من فعل بشر . وكان لسان حالها ينطق بصدق الرسول فيما يبلغ به عن الله ، هذا هو سيدنا موسى عليه السلام يبعث إلى قوم اشتبهوا بالسحر فيأتيهم بمعجزة من نوع تفوقهم إذ يأمره الله بإظهارها ويقول له : ﴿ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ (٢) ، وهكذا الحال مع بقية الرسل الكرام .

إن دور المعجزة أن تثبت الرسالة أمام من ينكرها .

يقول العقاد (لا يمتنع عقلاً أن تقع المعجزة وإنما الذى يمتنع عقلاً أن تقع عبثاً لغير ضرورة مع إمكان الاستغناء عنها إذا تبين أن إقناع المكابرين كان ممكناً بغيرها) (٣) فكان إتيان المعجزة لضرورة واضحة وهى إقناع المكابرين .

ومنها أن كون الرسول بشراً أولى من أن يكون من غير البشر ، لأن كونه بشراً منهم ومثلهم أقرب لأن يفهموا منه ويعقلوا عنه ما يريد إبلاغهم إياه بخلاف ما لو كان من جنس آخر وحتى لو جعله الله من غير البشر لجعله رجلاً ليسهل التفاهم بين المرسل والمرسل إليهم . وبعد فهذه صور من أسلوب القصة التي تمت بها الدعوة إلى الإيمان بالرسول وإثبات رسالتهم بالحجج الواضحة ، وإبطال كل ما أثاره الملأ من أقوامهم من المطاعن والشبهات حولهم . وقد أشرت إلى ذلك سابقاً (٤) .

ثالثاً :

والقصة تبصر بالمدعويين وتبين حقائق طبائعهم وغرائزهم واتجاهاتهم مستقلة على ذلك بما سبق من البشر .

فقد جرت طبيعة الناس على أنهم ليسوا سواء أمام الحق ودعوة الله ، فمنهم من يؤمن بها ويناصرها ومنهم من يكذبها ويعاديها . كما جرت العادة أن الناس يختلفون دائماً إلا من رحمه الله يقول تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (٥)

١ (سورة الإسراء : آية ٩٥)

٢ (سورة طه : آية ٦٩)

٣ (الفلسفة القرآنية - للأستاذ عباس محمود العقاد - ص ٨ ، طبع ونشر دار الهلال - القاهرة .

٤ (في البحث الثاني من الفصل الأول في إثبات النبوة .

٥ (سورة هود : آية ١١٩)

يقول الإمام النسفي عند تفسيره لهذا النص الكريم (أى خلقهم للذى علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف واتفاق) ^(١) .

والقصص القرآنى يبين هذه الحقيقة . يقول تعالى فى حديثه عن قصة قوم صالح ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن أعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ ^(٢) .

فتراهم يختلفون أمام دعوة صالح عليه السلام وينقسمون إلى فريقين : فريق مؤمن وفريق كافر .

فالفريق الكافر أخذ يجادل ويخاصم ويعاند الفريق المؤمن وفى ذلك يقول الله عز وجل ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴾ وهذا سؤال يوجهه المستكبرون فيرد عليهم المستضعفون حيث ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ لكن المستكبرين يعاندون ويقولون ﴿ إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ ^(٣) ومن هذه المناقشة يتضح الخلاف والجدل والتخاصم بين الفريقين .

وهكذا الشأن فى كل الأمم إذ يختلفون أمام دعوة الله ويعادون الرسل ويحاولون التصدى لهم عناداً وتكبراً يقول تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ ^(٤) .

فلا عجب أن تبين القصة هذه الحقيقة لمحمد ﷺ وللدعاة من بعده لئلا يفاجأوا حين يرون الاستهزاء والإيذاء والاختلاف . ويعلموا من البداية أن طبيعة الجماعة أن تختلف وتتفرق ، ولقد رأى النبي ﷺ هذا الأمر فى الأمة التى بعث فيها .

ومن هنا فمن الواجب على الدعاة أن يوطنوا أنفسهم ويجعلوها مستعدة لتقبل سخافات الضالين المجرمين المضلين التى قد تصل أحياناً إلى الإخراج من الأرض والطرده منها . كما حدث لإبراهيم عليه السلام يقول تعالى : ﴿ فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ ^(٥) .

وكما حدث لشعيب إذ ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ ^(٦) .

(١) تفسير النسفي ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٢) سورة النمل : آية (٤٥) .

(٣) المناقشة من الآيات ٧٥، ٧٦ ، فى سورة الأعراف .

(٤) سورة الفرقان : آية (٣١) .

(٥) سورة العنكبوت : آية (٢٦) .

(٦) سورة الأعراف : آية (٨٨) .

وكما حدث لموسى يقول تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾^(١) .
وقد يصل الإيذاء إلى الإحراق بالنار كما حدث لإبراهيم عليه السلام إذ ﴿ قالوا حرقوه
وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين ﴾^(٢) ، وكما حدث لأصحاب الأخدود ﴿ قتل أصحاب
الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾^(٣) .
وكل هذه الصور حدثت مع النبي محمد ﷺ إذ رأى الاستهزاء بالقول من قومه وفي ذلك
يقول تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا
أنقلبوا إلى أهلهم أنقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾^(٤) .
وكذلك علم ﷺ أن أهله سيخرجونه من بلده يوم جاء إلى ورقة بن نوفل فى يوم بداية
الوحي يسأله عن حقيقة مارأى فى هذا اليوم . قال ورقة له (هذا الناموس الذى نُزِلَ على موسى ،
يا ليتنى فيها جذعها ، يا ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : " أو مخرجي هم
؟ " قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يوماً حياً أنصرك نصراً
مؤزراً) . ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي^(٥) . وقد بقى ﷺ بمكة حتى خرج منها مهاجراً
فى ليلة تجمع الفتيان حول داره من أجل قتله .
وهكذا فالاختلاف سنة لاتنقطع فى الناس ، وعلى الدعاة المهتمين بالدعوة مراعاة هذا
الواقع ليتحركوا على أساسه متمسكين بالصبر واللين بعيدين عن اليأس وفقدان الأمل .
رابعاً : والقصة تعتبر موعظة حسنة . لأنها بعناصرها وتأثيراتها تلفت نظر المدعوين برفق من غير
الماضى ما يجعله يقتنع ويشعر أن الداعى ينصحه ويقصد نفعه . وفى القصة الأوامر والمواعظ والتذكير
والعظة .
وهى بعموم أحداثها ومجرياتها تحتوى على الموعظة الحسنة ، ولذلك قص الله القصص وأمر
نبيه بالقص ، والقصص القرآنى ألصق بالمنهج العاطفي من غيره من المناهج ، وإن كان يحتوى على
بقية المناهج كما وضحناه سابقاً فى المناهج وأنواعها^(٦) .

١ (سورة الدخان : آية (٢٣))

٢ (سورة الأنبياء : آية (٦٨))

٣ (سورة البروج : آية (٤-٧))

٤ (سورة المطففين : آية (٢٩-٣٢))

٥ (انظر فقه السيرة - محمد الغزالي ص ٩٢ ، دار أحياء التراث العربي - الطبعة السابقة سنة ١٩٧٦م . - وفقه السيرة - د. محمد سعيد
رمضان البوطي ص ٦٧ ، الطبعة السابقة سنة ١٩٧٧م . وصحيح البخاري ج ١ ، ص ٤ ، باب بدء الوحي .)

٦ (انظر الفصل التمهيدي المبحث الأول مناهج الدعوة فى القرآن الكريم ص

ولذلك فإن الله عز وجل ضمن قصص القرآن الكريم الموعظة الحسنة لأنها من أندج أساليب الدعوة المؤثرة في النفس ، فبيننا محمد ﷺ يأمره الله بالموعظة الحسنة ، فيقول الله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (١) .

قال سيد قطب رحمه الله عن أهمية الموعظة الحسنة : (الموعظة الحسنة تدخل إلى القلوب برفق وتتعمق في المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ولا يفضح الأخطاء التي تقع عن جهل أو حسن نية ، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ) (٢) .

ففي قصة موسى نرى الدين في القول والدعوة الحسنة قال تعالى : ﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٣) .

ففي هذه الآيات الكريمة يوصي الله عز وجل موسى وهارون بمبادأة فرعون بالقول اللين والخطاب الرقيق لعل قلبه يرق ويستجيب لما يدعونه إليه ، وهذا يلتقى مع منهج الإسلام في الدعوة إلى الله الذي يقوم على الرفق والرحمة والموعظة .

فمقام الدعوة يقوم على استشارة جوانب الخير في الإنسان ، وهذا يحتاج إلى كياسة وفطنة تسوق الموعظة في أسلوب رقيق يفتح القلب ويشرح الصدر حتى لا يثور جانب الشرف في الإنسان ، وسوق النصيحة في مثل هذا الأسلوب من شأنه أن يؤلف القلوب النافرة ويهدي النفوس الشاردة (٤) خامساً : والقصة تناسب طاقة البشر لأنها رواية عن أخبار البشر وقد اختارها الله وقص منها على الخصوص ما هو هادف ومؤثر ، وجعله وحياً باقياً يلائم البشر دائماً وأيضاً فهو إذ يفيد الدعوة يفيد مقاصدها كذلك لأنه يعرف بها ويحث عليها وسبحان الله الذي جعلها هكذا وهو الحكيم الخبير .

(١) سورة النحل : آية (١٢٥)

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب : ٢٢٠٢/٤

(٣) سورة طه : آية (٤٤)

(٤) تاريخ الدعوة ، د. جمعة الخولي : ٢٨٣/١ - ٢٨٥ بتصرف .

مميزات القصة القرآنية:

تتماز القصة القرآنية بمميزات عدة من أهمها :

١ - بأنها تصور نواحي الحياة المختلفة ، فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم ، وإتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية والزمنية ، وتعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش - عرفت ما يستكن في النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوى النفوس المظلمة والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأي العين ، وتسمع منهم سمع الأذن وتعاشرهم وتحى بينهم .

٢ - وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها ، فغريزة حب الاستطلاع ، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصي البارع استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء . والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوصل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه الى أعماق القلوب ، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة علمية حية تحرك الوجدان . وترفع نبض المشاعر ... وهي بالميزة الثانية : ميزة التنبه والتقبل ، تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار^(١) .

٣ - والقصص القرآني تميل إليه النفوس وذلك لحسن أوصافه ورونق عباراته وصدق واقعيته . ومما

يؤكد هذا الميل ما طلبه الصحابة من النبي ﷺ حيث روى ابن جرير^(٢) والحاكم^(٣) عن مصعب بن سعد بن سعد في قول الله عز وجل : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ الآية قال : أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله ﷻ ﴿ الر * تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾^(٤) .

فطلب الصحابة رضي الله عنهم من النبي ﷺ أن يقص عليهم لما للنفوس من ميل إلى قصص

القرآن ورغبة فيه . ونظراً لهذا الميل إلى القصص وقوة التأثير بها كانت من مداخل الدعوة التي

سلكها رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته والوصول إلى عقول وقلوب الصحابة رضي الله عنهم ، مما

١ (انظر تذكرة الدعاة - البيهقي الخولي ص ٤٦، ٤٥)

٢ (جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ١٥٠/١٢)

٣ (المستدرک للحاكم : ٣٤٥/٢ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

جعلهم يتفاعلون مع أحداثها ، حتى إن رسول الله ﷺ لما قرأ أول سورة فصلت وبلغ قصة عاد
وئود في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ ﴾^(١) قال عبدة
: حسبك ما عندك غير هذا^(٢) مما يدل دلالة قاطعة على مدى تاثر الناس بالقصة القرآنية لتناسبها
طاقة البشر .

* نماذج من القصص القرآني وعلاقتها بالمنهج الحسي :

كثيراً ما يرد ذكر الآيات الكونية الباهرة ، الدالة على وجود الله سبحانه وكمال قدرته
وعظيم تديره ، مصحوباً بامتنان الله على الإنسان ، بهذه الآيات العظيمة ، لما فيها من نعم وافرة
جلية تعود على الإنسان بالنفع ، وكونها حقيقة بالشكر والاعتراف بالجميل لله سبحانه ، مما
يحمل على توحيده ، وكمال تعظيمه واعتقاده أنه سبحانه هو وحده مصدر كل نعمة ، وأنه لذلك لا
ينبغي لعاقل أن يذل ويخضع لأحد سواه سبحانه .

كما أن هذه الآيات التي يعرضها القرآن الكريم ، كثيراً ما تكون مقرونة بطلب صرف النظر
إليها للتأمل والتفكير والاعتبار ، لما فيها من دلائل وحدانيته سبحانه ، ولذلك نجد كثيراً من الآيات
القرآنية المشتملة على الآيات الكونية ، مذيبة بنحو قوله تعالى : ﴿ .. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿^(٣) . قال تعالى : ﴿ .. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾^(٤) ، ﴿ .. إِنْ فِي ذَلِكَمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ

(١) سورة فصلت : آية (١٣)

(٢) انظر القصة كاملة في فتح القدير للشوكاني : ٥٠٤/٤

(٣) سورة الأنعام : آية (٩٧)

(٤) سورة الأنعام : آية (٩٨)

يؤمنون ﴿^(١)﴾ ، ﴿.. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ ^(٢) ، ﴿.. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ ^(٣) ، ﴿.. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ ^(٤) .

وهذا الإسلوب : أعني التذكير بنعم الله سبحانه ولفت النظر إلى آيات الله الكونية ، جاء في القصص القرآني عن كثير من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام من ذلك : أولاً : ما جاء في قصة أبينا آدم عليه السلام ، حيث يذكر الله عز وجل فيها من آياته وآلائه على أبي البشر ، وسائر ذريته أموراً منها ^(٥) :

١- عناية الله سبحانه بهذا الإنسان حيث حوله من حالة تراب إلى أن صار بشراً سوياً ، بما خلق عليه الله سبحانه من حلل البهاء والجلال والجمال حتى صار عظيماً كريماً ، وصار مظهرًا من مظاهر أسرار قدرة الله سبحانه وحكمته البالغة وعلمه الواسع . قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾ ^(٦) ، ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ^(٧) ، ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون ﴾ ^(٨) ، ﴿ ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ^(٩) .

٢- إفاضة الله سبحانه على آدم من العلم ، الذي كانت الملائكة - على جلالها ورفعته وسمو مكائنها - تجهله ، حتى أقرت بجهلها به ^(١٠) .

١ (سورة الأنعام : آية (٩٩))

٢ (سورة يونس : آية (٢٤))

٣ (سورة يونس : آية (٦٧))

٤ (سورة الرعد : آية (٤))

٥ (انظر : معالم الدعوة ص ٢٥٢ وما بعدها .)

٦ (سورة الحجر : آية (٢٦))

٧ (سورة الحجر : آية (٢٨-٢٩))

٨ (سورة الروم : آية (٢٠))

٩ (سورة التين : آية (٤))

١٠ (قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ص ٢١ ، بتصرف .)

قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴿ (١) .

٣- اقتضاء مشيئته سبحانه أن يستخلف هذا الإنسان في الأرض ، لحكمة يعلمها ، هي فوق مجرد التسبيح والتقديس ، اللذين ظن الملائكة أنهما منتهى الغاية من الخلق حينما قالوا : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (٢) . فرد عليهم سبحانه بقوله : ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

٤- رحمة الله سبحانه التي أدركت آدم عليه السلام بعد أن عصر ربه سبحانه فعفى عنه وتاب عليه ، وعفى عنه أثر تلك المعصية ، حتى أصبح هو وذريته براء منها : ﴿ .. وعصى آدم ربه فغوى ﴾ * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴿ (٣) .

وهذه الأمور إنما ورد ذكرها في القصص القرآني ، تذكيراً من الله سبحانه لعباده بنعمته عليهم وعلى أبيهم آدم عليه السلام من قبل ، وذلك من : خلقه من تراب ، ونفخ الروح فيه ، والامتنان عليه بالجنة ، والتوبة عليه بعد معصية ربه ، وإسجاد الملائكة له ، وتعليمه من العلوم التي تجهلها الملائكة ، مما يحمله ويحمل ذريته على كمال العبودية والخضوع له سبحانه .

ثانياً : ومما ورد في قصة هود عليه السلام وهو يدعوهم إلى بارئهم سبحانه ، الذي لا إله غيره ويخبرهم بأن حالهم في الإشراف بالله ، ما هم إلا مفترون بقوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال

١ (سورة البقرة : آية (٣١-٣٣))

٢ (سورة البقرة : آية (٣٠))

٣ (سورة طه : آية (١٢١-١٢٢))

ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴿^(١)﴾ .

كما يذكرهم بما يحملهم على توحيد الله سبحانه ، من النعم التي أسبغها عليهم ، ففي سورة الشعراء ، جاء تفصيل بعض ما أمدهم الله به من النعم التي توجب الشكر وتنذر بسوء عاقبة الإعراض عن المنعم بها سبحانه ، قال الله تعالى : حكاية عن هود عليه السلام : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وينين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ ^(٢) .

وفي موضع آخر يحكي الله سبحانه عن نبيه هود عليه السلام أنه - في سياق دعوته إلى عبادة الله وحده وتقواه - ذكرهم بما حل بقوم نوح عليه السلام من الهلاك ، وأن الله سبحانه امتن عليهم حيث جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم سعة في الرزق ، وبسطة في الخلق ، حتى قالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ ^(٣) ، وهم الذين وصفهم نبيهم بقوله : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * ﴾ ^(٤) .

ودعاهم إلى أن يذكروا هذه الآلاء ، على ذلك الذكر يكون سبباً في فلاحهم قال الله تعالى - حكاية عنه - : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا ءالاء الله لعلكم تفلحون ﴾ ^(٥) .
ثالثاً : وأما ما جاء من التذكير بنعم الله سبحانه في قصة صالح عليه السلام ، وهو يعرض على قومه دعوتهم إلى الله سبحانه ، مذكراً إياهم ما غمرهم الله سبحانه به من إحسانه وأفضاله في هذه الحياة ، ففي موضعين :

-
- ١ (سورة هود : آية (٥٠))
 - ٢ (سورة الشعراء : آية (١٣٢-١٣٥))
 - ٣ (سورة فصلت : آية (١٥))
 - ٤ (سورة الشعراء : آية (١٢٨-١٣٠))
 - ٥ (سورة الأعراف : آية (٦٩))

الأول : في قوله تعالى - حكاية عن نبيه صالح عليه السلام - ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (١) .

يذكرهم نبيهم صالح عليه السلام ، قوم عاد الذين أبادهم الله سبحانه ، لعدم شكرهم نعمة الله عليهم ، وكيف منّ الله عليهم بالاستخلاف من بعدهم وأنزلهم في الأرض ، ومكنهم من إعمارها بما ألهمهم من فنون الصناعة وهندسة البناء ، ومن النحت وغير ذلك ، ثم يحتم ذلك بدعوتهم إلى ذكر آلاء الله سبحانه جميعاً ، وأن لا يحملهم ما هم فيه من رخاء وقوة وعمارة للأرض على الإفساد في الأرض .

وفي الموضع الثاني : يقول الله سبحانه حكاية عن صالح ، عليه السلام : ﴿ أتتركون في ما هاهنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ (٢) .

فهذا الأسلوب الذي تراه من تذكير القوم بما غمرهم الله به من فضله ، وعمهم بإحسانه ، وجعلهم أجلاء عظماء في شؤون الحياة ووسائل العمران ، فيه التنبيه إلى أنه لا ينبغي لمن كرمهم الله ذلك التكريم أن يلوثوا أنفسهم بالمعاصي ، ويدنسوها بالجرائم ، وهو أسلوب غاية في البيان وإلزام الحجة والبرهان ، إذ يُشعر الإنسان المخاطب بعلو نفسه وكبر منزلته ، ثم يطالبه بحقوق هذه العزة ، وما تتطلبه تلك المنزلة ، ويعرفه أن عصيانه لخالقه ورب نعمته ، هو العاجل والآجل ، ولهذا قال صالح عليه السلام : ﴿ أتتركون فيما هاهنا آمنين ﴾ .

(١) سورة الأعراف : آية (٧٤)

(٢) سورة الشعراء : آية (١٤٦-١٤٩)

يحذرهم أن يظنوا أنهم يتركون في هذه النعم التي غمرهم الله بها آمنين على أنفسهم من حلول عذاب الله بهم الذي يبذل نعيمهم شقاء وأمنهم خوفاً لمقابلتهم هذه النعم بالكفر دون الشكر عليها^(١) .

وما ظنك - يرحمك الله - بقوم تلك سجايهم وذاك ديدنهم ، أي مبلغ من الشر والفساد يبلغون وإلى أي منتهى ينتهون ، لقد عقروا الناقة ثم توجهوا إلى صالح وهم بما لم ينالوا ، وكان ربك لهم بالمرصاد .

لكن الله حفظه ودمرهم أجمعين إذ يقول تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ * فانظر كيف كان عاقبة مكربهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴿^(٢) .

وعند الأجل المضروب أخذ الذين ظلموا الصيحة ليصبحوا في ديارهم جاثمين إلا صالحاً عليه السلام ومن آمن معه وشق عليه ما سيصير إليه حال قومه : ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾^(٣) .

وهكذا أنقلب الوضع على المتأمرين وباعووا بالخسران المبين ، وتحققت إرادة رب العالمين بعد أن استفرغ صالح عليه السلام وسعه في استمالة القوم لدعوة الله ، والملاحظ أن هناك تشابهاً بين قصتي عاد وثمود في الوقائع وفي المصير وحتى في كثير من التعابير .

ولعل مرد ذلك تشابه الجماعتين من حيث الأوضاع الاجتماعية والسلوك القائم على الطغيان ، وقد كانوا على قسط كبير من المدنية ولا سيما في البناء واتخاذ الحدائق الفخمة ، ولعل

١ (دعوة الرسل : الشيخ محمد العدوي ص ٣٥، ٣٤، ٢٨ .

٢ (سورة النمل : آية (٥٠-٥٢))

٣ (سورة الأعراف : آية (٧٩))

اتخاذ ثمود مباني من الجبال منحوتة هو خوفهم مما حصل لعاد في نفس دورهم وتبعثر قصورهم وحسبوا أنها تغني عنهم من عذاب الله شيئاً^(١) .

رابعاً : وتتضمن قصة صاحب الجنتين ما يأتي :

فصاحب الجنة رجل أغتر بماله من حدائق ، ولم يتذكر أنها نعمة من الله إليه تستحق الشكر للمنع ، لا أن تقابل بالكفر ونسيان نعمة المنعم ، ولما وصل به الأمر إلى أنه يفتخر على صاحبه بأنه ذو مال كثير وله عصابة أقوياء .

فهو يرى بنظرتة القريبة أن عزته بهذا ، وأدى به الأمر إلى أنه ينكر أن هناك بعثاً وحساباً ، ويفترض أنه إن كان هناك بعث وحساب فإنه سيجد هناك خيراً من جنته فإنه ما دام غنياً في الدنيا ، فسيكون غنياً في الآخرة بمقياسه الخاص^(٢) ، فوجه له المؤمن رسالته ليلفت انتباهه إلى أصل خلقته وأن الذي خلقه من تراب ثم من نطفة قادر على إعادته ، وذكره أيضاً بأن النعم التي يفتخر بها إنما هي من الله ، وكان ينبغي أن يشكر الله عليها ، ويرد الأمر إليه فلا قوة إلا به تعالى وعن هذه القصة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً إلى قوله ... هو خير ثواباً وخير عقبا ﴾^(٣) .

وقد سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب القصصي لإيصال العقيدة الصحيحة للناس وتبنيها ومعالجة موضوع التوحيد بقسيمه توحيد الربوبية : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ وتوحيد الألوهية ﴿ لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحد ﴾ .

(١) انظر : مع الأنبياء في القرآن الكريم ، عفيف عبد الفتاح طباره ص ٩٢-٩٦ .

(٢) انظر : فتح القدير ٢٨٦/٣ ، والظلال ٢٢٧٠/٤ .

(٣) سورة الكهف : آية (٣٢-٤٤)

المبحث الثالث :
الترغيب والترهيب

ويشتمل على تمهيد ومطلبين :

- المطلب الأول : الترغيب .**
- المطلب الثاني : الترهب .**

تمهيد :

القرآن الكريم عامل النفس البشرية في توجيهها إلى الخير وإبعادها عن الشر معاملة تتسم بالدقة فنجده يستخدم أسلوب التخويف ، والترهيب تارة لردع النفوس التي لا ترتدع إلا بهذا الأسلوب ، وتجده تارة أخرى يستخدم أسلوب الترغيب والوعد لجذب أولئك الذين يجدي فيهم هذا الأسلوب لأن الناس منهم من لا يردعهم إلا الترهب والتخويف ومنهم من يؤثر فيهم الترغيب والوعد .

وأسلوب الترغيب والترهيب هذا من أنجح الأساليب التربوية لأنه يتلائم مع حاجة النفس الفطرية ، وفي استخدام القرآن الكريم لهذا المنهج يبدأ فيه دائماً بالخير ويقدم الوسائل الترغيبية على الوسائل الترهيبية ليهدي البشرية ، لذلك فإن عنصر الرجاء هو أول العناصر التي سعى لها ووضعها بين يدي الإنسان ليعرف ربه ويؤمن بقدرته ، ويقتنع بأن ما عند الله خير وأبقى وأنه النافع لكل الناس .

والقرآن في سبيله إلى ترغيب الناس بدأ أولاً :-

بتحويل الرجاء من الآمال الواهية والقيم الزائفة إلى القيم الحقيقية ، وقيم الخير والإيمان ،

بأساليب ترغيبية عديدة :-

- فهو لا يحرم المتاع الشريف ، ولا يدعو إلى الرهينة أو الانصراف عن شؤون الأرض ﴿ الدنيا ﴾ . بل يدعو إلى ذلك المتاع ويستنكر تحريمه ، قال تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده

والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾^(١) .

ولكنه لا يجب الانغماس في الشهوات فتفتن الناس عن القيم الحقيقية الباقية الخالدة ، فهذه

الشهوات وهذا المتاع الدنيوي زائل . قال تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات

الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى ﴾^(٣) .

والقرآن الكريم حينما يرغب يفتح أبواب الرجاء حيث النعيم المقيم الخالد الأبدى الذي

لا يزول .

وحينما يعد الإنسان النعيم فإنه لا يكتفى بالنعيم الحسي أو النعيم المعنوي بل يقرنهما

ويعزجهما لكي يحقق كل إنسان مراده ، تأمل قوله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ على سرر موضونه

* متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا

١ (سورة الأعراف : آية (٢٢))

٢ (سورة الكهف : آية (٤٦))

٣ (سورة النساء : آية (٧٧))

يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأَمْشال
اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون ﴿^(١)﴾. فالآيات السابقة قد ذكرت أشد أمور النعيم حسية
، ثم يأتي بعدها قوله تعالى ﴿ جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً
سلاًماً سلاماً ﴾^(٢).

وكذلك فى أغلب آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن النعيم فى الآخرة نجدها تفرم النعيم
الحسى بالمعنوي . وأعلى درجات النعيم التى يذكرها القرآن هى التى يكون فيها النعيم معنوياً ، تأمل
قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾^(٣) .

فالنعيم نراه يرتفع ويسير حتى يصبح وداً من الله تعالى لعباده ، أروع مظاهر المتاع ، وأبلغ

أنواع الترغيب فى الإيمان بالله ، وفى تقديره حق قدره جل شأنه^(٤) .

وفى مجال التهيب نجد أن القرآن الكريم ينفذ كل خوف فاسد ، فهو أولاً ينفذ من وتر
الخوف كل ما يرهق كاهل الإنسان من مخاوف زائفة - ينفذ عنه الخوف من الموت ، فالخوف من
الموت لا يؤخر الأجل - ولا يغير من المكتوب شيئاً :-

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء
أجلها ﴾^(٦) .

ونجده كذلك يزيل خوف الإنسان على الرزق :- قال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما
توعدون ﴾^(٧) .

ويزيل الخوف من مكر الناس وأذاهم - قال تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾^(٨) .

١ (سورة الواقعة : آية (١٥-٢٤))

٢ (سورة الواقعة : آية (٢٤-٢٦))

٣ (سورة مريم : آية (٩٦))

٤ (انظر مباحث فى إعجاز القرآن - أحمد جمال العمري ص ٥٤-٥٩ بتصرف .

٥ (سورة ق : آية (٤٣))

٦ (سورة العنكبوت : آية (٥٧))

٧ (سورة الناريات : آية (٢٢))

٨ (سورة التوبة : آية (٥١))

وبالمقابل فإنه يزرع الخوف الحقيقي من أمور حقيقية :-

فيخوفهم من النار : قال تعالى ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾^(١). والقرآن فى هذا المجال نجده يمزج العذاب الحسى بالعذاب المعنوى تارة أى يقرن بين أمور حسية وأمور معنوية .
قال تعالى ﴿ فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * وهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾^(٢).

وتارة يغلب العذاب النفسى المعنوي ، قال تعالى : ﴿ نار الله الموقدة * التى تطلع على الأفئدة ﴾^(٣) .

وتارة عذاب معنوى نفسى خالص قال تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾^(٥) .

وقد يرتفع العذاب النفسى فى بعض المواقع إلى قمة المعنويات :- قال تعالى : ﴿ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ﴾^(٦) .

(١) سورة البقرة : آية (٢٤)

(٢) سورة الحج : آية (١٩-٢٢)

(٣) سورة الهمة : آية (٦-٧)

(٤) سورة الأنفطار : آية (١٩)

(٥) سورة عبس : آية (٣٤-٣٧)

(٦) سورة البقرة : آية (١٧٤)

فالقُرآن الكريم نظر إلى الناس كل حسب مواصفاته ومن ثم وقع القرآن على وتر الخوف
جميع الطرق المؤثرة ، وجميع المستويات ليشمل الناس كلهم من جهة ويشمل كل واحد في جميع
حالاته من جهة أخرى (١) .

وهكذا يمسك القرآن الكريم بزمام النفس البشرية حتى يقومها فيعدها ويمنيها ويخوفها
ويرهبها ، فهو يبشر وينذر ، ويرغب ويرهب ، وفيما بين ذلك الترغيب والترهيب يفرس فيها كل
البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في أعماق النفوس .

(١) مباحث في إعجاز القرآن (مرجع سابق) ص ٤٧-٥٣ بتصرف .

المطلب الأول : الترغيب

تعريف الترغيب :

الترغيب في اللغة : من رغب يرغب رغبةً ^(١) : إذا حرص على شيء وطمع فيه . ورغب فيه رغباً أرادته ، والرغبة : هي إرادة الشيء : يقال رغبته في الشيء إذا أردته قال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾ ^(٢) ويقال : رغب عن الشيء زهد فيه ولم يردده ، قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ ^(٣) .

وفي الإصطلاح : كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه ^(٤) .
وعرف أيضاً : يعني جميع ما يجذب الناس ، ويدفعهم إلى الإقبال على الدخول في الحق ، والسير على أساسه والتفاني في سبيل نصرته ^(٥) .
والترغيب وعد يصحبه تحييب وإغراء ، بمصلحة أو لذة أو متعة آجله ، مؤكدة ، خيرة خالصة من الشوائب ، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيء ابتغاء مرضاة الله ، وذلك رحمة من الله لعباده ^(٦) .

بم يكون الترغيب

الأصل في الترغيب : أن يكون في نيل رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة وكسب ثوابه في الآخرة والفوز فيها ، و مصداق ذلك من كتاب الله قوله عن نوح عليه السلام : ﴿ فقلت أستغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ ^(٧) .

وقد يكون الترغيب بما يأتي :

١ - بما يصيبهم في الدنيا من الخير العميم ، والهداية الغامرة ، وذلك كله للاستقامة على أمر الله واتباع منهجه والسير على تعاليمه قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه ، حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ^(٨) . ﴿ وألوا أستقاموا على

١ (لسان العرب مادة رغب : ٤٢٢/١)

٢ (سورة الشرح : آية (٧))

٣ (سورة البقرة : آية (١٣٠))

٤ (انظر : أصول الدعوة - زيدان ص ٤٣٧ ، والدعوة إلى الله - توفيق الواعي ص ١٩٩)

٥ (الدعوة إلى سبيل الله أصولها ومبادئها - د. عبدالحق إبراهيم ص ٢٠٦ مطبعة الأمانة ١٤٠٧ هـ .)

٦ (أصول التربية الإسلامية - النحلوي - ص ٢٥٧)

٧ (سورة نوح : آية (١٠-١٢))

٨ (سورة النحل : آية (٩٧))

الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴿١﴾. ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم
لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ ﴿٢﴾ ،
﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ ﴿٣﴾ .

ويقول تعالى في الترغيب بالإيمان ليكون سبباً في الرزق والبركة ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا
واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ ﴿٤﴾ .
٢ - بما ينالهم من النصر والفوز في الحياة الدنيا والعزة والكرامة في العالمين . فيرغب القرآن في الإيمان
وجزائه فيقول تعالى : ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا * والله بما تعملون خبير * يوم
يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن * ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله
جنات تجري من تحتها الأنهار * خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ ﴿٥﴾ .

ويرغب في الإيمان أيضاً في استخلاف المسلم في الحياة الدنيا ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم
الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ ﴿٦﴾ .

ويرغب فيما عند الله من جنات النعيم ترغيباً يؤثر في النفس وينعكس ذلك سلوكاً وعملاً
من الحياة يتفق والتربية الإسلامية الراشدة التي يبتغيها الإسلام فيقول عز من قائل ﴿والذين آمنوا
وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ﴿٧﴾ . ويقول سبحانه : ﴿يا عباد
لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * أدخلوا الجنة أنتم
وأزواجكم تحبرون﴾ ﴿٨﴾ .

وإذا كان الإسلام بمنهجه التربوي في الترغيب يكثر من ذكر الجنة والعمل لها فإنه في نفس
الوقت يرغب في السبل المؤدية لها فيرغب في الصدق والأمانة والإخلاص والجد والكرم والشجاعة
والبر والإحسان والعفة والنزاهة وما إلى ذلك من كل ما يؤدي الترغيب فيه إلى تمثيل وامثال وأداء

(١) سورة الجن : آية (١٦)

(٢) سورة المائدة : آية (٦٦)

(٣) سورة النحل : آية (٣٠)

(٤) سورة الأعراف : آية (٩٦)

(٥) سورة التغابن : آية (٨-٩)

(٦) سورة النور : آية (٥٥)

(٧) سورة البقرة : آية (٨٢)

(٨) سورة الزحرف : آية (٦٨-٧٠)

وتنفيذ في محيط الفرد والأسرة والمجتمع مما يخدم الغرض من التربية في هذا كله وهو إيجاد المسلم الصالح المصلح الذي يتنغي رضاء الله عز وجل (١) .

٣ - بما يعيشون فيه من أمن ، وبما ينعمون فيه من سلام واطمئنان ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف ﴾ (٢) ، ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ (٣) .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ : (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبيه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبهه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض) (٤) .

٤ - الترغيب في أنواع الطاعات : وهذا مهم جداً ولا يقل أهمية عن الذي ذكرناه لأن الناس يحتاجون إليه ، ليشمروا عن ساعد الجسد في عمل أنواع الطاعات ، فينبغي للداعية إلى الله أن لا يغفل هذا الجانب ، ويهتم بترغيب الناس بالأقوال الحكيمة في أنواع البر والإحسان ، وجميع أنواع الطاعات : كحثهم على تحقيق كلمة الإخلاص ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والجهد لإعلاء كلمة الله ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وإصلاح ذات البين وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، وغير ذلك .

وكذلك ينبغي ترغيب الناس في أنواع الفضائل النفسية : كالشجاعة والعفة ، والصدق ، والوفاء ، والأمانة ، والإخلاص ، والحلم ، والتواضع ، والكرم ، والصبر ، وطهارة الضمير ، وحب الخير للناس ، والعدل ، والإحسان ، وغير ذلك من الكتاب والسنة الصحيحة والحسنة والآثار الثابتة مع شرح ذلك شرحاً وافياً حسبما تدعو إليه الحاجة (٥) .

ومن أمثلة الترغيب في هذه الأنواع : قوله تعالى ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (٦) .

١ (انظر معالم في التربية د. عجيل النشمي ص ٢٢)

٢ (سورة قريش : آية (٣-٤))

٣ (سورة مريم : آية (٩٦))

٤ (أخرجه البخاري - كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم ص ٦٥٧ رقم (٣٢٠٩))

٥ (انظر هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة للشيخ علي محفوظ ص ١٩٩ الطبعة التاسعة سنة ١٩٣٣ هـ . دار الإعتصام .

٦ (سورة البقرة : آية (١٧٧))

وقال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ (٢) .
وغير ذلك كثير من كتاب الله تعالى (٣) .

وكذلك قد جاء عن النبي ﷺ الترغيب في أنواع الطاعات من الأحاديث ما لا يحصى ، ومن ذلك قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو : (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق الحديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طمعة) (٤) .

(١) سورة آل عمران : آية (١٦-١٧)

(٢) سورة آل عمران : آية (١٣٤-١٣٥)

(٣) انظر سورة النساء آية (١١٤) ، والتوبة : آية (٧١) ، والمؤمنون : آية (١-١١) ، والفرقان : آية (١٣-١٩) والأحزاب : آية (٣٥) ، والصفات : آية (١٠-١٣) ، وغير ذلك من الآيات في الترغيب في أنواع الطاعات .

(٤) أخرجه أحمد في المسند بإسناد جيد : ١٧٧/٢ .

الترغيب وعلاقته بالمنهج الحسى:

إن للآيات القرآنية آثاراً بالغة القيمة فى مجال التقويم الخلقى والسلوكى للإنسان ، فمن الآثار الدعوية للآيات القرآنية أنها ترغب فى الفضائل وأعمال الخير ، وذلك بإظهارها بأحلى ثوب وأبهى صورة .

وعندما يحصل الترغيب للنفس يجعلها تشوق إلى العمل الصالح ، وتنشط على فعله وتعتر بالانتساب إليه .

ومن صور الترغيب :

١ - الإنفاق فى سبيل الله ، فهو فضيلة عظيمة ، وباب من أعظم أبواب الخير التى يحبها الله عز وجل ، ويرغب عباده المؤمنين فيها .

فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾^(١) .

ففى هذه الآية يضرب الله هذا المثل ليستجيش المشاعر والإنفعالات الحية فى الكيان الإنسانى كله ، فهو يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الوهابة ، صورة الزرع الذى هو هبة من الله . الزرع الذى يعطى أضعاف ما يأخذه ، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره ، فهى صورة حسية رائعة ، تحفز المؤمن للبذل والعطاء ، وإنه يصوره آخذاً كاسباً ، لامعظياً باذلاً ، يزيد ماله بعطائه ، ويتكاثر لأنه ينكمش ويتناقص^(٢) .

وقد شبه سبحانه نفقه المنفق فى سبيله سواء كان المراد به الجهاد ، أم جميع سبل الخير من كل بر كمن بذر بذراً ، فأنبئت كل حبة منه سبع سنابل اشتملت كل سنبله على مائة حبة ، والله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها ، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص .

ويقول تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾^(٣) .

فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله فى أرض ذكية ، فمعلنه بحسب بذره ، وطيب أرضه ، وتعاهد البذر بالسقى ، ونفى الدغل والنبات الغريب عنه ، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم

(١) سورة البقرة : آية (٢٦١)

(٢) انظر بحث مكمل لنيل درجة الماجستير بعنوان (الأمثال القرآنية وأثرها فى الدعوة إلى الله) للطالب / سلطان شاهين ص ٦٨ سنة ١٤١٣ هـ غير منشور .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٦٥)

تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال ، وكان مثله كمثل جنة بربوة وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والريح فتربي الأشجار هناك أتم تربية فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر المتتابع ، فرواها ونماها فأنت أكلها ضعفى ما يؤتیه غيرها بسبب ذلك الوايل ، فإن لم يصبها وابل ، فطل مطر صغير القطر ، يكفيها لكرم منبتها ، يزكو على الطل ، وينمى عليه ، مع أن فى ذكر نوعى الوايل والطل إشارة إلى نوعى الإنفاق الكثير والقليل .

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلأ ، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضيع مثقال ذرة (١) فنلاحظ فى هذا المثل كيف ظهر عنصر الترغيب بتزيين الإنفاق فى سبيل الله وإظهاره بصورة جذابة ، الأمر الذى يدفع المؤمن وفقاً للمعنى فى هذه التجارة الراجحة .

٢ - ترغيب المؤمنين فى طاعته سبحانه من خلال ذكر ما أعده لهم من الثواب فى الآخرة . قال تعالى ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٢) .

ذكر القرطبي أن الله ذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليهما معاً لأمرين .

(١) إنه ترغيب فاقصر على ذكر الرغبة .

(٢) أنه فى صفة قوم لا تكون منهم الكبائر فكانت صغائرهم مغفورة .

وقوله ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ ذكر القرطبي : أن هذا الفضل هو ما يضاعفه من الحسنات

بعشر أمثالها وما يتفضل به من غير الجزاء (٣) .

وقال بعض أهل العلم (٤) : الزيادة هنا كالزيادة فى قوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى

وزيادة ﴾ (٥) ، والأصح أن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ، وذلك هو أحد

القولين فى قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ (٦) .

(١) انظر أعلام الموقعين - ابن القيم ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٢) سورة النور : آية (٣٦-٣٨)

(٣) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٢/٢٨١

(٤) انظر أضواء البيان ج ٦ ، ص ٢٤١

(٥) سورة بونس : آية (٢٦)

(٦) سورة ق : آية (٣٥)

وهذا الجزاء ومضاعفة الثواب هو أكبر دافع للمؤمنين الصادقين على زيادة الطاعة ، والإقبال عليها ، وعدم الانشغال في الدنيا وزينتها . فمثل هذا الأسلوب في الترغيب بما عند الله في الآخرة من الأجر والثواب ، أنسب ما يكون مع المقبلين على الطاعة الراغبين في الخير ليزدادوا من ذلك ، وأيضاً مع أهل الصلاح الذين قد تشغلهم زينة الحياة الدنيا في بعض الأحيان فيؤدى ذلك إلى تقصيرهم في الطاعة ، وتذكيرهم بما عند الله في الآخرة من النعيم يتنبهون من غفلتهم ويتلاومون على تقصيرهم .

٣ - حث المسلم وترغيبه في أن يكون من السابقين أو من أصحاب اليمين .

ففي آيات من سورة الواقعة حث الله سبحانه وتعالى عباده بأن يكونوا من السابقين بقوله ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون * في جنات النعيم ﴾^(١) ، وهم الذين يسارعون إلى الخير والإيمان^(٢) ، وقد أحر الله تعالى ذكرهم لفضلهم ولشدة أسبقيتهم في الخير وتميزهم حتى على أصحاب اليمين^(٣) .

وكذلك رغب سبحانه وتعالى المؤمنين في أن يكونوا من أصحاب اليمين حيث قال :

﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾^(٤) ، وذكرهم بأسلوب بليغ في مدحهم ، في صيغة جملة استفهامية تتضمن تجهيل المخاطب بعلو شأنهم ، كأنها قالت : فأصحاب الميمنة ما أعظم حالهم ! ولعظم حالهم سئل عنهم تهويلاً وتفخيماً^(٥) .

ففي هذا الترغيب واستخدام الأساليب البلاغية في التعريف بشأن هذين الصنفين ، حث للمسلمين بأن يكونوا منهم ، مما ينتظرهم من نعيم دائم لا ينقطع ، وإذا تأمل الإنسان ذلك أسرع إلى فعل الطاعات ، وابتعد عن المحرمات ، لكسب رضا الله عز وجل ، والدخول في جنات النعيم ، وعلى الداعية أن يتبين فضل هذين الصنفين وما لهم من الخير العظيم ، وحث المدعوين على اللحاق بهؤلاء الأخيار ، لأن تشويق الناس وترغيبهم في الأنصاف بصفات هذين الصنفين ، فيه أبلغ الأثر على المدعو مما يجعله عبداً صالحاً مستقيماً وإليك بعضاً مما أعده الله لهذين الصنفين من النعيم المحسوس في الجنة .

(١) سورة الواقعة : آية (١٠-١٢)

(٢) تفسير القرطبي : ١٧/٢٠٠

(٣) التفسير القرآني ص ٧٠٧

(٤) سورة الواقعة : آية (٨)

(٥) تفسير القرطبي : ١٧/٢٠٧

١- الأباريق : قال تعالى : ﴿ بأكراب وأباريق وكأس من معين ﴾ فهي التي لها عرى ^(١) ، وكذلك من النعيم المحسوس الفواكه واللحوم ، قال تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون ﴾ ^(٢) ، قال المفسرون في تفسير هذه الآية : أي الفواكه التي يتخيرونها من الجنة لأنفسهم ، وتشتهيها نفوسهم ، واللحوم التي يشتهونها من الطير ^(٣) .

٢- الحور العين : وقال تعالى : ﴿ وهور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ ^(٤) ، قال ابن جرير في تفسيره ^(٥) .

الحور : جماعة حوراء وهي النقية بياض العين ، الشديدة سوادها .
والعين : جمع عيناء ، وهي النجلاء العين في حسن .

٣- وكذلك من النعيم المحسوس أنهم ينعمون في سدر مخضود: قال تعالى : ﴿ في سدرٍ مخضود ﴾ ^(٦) ، وهو ثمر السدر الموقر حملاً الذي لا شوكة فيه ^(٧) .

٤- الظل الممدود ، قال تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ ^(٨) ، قال المفسرون : أي في ظل دائم لا تمسه الشمس فتذهبه ، وكل مالا انقطاع له فإنه ممدود ^(٩) .

٥- الماء ، قال تعالى : ﴿ وماء مسكوب ﴾ ^(١٠) ، قال المفسرون : أي ماء مسكوب ، يعني مصبوب سائل في غير أخدود ^(١١) .

٤ - الترغيب بما في الجنة من نعيم .

وهذا الترغيب أحد محاور سورة الواقعة العظيمة ، فقد ذكر سبحانه وتعالى هذا النعيم في أكثر من ثلاثين آية ، جميعها تتحدث في ذكر النعيم الذي في الجنة ، وفي هذا النعيم قال ﷺ :

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢٨٥/٤ ، وتفسير النسفي ٢١٨/٤ والآية من سورة الواقعة : (١٨)

(٢) سورة الواقعة : آية (٢٠-٢١)

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢٩٠/٤ ، وتفسير القرطبي ٢٠٤/١٧

(٤) سورة الواقعة : آية (٢٢-٢٣)

(٥) تفسير القرطبي : ١٠٢/١١

(٦) سورة الواقعة : آية (٢٨)

(٧) زاد المسير في علم التفسير : ١٤٠/٨

(٨) سورة الواقعة : آية (٣٠)

(٩) انظر تفسير أنطيري : ١٠٤/١١

(١٠) سورة الواقعة : آية (٣١)

(١١) تفسير أضواء البيان للشنقيطي : ٧٧٤/١٧

(مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)^(١) . فما بين نعيم الدنيا والآخرة من تشابه إلا في المسميات فقط ، فأهل الجنة يتنعمون بكل ما تشتهيهم أنفسهم من الخور العين والفواكه الكثيرة المتنوعة والتي لا تنقطع باختلاف الفصول ، ويتنعمون تحت الظلال الممدودة ، والشراب الذي لا يصدع رؤوسهم ولا انتهاء له^(٢) ، كما قال تعالى : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين﴾^(٣) ، فكل ما يشتهي المرء يجده أمامه بلا تعب ولا مجهود ، بل بمجرد الاشتاء يكون الشيء أمامه ، فإذا علم ذلك المسلم سارع بترك الدنيا الفانية ، وسعى للحصول على هذا النعيم بطاعة الله عز وجل ورضاه ، والبعد عن المعاصي والمحرمات ، فحري بالإنسان المسلم إذا عرف هذا أن يشمر عن سواعد الجسد ، ويتلمس الطرق المشروعة في الحصول على هذا النعيم الدائم ، وترك ما في الدنيا من نعيم زائل مؤقت .

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أصنافاً من نعيم الجنة منها :

- ١- ﴿ السرر الموضونة ﴾ وهي السرر المشبكة والمنسوجة بالذهب والجواهر^(٤) .
- ٢- ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أي متكئين على السرر الموضونة ، متقابلين بوجوههم لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض^(٥) .
- ٣- ﴿ بأكواب وأباريق ﴾ قال المفسرون في تفسير هذه الآية : (الأكواب جمع كوب وهو من الأباريق ما أتسع راسه ولم يكن له خرطوم ، وهذا مما يجعل العاقل يشمر عن ساعد الجسد ، ليسعد بهذا الفوز العظيم ، والسعادة الأبدية ، والنعيم الدائم الذي يعجز دونه الوصف ومن هذا النعيم أيضاً على سبيل المثال^(٦) :

١ (هو جزء من حديث أخرجه البخاري - كتاب التفسير سورة السجدة ، باب قوله ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قرة أعين ﴾ ص ١٠١٧ ، حديث رقم (٤٧٧٩) ، ومسلم كتاب الجنة ٤/٢١٧٥ رقم (٢٨٢٥))
٢ (انظر تفسير ابن جرير الطبري ١١/١٠٢-١٠٣ ، وتفسير ابن كثير ٤/٢٨٦)
٣ (سورة الواقعة : آية (١٧-٢٢))
٤ (انظر تفسير ابن جرير ١١/٩٩ ، وتفسير النسفي ٢/٢١٧)
٥ (تفسير ابن جرير الطبري ١١/١٠٠ ، والقرطبي ١٧/٢٠٢)
٦ (انظر صفة الجنة ونيعمها وأحوال أهلها وبعض ما أعد الله لهم ، في صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وانها مخلوقة ٦/٣١٧-٣٢٩ ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤/٢١٧٤-٢٢٠٦ ، وجامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ فقد ذكر عشرة أنواع من صفة الجنة ونيعمها ١٠/٤٩٤-٥١٢ ، ثم ذكر عشرة أنواع من صفة الجنة ونيعمها ١٠/٤٩٤-٥٥٦ فكان ذكره لنعيم الجنة وعذاب أهل النار ١٠/٤٩٤-٥٦٤ ، وانظر أعظم كتاب ألف في الجنة هو : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، لابن القيم - رحمه الله - ذكر في سبعين باباً

ما ذكر الله من نعيم أهل الجنة وصفاتهم ، ومن ذلك : رضوانه تعالى ، فإنه أكبر النعيم ^(١) ، وأنهار الجنة ^(٢) ، ومساكن أهلها ^(٣) ، وزوجاتهم ^(٤) ، وحليهم ^(٥) ، وطعامهم ^(٦) ، وشرايهم ^(٧) ، وصفاتهم ^(٨) ، وأطوارهم ^(٩) ، وفواكههم ^(١٠) ، ولباسهم ^(١١) ، وأعظم نعيم أهل الجنة النظر إلى وجه الكريم ^(١٢) . فالداعية إذا استخدمت هذا النوع من الترغيب يجذب قلوب الناس إلى الرغبة في هذا النعيم الدائم .

٥ - الترغيب بالكلمة الطيبة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ^(١٣) ، فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع .

الكلمة الطيبة هي مثل كلمة التوحيد ، وكلمة الدعوة إلى الله ، وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة الحلوة التي يسر بها المسلم أخاه المسلم في طاعة الله ، والكلمة التعليمية التي يقدمها المعلم المسلم الناصح لمن يستمع إليه ، والكلمة التربوية التي يبذلها المسلم المربي الناصح لمن يشرف على تربيته ، والكلمة الرشيدة التي ينصح بها المسلم أخاه ، هذه الكلمة ضرب الله مثلاً لها بالشجرة الطيبة المزروعة في الأرض ، ذات الفروع الممتدة في السماء ، وهي شجرة مثمرة لا ينقطع ثمرها النافع في أي فصل من فصول العام فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ^(١٤) .

١ (انظر سورة التوبة : آية (٧٢))

٢ (انظر سورة محمد : آية (١٥))

٣ (انظر سورة التوبة : آية (٢٣))

٤ (انظر سورة الصافات : آية (٤٠-٤٧))

٥ (انظر سورة الكهف : آية (٣١))

٦ (انظر سورة الطور : آية (٢٧-٢٨) والواقعة : آية (١٠-٤٠))

٧ (انظر سورة الإنسان : آية (٥-٢٢))

٨ (انظر البخاري مع الفتح ٦/٣٦٢ ، ٤/٣٦٢ ، ومسلم ٤/٢١٨٠)

٩ (انظر البخاري مع الفتح ، كتاب الأنبياء باب خلق آدم وذريته ٦/٣٦٢)

١٠ (انظر سورة الرحمن الآيات : ٥٢-٦٨ ، والواقعة الآيات : ١٩-٣٣)

١١ (انظر سورة الكهف : آية (١٥) وسورة الحج : آية (٢٣))

١٢ (انظر سورة يونس : آية (٢٦) وسورة ق : آية (٣٥) ، وسورة القيامة : آية (٢٢-٢٣))

١٣ (سورة إبراهيم : آية (٢٤))

١٤ (انظر الأمثلة القرآنية ،، عبدالرحمن حبيكة الميداني ص ٥٥ ، دار القلم - بيروت ودمشق ط ١٩٨٠ م .

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة الى السماء . ولاتزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت ، وبحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها ، وقيامه بحقوقها ، ومراعاتها حق رعايتها . فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها ، واتصف قلبه بها ، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها . فعرف حقيقة إلهيته التي يثبتها قلبه لله ، ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه ، لمن شهد له وتنقاد بالوحدانية وتنقاد طائعة سالكة سبيل ربه ذللاً غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً . كما لا يتغنى القلب سوى معبوده الحق بدلاً . فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لاتزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت .

فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى . وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيراً طيباً ، يقارنه عمل صالح ، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب ، كما قال تعالى : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(١) ، فأخبر سبحانه ، أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقاتلها عملاً صالحاً كل وقت^(٢) .

ومن الملامح العامة لتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة أنها :

- أ - كونها طيبة بكل شيء ، التربة ، المناخ ، الرائحة ، الثمار ، القوام .
- ب - أصلها ثابت : باق لا يطرأ عليه الفناء ، والنفس تطمئن بما يبقى ، كما تهلع مما يفنى ، وهنا ترتبط الوظيفة النفسية بالوظيفة الفنية .
- ج - فرعها في السماء : تأكيد على رسوخها في الأرض بأصولها وشموخها في علوها ، فالفرع العالي دليل الجذر الثابت^(٣) .

ومن السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليه حديث ابن عمر (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ ثم قال هي النخلة)^(٤) ومنهم من قال : هي المؤمن نفسه . كما قال محمد بن سعد : حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن ابن عباس في قوله ﴿ ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾^(٥) ، يعنى بالشجرة الطيبة

١ (سورة فاطر : آية (١٠))

٢ (الصورة الفنية في المثل القرآني ص ٣٧٢)

٣ (الصورة الفنية في المثل القرآني ص ٣٧٢)

٤ (أخرجه البخاري - كتاب العلم - باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا وأبأنا ص ١٧-١٨ برقم (٦١))

٥ (سورة إبراهيم : آية (٢٤))

المؤمن ، ويعنى بالأصل الثابت فى الأرض ، والفروع فى السماء : يكون المؤمن يعمل فى الأرض ويتكلم ، فيبلغ عمله وقوله السماء . وهو فى الأرض .

وقال عطية العوفى فى قوله ﴿ ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾^(١) ، قال : ذلك مثل المؤمن ، لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله . وقال الربيع بن أنس : أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، قال ذلك المؤمن ضرب مثله فى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له ، (أصلها ثابت) قال : أصل عمله ثابت فى الأرض ، وفروعها فى السماء قال : ذكره فى السماء^(٢) .

ويستفاد من هذا المثل أن الكلمة الطيبة ثابتة الأصل ، نامية باستمرار ، ثمرة فى كل حين . كما يستفاد أيضاً إن كل كلمة طيبة يقولها مؤمن مسلم يتغنى رضوان الله تعالى ويرجو ثوابه ، تنمو عند الله ، أما أصلها الثابت فإيمان صاحبها وإخلاصه لله فى بذلها ، وأما فروعها الممتدة فى السماء فبلوغها مستوى القبول عند الله ، وأما ثمرها فما تقدمه من أجر بفضل الله لبذلها وزارعها فى أرض التقوى والبر والإحسان . فإذا كانت كلمة تعليم وهداية وإرشاد ونصح لعباد الله ، حتى يهتدوا إلى صراط الله المستقيم ، وكانت مقرونة بالإخلاص لله ، ببارك الله بها ، فامتدت وتسلسلت الهداية بها ، فما انتفع بها منتفع ، ولا اهتدى بها مهتد ، إلا كان لبذلها الأول مثل اجور من اهتدى بها وتأثر بها فعمل صالحاً ، وهذا من ثمرها الذى تؤتيه كل حين بإذن ربها . والكلمة الطيبة تدل على عقل باذنها وحصافته^(٣)

وبهذا المثل الترغيبى الرائع تحرص القلوب المؤمنة للاهتمام ببذل الكلمة الطيبة . وهكذا نلاحظ أن أسلوب الترغيب فى المنهج الحسى صور بعض الأعمال الصالحة ، والأحوال المرضية عند الله ، ومن يتصف بها بصور ملائمة رائعة ، تجعل المؤمن الحق يحرص على الخير ويرغب فيه ، ويسعى للتلقى بتلك الصفات ويعتز بالإنتساب لها ، وانتسابه إليه ، وهذا هو الأثر السلوكى المقصود من اتباع هذا الأسلوب .

١ (سورة إبراهيم : آية (٢٤))

٢ (انظر إلى هذه الأقوال فى كتاب أعلام الموقعين - ابن القيم ج ١ ص ٢٢٧ .

٣ (انظر الأمثال القرآنية - حينكة ص ٥٦)

المطلب الثاني: الترهيب

تعريف الترهيب في اللغة : الترهيب مصدر رَهَبَ يَرْهَبُ رَهَبَةً وَرَهَبًا وَرَهَبًا أَي : خاف

وأرهبه أخافه^(١) .

والترهيب في الاصطلاح : يعنى كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو

عدم الثبات عليه بعد قبوله^(٢) .

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقرار أو ذنب مما نهى الله عنه ، أو على

التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به ، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده ، وإظهار صفة

من صفاته الجبروت والعظمة الالهية ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب المفوات والمعاصي^(٣) .

كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا *

وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ

الْخَسِرَانِ الْمِينِ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْمٌ مِنَ النَّارِ وَمَنْ تَحْتَهُمْ ظُلْمٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ

فَاتَّقُوا ﴾^(٥) .

* بم يكون الترهيب :

وقد يكون الترهيب بما يأتي :

١ - بلفتة إلى الآخرة ، وإلى ايثار الدار الباقية على الفانية حيث أن هناك نفوساً يغريها المتاع الدنيوى

والشهوة عن جلائل الأعمال والأفعال ، ويوقعها في حمأة الظلم والبغي ، حتى تدمر كل صالح فى

سبيل الحصول على العرض الأدنى واستبدال الضلالة بالهدى .

وصدق الله ﴿ فَاخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى

وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرَ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى

اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾^(٦) .

١ (لسان العرب مادة رهب ٤٣٦/١)

٢ (اصول الدعوة - عبدالكريم زيدان ص٤٣٧)

٣ (اصول التربية الإسلامية - النحلوي ص٢٥٧)

٤ (سورة مريم : آية (٧١-٧٢))

٥ (سورة الزمر : آية (١٥-١٦))

٦ (سورة الأعراف : آية (١٦٩))

ولهذا يجب على الداعية أن يحذر من الغرور بالدنيا والانسحاق وراء الشهوات الجائحة ، وقد نبه على ذلك القرآن بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأُزِينَتِ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُكَونُ حَطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢) .

٢ - يكون التهيب بالتحذير من غضب الله ومن نعمته ، بذكر الآيات الواردة في القرآن الكريم المخوفة للمذنبين والعصاة والفساقين والمتحجرين كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾ (٣) .

نالوا غضب الله بما اترفوا من معاصي وما اجتروا على الحرمات وبغوا على الهداية فجعلهم الله سبحانه عبرة لمن يأتي بعدهم ، ومثلاً للآخرين على مر الزمان .

ومن ذلك قول الحق سبحانه في شأن بني اسرائيل : ﴿ فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُم

كُونُوا قردة خاسئين ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ الْقُرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدِ الطَّاغُوتِ ﴾ (٥) ، وكان هذا عقاباً من الله تعالى جزاءً على عتوهم واستكبارهم وبغيهم ونبتهم للهداية بأن ورثه الله الغباء والخسة والذلة والمسكنة وحبث الطوية .

وفي هذا ترويع وتحويف للمتجربين على شرع الله ومحاربه ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

مَصِيرًا ﴾ (٦) ، ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧) .

(١) سورة يونس : آية (٢٤)

(٢) سورة الحديد : آية (٢٠)

(٣) سورة الزخرف : آية (٥٥)

(٤) سورة الأعراف : آية (١٦٦)

(٥) سورة المائدة : آية (٦٠)

(٦) سورة النساء : آية (١١٥)

(٧) سورة البقرة : آية (١٤٤)

٣ - يكون التحذير من تغليف القلوب وفساد الفطرة وخوف الختم على القلوب والخروج عن

طريق المؤمنين ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : كنا عند عمر بن الخطاب فقال أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال القوم : نحن سمعناه فقال : لعلمكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله وجاره ؟ قالوا : أجل قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر التي تموج من البحر ؟ قال حذيفة : فأمسك القوم ، فقلت أنا ، قال أنت لله أبوك ؟ قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيها نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مريداً كالكوز مُحْحِيّاً^(٢) ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه)^(٣) .

فالتعود على المعاصي وألفها خروج من رقبة الهداية ، وتمرد على تعاليم الفضيلة والإيمان وتبجح على حرمان الله وهذا يسبب انفلاتاً من طريق المؤمنين وسبيل المهتدين .

٤ - يكون بالتحذير من فساد الذرية ، لأن الآثم والأعمال الفاسدة تنسحب على النفس والولد ، وعلى الحاضر والمستقبل ، فير الوالدين يدعو إلى بر الأولاد وعقوق الوالدين يحرض على عقوق الأولاد .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (يروا أباؤكم تترككم أبناءكم وعفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم)^(٤) .

كما خوف القرآن من تأثير الفساد على الذرية في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فبمثل قوله تعالى ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾^(٥) .

وأما في الآخرة فبمثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾^(٥) .

١ (سورة المطففين : آية (١٤))

* مححياً : أي منكوساً .

٢ (أخرجه مسلم - كتاب الإيمان ١/١٢٨، ١٢٩، برقم (٢٣١))

٣ (أخرجه الحاكم في المستدرک ٤/١٥٤)

٤ (سورة النساء : آية (٩))

٥ (سورة التحريم : آية (٦))

أي فإن كان خوف على أولادك الصغار الضعفاء فاتق الله في أعمالك وأقوالك وارع الله وحافظ على حدوده فإن الله سبحانه يتولى ذريتك ويسر لهم من يأخذ بيدهم ويهيء لهم من أمرهم رشداً ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ (١) .

ولا شك أن كل إنسان يجب أطفاله وأولاده وذريته ، لهم يجمع المال ويسهر ويجد ويجتهد ، فإذا عرف أن طاعته لله والعمل في رضاه ، تعود على أولاده وذريته من بعده دفعه ذلك إلى العمل الصالح والبر وعدم الإفساد في الأرض .

٥ - يكون بالتخويف من تبدل الحال من خير إلى شر ومن نعيم إلى بؤس ، ومن رخاء إلى قحط وبلاء .

قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشئ من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ﴾ (٢) .

وصدق رسول الله ﷺ : (إن الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه) (٣) .
والرزق الذي يقصد هنا هو الرزق بنوعيه الحسي والمعنوي ، فأهل الدنيا يعاقبون في الدنيا بتعذر طرق الاكتساب ونقص الأموال وهلاكها ، وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق لصالح الأعمال وتعذر فتوح العلوم النافعة .

ولهذا أثر عن الإمام الشافعي قوله (٤) :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
وأخبرني بأن العلم نور
فأرشدني إلى ترك المعاصي
ونور الله لا يهدي لعاصي

الترهيب وعلاقته بالمنهج الحسي

من الأثر السلوكي في الآيات القرآنية الترهيب أو التنفير من فعل المنهيات حيث يلجأ الداعية إلى أسلوب الترهيب للتنفير من الرذائل ، والترهيب من الشر وقبائح الأمور ، ومن صور الترهيب المقترنة بالمنهج الحسي ما يلي :

(١) سورة الكهف : آية (٨٢)

(٢) سورة سبأ : آية (١٤-١٥)

(٣) أخرجه أحمد ٢٧٧/٥

(٤) ديوان الشافعي ص ٧١ ، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى سنة ١٩٨٤م .

١ - الشرك بالله وهو من أشد الشرور وأقبحها ، ومن ضمن الأمثلة القرآنية التي ضربها الله سبحانه وتعالى للترهيب من الشرك ، وإظهار المشرك في أقبح صورة قوله تعالى : ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ (١) .

فهذه الآية فيها تمثيل لإنتكاس الإنسان بشركه بالله ، وسقوطه السريع على رأسه من سماء عبوديته للرب الأعلى ، ومن شرف هذه النسبة إلى أسفل سافلين إلى مكان تمزقه ، وسحيق هلاكه . وهذا تصوير لحالة التمزق النفسى الذى يعترى المشرك بربه ونهايته التعيسة . فهى صورة بشعة منفرة لذلك المشرك ، تنفر منها كل نفس أبية سليمة الفطرة والإتجاه . فتلاحظ فى هذا المثل عنصر الترهيب من الشرك بإبرازه فى صورة حسية منفرة وعاقبة خاسرة . وفى هذا المعنى يقول العلامة ابن القيم الجوزية : (وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد فى علوه وسعته وشرفه بالسماء التى هى مصعده ومهبطة ، فمنها هبط إلى الأرض ، وإليها يصعد منه ، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد ، والآلام المتراكمة ، والطير الذى تخطف أعضائه ، وتمزقه كل ممزق بالشياطين التى يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه أژاً ، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه ، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه ، كما إن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه ، والريح تهوى به فى مكان سحيق ، هو هواه الذى يحمل على إلقاء نفسه فى أسفل مكان وأبعده من السماء) (٢) .

٢ - الترهيب من الغيبة : الغيبة خلق شائن ، وعمل غير محمود ، وسلوك قبيح ، ولذلك فقد ضرب الله تعالى مثلاً ينفر منه كل ذى طبع سليم ، حيث يصوره فى مشهد رهيب مفرز ، فالله عز وجل يصور الذين يغتاب الناس بصورة من يأكل لحم أخيه ميتاً والعياذ بالله . وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً يجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ (٣) .

قال ابن القيم - رحمه الله - تعليقاً على هذه الآية : (وهذا أحسن التمثيل ، فقد شبه سبحانه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه فى حال غيبته عنه بالموت ، ولما كان المغتاب عاجزاً عن دفعه عن نفسه بكونه غائباً ، كان بمنزلة الميت الذى لا يستطيع أن يدفع عن نفسه . ولما كان المغتاب متمتعاً بعرض أخيه متفكهاً بغيبته وذمه ، شبهه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه ، فتأمل هذا التمثيل ومطابقته المعقول فيه المحسوس وكذا حسن موقعه) (٤) .

١ (سورة الحج : آية (٣١))

٢ (أعلام الموقعين - ابن القيم - ج ١ ص ٢٣٥)

٣ (سورة الحجرات : آية (١٢))

٤ (أعلام الموقعين - ابن القيم ١/٢٢٣)

٣ - الترهيب لمن آتاه الله العلم فترك العمل به ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن الذي انسلخ عن آيات الله بعد معرفتها : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ (١) .

في الآية طلب من الله لنبيه ﷺ بصيغة الأمر أن يتلو عليهم نبأ هذا الكائن الذي خالف سنة الكون ، وارتد عن طريق الفطرة ، ونكص عن تحمل المسؤولية ، وتمسك بالحياة ولكن ليس من جوانبها كافة وإنما من جانبها النفسي والسلوكي فحسب ، فهو قد اتبع هواه ، وتعلق بجبائل الشيطان . واستهوته غوايته ، حتى عاد متأرجحاً لا يأوي إلى قرار ، ولا يطمئن إلى ركن شديد ، تتقاذفه الميول ، وتلاحقه اللعنات ، متجهماً بأسوأ الصور التي تحدد انفعالاته ، وتبرز ملامح شخصيته ، بعد أنهياره في المزالق ، متجرداً عن الوقاية بحمى الله ، متجهاً لهوى النفس ، وإذا به كالكلب المجهود يلهث في أمنه واستقراره ، ويلهث في تبعه وأعيائه ، إن شددت عليه يلهث وإن ألقيت له الحبل على الغارب يلهث . نحن إذن أمام مشهد رهيب ، وكائن مفزع ، أخلد إلى الأرض ، وكذب بآيات الله ، شأن الطغاة والجبابة حينما يختارون لأنفسهم التدنى والهبوط (٢) .

فشبه سبحانه من آتاه كتابه ، وعلمه العلم النافع الصحيح ، فترك العمل به ، واتبع هواه ، وآثر سخط الله على رضاه ، ودنياه على آخرته ، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أحبث الحيوانات وأوضعها قدراً وأحسها نفساً ، وهمته لاتتعدى بطنه وأشدها شرها وحرصاً . وقال أبو محمد بن قتيبة : كل شيء يلهث ، فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال ، وحال الراحة ، وحال الصحة ، وحال المرض والعطش ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، وقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال كالكلب ؛ إن طردته لهث ، وإن تركته لهث (٣) .

ويعقب سيد قطب على الآية فيقول : إنسان يؤتبه الله آياته ، ويخلع عليه فضائله ، ويكسوه من عمله ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع .. ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً . ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه . أوليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟ .. هاهو ذا ينسلخ من آيات الله ، ويتجرد من الغطاء الواقى ، والدرع الحامى ، وينحرف

(١) سورة الأعراف : آية (١٧٥-١٧٧)

(٢) الصور الفنية في المثل القرآني ص ٣٣٥

(٣) انظر أعلام الموقعين - ابن القيم ٢١٨/١

عن الهدى ليتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام ؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه .. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد .. إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقاً بالأرض ، ملوثاً بالطين . ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب ، يلهث إن لم يطارد ^(١) .

فأى تأثير نفسى يتركه هذا التصوير الحسى لهذه الآية ، إنه يربك الإنسان المتجرد عن الهدى ، المنسلخ عن حقيقة العلم ، بعد أن آتاه الله إياه ، يربك إياه إنساناً هابطاً ، يلزمه الشيطان أو يسيطر عليه ، يشبهه بأخس الحيوانات نفساً ، وأخبت المخلوقات حالاً وهيئة ، فهل يمكن بعد ذلك أن نظن فى مثل هذا المنسلخ خيراً . أجل إنه بإختصار كلب يلهث ، ويلهث ، وكفى بذلك تنفيراً للقلوب وأشمزازاً للنفوس ، أن تسلك مسلكه ، أو تكون من صفته .

٤ - الترهيب بقيام القيامة وما فيها من أهوال عظيمة مفزعة .

فأله عز وجل يبين أن الإنسان في الآخرة يلزمه الله طائره في عنقه ويخرج له فيها كتاباً منشوراً ، فمن كان مطيعاً لله تعالى نال الرفعة والشرف ، ودخول الجنان ، أما إذا كان مشركاً بالله ، مرتكباً المعاصي ، فهو ينال الذل والخزى ، ويدخل النار ، فإذا تصور إنسان ذلك الأمر ، خاف من الله تعالى ولم يعصه ، بل تجده طائعاً له مكثرأ من العبادة والذكر يرجو رحمة الله ويخاف عذابه . يقول سبحانه : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً * من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ ^(٢) .

فآيات تبين أن المهتدي المطيع لله المؤدي الواجبات التي وجبت عليه ، المتجنب المنكرات والمحرمات يكون في مأمن من عذاب الله ويدخل الجنة بسلام ، أما من كان خلاف ذلك فله الويل والثبور والعذاب الشديد ، أما الجمادات من أرض وجبال وغيرها ... ، فإن الله تعالى يحرك الأرض تحريكاً شديداً فيهتز ما عليها من جبال شامخات ، وتفتت وتقتلع من الأرض وتتطاير مثل الهباء قال تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة ﴾ إلى قوله ﴿ فكانت هباءً منثراً ﴾ ^(٣) .

٥ - الترهيب بذكر النار وما أعده الله لأصحابها من عذاب .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم

وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم ﴾ ^(٤) .

(١) انظر في ظلال القرآن : ٣م / ١٣٩٦

(٢) سورة الإسراء : آية (١٣-١٥)

(٣) انظر تفسير ابن جرير الطبري ٩٧، ٩٦/١١ . والقرطبي ١٧/١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الواقعة : آية (١-٦)

(٤) سورة الواقعة : آية (٤١-٤٢)

وقال تعالى : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم فمالتون

منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الحميم ﴾ (١) .

إن التهديد الشديد بالعذاب ، يثير الخوف والفرع في النفوس ، ويحملها على ترك المعاصي والذنوب ، ويدفعها إلى الإقبال على الله تعالى واللجوء إليه . فالعاصي ماله غير السموم وهو الهواء الحار وله الحميم وهو الماء الحار وله الظل الناتج من الدخان الشديد (٢) .

ومن العذاب المحسوس الذي ينتظر الإنسان العاصي الذي اختار أن يكون من أصحاب الشمال : الأكل من شجرة كريهة خبيثة تنبت في أصل الجحيم وهي شجرة الزقوم ، وإذا طلب الماء فما له إلا الماء الحار (٣)

ففي هذه الصورة المفزعة المخيفة ، ترهيب عظيم ، من الوقوع في المعاصي ؛ لكي لا يكون الإنسان من أهل هذا الصنف . ولو استعمل الداعية هذا الأسلوب في دعوته وخوف الناس من النار وما فيها من أصناف العذاب لوجد تجاوباً كبيراً من قبل المدعوين ، لأن الأصل من التخويف هو التخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة وهذا هو نهج رسل الله الكرام كما بينه القرآن الكريم (٤) قال تعالى : ﴿ أوعجبتهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ (٥) .

ومن المعلوم يقيناً أن وصف الداعية الحكيم أحوال الكفار والمنافقين والعصاة وهم يتلقون أنواعاً من العذاب الأليم ، وذكره ما أعد الله لهم في الآخرة من أصناف العذاب والعقاب ، مما يثير الخوف والرعب والفرع في النفوس ، ويحملها على أن تفر إلى الله ربها فتخلص له العبودية وتتوب إليه ؛ لتنجوا من عذابه ، ومن خزي هذا اليوم العظيم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ خالدون فيها فيئس مثوى المتكبرين ﴾ (٦) . وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة

(١) سورة الواقعة : آية (٥١-٥٢)

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٩٤/٤

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢٩٥/٤ ، وتفسير القرطبي ٢١٥/١٧

(٤) أصول الدعوة - زيدان ص ٤٢١

(٥) سورة الأعراف : آية (٦٣)

(٦) سورة الزمر : آية (٧١-٧٢)

أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴿١﴾ . ﴿١﴾ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود . وهم مقامع من حديد ﴿٢﴾ .

وقد ذكر سبحانه لباسهم فى النار وشرابهم ^(٣) ، وطعامهم ^(٤) ، وسلاسلهم ، وأغلالهم ، وأنكالهم ، ومقامعهم ، وعظم أجسادهم ^(٥) ، وهذا لهم من أعظم الخسران المبين : ﴿٦﴾ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴿٦﴾ .

وهكذا نلاحظ أن أسلوب التهيب فى المنهج الحسى صور بعض الأعمال المنحرفة ، والأحوال السيئة ومن يقارفها ، أو يتصف بها بصورة سيئة بشعة ، مستفجرة ، تدفع المؤمن الحق إلى أن يتأفف عن فعلها ويتبرأ منها ويستحى أن تنتسب إليه فضلاً عن أتيانها أو المجاهرة بها . وكذلك التهيب بالوعيد بالعذاب الآجل فى الآخرة ، هو من الأقوال العظيمة الحكيمة التى تلين لها قلوب أهل العقول حين تذكر ببطش الله ونعمته وعذابه الأليم .

وفى الختام هذا البحث نرى أن أسلوب المثل ورد كثيراً فى أمثلة الترغيب والترهيب وذلك لأن أساليب القرآن الكريم تكون نسجاً متكاملأ فى تبليغ الدعوة إلى الله تعالى للمخاطبين .

١ (سورة الزمر : آية (٦٠))

٢ (سورة الحج : آية (١٩-٢٠))

٣ (سورة محمد : آية (١٥) ، وسورة إبراهيم : آية (٩) ، وسورة الكهف : آية (٢٩))

٤ (سورة الدخان : آية (٤٣) ، وسورة المزمل : آية (١٢) ، وسورة الحاقة : آية (٣٥))

٥ (انظر سورة غافر : آية (٧١-٧٢) ، وسورة الحاقة : آية (١٢) ، وسورة المزمل : آية (١٢-١٣) ، وسورة الحج : آية (٢٢،٢١) .

٦ (سورة الزمر : آية (١٥))

المبحث الرابع :

اسلوب القسم

ويشتمل على توطنه ومطلبين :

- المطلب الأول : مفهوم القسم القرآني والغرض منه .**
- المطلب الثاني : علاقة القسم بالمنهج الحسي .**

التمهيد :

من أساليب الدعوة التي أولها القرآن الكريم عنايته : أسلوب القسم بالظواهر الكونية ، فقد أقسم الله سبحانه بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والفجر والضحي ، والتين والزيتون وطور سنين ، والليل والنهار ، وكثير من المخلوقات .

ولا ريب أن القسم بالأشياء الحسية منشؤه رعاية مقتضى الحال فيما سبق القسم لأجله ، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أفحش العقائد فيهم وهي عقيدة الشرك ، ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها إلا بلفت عقولهم إلى ما فى الكون من شؤون الله وخلق الله ، وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخلق المحيطة بهم ليصلوا من وراء ذلك إلى الإيمان بالله وحده مادام هو الخالق وحده لأنه لا يستحق العبادة عقلاً إلا من كان له أثر الخلق فعلاً كما قال سبحانه ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ (١) .

ومن هنا كان عرض بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بعد إقرارهم أنه ليس لها خالق إلا الله ، كان ذلك إلزاماً لهم بطرح الشرك وتوحيد الخالق ، وهذا مطمح نبيل أجاد القرآن فى أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله منوعاً فى سردها وبيانها ، فمرة يحدث عن خلق السماء ، ومرة عن خلق الأرض ، وثالثة عن أنفسهم ، ورابعة عن أنواع الحيوان والنبات والجماد وهلم جرا .. ، وتارة يختار القرآن فى عرضه طريقة السرد والشرح ، وتارة يختار طريقة الحلف والقسم ، لأن فى الحلف والقسم معنى العظمة التى أودعها الله فى هذه النعم دلالة على توحيده وعظمته حتى مع من يدور القسم عليها أو يجيء الحلف بها .

ولله أن يحلف بما شاء بنفسه المقدسة الموصفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته ، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) (٢) .

سبب استخدام الله القسم فى الدعوة :

نزل القرآن بلغة العرب على وفق أساليبهم ليعجزهم بلفظه ومعناه . ويحدث تأثيره فيهم على نحو يجعلهم يؤمنون به وبدعوته ، ومن هذه الأساليب التى أوردتها أسلوب القسم . وهو أسلوب يبصر بالدعوة ويبين دعائمها الأساسية ، بشكل مفصل ثابت أمام الدعاة والمدعوين لكى تكون حركة الجميع على بيان ووضوح . وأسلوب القسم موعظة حسنة لأن القرآن دائماً يقصد به

(١) سورة النحل : آية (١٧)

(٢) أخرجه الترمذي - كتاب النور والإيمان - باب ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله : ١١٠/٤ ح (١٥٣٥) وقال عنه الترمذي هذا حديث حسن .

الإقناع والإثارة بواسطة المقسم به ، بما فيه من مزية في نظر المستمع تجعله لهذه المزية يسلم بالمقسم عليه وهو الدعوة المرجوة (١) .

وقد أورد الله عز وجل في كثير من آياته أسلوب القسم منها قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم

بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم .. ﴾ (٢) .

يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية : إن الله تعالى لما أرسل رسوله فاتاه الحكمة ودين الحق ، أتاه كل ما ينبغي له ، وظهره عن كل مالا ينبغي له ، فاتاه الحكمة وهي البراهين القاطعة واستعمالها على وجوهها ، والموعظة الحسنة وهي الأمور المفيدة المرققة للقلوب ، المنورة للصدور (٣) ويقول أيضاً : ومن الناس من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي ، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية مثل القسم (٤) ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد استخدم هذا الأسلوب فأقسم عز وجل ببعض الموجودات وجعلها دلائل إقناعية أخرجها في صورة الأيمان وأقسم بها لكي يؤمن الناس بالمقسم عليه لينالوا الخير الذي يرحوه الداعي لهم ، وأسلوب القسم يناسب طبيعة البشر ، وينطلق من بين أفكارهم ، فالمقسم به دائماً هو أحد الأشياء التي يراها الإنسان من ليل أو نهار ، أو جبل أو نجم ... والمقسم عليه دائماً يتعلق بأشياء يعيشها البشر مناقشة أو إيماناً أو كفراً ، وهكذا فهو أسلوب يثير الانتباه من حول هذه الأشياء لينطلق من هذه الإثارة إلى الإيمان .

ويؤدي القسم وظيفته باعتباره صانعاً للتأثير النفسي ، والعاطفي بواسطة المقسم به ، والمقسم عليه معاً . الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها (٥) . ومن هنا فإنه ينبغي على الداعية أن تستخدم في دعوتها هذا الأسلوب ؛ لما فيه من تأكيد للدعوة ؛ ولما له من تأثير في قلوب المدعوين فهو يدعوهم للتصديق وقبول الدعوة بلا تردد ، وعليه استخدام ما أقسم به في القرآن الكريم ، وتوضيح أهمية المقسوم به ؛ لأنها دائماً ما تكون أموراً يراها الإنسان ، فيصدق بها ولا يكذبها .

إن القسم في الحقيقة دليل جاء في صورة اليمين وذلك أن العرب لما أصموا آذانهم عن

سماع القرآن الكريم ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٦) ، أراد الله أن يرغمهم على سماعه ففرع آذانهم بالمقسم لأنه سبحانه وتعالى يعلم - وهو العليم

١ (مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر - على بن مرشود ص ١٦٣ ، مكتبة لنا للنشر ط ١ ، سنة ١٤٠٩ هـ .

٢ (سورة الواقعة : آية (٧٥-٧٦))

٣ (التفسير الكبير للرازي : ١٨٦/٢٩)

٤ (التفسير الكبير للرازي : ٢/٥)

٥ (انظر الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د. غلوش ص ٣٤٣)

٦ (سورة فصلت : آية (٢٦))

بأسرار النفوس - أن لليمين عند العرب أثراً في نفوسهم . فالعرب كانوا يتوقون اليمين الفاجرة وكانوا يقولون : إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصح عن النبي ﷺ ذلك بقوله : (اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع (خراب) ^(١) . فلصورة القسم تشرئب أعناق العرب منتظرين جواب القسم . فإذا ما قرع جواب القسم أسماعهم تمكن فيها أيما تمكن .

فلما كانت العرب تعتقد في اليمين ويعتقدون أن العظيم يتحاشى اليمين الفاجره ساق الله سبحانه وتعالى بعض الأدلة في القرآن الكريم على صورة الأقسام فالدليل إذا ذكر في صورة القسم توفرت الدواعي على الإصغاء إليه .

وإذا تبصرنا الأقسام في القرآن الكريم - لاسيما القسم بالظواهر الكونية - نجدها أشياء قد حوت من الدلائل ما يجعل القسم ليس قسماً في الواقع وإنما هو دليل جاء في صورة قسم ، الغرض منه لفت الأنظار إلى مافي هذا المقسم به من أسرار عجيبة وما فيه من نظام بديع محكم إذ كل يجرى لأجل مسمى لا يصطدم هذا بذاك ولا يختلف هذا عن ذاك فتوجه النفس إلى سر القسم بهذا المخلوق فتسائل : ما هذا القسم من المولى سبحانه وتعالى ؟ وما معناه وما سره وما مغزاه ؟ فيكون حاصل القسم وحق هذه الأشياء التي ينطق صنعها ووجودها بالعظمة والقدرة أن المقسم عليه حق .

فأقسم القرآن الكريم بأغلبها لاسيما القسم بالظواهر الكونية والزمان والمكان للإستدلال لا للتعظيم إلا إذا كان القسم بالله تعالى أو بصفة من صفاته الذاتية . وإذا كنا قد قررنا أن القسم هو أسلوب من أساليب الإستدلال جاء في صورة اليمين ، فإننا نلاحظ في هذه الظاهرة أن القسم بالكون وما فيه أشغل مساحة كبيرة في هذا الأسلوب الاستدلالي وقد تركز في القرآن المكي .

فرغم أن الله تعالى لفت الأنظار إلى الكون وما فيه في كثير من آيات القرآن المدني ، إلا أنه لم يسقها في أسلوب قسم وإنما ساقها في أسلوب أخبار ليلفت إليها الناس ويروا فيها بديع نظامه ودقة إحكامه ، وهذا أسلوب طبيعي في هذا العهد المدني حيث يخاطب قوماً قد استقر الإيمان في قلوبهم ، ولهم عقول صافية بنور الإيمان يمكن أن تمتد بصرها وراء المحسوسات ، أما في السور المكية : فإن الله يخاطب قوماً قد وضعهم الشرك في بوتقة الظلمات والجهالة ، فلم يصل نور الهدى بعد إلى قلوبهم ، ولذلك جاءت آيات القرآن في هذا العهد تلفت أنظارهم الى ما يقع تحت حسهم فيقول لهم ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ ^(١) . ثم أراد أن يوسع دائرة نظرهم فقال ﴿ أفلم ينظروا

١ (جزء من حديث أخرجه البيهقي في السنن الصغير كتاب الإيمان والنور ، باب اليمين العموس ٤٤١/٢ ح (٤٣٧٨) وقال عنه لم يثبت اسناده موصولاً وقد روي مرسلأ إنتهى فهو ضعيف .

٢ (سورة الغاشية : آية (١٧-٢٠))

إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي *
وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴿١﴾ ، ومع ذلك لم يلتفتوا ،
وكلما أتى لهم بحجة لم يستمعوا لها ، وكلما أتى لهم بدليل أصموا آذانهم ، ففرع تعالى آذانهم
بشيء يرغمهم على النظر والالتفات ، فأقسم لهم بالظواهر الكونية ليلفت أنظارهم إليها (٢) .

١ (سورة ق : آية (٦-٨))

٢ (انظر رسالة (آيتا الليل والنهار) مرجع سابق ص ١٥٢ وما بعدها بتصرف .

المطلب الأول : مفهوم القسم القرآني والغرض منه :

القسم لغة :

القسم هو الحلف واليمين . وفعله أقسم . جاء في لسان العرب أقسم بالله ، واستقسم به ، وقاسم : حلف له . تقاسم القوم تحالفوا . قال تعالى ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾^(١) ، أى تحالفوا . وأقسمت : أى : حلفت ، وأصله من القسامه . قال ابن عرفة عند قوله تعالى ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾^(٢) ، هم الذين تقاسموا وتحالفوا على كيد رسول الله ﷺ ، (والقسم : اليمين ، والقسامة الجماعة يقسمون على الشيء ، أو يشهدون بيمين القسامة)^(٣) . وجاء في المختار . وأقسم : حلف ، وأصله من القسامة ، وهى الإيمان تقسم على الأولياء فى الدم ، والقسم بفتححتين اليمين وقاسمه حلف له^(٤) .

وجاء فى كتاب المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني^(٥) : القسم . إفراز النصيب يقال قسمت كذا قسما وقسمة . وقسمة الميراث وقسمة الغنيمة تفريقهما على أربابهما قال تعالى : ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾^(٦) ، ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾^(٧) - واستقسمته سألته أن يقسم . ثم قد يستعمل فى معنى قسم قال تعالى : ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ﴾^(٨) . ورجل منقسم القلب أى : أقسمه لهم نحو : متوزع الخاطر ، ومشارك اللب .

العلاقة بين القسم والحلف :-

من هذا العرض لما جاء فى بعض كتب اللغة يظهر لى أن القسم فى اللغة بمعنى - الحلف فهما مترادفان لغة . وفى الاستعمال العربى استعمالا على أنهما مترادفان ولكن يظهر أن الحلف

١ (سورة النمل : آية (٤٩))

٢ (سورة الحجر : آية (٩٠))

٣ (لسان العرب ٣٨١/٢)

٤ (مختار الصحاح ص ٥٣٥)

٥ (المفردات فى غريب القرآن للراغب ص ٤١٣)

٦ (سورة الحجر : آية (٤٤))

٧ (سورة القمر : آية (٢٨))

٨ (سورة المائدة : آية (٣))

يكثر في جانب المكذب كما قال الزمخشري : (هذا شيء محلف ومحنث . وحلف حلقة فاجر وأحلوفة كاذبة)^(١) .

القسم اصطلاحاً :

والقسم واليمين واحد : ويعرف بأنه (ربط النفس ، بالامتناع عن شيء أو الأقدام عليه ، بمعنى معظم عند الخالف حقيقة أو اعتقاداً)^(٢) . وسمى يميناً لأن العرب كان أحدهم يأخذ يمين صاحبه عند التحالف .

الغرض من القسم في القرآن الكريم .

للقسم في القرآن أغراض كثيرة منها^(٣) :

- ١ - لفت الأنظار إلى الكون وما يحتويه من أسرار عجيبة وما فيه من نظام بديع محكم إذ كل يجري إلى أجل مسمى وكل في فلك يسبحون . لا يصطدم هذا بذاك ولا يختلف هذا عن ذاك ولا يبطئ في سيره ولا يسرع ولا يختل عن نظامه وصدق الله إذ يقول : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾^(٤) .
- ٢ - إثبات صدق الرسول ﷺ إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع (خرائب) وأنها تضر صاحبها . وقد كان إكثار النبي ﷺ من الحلف بأمر الله تعالى : ﴿ قل إى وربى إنه لحق ﴾^(٥) ، ﴿ قل بلى وربى لتبعثن ﴾^(٦) ، ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾^(٧) . ومع ذلك لم يصب الرسول بسوء ما ، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره ﷺ فكان هذا دليلاً على صدقه عليه الصلاة والسلام^(٨) .

- ٣ - تمثيل الأمور الغائبة المعنوية بالأمور المشاهدة المحسوسة لتمكن في النفس أيما تمكن . فالقرآن في إقسامه بالصبح إذا أسفر وإذا تنفس . وبالنهار إذا تجلى وبالنهار إذا جلاها . وبالشمس وضحاها وبالضحى والفجر . إنما يجلو معانى الهدى والإيمان .

١ (أساس البلاغة للزمخشري ص ١٩٢ ، مادة حلف ، طبعة الشعب .

٢ (مباحث في علوم القرآن - للشيخ مناع القطان ص ٢٩١

٣ (آيات القسم في القرآن الكريم - رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بالأزهر - أحمد مسلم سنة ١٩٦٨ م . ص ٢٣ وما بعدها بتصرف ، غير منشور .

٤ (سورة الرعد : آية (٨)

٥ (سورة يونس : آية (٥٣)

٦ (سورة التغابن : آية (٧٠)

٧ (سورة سبأ : آية (٣٠)

٨ (من تفسير الفخر الرازي أول سورة الذاريات ٥٢/٧

وفى إقسامه بالليل إذا يغشى وبالليل إذا يغشاها وإذا عسعس وإذا أدبر وإذا يسر . إنما يقرب إلى أذهاننا ظلام الضلال والباطل والبهتان .

ولذلك نجد هذا الأزواج بين الليل والصبح فى كثير من آيات القسم :

ففى سورة المدثر : ﴿ والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر ﴾ ^(١) .

وفى سورة التكوير : ﴿ والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس ﴾ ^(٢) .

وفى سورة الفجر : ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر ﴾ ^(٣) .

وفى سورة الشمس : ﴿ والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها *

والليل إذا يغشاها ﴾ ^(٤) .

وفى سورة الليل : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى ﴾ ^(٥) .

وفى سورة الضحى : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى ﴾ ^(٦) .

فهذا الأزواج إشارة إلى أن الليل البهيم لا بد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج يبدد ظلماته .
ظلام الليل وإن استمر مدة من الزمان فلا يلبث أن ينقشع ويعقبه فجر صادق وضياء لامع . وكذلك ظلام الشرك وليله البهيم لا بد وأن يعقبه نور الحق الواضح .

٤ - تصحيح العقائد الباطلة فالقسم بالنجم إذا هوى . وبالكواكب الخنس الكنس ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، فيه رد على من اعتقدوا أنها آلهة وأن لها تصرفاً فى العالم السفلى كما

ورد فى الحديث (وأما من قال مطرنا بنو كذا) ^(٧) .

٥ - تحقيق المقسم عليه وتوكيده .

١ (سورة المدثر : آية (٣٣-٣٤))

٢ (سورة التكوير : آية (١٧-١٨))

٣ (سورة الفجر : آية (١-٤))

٤ (سورة الشمس : آية (١-٤))

٥ (سورة الليل : آية (١-٢))

٦ (سورة الضحى : آية (١-٢))

٧ (أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان قال : حدثنا يحيى بن يحيى عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عتبة عن زيد بن خالد الجهني قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى أشد سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب . أخرجه مسلم فى صحيحه شرح النووي ج ٢ ، ص ٥٩ المصرية .

قال ابن القيم فى كتابه التبيان^(١) : (والمقسم عليه يراد بالمقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية - فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها - ثم قال ما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسماً به ولا ينعكس) .

٦ - لفت الأنظار إلى أحداث بارزة كان لها الأثر فى تاريخ البشرية . وذلك الغرض يظهر فى القسم بالأمكنة كالقسم بالطور والبلد الأمين . فالقسم بالطور فيه إشارة إلى ما كان عند ذلك الجبل من الآيات التى ظهرت لموسى عليه السلام . والقسم بالبلد الأمين فيه إشارة إلى حادثة ظهور النور المحمدي من هذا البلد الأمين . ذلك النور الذى بدد ظلمات الجهل والضلال ثم شع فى آفاق الدنيا وملاً جنباتها . والقسم بالتين والزيتون فيه لفت الأنظار إلى عهد نوح عليه السلام وقيل إلى عهد عيسى عليه السلام حيث ظهر فى تلك الأماكن التى يكثر فيها التين والزيتون (فلسطين والشام)^(٢) .

وقيل بل القسم بهما لفت لما فيهما من منافع عظيمة للخلق على اعتبار أن المراد بهما الثمرتان المعروفتان . ولهذا قال أبو القاسم القشيري : والقسم بالشئ لا يخرج عن وجهين إما فضيلة أو منفعة . فالفضيلة كقوله تعالى : ﴿ و طور سنين * وهذا البلد الأمين ﴾^(٣) ، والمنفعة كقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾^(٤) .

١ (التبيان فى أقسام القرآن - ابن القيم ص ٢ ، مطبعة حجازي سنة ١٣٥٢ هـ .

٢ (تفسير الإمام محمد عبده جزء عم فى سورة التين - مطابع الشعب ص ١٥

٣ (الإتقان للسيوطي ص ١٣٤ ج ٢ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، وسورة التين : آية (١-٤)

٤ (الإتقان للسيوطي ص ١٣٤ ج ٢ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، وسورة التين : آية (١-٤)

المطلب الثاني : القسم وعلاقته بالمنهج الحسى :

أولاً : القسم وسيلة من وسائل الدعوة .

يعتبر أسلوب القسم وسيلة هامة من وسائل إبلاغ الدعوة بسبب خصائصها ومميزاتها التى نوضحها فيما يلى :- فهو :

أولاً : ييسر الداعية بنفسه . ويعرفه مقامه الكبير . ويطلعه على ضرورة الصبر وعدم اليأس ، ذلك لأن الداعية مع عظم دوره وأهميته للناس يتعرض للإيذاء الكثير ، وتلك حقيقة يجب أن لا تغيب أبداً فقد حدثت مع النبى ﷺ الداعية الأول . ومن هنا قال الله له ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾^(١) .

فخطبه فى هذه الآية مقسماً بحياته مؤكداً له أن الكفار فى الضلال تائهون . وهذا شرف ما بعده شرف وتعظيم لمقام النبى ﷺ أتى فى حينه لكى يرد به أكاذيب القوم ويبعد عن نفسه اليأس الذى اقترب من نفسه بسبب مضايقات المكذبين ، وموضع الآية فى القرآن يؤكد ما وردت له لأنها ذكرت فى ثنايا قصة قوم لوط عليه السلام تسلياً للنبى صلى الله عليه وسلم وتهديداً لكفار مكة كى يعتبروا بما أصاب قوم لوط وتعظيماً كاملاً لمقامه ﷺ لأنه لم يقدره الخلق حق قدره فالخالق سبحانه يقسم بحياته ويعظمه^(٢) .

ثم إن أسلوب القسم يبين أن على الداعية أن يثق فى النصر النهائى والنفع المحتم فيقول تعالى ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾^(٣) ، فيقسم سبحانه بالعصر وهو الوقت الذى تجب فيه الصلاة . أو الزمان الذى تقع فيه حركات الناس وأعمالهم أن الإنسان خاسر حتماً ما لم يتصف بصفات أربع هى : الإيمان . والمداومة على العمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر^(٤) .

فمن اتصف بهذه الصفات نجح وفاز ومن بعد عنها فهو من الخاسرين ، وهذه السورة المؤكدة بالقسم يستفيد منها الداعية لنفسه ولأتباعه ولأعدائه . فلنفسه يداوم على الإيمان والعمل الصالح ويوصى بالحق والصبر ويعلم أن نصر الله وفوزه فى ذلك فقط . ولأتباعه يدلهم على طريق النصر والتمسك به ، ولأعدائه يعلم أنهم من الضالين الهالكين ويحذرهم مما هم فيه .

(١) سورة الحجر : آية (٧٢)

(٢) انظر الدعوة الإسلامية د. غلوش ص ٣٥ بتصرف .

(٣) سورة العصر

(٤) تفسير النسفي ٤/٣٧٥ بتصرف .

وهكذا يعرف الداعية بواسطة القسم مهمته . ووعد الله في نصره هو وأتباعه ، أما أعداؤه
فلسوف تدوم سكرتهم حتى يأتيهم الهلاك والتدمير .

ثانياً : وأسلوب القسم يصر بالدعوة ويبين دعائمها الأساسية . بشكل مفصل ثابت أمام الدعاة
والمدعوين . لكي تكون حركة الجميع على بيان ووضوح .

ودعائم الدعوة الأساسية أمران : هما : الإيمان بالله ، والتصديق بالرسول ، وقد أحاط
القسم بهما في وضوح تام .

فهن الأساس الأول : وهو الإيمان بالله . يعرفنا القسم به عن طريق القسم العظيم بذاته سبحانه
وتعالى ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم
بمعجزين ﴾ ^(١) ، فنجد أن هذه الآية الكريمة تشتمل على قسم باسم من أسماء الله تعالى يشير إلى
نعمة فى الناس إذ هو المربى الذى يسوس الإنسان ويربيه ويدبره ^(٢) .

ولا يقف القسم عند حد الأقسام بالذات وصفاتها بل جاء القسم بآثار الله ميرهنأ على
ضرورة الإيمان به بأدلة سهلة . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ^(٣) ، ﴿ والسماء
وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها ﴾ ^(٤) ، ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا
تجلى * وما خلق الذكر والأنثى ﴾ ^(٥) .

فإن القسم بهذه الأمور يبين أدلة الألوهية كلها لأن من نظر فى ببيان السماء المنسق وبسط
الأرض المنظم وخلق الإنسان المكرم عاش مع أدلة القدرة والغاية والكمال ^(٦) ، واندفع بواسطة
إحاطته بهذه الآيات المشاهدة إلى الإيمان بالله الخالق لكل هذا ، وبذلك يعطى القسم دليلاً بيناً
واضحاً على أن الله واحد لا شريك له . وكما أقسم بذات الله وأفعاله تدليلاً على وجوب الإيمان
نرى أن الله أقسم ببعض المخلوقات على أنه عز وجل واحد وأنه رب السماوات والأرض ورب
السماوات والأرض ورب المشارق وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ والصابغات صفاء ، فالزاجرات زجراً
فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ ^(٧) ،
فترى فى هذه الآيات أن القسم أتى بطوائف الملائكة التى صفت أنفسها للعبادة أو لانتظار الأمر .

١ (سورة يونس : آية (٣٥))

٢ (تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده ص٢٧ . كتاب التحرير سنة ١٣٨٢هـ القاهرة .)

٣ (سورة النجم : آية (١))

٤ (سورة الشمس : آية (٥-٧))

٥ (سورة الليل : آية (١-٣))

٦ (الفلسفة القرآنية - للعقاد ص٩٩ .)

٧ (سورة الصافات : آية (١-٥))

والتي تزجر الشياطين عن استراق السمع والتي تتلو آيات الله ، وأقسم بذلك على أن الله واحد لا شريك له وقد أتصف بما يجعله خليقاً بالعبودية وحده . فهو رب كل شيء من سماء منسقة وأرض منظمة وما بينهما في السماء أو على سطح الأرض أو في ثناياهما .. وهكذا يثبت القسم قضية التوحيد ويدلل عليها بما هو مشاهد محسوس (١) .

وينبغي أن يعرف أن القسم في أدلته المذكورة راعى التنوع العقائدي الذي كان عليه الناس يوم ظهور الدعوة ووجه أدلته إلى جميع الخلق . وأنه في هذه المراعاة كالقصة تماماً .

وعن الأساس الثاني وهو - تصديق الرسول ﷺ - نلاحظ أن القسم يناقشه على أساس موضوعي نابع من مواقف الناس ، ذلك أن المعاندين وقفوا من النبي ﷺ موقفاً عجباً . فهم لم يكتفوا بتكذيبه والصد عنه . وإنما أخذوا يتهمونه بضلال العقل . وسفه الرأي لأنه خرج عن مألوفهم وموازنهم فكان لابد للقسم من أن يرد على هؤلاء المعاندين من مواقفهم ويثبت للنبي ﷺ أنه الرسول بحق . يقول تعالى : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين ﴾ (٢) ، فيقسم على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، وفي ذلك رد لقول المعاندين بالدليل الواقعي ، لأنه ليس بدعا في الرسل ، وهو منهم فكيف ينكر . ويقول تعالى : ﴿ ن * والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرأ غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (٣) .

ليرد بهذه الصيغة اتهامات المعاندين ، حيث جمعت الآيات تأكيدات كثيرة لتنفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتذكر أن العقل الذي تحلى به نعمة إلهية عالية . فإن إضافة لفظ الرب إليها مع إضافة ضمير النبي إلى الرب أكبر دليل على أن الله تعالى قد أتم نعمة العقل لرسوله وسوف يرقيه إلى غاية لا غاية وراءها (٤) .

وهكذا نزه القسم القرآني رسول الله ﷺ مما نسبوه إليه حسداً وعداوة ومكابرة ، وأكد له كمال العقل ، وكمال الخلق ، وكثيراً ما أكد القسم ضرورة الإيمان بالكتب المنزلة وبالملائكة وباليوم الآخر .

وهكذا يعرف القسم بأسس الإيمان داعياً إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم راداً كل اتهامات المعارضين المعاندين عنه مؤكداً أن النصر ثابت له في الدنيا والآخرة .

١ (انظر الدعوة الإسلامية د. غلوش ص ٣٣٨)

٢ (سورة يس : آية (١-٣))

٣ (سورة القلم : آية (١-٤))

٤ (تفسير أبو السعود ١٨٣/٥)

ثالثاً : أسلوب القسم يبصر الناس ويضع بعض الحقائق عنهم لكي يكون الداعية على معرفة بعبادات المدعوين وغرائزهم ، وبذلك يتلاءم معهم في دعوته ، فيوجه إليهم الأسلوب المناسب ، ويغير فيهم بمرونة وهدوء . والإنسان دائماً يحب المال حباً جماً ، لأنه من زينة الدنيا ، وهذه حقيقة يجب أن لاتغيب ، وقد أقسم عليها ليؤكد لها حيث قال تعالى : ﴿ **والعاديات ضيحا * فالموريات قدحا * فالغيرات صيحا * فأثرن به نقعا فوسطن به جمعاً * إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد** ﴾ (١) .

فأقسم بالخيال العادية ، التي يسمع صوت زفيرها ، والتي تخرج الشرر بحوافرها أثناء العدو ، والتي تغير على العدو صباحاً فتتوسط جمعه ، وتهيج الغبار عنده من شدتها في مشيتها . أقسم بالخيال الموصوفة بهذه الصفات على مجموعة خصائص للإنسان ومنها (إنه لحب الخير لشديد) أى يحب المال بقوة تجعله يتأثر أحياناً في عقيدته بسببه . ومن هنا ألفت المال قلوب أقوام في الدين وبغضهم فيه . ذلك لأن المال محبوب بالطبع والعادة . وسبب الحب فيه (أنه ثمن لجميع الأشياء . ومالكة كالمالك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هي القدرة . والقدرة صفة كمال . والكمال محبوب فلا جرم أن كان المال محبوباً) (٢) .

رابعاً : وأسلوب القسم يناسب طبيعة البشر وينطلق من بين فكرهم فالمقسم به دائماً هو أحد الأشياء التي يراها الإنسان دائماً من ليل أو نهار أو خيل أو نجم أو ضحى أو عصر ... الخ ، والمقسم عليه دائماً يتعلق بأشياء يعيشها البشر كالإيمان والكفر وغير ذلك .. وهكذا فهو أسلوب يثير الأتنباه من حول هذه الأشياء لينطلق من هذه الإثارة إلى الإيمان .

كما أن القسم ككل الوسائل ياتى مكرراً ومعجزاً ومشتتلاً على الترغيب والترهيب من أجل تحقيق أثره .

وليتمكن من أداء مهمته في الدعوة والبلاغ ، ولذلك نراه يذكر الإنسان بما ينتظره بعد الموت ويعرفه بحتمية يوم القيامة ، وبضرورة البعث والحساب والجزاء لينتظر مقره في الآخرة إما في الجنة وإما في النار . وبذلك يؤثر القسم في الناس لأنهم حين يسمعونه يخافون من ترهيبه . ويطمعون في ترغيبه . ويتمسكون بالحسنى ، ليصلوا إلى الفوز والسعادة . ولأهمية هذا النوع من الخطاب نراه في المقسم به والمقسم عليه . حيث أقسم الله تعالى بيوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ (٣) ، وفي قوله تعالى : ﴿ **والسماوات البروج * واليوم الموعود** ﴾ (٤) ،

١ (سورة العاديات : آية (١-٨))

٢ (مفاتيح الغيب ٢/٦١٩)

٣ (سورة القيامة : آية (١))

٤ (سورة البروج : آية (١-٢))

وأقسم عليه في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾^(١) .
وفي قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالملقسات أمرا *
إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع ﴾^(٢) .

وكما أقسم الله على القيامة أقسم على الحشر فقال : ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾^(٣) ، وأقسم
على البعث : ﴿ بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾^(٤) .
وأقسم على السؤال والحساب فقال تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا
يعملون ﴾^(٥) .

وأقسم على العذاب فقال ﴿ والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت
المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع ﴾^(٦) .
وأقسم على أهوال يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق *
والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق ﴾^(٧) .

(١) سورة سبأ : آية (٣)

(٢) سورة الذاريات : آية (١-٦)

(٣) سورة مريم : آية (٦٨)

(٤) سورة التغابن : آية (٧)

(٥) سورة الحجر : آية (٩٢)

(٦) سورة الطور : آية (١-٨)

(٧) سورة الإنشقاق : آية (١٦-١٩) وانظر الدعوة الإسلامية د. غلوش ص ٣٥٠ بتصرف .

ثانياً - دراسة تطبيقية على بعض آيات القسم فى القرآن الكريم .

النص الأول : وهو قوله تعالى فى سورة المدثر ﴿ كلا و القمر * والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكبر * نذيراً للبشر ﴾^(١)، وفى هذا المشهد يقسم الله تعالى بثلاثة مظاهر من مظاهر الكون الكبرى ، على أن سقر أو الجنود التى عليها أو الآخرة وما فيها هى إحدى الأمور الكبرى العجيبة ، المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر ، وذلك لأن المشركين استهزءوا بجهنم وبملائكة العذاب ، وأنكروا جهنم نفسها ، وهم بهذا الاستهزاء ينكرون البعث والحساب - فحاء الله تعالى بأبلغ الرد عليهم بقوله " كلا " وهى أسلوب ردع وزجر ، أى ليس الأمر كما تظنون فالآيات التى تشاهدونها ، وتلك الحقائق الكونية الكبرى كقيلة بما فيها من دلالات مثيرة أن تنبهكم من غفلتكم إلى أقداركم العظيمة ، وإن هذه الآيات : من قمر ساطع ، وليل مدبر ، يعقبهما صبح مشرق ، شاهدات على صحة البعث ، وإسفار الصبح : أى إظهار ضوئه بحيث يستطيع الإنسان أن يرى الأشياء ويميزها بدون نور صناعى ، وهو مأخوذ من السفر أى الكتاب كما قال تعالى ﴿ يحمل أسفاراً ﴾^(٢) ، وكما قال : ﴿ بأيدى سفرة ﴾^(٣) ، وكأنه بإسفار الصبح يستطيع الإنسان أن يقرأ فى السفر ويميز بين سطوره وكلماته ، وتتضح معالم كل شىء فى الكون بدون واسطة من نور آخر . وفى هذا المشهد نجد أن الله تعالى يلفت أنظار المشركين إلى دليل ملموس ، يشاهدونه فى كل يوم ، حركة بالنهار ، ثم سكون بالليل شبيهة بالموت ، ثم حياة حينما يسفر الصبح ويمتد ضوءه فكيف ينكرون البعث وأنتم تموتون وتحيون كل يوم .

وهكذا يربط الحق جل جلاله حقيقة الآخرة وحقيقة سقر وحقيقة جنود ربك بظواهر الوجود المشهودة فى هذا العالم ، والتى يمر عليها البشر غافلين وهى تشى بقدره الإرادة الخالقة ، وتديرها ، وتوحى بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصداً وغاية وحساباً وجزاءً .

والمشاهد التى أقسم الله بها ، مشاهد موحية بذاتها تحرك القلب وتوقظ المشاعر وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر فى أطواره حينما يبدو هلالاً ثم يصير بدرًا ثم يعود هلالاً ثم يكون المحاق ، وما أشبه هذه الحقيقة بأطوار الحياة البشرية حينما يولد الإنسان فى ضعف ثم يصير إلى قوة وكمال للرجولة ثم يعود إلى ضعف وشيبة ثم يكون الفناء والنهاية وهى الموت . ولعل هذا الإيجاء وتلك المقارنة بين حال القمر وحال الإنسان تأخذها من ذكر القمر مطلقاً من غير تقييد فى هذا القسم (كلا والقمر) ، وقل كذلك أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره فى تلك الهدأة التى تسبق

(١) سورة المدثر : آية (٣٢-٣٥)

(٢) سورة الجمعة : آية (٥)

(٣) سورة عبس : آية (١٥)

الشروق دون أن ينطبع في أعماقه خطوات شفاقة موحية ، وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ثم لا ينبض فيه نابضة إشراق وتفتح ، والله عز وجل الذى خلق القلب البشرى يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب فى بعض الأحيان وكأنها تخلقه من جديد . وهكذا كان القسم فى ذاته ومحتوياته والمقسم عليه بهذه الصورة ، كأن المشهد مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ، وتتسق مع النقر فى الناقدور وما يتركه من صدى فى الشعور ^(١) .

وهكذا كانت العلاقة القوية بين المقسم به فى مظاهره الثلاثة وما بينهما من إنسجام وتتابع ، وبين المقسم عليه وهو إثبات البعث وأمور الآخرة ، فالقمر فى أطواره والليل فى سكونه وما لف به الكون من رقاد وموت ثم يعقبه الصبح فى إسفاره ، فتدب مع تباشيره الحياة فى كل الكائنات وتستيقظ من رقادها بعد إدبار الليل وإقبال النهار ، كل هذه المشاهد دلالة صدق على صحة البعث وأحوال الآخرة .

النص الثانى : وهو قوله تعالى فى سورة الإنشقاق : ﴿ فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق فمالهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ ^(٢) ، فى هذا المشهد يقسم الحق جل جلاله بثلاثة مظاهر ، هى فى غاية الإنسجام والترايط ، يقسم بذلك على أحوال الإنسان وما يلاقه بعد حياته ابتداءً من الموت وما بعده ، من مواطن القيامة وأهوالها ، وهذه المظاهر الكونية التى أقسم الله بها لها طابع خاص يجمع بين الخشوع الساكن والجلال المرهوب ، هذه المشاهد التى تشى بيد التدبير والتقدير من اللطيف الخبير .

يلوح القرآن بها فيقسم بها ليرزها للمشاعر والضمائر فى جمالها وفى دلالتها على اليد التى تمسك باقدار هذا الكون وتبدل أحواله وأحوال الناس أيضاً وهم غافلون .
والشفق - كما ذكر الألوسى - هى الحمرة التى تشاهد فى أفق المغرب بعد الغروب ، وأصله من رقة الشيء ، يقال شفق أى لا يتماسك لرقته ، ومنه أشفق عليه أى رق قلبه ، وقيل البياض الذى يلى تلك الحمرة بعد سقوطها .

وأما قوله تعالى (والليل وما وسق) أى : وما ضم وجمع ، يقال وسقه فاتسق واستوسق أى : جمعه فاجتمع ، ويقال : طعام موسق أى مجموع ، وإبل مستوسقه أى مجتمعه ، ومنه الوسق وهى الأصواع المجتمعة وهى ستون صاعاً ، وعن مجاهد ما يكون فيه من خير وشر ، وقيل ما ستره وغطى عليه بظلمته ، وقيل ما جمعه من الظلمه ، وقيل وما وسق أى ما عمل فيه ، وقيل وسق بمعنى طرد أى طرده إلى أماكنه من الدواب وغيرها أو ما طرده من ضوء النهار ، ونحن نرى أن اللفظ

١) انظر فى ظلال القرآن - سيد قطب ، سورة المدثر م ٦ ، ص ٣٧٦ دار العلم .

٢) سورة الإنشقاق : آية (١٦-٢١)

يتحمل كل هذا ، ولعل الحكمة فى مجيء اللفظ بهذا التعميم وبهذا التجهيل وبهذا التهويل ، ليهذب معه الفكر كل مذهب ، ويتقصى ما يجمعه الليل ويضمه من أشياء وأحياء ومشاعر وعوالم خفية ومظاهر سارية فى الأرض وغاربة فى الضمير ، ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآنى القصير ﴿ والليل وما وسق ﴾ .

وأما قوله تعالى ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أى : اجتمع نوره وصار بديراً ، وأصبح يفيض على الأرض بنوره الخالم الخاشع يقسم الله تعالى بهذه المشاهد الثلاثة الموحية أن بنى الإنسان سيركبون طبقاً عن طبق ، والمراد بالركوب الملاقاة ، وقيل الطبق اسم جنس جمعى واحده ذلك ، والمعنى حينئذ : لتركبن أحوالاً بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها ^(١) .

والأولى فى معنى الآية أن الله عز وجل يقسم على أحوال الناس بعد حياتهم الدنيا وما يلاقونه من شدائد وأهوال ، ولذا فمن الواجب عليهم أن يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح . وهكذا يرسم مشهد القسم فى هذا النص الكريم ، يرسم مشهداً من الخشوع والجلال ، فى وقت الشفق بعد الغروب حينما تأخذ النفس روعة ساكنة ، ويحس القلب بمعنى الوداع ، كما يحس برهبة الليل القادم ووحشة الظلام الزاحف ، ويلفه فى النهاية خشوع وسكون فى جو الليل وما يحويه هذا الليل ، ومشهد القمر فى ليالى أكماله ، وهو جو له صلة خفية بجو الشفق ، والليل وما وسق ، يلتقى فى جو من الترابط بينهما ليثبتا أن البعث حق لا ريب فيه ، وأن وراء حياة الإنسان فى الدنيا حياة أخرى فيها الأهوال والكرب والشدائد لا ينجو منها الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

النص الثالث : وهو قوله تعالى فى سورة الفجر ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل فى ذلك قسم لذى حجر * لم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ^(٢) . يقسم الله فى مطلع السورة بتلك المشاهد الخمسة على تأكيد سنة من سننه فى خلقه وهى إهلاك الطغاة وأخذ الله لهم ، وهو فى هذا النص قد طوى المقسم عليه وجعل ما بعده يدل عليه بعد أن ساق سؤالاً للتقرير ، يقرر فيه عظمة هذا القسم ودلالته ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ أى أن فى ذلك قسماً لذى لب وعقل ، ومقنعاً لمن له إدراك وفكر ، وموحياً بصدق المقسم عليه لمن له أدنى التفاتة وتأمل .

(١) انظر : روح المعاني للأكوسى جـ ١٠٤/٣٠ مرجع - وانظر : فى ظلال القرآن سيد قطب ٣٨٦٨/٦٠ وما بعدها .

(٢) سورة الفجر : آية (١-٦)

والمراد بالفجر هنا الفجر المعروف ، وهو الفجر الصادق الذى يتدئ به النهار الشرعى ، وقال الألوسى : أن المراد جنس الفجر لا فجر يوم مخصوص ، إنه ساعة تنفس الحياة فى يسر ، واستيقاظ الوجود رويداً رويداً مع انبثاق النور شيئاً فشيئاً (١) .

وكما أقسم الحق سبحانه بوقت الفجر أقسم بليال عشر ، ولقد اطلقها القرآن وجعلها منكرة للتفخيم وتعظيم شأنها ، وإطلاقها هكذا أوقع فى النفس ، وأنسب فى مقام القسم ، فهى ليال عشر يعلمها الله ولها عنده شأن أى شأن .

وأقسم سبحانه أيضاً بالشفع والوتر : وقال الزمخشري (قد أكثروا فى الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتهلى عنه) (٢) .

ويقول الألوسى : إن الشفع والوتر يطلقان على الصلاة ، وإطلاقهما على الصلاة هو أنسب المعانى فى هذا الجو المأنوس الحبيب جو الفجر وليال عشر ، حيث تلتقى روح العبادة الخاشعة بروح الوجود الساجية ، وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالى المختارة وروح الفجر الوضيئة . وأقسم ربنا سبحانه وتعالى كذلك بالليل إذا يسر ، ومعنى يسرى أى يمضى كقوله تعالى : ﴿ **والليل إذ أدبر** ﴾ والأقسام بذلك الوقت ، وتقييد العظمة لما فيه وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة ، والمشهد هنا يصور الليل وكأنه مخلوق حى يسرى فى الكون وكأنه ساهر يجول فى الظلام ، أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ، إنه لجمال ما بعده جمال ، جمال اللفظ والتعبير مع جمال المشهد والكون ، والمراد من الليل هنا جنسه .

ثم ختم الله عز وجل القسم بقوله ﴿ **هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ والحجر هو العقل لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من التهافت فيما لاينبغى ، وهذا تقرير وتحقيق لفخامة الأشياء المذكورة المقسم بها وكونها مستحقة لأن تعظم بالأقسام بها ، ويدل كذلك على تعظيم المقسم عليه وتأكيد ذلك إشارة إلى المقسم به وما فيه من معنى البعد لزيادة التعظيم ، أى هل فيما ذكر من الأشياء مقسم به عند أصحاب العقول ، أى هل يحق عنده أن يقسم به إجلالاً وتعظيماً . والمراد تحقيق إن الكل كذلك ، وإنما أوثرت هذه الطريقة هضماً للحق وإيداناً بظهور الأمر (٣) .

وهكذا نجد الحق جل جلاله فى هذا المشهد يلفت أنظارنا إلى نظامه فى الضوء والظلام والزمان ، ضوء قوى وضوء خافت ، وشهر كامل وشهر ناقص ، وليل مدبر وفجر مقبل ، كل

(١) انظر : تفسير الألوسى ج ١٥٢/٣٠

(٢) تفسير الكاشف - الزمخشري : ٢٣٠/٦

(٣) انظر : تفسير الألوسى : ١٥٥-١٥٢/٣٠ ، بتصريف ، والكشاف للزمخشري ج ٣٠، ٢٣٠/٦م مرجع سابق ، والظلال

٣٩٠٣/٦م

ذلك لنذكر أن الظلام لا يمكن أن يستمر ، بل لابد أن يقطع بفجر صادق لامع ، فكذلك حجب الظلال ودولة الطغيان يقطعهما نور الهداية وكمال العناية من الله بخلقه .

إنه قسم بسنن كونية محسوسة مألوفة ذات إيماء للنفس توقظها من غفلتها وكيوتها ، إنه قسم بهذه السنن الكونية على سنة كونية أيضاً وهي لم تكن محسوسة ، لكنها حقيقة ثابتة ، وناموس لا يتغير وهي إهلاك الله للطغاة وأخذهم أخذاً أليماً ، وقد دل على المقسم عليه هذا ما ذكره الله في السورة عن هلاك قوم عاد وقوم ثمود ، وفرعون وجنده ، ونجد في هذا المشهد العلاقة القوية بين المقسم به والمقسم عليه ، فكما أن ظلام الليل لا يدوم بل يعقبه نسمات الفجر الرقيقة وضوء الصبح اللامع ، فكذلك دولة الظلم لا تدوم ، بل لابد من دولة للحق ونور للهداية عقب هذا الظلم ، وذلك الضلال .

النص الرابع : وهو قوله تعالى في سورة الشمس : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ (١) .

يقسم الله بهذه الخلائق والمشاهد الكونية كما يقسم بالنفس وتسويتها والهامها ومن شأن هذا القسم ان يخلع على الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليها القلوب تملأها وتتدبر ماذا لها من قيمة وما بها من دلالة حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

وأقسم الله سبحانه بهذه المظاهر السبعة والتي تشكل في مجموعها الشيء ومقابلته من سنن الكون ، ويقسم الله بها على سنة من سننه في خلقه وهي عذاب المكذبين وهلاك الطغاة الجاحدين للرسول ﷺ ، ولذلك جعل الإمام الزمخشري الجواب محذوفاً تقديره : لِيَدْمَدِمَنَّ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود فألهمها فجورها وتقواها ، على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شىء (٢) .

وذكر الألوسي أن جواب القسم هنا قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ وقال : إن تكرير قد فى ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ لإبراز الأعتناء بتحقيق مضمونه والإيدان بتعلق القسم به أصالة (٣) . وعلى هذا القول : يكون سبحانه وتعالى قد أقسم بمظاهر سبعة على أن النفس قد تتزكى فترتفع وتشرق ، وقد تجبط فتظلم وتخبو ، وبناء على ذلك تكون الشمس والقمر والنهار والسماء مقابلة لتزكية النفس ، ويكون الليل والظلام والأرض مقابل لانحطاطها

(١) سورة الشمس : آية (١-١٠)

(٢) الكشف للزمخشري ج ٣٠ ص ٢٣٦ ، والظلال ٦م/٢٩١٥

(٣) روح المعاني للألوسي ج ٣٠ م العاشر ص ١٨٣ .

ودنوها وظلامها ، وبذلك تتحقق العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، ويكون قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ استثناءً وارداً لتقرير مضمون قوله تعالى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ وليس تكذيب ثمود دليلاً على القسم المحذوف - كما قال الزخشرى - وانا ارجح ما ذكره الألوسى بأن يكون جواب القسم هنا التزكية والتدسية ، أى لقد فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنى نفسه وأعلاها بالتقوى علماً وعملاً ، ولقد خسر من نقصها وأخفاها ولوثها بالفجور جهلاً وفسوقاً ، حيث يحصل على هذا الترجيح المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه .

هكذا يذكرنا الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور التى أقسم بها لينبهنا إلى اليد التى وراءها التى خلقت فأحكمت وصنعت فأبدعت ، لكى يؤكد أيضاً من خلال هذه المشاهد الظاهرة وتلك الأطوار المختلفة من نور وظلمة ، وسماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار يؤكد حقيقة النفس الخفية ، أما التزكية والفلاح أو التدسية والخسران ، كما تتقابل مشاهد الكون ، تتقابل أيضاً نوازع النفس ، فهذا كذاك .

النص الخامس : وهو قوله تعالى فى سورة الليل ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى ﴾ (١) .

يبدأ الله سبحانه وتعالى السورة بالقسم ، ببعض مشاهد الكون وبطبيعة الإنسان ، ليقرر بذلك حقيقة العمل والجزاء ، ولما كانت هذه الحقيقة متنوعة المظاهر ، وكانت العاقبة مختلفة أيضاً وفق العمل والوجهة ، لما كان ذلك كذلك : كان الإطار المختار للقسم فى مطلع السورة ذا لونين فى الكون وفى النفس سواء فقال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى ﴾ وهذه من بدائع التناسق فى التعبير القرآنى .

فيقسم الله تعالى بهاتين الآيتين : الليل والنهار ، مع صفة كل منهما ، والصفة المصورة للمشهد ، الليل حين يغشى البسيطة ويغمرها ويخفيها ، والنهار حين تجلى ويظهر كل شيء ، وهما آنان متقابلان فى دورة الفلك ، ومتقابلان فى الصورة ، ومتقابلان فى الخصائص وفى الآثار وكذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين ذكر وأنثى تكملة لجو التقابل فى السورة وحقائقها .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة وإيحاء للقلب البشرى ، والنفس تتأثر تلقائياً بتقلب الليل و النهار ، كما لهما دلالة أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما دلالة قاطعة بأن هناك بدأً أخرى تدبر هذا الفلك وتبدل الليل والنهار بهذا الانتظام وهذا الاطراد وتلك الدعوة ،

(١) سورة الليل : آية (١-٤)

وأن الذى يدبر هذا الفلك هكذا يدبر حياة البشر أيضاً ، ولا يتركهم سدى كما أنه لم يخلقهم عبثاً^(١).

وهكذا يقسم الله بهذه المشاهد ، ويقسم بها لعظيم دلالتها وعميق آثارها ليؤكد حقيقة من حقائق العمل فى الدنيا والجزء فى الآخرة ، وبين القسم والمقسم عليه فى جو السورة علاقة قوية فكما أن هناك ليلاً يقابله نهار ، وذكرأ يقابله أنثى ، فكذلك هناك عمل صالح يقصد الإنسان به وجه الله وطلب رضاه ، وعمل طالح يبتغى الإنسان من ورائه نزعاته الشريرة ونفسه الأمارة بالسوء ، وكما تنوع العمل تنوع الجزء فى الآخرة فلن يستوى الخبيث والطيب ، كما يتنوع مدد الله ومعوته لعباده أيضاً على حسب وجهة كل منهم ، ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾^(٢).

النص السادس : وهو قوله تعالى فى سورة الضحى ﴿ والضحى * والليل إذا سجدى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾^(٣).

فى إطار من مشاهد الكون وتعبيراته الموحية يسوق الله لمسة من حنان وود لرسوله ﷺ تسرية له وتطميناً لخاطره ، ولما كان جو السورة جو حنان وأنس وتسرية ورفق ، جعل الله إطار القسم من الضحى الرائق ومن الليل السجى أصفى أنين من آونة الليل والنهار .

فالضحى المراد به هنا وقت ارتفاع الشمس الذى يلي وقت بروزها للناظرين ، وتخصيصه بالأقسام لأنه شباب النهار ، ولذا عدَّ شرفاً يومياً للشمس وسعداً ، لأنه على ما قالوا الساعة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وألقى فيها السحرة سجداً لله لقوله تعالى : ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾^(٤) ، ففيه مناسبة للمقسم عليه وهو أنه تعالى لم يترك النبى ﷺ ولم تفارقه أطافه ، وقيل المراد به النهار كله ، ولكن الأول أرجح حيث وقع الضحى فى مقابلة الليل المقيد بإذا سجدى ، ولحصول المقابلة يكون الضحى وقتاً مخصوصاً فى النهار وهو وقت ارتفاع الشمس ، وانتشار الناس فيه إلى الكدح والعمل بهمة ونشاط^(٥) .

والمقسم به هنا نور وضاح متألئ يعقبه الليل المظلم فهما حالتان متقابلتان للزمان . والمقسم عليه بيان بأن الله تعالى لم يترك النبى ﷺ ولم ييغضه . وإنما انقطع الوحي فترة لحكمة أرادها الله تعالى . والمناسبة بينهما أن انقطاع الوحي فترة لا يعد ضرراً فقط لأن مجيء الوحي وانقطاعه

(١) فى ظلال القرآن : ٦م / ٣٩٢١

(٢) سورة الليل : آية (٥-١٠)

(٣) سورة الضحى : آية (١-٥)

(٤) سورة طه : آية (٥٩)

(٥) انظر روح المعاني للألويسي ج٣ ص ١٠ ١٩٥

حالتان صغيرتان كمجىء النور والظلمة . وطريقة التأثير هنا أن يقف المعارضون عند حد ولا يتمادون في أكاذيبهم فما انقطاع الوحي إلا لتهديئة فؤاد النبي ﷺ بعد أن ارتجف حين ضمه جبريل إليه لأول مرة . وبعد التهديئة يأتيه الوحي من جديد . تماماً كما هو معروف من انقطاع ضوء الضحى ، ليأتي ظلام الليل أو بالعكس له فائدة جليلة للهدوء والسكن ، والنهار للنشاط والحركة ، ولو كان الزمان كله نهراً أو ليلاً لما سارت الأمور ولتوقفت الحياة ، فأقسم الله تعالى بحالتين من حالات الزمن فائدتهما واضحة لتأكيد أن تغير الوحي مع النبي ﷺ إلى حالتين لما لهما من فائدة ، والتصديق حينئذ سهل ، لأن التصديق بالمقسم به معروف حساً والمقسم عليه يشبهه في التغير والفائدة معنى . فحق الإيمان بمحتواه (١) .

يقول ابن قيم الجوزية : (تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي وبقائه بعد احتباسه عنه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد احتباسه واحتجاباه ، وأيضاً فإن فائق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس وهذان للعقل) (٢) .

ويقول الإمام الرازي : (كأن الله تعالى يقول الزمان ساعة فساعة ، ساعة ليل وساعة نهار ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ومرة بالعكس ، فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلبي بل للحكمة . كذا الرسالة ، وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس فلا كان الإنزال عن هوى ولا كان الحبس عن قلى) (٣) .

وللشيخ الشعراوي كلام جميل حول هذه السورة حيث قال : ونجد في هذه السورة سرّاً عجيباً ، وتبدأ بالقسم ، ثم ثلاث آيات أو ثلاث قضايا يضمنها الله لرسوله ويأتي مع كل قضية بدليلها ومطلوبها ، وكأنه تعالى يقول : الضمان الأول لك يا محمد ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ فلن أتركك أو أبغضك ، ثم يأتي بالدليل عليها فيقول ﴿ ألم يجدك يتيماً فأوى ﴾ أى لم أتركك وأنت يтим صغير فكيف أتركك وأنت نبي يوحى إليك . ثم يأتي بمطلوب هذه القضية وهي ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أى ما دمت أنت ما ودعك ربك وما قلاك والدليل على ذلك أنك كنت يتيماً فأواك فيطلب منك ألا تقهر اليتيم ثم يذكر الله الضمان الثاني لرسوله وهو ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ والدليل على ذلك ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ لأن الهداية هي الخير الموصل إلى الرضا والجنة وقد هداك الله بشرعه وتعاليمه فيطلب منك ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أى لا ترد سائلاً

(١) الدعوة الإسلامية د. غنوش ص ٣٥٢

(٢) التبيان في أقسام القرآن ، ابن القيم ص ٤٦ ، دار الكتاب العربي .

(٣) مفاتيح الغيب ٤٤٧/٨

قصداً ، ثم ذكر الله الضمان الثالث لرسوله بقوله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ثم ذكر الدليل على ذلك فقال ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ ثم ذكر المطلوب فقال ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ وكأنه يقول له النعم تتوالى عليك ويطلب منك أن تحدث بها وتشكر عليها (١) .

وهكذا نجد في هذا المشهد من السورة أن الله قد أقسم بمظهرين كونيين على رعايته لحبيبه وتفضله عليه وقد وجدنا أن بين المقسم به والمقسم عليه علاقة قوية ، وفي الوقت نفسه يلفت الله عز وجل الأنظار إلى مشاهد الكون باعتبارها أدلة موصلة إلى الإيمان به ، وإلى صدق الرسالة والرسول ﷺ .

هذه هي بعض المواضع التي ورد فيها القسم بالمظاهر الكونية ومن خلال دراستها دراسة موضوعية استنتجت منها الملاحظات الآتية :-

لاحظت أن الله سبحانه وتعالى قد أقسم بمظهر واحد ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ وتارة بمظهرين ﴿ والضحى ﴾ والليل إذا سجي ﴿ وتارة بثلاثة ﴿ كلا والقمر ﴾ والليل إذا أدبر * والصبح إذا أسفر ﴿ وتارة بأربعة مظاهر ﴿ والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود ﴾ وقوله ﴿ والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالملقنات أمرا ﴾ وتارة بخمسة مظاهر ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر ﴾ وقوله ﴿ والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشرًا * فالفارقات فرقا * فالملقيات ذكرا ﴾ .

وتارة بسبعة مظاهر - الذي هو غاية التكثير في الأحاد ﴿ والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها ﴾ .

وكل مجموعة من هذه المظاهر متسقة مع بعضها تمام الاتساق . وتركيبها غاية في الروعة والإحكام - كما بينت ذلك في الشرح .

ولاحظت أن الله تعالى أقسم بالمظهر الواحد تارة مرة واحدة كالشمس ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وتارة مرتين كالأرض ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ وتارة ثلاث مرات كالقمر ﴿ كلا والقمر ﴾ ﴿ والقمر إذا أتسق ﴾ ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ وتارة ست مرات كالسماء ﴿ والسماء ذات الحيك ﴾ ﴿ والسقف المرفوع ﴾ ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ ﴿ والسماء وما بناها ﴾ ﴿ والسماء والطارق ﴾ ﴿ والسماء ذات الرجوع ﴾ وتارة سبع مرات

(١) تفسير سورة الضحى للشيخ الشعراوي ص ٥١٥ وما بعدها بتصرف من كتاب المنتخب من تفسير القرآن الكريم - دار العودة - بيروت سنة ١٩٨٩ م.

كالليل ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ ﴿ والليل وما وسق ﴾ ﴿ والليل إذا يسر ﴾ ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ﴿ والليل إذا سجي ﴾ .

وهذا غاية فى الروعة والجلال فالمظهر الواحد الواضح الجلى لكل ذى عينين يكفى فيه لفتة واحدة ﴿ والشمس وضحاها ﴾ فالشمس أجلى المظاهر الكونية . ضوءها يحس به المبصر وغيره فلا يستطيع أحد إنكاره مهما كان وكذلك نور الحق الواضح لا يستطيع أحد أنكاره ولا ينبغي لأحد أن ينكره . ومن أنكره إنما أنكره جحوداً و عناداً .

والأرض فيها آيتان : الآية الأولى أن الله جعلها مهاداً وسكناً للأحياء ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ والآية الثانية إنه تعالى جعلها مكاناً لإنبات ما به بقاء الأحياء ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ ولذلك لفت الأنظار إليها مرتين .

والقمر فيه ثلاث آيات : الأولى أطواره التى يمر بها وهى شبيهة بأطوار الإنسان ولهذا لفت الأنظار إلى أطوار القمر ﴿ كلا والقمر ﴾ . و الثانية تمامه وأضاءته الكون كله ﴿ والقمر إذا أتسق ﴾ والثالثة نوره يستمد من نور الشمس وإنه بديل عنها إذا ما غابت عن الأرض ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ .

أما السماء ففيها مظاهر كونية عظيمة : فيها البروج والنجوم ، وهى سقف لهذا العالم كله، ومن جهتها ينزل ما به حياة الأرض والكائنات . فلذلك أكثر من لفت الأنظار إليها فذكرها ست مرات .

أما الليل فلغفلة الإنسان عنه ، وقضاء أكبر وقت منه فى سبات عميق ، أكثر من لفت الأنظار إليه . فأقسم الله تعالى بجميع أحواله . أقسم به إذا أقبل ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ وبه إذا أدبر ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ وبه إذا ستر الكوكب العظيم الذى هو الشمس ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ وإذا ضم الكائنات تحت جناحيه ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ وإذا يمضى ويذهب ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وإذا جمع الأحياء فى هدوء وسكون ﴿ والليل وما وسق ﴾ وإذا أرخى سدوله واشتد ظلامه ﴿ والليل إذا سجي ﴾ .

وفى كل موضع يلاحظ أنه متسق مع سابقه ولاحقه وبتناسب تمام المناسبة مع المقسم عليه .

الفصل الثالث :

صور الإبداع للمنهج الحسي في القرآن الكريم .

المبحث الأول : الانتقال من دليل حسي إلى آخر للإفحام .

المبحث الثاني : التدرج في استخدام الدليل الحسي .

المبحث الثالث : الارتباط بالمألوف .

التمهيد :

إن الجمال والإبداع يبدوان ملازمين لكل شيء في الكون : السحب ، السماء الزرقاء ، النجوم ذات الألوان وانتشارها وانتظامها وحركتها وهندستها ، القمر ساعة طلوعه عندما يكون بديراً أو هلالاً أو ساعة توسطه قبة الفلك ، الشمس في غروبها وشروقها ، الفجر والأصيل ، روعة الظهر ، كل ذلك آثار إبداع عظيم . إن أعظم فنان هو الذى يستطيع أن يرسم جزءاً مما في الكون للحظة من لحظاته بأمانة ، أما الكون فكل مظهر من مظاهره التي تتكرر ، أو تتعاقب أو تتغير صور من الجمال تثير في النفس كل آن مباحج من الروائع .

كل ورقة من أوراق الشجر أبدع نظام ، مخططة أجمل تخطيط في إبداع يقلد ولا يصنع ، تجده على أروع ما يكون في الأزهار ، برشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة ، بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه ، وإنك لتجد في كل زهرة إحساساً جديداً ، وهي بديعة عندما تجتمع جنساً واحداً ، ورائعة عندما تكون أجناساً ، فالورق والزهر والساق والفصون والفروع والثمار ، كلها إبداع عجيب ، منفردة كانت أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة (١) .

ومنظر الحدائق البهيجة يبعث في القلب السرور والحيوية ، قال تعالى :

﴿ ... وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أهله مع الله بل هم قومٌ يعدلون ﴾ (٢) .

فتأمل الحدائق البهيجة كفيل بإيحاء القلوب ... وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب .. وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر .. وأن نموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في زهرة واحدة .. ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن القديم والحديث .. فضلاً عن معجزة الحياة النامية في الشجر - وهو السر الأكبر الذى يعجز عن فهمه البشر (٣) ...

وحيثما مد الإنسان بصره إلى ما حوله في السماء والأرض وجد ما يمتع نظره وقلبه .. وما يغذي روحه وعقله من روائع الجمال والحسن والزينة الباهرة .. فالجمال والزينة والإبداع جواهر قائمة في تركيب كل شيء في الكون ومرتبطة بعدة أشياء منها :

(١) أنظر الله جل جلاله - سعيد حوى ص ٧٩ دار السلام ط ٢ ، سنة ١٩٩٠م .

(٢) سورة النحل : الآية (٦٠)

(٣) أنظر في ظلال القرآن ٢٦٥٦/٥

أولها : جمالية المطر يهطل على الأرض وعلى غيرها بنظام متناسق ، ففي شهوده جمال وفي وقعه جمال وفي تلطيف الجو به جمال ، وفي سيلاته على الأرض جمال ، وفي صحوه الجو فيما بعد جمال .

ثانياً : جمالية الخلق الإلهي فهي من إبداع الله ومظهر لجماله الرباني ... فلا أحد يخلق مثلها ولا أحد يستنبت شجرها ، ولا أحد يجعلها بهية بهيجة في وجدان الناس ... لا أحد يفعل هذا سوى الله الذي جعلها ، وأشعر الناس بجمالها .

ثالثاً : هذه الأنهار خلال الأرض من تجمع مياه المطر وجريانها فيها ، فهي إذ تضيف ألواناً جمالية مبهجة على الحدائق ذات البهجة فإنها (شرابين) الحياة تغذي الحقول وتسقي البساتين وتروي الحدائق .

إن القرآن ينبه عقب الحدائق النضرة السابقة إلى جريان الأنهار في الأرض ونعمة الرزق وهبة الجمال

رابعاً : إن الأمطار والحدائق والأنهار والجبال ... قد جلت ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾^(١) ، فالأمطار نظام متقن ، والحدائق جمال متناسق ، والأنهار والجبال أجزاء من الإتقان . وهل الجمال إلا صنيع متقن متناسب ألوانه وأبعاده ليحدث الأثر الوجداني المفرح؟^(٢) .

إنها مشهد كوني فيه الضخامة الهائلة ، واللطافة الرقيقة ، والمياة الجارية والأشجار المبهجة ... هو أحد المشاهد الجمالية فى القرآن - وما أكثرها وأدقها وأعظم نسقها - لتأخذ بإنسانية الإنسان إلى الإيمان ، وبحسه إلى تذوق حلاوة هذا الإيمان .
فإن أقل لفته إلى مشهد من هذه المشاهد كفيلاً بان تحرك فى النفس مشاعر جيشة ومزيجاً مختلطاً من البهجة والرغبة ، البهجة بالجمال والإبداع والتنظيم والعناية .
والرغبة من هذه المشاهد التى تلف الكون كله فى صمت ، ومن منا لم يجرب حتى ولو مشهداً واحداً من هذه المشاهد ؟

١ (سورة النمل : آية (٨٨))

٢ (أنظر الظاهرة الجمالية فى القرآن الكريم - نذير حمدان ص ٣٥٠ دار المناير - جدة ط ١ سنة ١٩٩١م .

ومن منا لم يجرب مشهد الصبح إذا أسفر وإذا تنفس ، بعد ان شق الفجر ظلام الليل
الدامس ، وأقبل النور يزحف على الكون في خفة ورشاقة ، فيداعب كل عين تلحظ ، وكل
زهرة ذابلة ، وكل نبتة مستكنه ، وكل طائر هاجع ، وكل سمكة راقدة ، وكل شجرة باسقة
، وكل شيء هامد في الكون ، فإذا الحياة تدب فيه وإذا الكل في حياة بعد موت ، وهمة
ونشاط بعد رقود وخمود ، أى إبداع في هذا المشهد حينما تستنشق النفوس عبير الصبح ،
حينما تفوح الروائح من الأزهار ، حينما يترقق حبات الندى على ورق الأغصان ، حينما
تنسج حمرة الشروق على صفحات الكون سجادة ذهبية تسر الناظرين ، حقاً انه لمشهد أكبر
من الكلمات وبقدر ماتبهر النفس بالجمال ، بقدر ما يحوطها من الرهبة والجلال ، فمن فعل
هذا ؟ ومن أخرج الحياة من الموات ؟ ومن أخرج النور من الظلمة ؟ ومن رسم لوحات هذا
الجمال على صفحات هذا الكون ؟ ومن زين السماء بهذه الألوان ، وفرش الأرض بتلك
النباتات والزرورc والثمار ، وأجرى فيها الأنهار والبحار ؟^(١) .
حقاً إنها للحظات ممتزجة في أعماق النفس يرسمها الجمال والإبداع ويحوط بها
الرهبة والجلال .

ويعبر سيد قطب عن الإبداع في آيات الله الحسيه في القرآن الكريم فيقول :
التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن
المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج
الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو
الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ،
وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث
والمشاهد والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا
أضاف إليها الحوار فقد أستوت لها كل عناصر التخيل .

فما يكاد يبدأ العرض حتى يجيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح
الحوادث الأولى ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتحدد الحركات ،
وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع .
فهذه شخوص تروح على المسرح وتعدو ، وهذه سمات الأنفعال بشتى الوجدانات ،

(١) رسالة الدكتوراة (آيتا الليل والنهار) - ص ٣٢٥ بتصرف .

المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة .

والأمثلة على هذا الذى نقول هي القرآن كله ، حيثما يتعرض لغرض من الأغراض التى ذكرناها ، حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو حالة نفسية ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنساني ، أو حادثة واقعة ، أو قصة ماضية ، أو مشاهد من مشاهد القيامة أو حالة من حالات النعيم والعذاب ، أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل أو محاجة ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً وأعتمد فيه على الواقع المحسوس ، والمتخيل المنظور^(١) .

إن التناسق الذى نراه في كل مخلوق ، انسجام الأعضاء بعضها مع بعض ، انسجام اللون مع الأعضاء جعل كل شيء في محله ، كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع .

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾^(٢) ﴿ بديع السموات والأرض ﴾^(٣)

﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾^(٤) . إن هذا الإبداع من أجلك أيها الإنسان ﴿ ألم ترو أن الله خلق لكم ما في السموات وما في الأرض واسبع عليكم من نعمه ظاهرة وباطنة ﴾^(٥) ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾^(٦) .

إنه من أجلك حتى تعرف ربك باسمائه وصفاته كلها وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق ، ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع ، وحب الجمال ، فكان ذلك من أروع الإبداع لو عقل الإنسان .

وسنعرض هنا لأمثلة محدودة من صور الإبداع للمنهج الحسي في القرآن الكريم في بعض الأغراض المتنوعة ، وليس القصد بها شمول الأغراض ، ولا تمثيل منهج الداعى بها تمثيلاً كاملاً .

(١) التصوير الفنى فى القرآن - سيد قطب ص ٣٦ دار الشروق ط ١٢ سنة ١٩٩٢م.

(٢) سورة السجده : الآية (٧)

(٣) سورة البقرة : الآية (١١٧)

(٤) سورة فاطر : الآية (١٣)

(٥) سورة لقمان : الآية (٢٠)

(٦) سورة إبراهيم : الآية (٣٤)

فإن الإبداع فى القرآن أكثر عدداً وأكثر تنوعاً وتعددأ من أن يحيط بها هذا العدد القليل من الأمثلة ، ولعلنا نوفق فى إبراز شئ من هذا الإبداع الذى لا يخلو من حاجة إلى التأمل الذى يدعو إليه القرآن نفسه ملحأ فى الدعوة أشد إلحاح.

المبحث الأول : الإنتقال من دليل حسي إلى آخر للإفحام

لقد عمد القرآن إلى لمس البداهة ، وإيقاظ الإحساس لينفذ منهما ، ويتخطاهما إلى الوجدان . وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة ، والحوادث المنظورة ، أو المشاهد المشخصة ، والمصائر المصورة . كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة ، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة ، وتدر كها الفطرة المستقيمة .

وإليك هذه الأمثلة من صور الإبداع في النهج الحسي في القرآن الكريم :

١- ففي سورة الأنبياء نجد أن السياق يخلق بنا في مجال الكون الضخم لنرى القدرة الإلهية تدبره وتحكمه ، وينتقل بنا من دليل إلى آخر والناس معرضون عن آيات ربهم المعروضة علي الأنظار ، وقلوبهم غافلة عن تدبر هذا الكتاب المفتوح لاهية في متاهات الملذات ومطامع الشهوات ، ولو تأملوا ببصائر مفتوحة ، وقلوب واعية لأبصروا عجائب الخلق وعجائب القدرة الإلهية في كل شيء وفي كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد قال تعالى : ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما * وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * وجعلنا في الأرض رواسي أن تمد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾^(١)

جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ كانتا رتقا ﴾^(٢) ففتقناهما ﴿ أن السموات كانت رتقا لاتمطر والأرض كانت رتقا لاتنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات^(٣) ، وإنهما كانتا ملتصقتين شيئا واحداً ثم فصلهما عن بعضهما ورفع السماء وأبقى الأرض .

ثم ينتقل السياق إلى عرض دليل حسي آخر لمشاهد متعددة في هذه الآيات ، إلى مشهد الماء الذي ينزله الله من السماء ويجعل منه كل شيء حي ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ويستنكر عدم إيمان البشر رغم ما يشهدون من عجائب المخلوقات التي أوجدها خالق الأرض والسموات والتي تدعو كلها إلى الإيمان بالخالق الحكيم ، إلى عرض مشهد الجبال الرواسي التي تقرر أنها تحفظ توازن الأرض حتى لاتميد وتضطرب ، ولسنا في حاجة للبحث في كيفية الطريقة التي تم بها هذا التوازن إذ ليس ذلك متعلقاً ببحثنا لكننا

١ (سورة الأنبياء : الآيات (٣٠ - ٣٣)

* (الرق : الضم والالتحام خلقه كان أم صنعة) كانتا رتقا ففتقناهما (أي منضمتين .

٢ (تفسير ابن جرير الطبري ج ١٧ ص ١٩

نكتفى بالملحظ الوجداني من هذا النص الذى يوحى بالتأمل والتفكير ويؤدي بالتالي إلى الإيمان بالمبدع القدير لهذا الكون الكبير ، إلى عرض مشهد الفجاج والسبل في الجبال يسلكونها ويهتدون إليها ولعل في النص ما يشير إلى شأن آخر في مجال الدعوة إلى العقيدة الصحيحة فلعلهم يهتدون إلى الإيمان كما يهتدون في فجاج الجبال .

إلى مشهد السماء ذلك السقف المحفوظ والذي يخيل إلينا كالثقب الزرقاء فهو محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الذي خلقه الله عليه ، ومحفوظ من الدنس واستراق السمع ، كيف لا ومنه تنزل آيات الله ، قال تعالى : ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾^(١) .

إلى مشهد الليل والنهار يتكرران ويتكوران يكور احدهما على الآخر ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾^(٢) . إلى مشهد الشمس والقمر اللذين لهما علاقة عظيمة بالإنسان وبالحياء والأحياء على هذه الأرض ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾^(٣) .

فأنت ترى الأدلة القرآنية سهلة واضحة تخاطب العقل والقلب وتنير الفكر والوجدان تراها قوية ناصعة لا تترك سبيلاً إلى وجدل أو مرأى ولا تترك في النفس شكاً أو تردداً ولا تترك خصماً إلا أمحتته من خلال هذه المشاهد المتعددة من تلك الآيات التي تعد أعظم دليل وأدق برهان على وحدانية الخالق ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى بهذه الآيات أن العالم المادي غير الحي في السموات والأرضين قد خلق بنظام واحد رتق ثم فتق ، وأن العالم المادي أيضاً مخلوق بسنة واحدة وهي أن جعل الماء سبباً في خلق كل الأحياء ، وأن خلق السماء وسائر النجوم والليل والنهار والشمس والقمر وتسخيرها بقدره الله حتى يوم الساعة ، يومئذ تبدل جميعها وتبدوا أحوالها وصورها مختلفة عما كانت عليه ، يتم ذلك كله بقدره الله وإرادته قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ويرزوا لله الواحد القهار ﴾^(٤) ، فهذه الآيات توضح لنا دلالات يقينية يستيقنها العالم الآن ، نستطيع أن نحملها فيما يلي :

١- انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها اتصالاً في الأرض .

٢- الماء سبب في خلق جميع الأحياء .

١ (سورة الأنبياء : الآية (٣٢))

٢ (سورة الزمر : الآية (٥))

٣ (سورة الأنبياء : الآية (٣٣))

٤ (سورة إبراهيم : آية (٤٨))

٣- الجبال وأثرها في ثبات الأرض .

٤- خلق الله تعالى السماء والليل والنهار والشمس والقمر ، وأهمية هذه المخلوقات في عمارة الكون وبقاء الموجودات .

٢- قال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت * وإلى

الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (١) ؟ فهذه الآيات (تجمع بين ، السماء والأرض والجبال والجبال في مشهد واحد حدوده تلك الآفاق الفسيحة من الحياة والطبيعة ، والملاحظ هنا هو " الفخامة " وما تلقيه في الحس من استهوال ، والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض المسوطة والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبه والإبل الصاعدة وهذه دقة تأخذها عين المصور المبدع في الأشكال و الأحجام (٢) .

وقد جاء التوجيه إلى استخدام أحد قنوات الاتصال بالعالم الخارجي وذلك بإعمال النظر ، نعم هو منظر مألوف إلا أنه يستحق إعادة النظر فيه من جديد ، فهي آيات تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله ومشاهد معروضة وجب على الإنسان أن يتأمل فيها في الحاضر كما تأملها الإنسان في الماضي ، لأنها مشاهد حية داخلية في عالم الإنسان وإدراكه موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها ، وهي مشاهد توحى إلى القلب شيئاً بمجرد النظر الواعي لكي يتحرك القلب والروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق بمشاهد الكون المعروضة ، وإذا كانت هذه المشاهد كما ذكر الإمام ابن كثير (٣) سبباً في هداية رجل من أهل البادية ، فما أحوج المجتمعات وتدبرها من الخروج من ظلمات الوثنية المعاصرة ، فأرجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم أرجع البصر كرتين ، وقد أنطلق عنان فكرك وخيالك في آفاق لا تحدها حدود وستصل إلى الحقيقة إن كنت ذا قلب سليم .

٣- قال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف شاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم

(١) سورة العاشية : الآية (١٨ - ٢١)

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١٢٣

(٣) تفسير ابن كثير ٧٨٠٧٧/٧

يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين * فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لخي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿^(١)﴾ .

هذا منظر من مناظر الطبيعة المتحركة يعرض فيه مشاهد حسية متنوعة : إرسال الرياح إثارة السحاب وبسطه في السماء جعله متراكماً ، خروج المطر من خلاله ، نزول المطر ، استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين ، أحياء الأرض بعد موتها .

لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد أستعراضها للعين والخيال وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل إلى تقرير ﴿^(٢)﴾ إن ذلك لخي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿^(٣)﴾ .

والإنسان إذا قرأ أمثال هذه الآيات في القرآن الكريم ، يدرك قدرة الله تعالى في حمل الرياح للسحاب ، واستأثر الله سبحانه وتعالى بسوق الرياح فنسبه إلى نفسه .

والإنسان عندما يتأمل يتبين له الفرق الكبير في التقدير بين تكوين السحاب وبين توزيعه وسوقه إلى مكان الحاجة إليه حيث الناس والأنعام والزرع ، حيث يحتاج إلى تقدير وتديير في توجيه الرياح لا يكاد الإنسان على ما بلغ من العلم يدري الآن من سرهما شيئاً يقول الأستاذ الفمراوي : (فمن طبيعة الرياح أن تحمل البخار حتى إذا بلغت به المناطق الباردة تكاثف ، لكن ليس من طبيعة الرياح أن تتجه بالسحاب إلى حيث تشتد حاجة الأحياء إلى الماء ، وإنما الله يوجهها بالسحاب إلى حيث يشاء سبحانه أن ينزل الماء ، فهي تنير السحاب لا يهم أين تنيره ، والله يسوقه بها ، أو بها وبغيرها سوقاً مقدرراً لا يدري الإنسان الآن من سره إن درى إلا قليلاً ، وهو مهما درى لا يمكن أن يحيط بسرّه ، لأن وقوف السحاب بالبلاد بمطرها ليس من الأمور المطردة التي إذا عرفها الإنسان فقد عرفها إلى الأبد ، فكم من بلد يُمطر ثم يحرم لا يدري لمُ مطر ولم حُرْم ، وإنما الذي من قبيل المطرد من الأمر هو علل تكون السحاب بالتكاثف في جو السماء ، من أجل ذلك نسب إثارة السحاب إلى الرياح ، ونسب إلى نفسه إرسال الرياح وسوق السحاب إلى حيث يشاء سبحانه من البلاد ، ولا يزال هذان مظهران لإرادته سبحانه يدلان الإنسان مهما أوتي من العلم على أن من وراء هذا الكون إلهاً يدبر) ^(٣) .

(١) سورة الروم : آية (٤٨ - ٥٠)

(٢) سورة الزمر : الآية (٢١)

(٣) الإسلام في عصر العلم - الفمراوي ص ٤٠٥ - دار الكتب الحديثة .

٤- قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء * فسلكه ينابيع في الأرض * ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألواناً * ثم يهيج فتراه مصفراً * ثم يجعله حطاماً ؟ إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب ﴾ (١) .

هكذا فى تراخٍ به " ثم " تنتقل من دليل إلى آخر ، وفى تمهل وبطء فالماء ينزل فلا يختلط بالأرض ولا بنبات الأرض ، إنما يسلك ينابيع " ثم " يخرج به زرعاً - وفى الوقت الوقتفسحة لتملي ألوان الزرع المختلفة الألوان - " ثم " يهيج فتراه مصفراً - وفى الوقت مهلة لتراه - " ثم " يجعله حطاماً . يجعله ! وهناك أصبح هشيماً أو يكون حطاماً كأنما يصبح بنفسه ، أو يكون بلا مصير ولا فاعل ! وهنا جعله حطاماً ثم بقي على هذه الهيئة . وهناك تذروه الرياح فلا يبقى له أثر ! . إنه هنا فى معرض بيان النعم الإلهية ، فبطء عرضها ، ولُبث صورها ، وتملى مشاهدتها ، أجدر بالموقف ، ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل ! (٢) .

إن هذه الظاهرة التى يوجه القرآن إليها الأنظار للتأمل والتدبر ظاهرة تتكرر فى أنحاء الأرض ، حتى لتذهب الألفة بجذتها وما فيها من عجائب فى كل خطوة من خطواتها ، والقرآن يوجه النظر إلى القدرة الإلهية وتتبع آثارها فى كل خطوة من خطوات الحياة . ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾ وقد بلغ غايته المقدرة له من مراحل الحياة ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ وقد أدى دوره واستوفى أجله ثم يجيء التعليق إن فى ذلك لذكرى لأولى الأبواب وقد خص التدبر لجماعة دون باقى الجماعات تلك هي الجماعة التى أنتفعت بما وهبها الله من عقل وإدراك وسخرتهما حسب المنهج القويم فهذه الآية فيها توجيه إلى النظر فى قدرة الله وتتبع آثارها فى كل خطوة من خطوات الحياة ، إنها سلسلة من التدبير حتى تصل إلى وجود الحياة والله من وراء هذا التدبير وكله مما صنعت يده من نزول الماء وجريانه فى الأنهار ثم خروج الزرع ، إنها حوار يقف أمامها جهد الإنسان حسيماً ، ورؤية الإنسان النبة الصغيرة كقيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكراً ، وصدق الله العظيم : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لأولى الأبواب ﴾ .

(١) سورة الزمر : آية (٢١)

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٤

٥- قال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً * ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أغناب * والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ (١) .

قال الإمام الطبري : (أي أخرجنا بالماء ما ينبت كل شيء وينمو عليه ويصلح

به) (٢) .

فهنا مهرجان من الحياة المتمثلة في النبات بشتى أنواعه . مهرجان زاهر حافل مختلف الألوان والأشكال والسيات . كلها مبهج وكلها جميل . تستغرق الحس بتجليها واحدة إثر واحدة ، ثم بالمقارنة بينها واحدة إثر واحدة . فهذه طويلة سامقة وهذه قريبة المنال . وهذه متشابهة وتلك غير متشابهة . وهي جميعها ثمر وينع ، يلذ العين ويلذ الحس . والآية توجّه الناس إلى (النظر) (إلى ثمره إذا أثمر وينعه) وهو توجيه يلفت النظر هنا بصفة خاصة في مجال عرض هذه (المأكولات) الشهية التي يتوق لها الحس . فهو لا يقول هنا - كما يقول في مواضع أخرى - (كلوا من طيبات ما رزقناكم) بعد هذا العرض المشهي المتنوع بالفاكهة المختلفة الأشكال والأنواع . ولكن يقول (انظروا) - انظروا إلى الجمال المبتوث في هذه الكائنات الحية ، وتمتعوا بهذا الجمال في تلك اللوحة الطبيعية الحية المتناسقة البهيجة فالجمال هدف مغذ للروح، وهو هنا المقصود أولاً قبل غداء الأبدان (٣) ، والمملكة النباتية تساهم بنصيب وفير في تجميل الطبيعة ، ولا أحد يدرك قيمة هذه المشاهد الجمالية وروعة جمالها وجمال روعتها إلا بعد أن ينظر إلى القفاز المهجورة ، والأرض القاحلة التي تفتقد الخضرة والماء والحياة .

وبقدر استمتاع الإنسان بمشاهد النبات الجميلة الخلابة تكون مسؤوليته في إقامة الحجة عليه ، فهي متعة له وشهادة عليه ، إن نزول الماء من السماء ، وإخراج النبات من الأرض الميتة لا تدع حجة بعدها ولا برهاناً لمنكري البعث من الجاحدين المرجفين . واختلاف النباتات والثمار على الرغم من تشابه ظروفها جميعاً خير دليل على قدرة الخالق المبدع المصور ، إن هذه المشاهد لا تدع مجالاً للتردد أو التقاعس عن الإيمان والتسليم بقدرته سبحانه وتعالى وقيوميته .

(١) سورة الأنعام : الآية (٩٩)

(٢) جامع البيان ٥٧٣/١١

(٣) منهج الفن الإسلامي - محمد قطب ص ٢٨ ، دار الشروق الطبعة الثامنة سنة ١٩٩٣م .

إن هذه الآيات البينات والبراهين الناطقة والأدلة القوية تتضافر جميعاً لتدحض افتراء الجاحدين ، وتدفع افتراء الباطل اللجوج الممترى فيه .

وهذا المشهد له قيمته في بيان نظرة القرآن ونظرة الإنسان للحياة ، فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة وأعني به تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان ، والقرآن إذ يعرض لهذا المشهد ينبه إلى ما فيه من تلبية لضرورات البشر التي وهبها الله لهم لكي يزدادوا شكراً لواهب النعم .

٦- قال تعالى : ﴿ والأَنْعَامَ خَلَقَهَا * لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرَيَّجُونَ وَحِينَ يُسْرَحُونَ ﴾ (١) .

الأنعام هنا ذات فوائد ومنافع بينها الله للناس ليشكروا نعمته وفضله ، ولكنه لا يوجههم إلى الفوائد الحسية وحدها في الأنعام ، بل يوجههم توجيهاً صريحاً إلى (الجمال) في هذه الأنعام . جمال (حين تريجون وحين تسرحون) . فالجمال عنصر أصيل في بنية الكون والأحياء . وعنصر مطلوب . مطلوب ليستمتع به الناس . ومهبة يذكر الله بها الناس ليشكروه ويعبدوه .

والإشارة إلى الجمال هنا ذات دلالة واضحة لا تخفى بالنسبة للتصور الإسلامي للوجود .

فعنصر الجمال عميق في هذا الوجود جداً ، يتبدى في كل كائناته ((الجامدة)) وغير الجامدة . والإنسان - خليفة الله في الأرض - مطالب أن يفتح حسه لهذا الجمال ، ليلتقي أجمل ما في نفسه - وهو حاسة الجمال - بأجمل ما في الكون ، وينتج من هذا اللقاء ارتقاء الإنسانية صعوداً ، حين تشف وتصفو ، وتلتقي بالحقيقة الإلهية على هذا الاتساع الشامل ، الذي يشمل كل مجال الجمال في الكون والحياة .

وتوجيه نظر الإنسان إلى (الجمال) في الأنعام ذات (المنافع) المتعددة له دلالة كذلك فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في التصور الإسلامي . فهو مخلوق واسع الأفق متعدد الجوانب ، ومن جوانبه الحسي الذي يرى منافع الأشياء ، والمعنوي الذي يدرك من هذه الأشياء ما فيها من جمال وهو مطالب ألا تستغرق حسه المنافع ، وألا يقضي حياته بجانب واحد من نفسه ويهمل بقية الجوانب . فكما أن الحياة فيها منافع وجمال ، فكذلك نفسه فيها القدرة على استيعاب المنفعة والقدرة على التفتح للجمال . فينبغي أن يأخذ الحياة هكذا

(١) سورة النحل : آية (٥-٦)

بكلياتها ، ويتلقاها بنفسه كلها ، عاملاً فيها بجميع طاقاته ، ليصبح جديراً بمكانته الكريم عند الله (١) .

٧- قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَى يُنْجِ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخْرِجَ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذلِكُمْ اللهُ فَأنَّى تُؤْفَكُونَ * فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً * ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكماً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٢) .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة في القرآن ..

توجيه للقلب البشري إلى آيات الله في الكون حيث ينتقل من دليل إلى دليل آخر : الله فالق الحب والنوى . وفالق الإصباح . ومخرج الحي من الميت والميت من الحي .. والليل والنهار .. والشمس والقمر .. والبر والبحر .. النخل والأعناب .. والزيتون والرمان .. إنه حشد هائل من مجال الطبيعة الحية .. الحية بكل ما فيها ومن فيها . فما يترك التعبير شيئاً منها جامداً لا يتحرك ولا تدب فيه الحياة ! وقدرة الله القادرة التي خلقت هذه الآيات كلها هي التي تبث فيها الحياة على هذا النحو المدهش ، وبالألفاظ المجردة لا بالريشة ولا بالألوان . ويقول سيد قطب في الظلال حول هذه الآيات : والجمال هو السمة البارزة هنا ، الجمال الذي يبلغ حد الروعة الباهرة ، المشاهد منتقاة وملتقطة من الزاوية الجمالية ، والعبارات كذلك في بنائها اللفظي والإيقاعي ، وفي دلالتها أمام كتاب الكون المفتوح ، الذي يمر به الغافلون في كل لحظة فلا يقفون أمام خوارقه وآياته ، ويمر به المظموسون فلا تتفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه ، وها هو ذا النسق القرآني العجيب يرتاد بنا هذا الوجود ، كأنما نهبط إليه اللحظة ، فيقفنا أمام معلمه العجيب ، ويفتح أعيننا على مشاهدته الباهرة ويشير تطلعنا إلى بدائعه التي يمر عليها الغافلون غافلين (٣) .

(١) أنظر منهج الفن الإسلامي - محمد قطب ص ٢٩

(٢) سورة الأنعام : الآيات (٩٥ - ٩٩)

(٣) انظر في ظلال القرآن سيد قطب ص ١١٥٢/٢

ثم تنتقل بنا الآيات إلى دليل آخر وهو حركة النهار والليل والشمس والقمر والنجوم . وحركة النسل التي أخرجت البشرية من نفس واحدة ، وما تزال دائبة في المستودع والمستقر .

وحركة الماء النازل من السماء فيخرج منه نبات كل شيء ، ثم حركة (التنويع) في النخل والأعشاب والزيتون والرمان .. تنويع بالأصناف المختلفة ثم باختلاف كل صنف على حدة (مشتبهاً وغير متشابهه) .

وتنويع بطريقة التعبير ! لكأني ألمح في تنويع نسق التعبير في كل مرة أمراً مقصوداً لإيقاظ الحس ، حتى لا يستنيم لرتابة العرض وهو يستعرض آيات الله في الكون !

إنه لا يقول هنا : يخرج الحسي من الميت ويخرج الميت من الحسي ، كما يقول في مواضع أخرى ! وإنما يقول ﴿ يخرج الحسي من الميت * ومخرج الميت من الحسي ﴾ . فييده الحس بتغيير النسق قبل أن يسترسل مع رتابة التعبير فلا يتفتح تفتحاً كاملاً للآيات المحشودات ! ثم لا يقول : فالق الأصباح وجاعل الليل سكناً ! وإنما يقول ﴿ فالق الأصباح وجعل الليل سكناً ﴾ ! حقاً فالذي فلق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضاً وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في كلها انفلاق الحب والنوى .

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى ، وهي أن الإصباح والإمساء والحركة والسكون في هذه الأرض ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة ، وهي تقديرات من الله العزيز العليم ، ولولا هذه التقديرات ما نشأت الحياة في الأرض ، وما نبت نبات من الحب والنوى .

هذا المشهد يصور لنا أموراً مقدرة بحساب دقيق لا مجال للمصادقة العابرة فيه كما يعتقد الماديون والملاحدة الذين يقولون بالصدفة .

ثم تنويع آخر لكي لا يستنيم الحس للنسق الرتيب !

ولا يقول هو الذي أنشأكم من نفس واحدة وجعل لنشأتكم مستقراً ومستودعاً (كناية عن دور الذكر والأنثى في كل نسل جديد) فيتبع الفعل (أنشأكم) فعلاً آخر مشابهاً له وغنما يتبعه باسم (فمستقر) ! .

ثم يقول : ﴿ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً ﴾ فلا يتبع الماضي ماضياً مثله ! (ولاننسي هنا المواقف التصويرية بين قوله : ﴿ فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً ﴾ ثم قوله : (متراكباً) بعد ذلك بعد أن تهيأ الحس

بالتكرار المتوالي للفظ الإخراج ، لاستقبال شيء (متراكب) بعضه وراء بعض أو فوق بعض!.

ثم يقول : (مشتبهاً وغير متشابه) فينوع في اللفظين المتشابهين .. هل ترى كل ذلك مصادفة !

أم هو أمر مقصود هنا للتنويع بكل وسائل التنويع ، ويستعرض أنواعاً مختلفة من الحياة في صفحات الكون ، ويريد أن يلفت الحس للقدره الإلهية التي تخلق كل هذه الأنواع وتنسق في اللوحة المعجبة بين تعداد النماذج والأنماط في المشهد وفي التعبير عنه سواء .
ألا إنه لون من إعجاز في التصوير والتعبير ! (١) .

٨- عرض القرآن في مواضيع مختلفة كثيراً من صور النعمة التي أفاءها الله على الإنسان ، وفي كل موضع كان يعرض مجموعة من النعم ، متنسقة (الوحدة) على هذا النحو الذي نعرضه في موضعين للتمثيل :

الأول : أ- ﴿ وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَّسِيْتُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ - لِيْنَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٢) .

ب) ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا . إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

ج) ﴿ وَأَوْحِي رَبِّكَ إِلَى النَّحْلِ : أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا * وَمِنَ الشَّجَرِ * وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ * فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلًّا * يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ * إِن فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

الثاني : أ- ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا * وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ * وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ (٥) .

(١) انظر منهج الفن الإسلامي - محمد قطب ص ١٤٦-١٤٧

(٢) سورة النحل : آية (٦٦)

(٣) سورة النحل : آية (٦٧)

(٤) سورة النحل : آية (٦٨-٦٩)

(٥) سورة النحل : آية (٨٠)

ب- ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا * وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا * وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ ﴾^(١).

يلاحظ في هذين السياقين أن الأنعام مذكورة فيهما على السواء فلننظر من أي

الجوانب عرضت في كل سياق ، ولماذا عرض هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك :

الأول : فلو نظرنا إلى قوله سبحانه : ﴿ وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ﴾ ألخ وجدنا أنها ترسم مشهداً لاستخراج الأشربة ، السكر الذي يستخرج من التمار ، والعسل الذي يخرج من النحل ، ولأن هذه هي (وحدة الرسم) عرض من الأنعام الجانب الذي يناسب الأشربة ، عرض اللبن السائغ للشاربين .

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة المنظر العامة ، بل تمشت إلى دقائق الجزئيات : فهذا السكر يستخلص من الثمرات ، المخالفة في هيئتها وطبيعتها للسكر ، وهذا العسل ستصفي من الأزهار ، المخالفة في هيئتها وطبيعتها للعسل ، وهذا اللبن يستخرج من بين فرث^(٢) ، ودم ، المخالفين في هيئتهما وطبيعتهما اللبن فهي كلها تستحيل من أشياء أخرى ، ثم المنظر كله منظر زراعي حيواني فيه حياة^(٣) .

وقد بقى هذا كله سرّاً إلى عهد قريب ، وكما يقول العلماء ، فإن هذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة للبشر ، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يجادل في هذا ، فالبشرية كلها كانت تجهل هذه الحقيقة .

وفي الآية الثانية : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَنْعَامِ ﴾ دلالة على أن من يصنع هذا الرزق هو الذي يستحق العبودية له وهو الله وفي الآية الثالثة : ﴿ وَأَوْحِي رَبِّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ ما يدل على أن الله أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق ، والإنسان العاقل يجب عليه أن يتأمل في هذا الانتقال بالنسبة للمشاهد فيدرك ظاهرة التناسق في عرض هذه النعم .

حقاً إنه الإبداع هنا في وحدة الأجزاء ودقة التصوير ، وتناسق الإخراج . ومثل هذه اللمسات الدقيقة التي تستوعب دقائق الجزئيات كثير في القرآن .

(١) سورة النحل : آية (٨١)

(٢) الغذاء المهضوم في الأمعاء .

(٣) أنظر التصوير الفني في القرآن ص ١٢١

ب- ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا * وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا * وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ عَلَيْكُمْ لِعَلِّكُمْ تَسْلَمُونَ ﴾ (١) .

يلاحظ في هذين السياقين أن الأنعام مذكورة فيهما على السواء فلننظر من أي الجوانب عرضت في كل سياق ، ولماذا عرض هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك :

الأول : فلو نظرنا إلى قوله سبحانه : ﴿ وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ﴾ وجدنا أنها ترسم مشهداً لاستخراج الأشربة ، السكر الذي يستخرج من التمار ، والعسل الذي يخرج من النحل ، ولأن هذه هي (وحدة الرسم) عرض من الأنعام الجانب الذي يناسب الأشربة ، عرض اللبن السائغ للشاربين .

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة المنظر العامة ، بل تمشت إلى دقائق الجزئيات : فهذا السكر يستخلص من الثمرات ، المخالفة في هيئتها وطبيعتها للسكر ، وهذا العسل تستصفي من الأزهار ، المخالفة في هيئتها وطبيعتها للعسل ، وهذا اللبن يستخرج من بين فرث (٢) ، ودم ، المخالفين في هيئتهما وطبيعتهما للبن فهي كلها تستحيل من أشياء أخرى ، ثم المنظر كله منظر زراعي حيواني فيه حياة (٣) .

وقد بقي هذا كله سرّاً إلى عهد قريب ، وكما يقول العلماء ، فإن هذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة للبشر ، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يجادل في هذا ، فالبشرية كلها كانت تجهل هذه الحقيقة .

وفي الآية الثانية : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَنْعَامِ ﴾ دلالة على أن من يصنع هذا الرزق هو الذي يستحق العبودية له وهو الله وفي الآية الثالثة : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ ما يدل على أن الله أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق ، والإنسان العاقل يجب عليه أن يتأمل في هذا الانتقال بالنسبة للمشاهد فيدرك ظاهرة التناسق في عرض هذه النعم .

حقاً إنه الإبداع هنا في وحدة الأجزاء ودقة التصوير ، وتناسق الإخراج . ومثل هذه اللمسات الدقيقة التي تستوعب دقائق الجزئيات كثير في القرآن .

(١) سورة النحل : آية (٨١)

(٢) الغذاء المهضوم في الأمعاء .

(٣) أنظر التصوير الفني في القرآن ص ١٢١

الثاني : ولو نظرنا إلى قوله سبحانه : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ الخ وجدناه يرسم صورة البيوت ، والأكنان ، والظلال ، والسراويل ، وكلها مما يلاذ به ، أو يحتوى ، أو يستظل ، أو يستتر ، ولأن هذا هو (وحدة الرسم) عرض من (الأنعام) الجانب الذي يتفق مع هذه الوحدة ، عرض الجلود التي تتخذ بيوتاً تستخف يوم الظعن ، والأصواف والأوبار والأشعار التي تتخذ أردية وأثاثاً ، والمنظر كله منظر أبنية وأردية وظلال (١) .

ومن هذا الانتقال بالأدلة الحسية المختلفة التي يقذفها الله سبحانه وتعالى في وجه الخصم أياً كان ، حتى تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه ، وتحيط به من جميع جوانبه ، فلا يستطيع التفلت منها ، ولا يجد بداً من إفحامه والإستسلام لها .

٩- قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلًا وحدائقاً غلبا وفاكهة وأبنا متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٢) .

إنها تسع آيات قصيرات من حيث طولها ، غنية من حيث معانيها وأجزائها ، قوية من حيث تأثيرها وفعاليتها .

فالمطر ينسكب من السماء إنسكاباً فتشقق الأرض من إنهماره تشققاً وتبت من كل شيء يمكن أن تبت الأرض ويتصوره الإنسان .

الحبوب المختلفة ، والكروم الممتدة ، والخضرة الغضة والبساتين المشجرة : الزيتون أكلاً ودهناً ، والنخل حلاوة وطعاماً ، والفواكه ألواناً ، وطعام الحيوان أنواعاً .

هذه وغيرها ليست طعاماً ولا فاكهة ولا غذاء وحسب وإنما هي متعة وقد مر بمراحل وأطوار متعددة وأثمر ثماراً متنوعة ، وأنبت نباتاً مختلفاً وصنع حدائق وجنات غلبا .

إنه مشهد لا يتجدد في بلد معين ولا أرض خاصة فهو منتشر إلى دقيق القدرة وجمالها ، وعظيم النعمة وبهائها والعطاء الوافر ومعطيه ، فقد أبدعته قدرة الخالق وجملته حكمته الإلهية ، ... وجعلته (متاعاً) إلى حين يتضمن اللذة والمتعة والبهجة . كل ذلك في إختيار الألفاظ وتناسقها وروعيتها (٣) .

ويقول سيد قطب : (هذه هي قصة الطعام ، كلها من إبداع اليد التي أبدعت الإنسان ، وليس فيها للإنسان يد يدعيها ، في أية مرحلة من مراحلها ... حتى الحبوب

(١) المرجع السابق ص ١٢١

(٢) سورة عبس : الآيات (٢٤ - ٣٢)

(٣) انظر الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ص ٣٣٩

والبذور التي قد يلقيها هو في الأرض ، إنه لم يبدعها ، ولم يبتدعها ، والمعجزة في في إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه ، والتربة واحدة بين يديه ، ولكن البذور والحبوب متنوعة ، وكل منها يؤتي أكله في القطع المتجاورات من الأرض ، وكلها تسقى بماء واحد ، ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ، وتحفظ في البذرة الصغيرة خصائص أمها التي ولدتها فتنقلها إلى بنتها التي تلدها ، كل أولئك في خفية عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضي أمرها ، ولا يستشار في شأن من شؤونها (١) .

١٠- قال تعالى ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ (٢) .

هل احسست جو العنف والرهبة معاً في البرق والرعد والصواعق .. والملائكة التي تسبح من خيفته !؟ .

إن هذه الجولة تجيء في جو التهديد ، فيرتفع نبضها وترتفع حدة الأصوات فيها حتى ليصبح التسبيح صوتاً يصم الآذان ، فما بال الوعيد !! .

وتعرض الملائكة مذعورة خائفة تسبح من الخوف في هذا الجو المائج بالبرق والرعد والصواعق التي يرسلها الله فيصيب بها من يشاء ! وبينما ذلك كله حادث .. إذا هم يجادلون في الله !

والجدل في الله وقدرته سبحانه وتعالى على البعث والإحياء ، وقدرته على إنزال آية حين يشاء ، وقدرته على تنزيل ما ينزل من الوحي ، هذا الجدل كله أمر سخيف بالغ السخف بعد الآيات المعجزة في جو البرق والرعد والسحاب الثقيل الذي يحمل في طياته الصواعق المنقضة التي يمكن أن تصيبهم في أية لحظة !

(وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) شديد القوة لا يغلب ولا ينجح من يغالبه .. ثم تتجسم صورة الضياع الكامل في الآية التالية :

﴿ له دعوة الحق * والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٣) .

(١) في ظلال القرآن ٦م ص ٢٨٢٣

(٢) سورة الرعد : الآيات (١٢ - ١٤)

(٣) سورة الرعد : الآيات (١٢ - ١٤)

أرأيت إلى الضياع الكامل؟ هؤلاء القوم يتركون الله الذي له دعوة الحق .. الله الخالق القادر المدبر ، الذي خلق هذا الكون الهائل ، والذي علمه هو ذلك العلم الشامل والذي يرسل البرق والرعد والصواعق .. يتركون دعوة الله ويدعون من لا يستجيبون لهم بشيء فأى ضلال بعد هذا؟! .

ولكن السياق يستدرجهم !

(لا يستجيبون لهم بشيء) .. هل أنتهى الأمر ، وأنتهى الصورة التى يصورهم بها؟

كلا ! إنه يقول عنهم : (لا يستجيبون لهم بشيء إلا ...)

وهنا تفتح العيون وترهف الأذان السمع .. هل ستحدث استجابة من نوع ما؟

نعم ! لا ! .. إنها إستجابة أسوأ من عدم الاستجابة ! ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ

فاه وما هو ببالغه ! ﴾ إنها صورة عجيبة حقاً .. هذا شخص عطشان يريد أن يشرب ..

ولكنه لا يشرب أبداً .. لأنه لا يتجه الإتجاه الصحيح الذي يوصله للشرب رغم وجود الماء !

إنه يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه .. ولكن بسط الكفين بهذه الصورة لا يرفع الماء إلى فمه أبداً

.. فيظل واقفاً هكذا .. الماء فى متناوله وهو عطشان ولكنه لا يتجه الإتجاه الصحيح فيظل

على الدوام عطشان !

هل زادت هذه الصورة الفنيه شيئاً على المعنى ؟

لوقال : (لا يستجيبون لهم بشيء) وانتهى السياق هنا ، ألم يكن ذلك يؤدي المعنى ؟ بلى !

ولكن الزيادة أضافت معنى جديداً ولا شك ..

إن هذا الأستدراج الذى يستدرجه لهم السياق ليصور معنى نفسياً دقيقاً فى صورة

حسية ...

فكأنما يطمعهم فى الإستجابة حين يقول (لا يستجيبون لهم من شيء إلا ...) فإذا

طمعوا استدرجهم إلى هذه الصورة البائسة : كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ! .

إنها تصور طمعهم فى أن تستجيب لهم تلك الأصنام التى يعبدونها من دون الله ،

وتوهمهم أن من وراء اتباعها خيراً يروي غلة الظمان - والإنسان فى الحياة الدنيا يظماً دائماً

إلى متاع الأرض ! - فإذا بها تنتهي بهم فى النهاية إلى الحرمان ! (١) .

﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ .

وبعد أن عشنا مع هذا الإبداع الرائع الذى ظهر لنا جلياً من الأدلة الحسية السابقة

وانتقلنا خلالها من دليل إلى آخر رأينا أنها كيف تفحم الخصوم والمعارضين وتحرص ألسنتهم

(١) أنظر دراسات قرآنية - محمد قطب ص ١٦٥ دار الشروق ط ٦ / ١٩٩١م

وتبين لهم زيف ما يعتقدونه أو يدعونونه وتدفعهم دفعاً إن كان لهم بقية من عقل أو فكر إلى الانسياق التام والتسليم لأمر الله ودينه .

ويجدر بنا في نهاية هذا البحث نورد كلاماً رائعاً للإستاذ سيد قطب رحمه الله حيث قال : (هكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق ، من التناسق والأنتساق : فمن نظم فصيح . إلى سرد عذب . إلى معنى مترابط . إلى نسق متسلسل . إلى لفظ معبر . إلى تعبير مصور . إلى تصوير مشخص . إلى تخييل مجسم . إلى اتساق في الأجزاء . إلى تناسق في الإطار . إلى افتنان في الأخراج وبهذا كله يتم الإبداع ، ويتحقق الإعجاز^(١) .

(١) التصوير الفنى فى القرآن - سيد قطب ص ١٤٢

المبحث الثاني : التدرج في إستخدام الدليل الحسى .

التمهيد :

* تعريف التدرج :

١- فى اللغة : التدرج فى اللغة مأخوذ من درج من باب دخل ، فقد جاء فى مختار الصحاح ولسان العرب : (درج من باب دخل ودرجه إلى كذا تدريجاً واستدرجه بمعنى أدناه منه على التدرج فتدرج) (١) .

وفى التنزيل ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ (٢) ، سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم (٣) .

وجاء فى المعجم الوسيط (درج درجاً ودرجاً ودرجاناً : مشى مشية الصاعد فى الدرج ، وتدرج تقدم شيئاً فشيئاً وفيه تصعد درجة درجة ، واستدرجه رقيه من درجة إلى درجة) (٤) .

ويقال : درجت العليل تدريجاً إذا أطعمته شيئاً قليلاً وذلك إذا نَقِهَ ، حتى يتدرج إلى غاية أكله ، كما كان من قبل العلة درجة درجة . ويقال : هذا الأمر مدرجة لهذا الأمر ، أي متواصل به إليه (٥) .

٢- فى الاصطلاح :

عرف بعضهم التدرج اصطلاحاً بأنه :

١- الانتقال من مرحلة إلى أخرى متقدمة للبلوغ إلى الغاية المنشودة بطرق مشروعة مخصوصة (٦) .
و عرفه آخرون بأنه :

٢- البدء بالأمر السهلة ثم الانتقال إلى غيرها شيئاً فشيئاً حتى يعتاد المدعو التكليف ويرغبها ولا ينفرد منها (٧) .

١ (مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر الرازى ص ٨٥ . ولسان العرب لابن منظور ، المجلد الثانى ص ٢٦٨ .

٢ (سورة القلم : آية (٤٤) .

٣ (انظر تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ، ١٠١/٢٩ .

٤ (المعجم الوسيط لابراهيم أنيس ورفاقه ج ١ ص ٢٧٧ .

٥ (لسان العرب لابن منظور ، المجلد الثانى ص ٢٦٧ .

٦ (التدرج بين التشريع والدعوة ، د/ يوسف محي الدين أبو هلاله ص ٧ دار العاصمة ط ١٤١٢هـ .

٧ (الدعوة إلى سبيل الله أصولها ومبادئها ، أ د / عبد الخالق ابراهيم ، ص ٢١٨ مطبعة الأمانة ط ١٤٠٧هـ .

وبناء على ما سبق يمكن تعريف التدرج بأنه : البدء بتقديم الأمور المهمة في الدعوة إلى الله ثم الانتقال إلى غيرها شيئاً فشيئاً ، بغية الوصول إلى الغاية المنشودة بطرق مشروعة مخصوصة ، حتى يعتاد المدعو التكليف ويرغبها ولا ينفرد منها .

التدرج في الدعوة:

لم تأخذ الدعوة في منهجها توجيه الناس دفعة واحدة بكل ما هو منهي عنه وبكل ما يتصل بالعقيدة والعبادات والأخلاق والعادات الاجتماعية .. ولكنها تميزت بأسلوب التدرج الذي يأخذ الإنسان تدريجياً إلى ما فيه الهدى والرشاد و استخدمت في ذلك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في كثير من المجالات .. وانتقلت بالناس بعد التركيز على جانب العقيدة وتثبيتها إلى الجوانب الأخرى . غير أن أمر الدعوة فيما يتصل بشان العقيدة ، لم يكن يحتل التدرج حتى فيما يتصل به من عادات أو تقاليد ، وذلك لأن التوحيد هو الأساس الذي سيقوم عليه بناء الجماعة ومنه ستنبثق العبادات . وعلى أساسه يُقبل العمل .

فكان لابد من حسم قضية العقيدة أول الأمر وتوضيح العقيدة الواحدة التي لا يختلف في شأنها ووضوحها إلا مكابرو وضال ، لاسيما وأن البيئة كانت وثنية في ضلالة عمياء ، و غارقة في جهالة لاتعرف النور والهدى فكان لابد من كشف هذا الليل وإزاحة الظلمات ليشرق على الحياة فجر جديد تستضيء بنوره البشرية في كل خطاها (١) .

ثمار التدرج:

لقد أسهم أسلوب التدرج في الدعوة إلى الله تعالى إسهاماً كبيراً وآتى ثماره الطيبة المباركة المتمثلة فيما يلي :

- ١- ترسيخ الدعوة في نفوس المدعوين الذين استجابوا لها ، وأيقنوا بصدقها واتبعوها .
- ٢- ساعدتهم على تلقي العلم والعمل به ، فكلما تعلموا شيئاً من رسول الله ﷺ سارعوا إلى تنفيذه والعمل بموجبه .

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

(١) الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها . د/ احمد عمر هاشم ص ١٩ .

ويقول أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا إنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(١) .

٣- كما أن أسلوب التدرج أيضاً يتيح للداعية فرصة كبيرة لتعهد المستجيبين للدعوة الإسلامية ، مما يكفل لهم المناعة ضد دأئهم القديم ، وهو الشرك بالله ، وتصيرهم بمعالم الدين الإسلامي الحنيف ، وتثبيتهم عليه تدريجياً ، وذلك بدعوتهم إلى الإسلام وتعليمهم معالمة ، ومعانيه ، وأفكاره شيئاً فشيئاً ، مع تقديم الأهم على المهم ، وحملهم على العمل بما تعلموه ، وصياغة سلوكه بموجبه ومقتضاه^(٢) ، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حيب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانسباط ، وكانت عاقبته غالباً بالازدياد بخلاف ضده^(٣) . ولهذا فقد رسخت الدعوة في النفوس وحلت عقيدة الإيمان بالله بدلاً من عقيدة الكفر والضلال ، وذلك بتوفيق الله أولاً ، ثم باتباع أسلوب التدرج في الدعوة .

وإذا أخذنا تحريم الخمر مثلاً لأسلوب التدرج بالكتاب الكريم اتضح لنا أن القرآن قد تدرج فيها إلى مراتب عدة و في نهاية هذه المراتب حرماً كلياً ، وذلك لأن العرب كانوا قد ألفوها وتعودوها وفاخروا بشربها فبين لهم قبحها حيث قابلها بالأمر الحسن ، وما قابل الحسن فهو غير حسن أى قبيح ، قال سبحانه : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾^(٤) .

كان هذا في مكة ، أما بعد الهجرة وبعد أن خالطت بشاشة الإيمان القلوب نزل من القرآن ما يبين أن ضررها أكثر من نفعها .

فيقول سبحانه و تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾^(٥) .

ثم جاءت المرحلة الثالثة التي تحد من عادة شرب الخمر بطريقة تربوية حكيمة و تؤدي إلى تربية النفس وتنشئتها وتعودها على البعد عن الخمر ، وذلك بأن نهى الله المؤمنين عن الاقتراب إلى الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون أى : أنهم لا يقربون الصلاة

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧/١ وتفسير القرطبي ٣٩/١ .

(٢) انظر أصول الدعوة - زيدان ص ٤٤٢ .

(٣) فتح الباري ١/١٩٧ .

(٤) سورة النحل : الآية (٦٧) .

(٥) سورة البقرة : الآية (٢١٩) .

إلا فى وعى كامل و ذلك بأسلوب فى غاية القوة والبلاغة ومثل هذه الحالة المطلوبة فى الصلاة لاتتم إلا بتأتى الوعى الكامل قبل الصلاة وإلا بتركها مدة طويلة ، وبذلك يتعودون البعد عنها . قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (١) .

و أخيرا تأتي المرحلة الأخيرة التي أنزل الله عزوجل فيها قرآنا يحمل بين طياته النهى القاطع عن شرب الخمر بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ * إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٢) .

ففي هذا المثال يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامي القرآني الرباني الحكيم ، وهذا المنهج الذى يمكن استقراؤه فى الكثير من شرائع الاسلام وفرائضه وتوجيهاته . ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والتدرج فى تحريمه و تتمثل هذه القاعدة فى أنه :

عندما يتعلق الأمر أو النهى بقاعدة من قواعد التصور الإيماني ، أى بمسألة اعتقادية ، فإن الإسلام يقضى فيها قضاء حاسماً منذ اللحظة الأولى .

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتماعى معقد ، فإن الإسلام يترتب به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ، ويهيء الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة .

وفى هذا المبحث نتحدث عن التدرج فى استخدام المنهج الحسى بطريقتين :

الأول : الإبداع فى التدرج من خلال الآيات الحسية فى القرآن الكريم .

الثانى : استخدام الرسل عليهم السلام التدرج فى الدعوة إلى الله تعالى .

١ (سورة النساء : الآية (٤٣) .

٢ (سورة المائدة : الآيات (٩٠-٩١) .

أولاً : الإبداع في التدرج من خلال الآيات الحسية في القرآن الكريم .

اتبع القرآن الكريم في دعوته إلى الله عزوجل أسلوب التدرج كما سبق أن أشرنا و لكن مع هذا التدرج استخدم الله عزوجل الإبداع فيه حتى يشوق المدعوين إلى ما يدعوهم به فيقبلوا على الدعوة و بالتالي يكون قبولها و إليك بعض الأمثلة الدالة على اتباع الإبداع في التدرج .

(١) قال تعالى : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾^(١).

انظر إلى السياق متبعاً إياه منذ البدء والحظ التدرج في الإبداع من خلال العرض:

﴿ رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ﴾ .

﴿ مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ﴾ .

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ .

﴿ وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ .

﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ .

ألا تلاحظ نسقاً معيناً في العرض !؟

أنظر مرة أخرى تجد أن الله عزوجل بدأ في الآيات الكريمة بالسماوات والشمس والقمر .. أجرام كبيرة .. خطوط عريضة .. لكنها تتدرج نحو الدقة : السماوات ، ثم الشمس ، ثم القمر ..

ثم أخذ الأرض من بين هذه الأجرام الكونية ، أى أنه تدرج في العرض فبدأ بالكبير ثم انتقل منه إلى ما هو أصغر منه وهكذا . حيث ذكر أولاً الأرض المنبسطة الممدودة والجبال .. ثم الأنهار الأصغر حجماً .. ثم الثمرات .. ثم الأزواج داخل النبات الواحد .. وكل ذلك ملفوف في رداء الليل والنهار فكأن الليل والنهار هما اللوحة : لوحة الأبيض والأسود ، ترسم عليها الخطوط الدقيقة المتدرجة في الدقة واحداً إثر الآخر .

(١) سورة الرعد : الآيات (٢ - ٤) .

ثم أخذ جانباً واحداً من الأرض ، التي بدأ بها خطوط المرحلة السابقة ، أى أنه بدأ بخط أدق مما بدأ به المرحلة السابقة ، ثم أخذ يتدرج منه إلى ما هو أدق : جنات من أعناب وزرع ونخيل .. حتى وصل إلى غاية الدقة فى الطعوم التى فضل بعضها على بعض وهى شىء خفى فى مظهره ، لاتبينه إلا أعصاب الذوق ، وهى من أدق ما فى تكوين الإنسان !! هذا التدرج الملحوظ من الكبير إلى الصغير فى الخطوط المتوالية عامة ثم فى كل خط على حدة .. أهو محض صدفة ؟ وهل هكذا تكون الصدف .. فضلاً على أنه لا صدفة فى الوجود كله على الحقيقة . لأن كل ما فى الوجود من عند الله مقدور !! (١) .

ونقف كما يقول محمد قطب هنا وقفة تأمل وتدبر مع مقطع من هذه الآيات لنرى التدرج فى الإبداع من خلال هذا العرض لهذه الآيات الحسية .

فمثلاً فى قوله ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل * إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

فى الأرض قطع متجاورات ولكنها مختلفة بعضها عن بعض . هذه رملية وهذه طينية وهذه صخرية .. هذه سوداء اللون وهذه صفراء وهذه حمراء .. الخ والسياق يلفت الحس هنا إلى ظاهرة الاختلاف ذاتها بوصفها دليلاً على عظمة الخالق سبحانه .. فما يصنع هذا التنوع العجيب إلا إله قادر عظيم ..

والتنوع ليس فى القطع المتجاورة من الأرض ، المختلفة الطبيعة واللون فحسب ، بل فى أنواع الزرع كذلك : " وجنات من أعناب وزرع ونخيل " .

ويسرح الخيال فى الرقعة الممتدة التى ترسمها الآية ، وينظر إلى أنواع النبات ، المختلف الألوان والأحجام والأشكال .. وكلما امتد البصر وجد أنواعاً مختلفة " متجاورات " كقطع الأرض ، ومختلفات كاختلاف الأرض .

وحتى النخيل مختلف ما بين صنوان (٢) وغير صنوان ! أى : أن السياق يلفت النظر إلى الاختلاف لابين الأنواع فحسب ، بل فى داخل النوع الواحد كذلك !

١ (دراسات قرآنية - محمد قطب ص ١٥٧ .

* صنوان: الصنوالصنوالخارج عن أصل الشجرة ، يقال هما صنوان نخلة و فلان صنوانيه ، و التنية صنوان و جمعه صنوان

قال : (صنوان و غير صنوان) مفردات الراغب ص ٢٨٧

ثم هذه العجيبة .. هذا الزرع المختلف كله " يسقى بماء واحد " ! ومع ذلك يختلف هذا الاختلاف ويتنوع ذلك التنوع .. ألا إنها القدرة الإلهية التي تنشئ هذا الخشد من التنوع والاختلاف .

بل إن التنوع ليصل إلى الدقة المعجزة .. إن الاختلاف ليس فى النوع واللون فحسب إنه فى الطعم كذلك " ونفضل بعضها على بعض فى الأكل " .. وتلك وحدها آية معجزة أن يخلق الطعوم المختلفة ، ثم يخلق للإنسان الأعصاب التي تحس بالطعوم المختلفة ، ثم يجعل بعض الطعوم أفضل من بعض ، ثم يجعل الناس يختلفون فى تفضيل تلك الطعوم بعضها على بعض ...! ألا إنه إعجاز الخلق .. وكذلك إعجاز التعبير ! ^(١) . " إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " !

فلم يخلق الله السموات والأرض عبثاً ، ولم يخلق النجوم والمجرات وما فى أعماق البحار من أسرار وكنوز وما فى الزهرة من جمال والفاكهة من نضارة كي تمر بها دون تفكير أو تأمل ، فكل ذلك آيات لله فالله سبحانه خلق كل شيء وأبدع فى كل شيء ولم يكن إبداعه عبثاً .

فخلق السموات والأرض وما فىهن من كواكب ونجوم وأقمار لم يكن عبثاً بل لغاية ، وخلق الماء فى شكل سحب ومطر وبحار ومحيطات لم يكن عبثاً بل لغاية ، وخلق الألبس فى صورة جبال ووديان وسهول وفوالق أو أحاديث لم يكن عبثاً بل لغاية ، وخلق الأخضر فى أشجار وورود وفواكه تسقى بماء واحد ويفضل بعضها على بعض فى الأكل لم يكن عبثاً بل لغاية ، فأى غاية ترجى غير التفكير فى هذا الخلق وفى هذا التوازن والتناسق و التناغم فى الإبداع فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ^(٢) .

٢- قال تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ ^(٣) .

وليعمل الخيال جاهداً لتتبع ما تحمله هذه الكلمات القليلة من معجزات .. " الله يعلم ما تحمل كل أنثى " هكذا على الاتساع .. اتساع الأرض التي نعيش عليها على الأقل !

(١) دراسات قرآنية ص ١٥٦ .

(٢) مقدمة فى منهج الإبداع - زهير المنصور ، ص ٥٢ ، دار السلاسل - الكويت ط ١٩٨٥ م

(٣) سورة الرعد : آية (٨-٩)

كل أنثى .. فليعمل الخيال جاهداً لإحصاء كل أنثى .. إذا أستطاع .. إن " كل أنثى " لاتشمل إناث الإنسان وحده ، فالسياق أشمل ! إنما تشمل كما حدد اللفظ بالضبط " كل أنثى " إناث الإنسان وإناث الحيوان وإناث الطير وإناث الأسماك وإناث الحشرات .. وكل أنثى تخطر أو لا تخطر على بال ..

فليجر الخيال لاهناً لا لإحصاء كل أنثى .. فذلك محال . بل لإحصاء الأجناس والأنواع فقط ، التي لها إناث ! ولتخيّل هذه الإناث بمجموعات بمجموعات كل مجموعة تحمل اسم الجنس الذي تتبعه أو النوع ..

ثم ليركز الخيال على خط من اللوحة أدق .. على ما تحمل هاتيك الأرحام ! وليجر لاهناً مرة أخرى لا للإحصاء فذلك محال .. بل لتصور تفصيلات ما تحمل كل أنثى في رحمها ..

تفصيلات كل نوع على حدة .. هذه إناث تحمل أجنة أناسي .. وهذه إناث تحمل أجنة حيوان .. وهذه إناث تحمل أجنة طير .. وهذه .. وهذه .. وهذه ..

ثم أنتقل إلى خط أدق .. خذ عالم الأناسي .. وراقب التفصيلات . هذه أنثى تحمل ذكراً .. وهذه تحمل أنثى .. تتبع بخيالك هذه الجزئية وامض بها في أرجاء الأرض ! تعال إلى خط أدق .. هذه تحمل جنيناً أبيض اللون .. وهذه تحمل أصفر اللون وهذه تحمل أسود .

تعال إلى خط أدق .. هذا الجنين كبير الحجم .. وهذا متوسط الحجم .. وهذا ضئيل الحجم .

تعال إلى خط أدق .. هذا جنين أزرق العينين .. وهذا عسلي .. وهذا أسود هل تعب خيالك ؟ إن التفصيلات مازال فيها مزيد ..

تعال إلى خط أخفى ! هذا جنين ذكي .. وهذا متوسط الذكاء .. وهذا بليد الذهن .. ولسنا نحن الذين نرى ذلك أو نعلمه ، الآن وهو جنين .. ولكننا نتحدث عن علم الله !

ونتابع بخيالنا قول الله في الآية ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ تعال إلى خط أكثر خفاء ! هذا جنين كتب له في اللوح المحفوظ أنه طويل العمر .. وهذا ينقص من عمره .. وهذا شقي .. وهذا سعيد .. !

هل ما يزال في خيالك بقية من قدرة يتبع بها ذلك العالم الهائل المعجز الذي فتحته تلك الآية الكريمة فلتبق بقية نتبع بها بقية الآية : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ !!

كل رحم تنتفخ بالحمل .. وتغيض بالوضع .. كل رحم من ملايين الملايين من
الأجناس والأنواع .. كلها .. كلها .. في علم الله الشامل الذى لا يغيب عن علمه شيء
هل أصابك الدوار وأنت تطلق خيالك هنا وهناك وهناك يتابع كل أنتى ويتابع حملها ويتابع
نمو كل حمل ويتابع وضع كل حمل ويتابع كل رحم وهى تغيض؟!
خذ هذه البقية الباقية من الآية قبل أن يكف خيالك عن المتابعة عجزاً وهشاً وعجباً
كذلك! ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾!

وعد من جديد إلى كل شيء .. لتتابعه مرة أخرى .. فى مجال آخر! وإن هذه
الجولة الواسعة فى علم الله الشامل ، حين تنتهى إلى هذه النهاية ، لتهد الوجدان هزة عميقة
غير كل ما انفعل به الوجدان من قبل! فإن تتبع علم الله الشامل فى الكون الواسع ، فيما
تحمل كل أنتى وما تغيض الأرحام وما تزداد .. هذا كله شيء ، وأن تكون أنت بالذات ،
وفى كل لحظة ، موضوعاً تحت هذه المراقبة الدائمة الدقيقة شيء آخر! الأول قد يهتز له
وجدانك عجباً ، وإقراراً بعظمة الله .. أما الآخر فيهتز له وجدانك رهبة وخشية .. وكأن
علم الله الشامل هذا كان نوراً كشافاً تستمتع به وهو يجول بك فى أرجاء الكون يكشف
لك عن مخبأته وأسراره .. ولكنه فجأة يسلط عليك أنت ، وأنت واقف تتفرج ، فتحس أنك
منكشف تماماً فى هذا النور ..

هناك التدرج ظاهرة فى بدء السياق بخطوط عريضه تنتهى إلى خطوط دقيقة: ﴿ الله

يعلم ما تحمل كل أنتى ﴾ خط عريض شامل يتدرج إلى ﴿ ما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾
وهو خط أدق .

ثم .. ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ .. خط عريض شامل يتدرج إلى ﴿ سواء منكم

من أسر القول ومن جهر به .. ﴾ وهو خط أدق .

وهناك شبه دقيق خفي ، فى أن الخط العريض ذاته محتو على خطوط دقيقة .

﴿ ما تحمل كل أنتى ﴾ .. خط عريض يحمل فى طياته مئات أو آلافاً من الخطوط
الدقيقة المتناهية فى الدقة ، هى تفصيلات ما تحمل كل أنتى من نوع ولون وشكل وخواص .

وهكذا تتداخل الخطوط العريضة والدقيقة في اللوحة الواحدة ، وتمتاز الضخامة المعجزة مع الدقة المعجزة كلها في آن (١) .

٣- قال تعالى ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء * لا إله إلا هو * فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات * ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين * الحمد لله رب العالمين * قل إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيئات من ربي * وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ (٢) .

فانظر كيف تدرجت هذه الآيات في مراحل التفكير خطوة خطوة ، فاستدلت بالآيات على الأفعال والأفعال على الصفات والأسماء وبالصفات والأسماء على التوحيد فأمرت أولاً بالنظر ، في آيات الأنفس ، سواء المشار إليها في قوله : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أو بقوله : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ ، وجعلت نهاية هذا التفكير الاعتراف لله وحده بالنعمة في ذلك كله ، والاستسلام لأمره ونهيه : ﴿ الحمد لله رب العالمين * قل إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيئات من ربي ﴾ وهي الآيات المشهودة والمقررة .

﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ والاستسلام ليس إلا العبادة الخالصة فإن العبادة هي غاية الذل لله مع غاية الحب له :

" ومن خضع لإنسان مع بغضه له ، لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يجب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله " (٣) .

ومن أحب الله تعالى أثره بنفسه وماله وعمله : ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا

من البيئات والذي فطرنا ﴾ (٤) .

(١) انظر دراسات قرآنية - محمد قطب ص ١٦١ ، ١٦٢ بتصرف .

(٢) سورة غافر : الآيات (٦٢ - ٦٦)

(٣) العبودية - ابن تيمية ص ٩ .

(٤) سورة طه : الآية (٧٢) .

هذه المحبة هي التي تجعل العبد يحيا لربه لانفسه ، فمراد الله مراده في القدر والشرع
سواء .

وهذه المحبة التي تحذو العبد لابتغاء مرضاة ربه بكل عمل يعمله فإذا أعماله كلها
طاعات قد ختمت بطابع العبادة .

ثانياً : استخدام الرسل عليهم الصلاة والسلام التدرج في الدعوة إلى الله تعالى:

المستعرض لقصص الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، في القرآن الكريم ، يجد أنهم جميعاً قد استخدموا أسلوب التدرج في الدعوة إلى الله تعالى ، لما له من أثر كبير في ترسيخ الدعوة في النفوس .

ويظهر أسلوب التدرج في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واضحاً جلياً من خلال تقديمهم الأهم على المهم ، فقد بدأوا جميعاً بالدعوة إلى التوحيد والعمل على تثبيت العقيدة في النفوس .

لأن العقيدة الصحيحة متى ما انطبعت في نفس المدعو وأيقن بصدقها وعمل بمقتضاها ، صارت سداً منيعاً يقيه كل ما من شأنه أن يوقعه في الحرام ، وأكسبته السكينة وهدوء البال ، وجعلت منه شخصاً سباقاً إلى أعمال الخير والفضيلة ، وهذا السلوك الراشد سينعكس ولا شك على أفراد المجتمع ^(١) .

و نعرض هنا أسلوب التدرج في دعوة بعض الأنبياء الكرام غير أولى العزم من الرسل ^(٢) .
أولاً : التدرج في دعوة هود عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصًطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذُرَ مَا كَانَ يعبُد آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَائِكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) .

١ (الزبية في السنة النبوية ، لأبي لبابه حسين ، ص ١٢ بتصرف - دار اللواء الرياض .

٢ (سوف أتناول بالتفصيل في الفصل الخامس من الرسالة لأولى العزم من الرسل .

٣ (سورة الأعراف : الآيات (٦٥ - ٧٢) .

بتأمل الآيات الكريمة السابقة ، يبرز التدرج الذي استخدمه هود عليه السلام مع قومه واضحاً جلياً من خلال النقاط التالية : (١) .

١- بدأ هود عليه السلام دعوة قومه بالمنهج العاطفي علّه يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه فيتبعوا الهدى الذي يدعوهم إليه ، فقال مترفاً بهم ومستميلاً إليهم ﴿ يا قوم ﴾ .

٢- طلب منهم عبادة الله وحده مستعملاً أسلوب الطلب وذلك في قوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ .
٣- أخيرهم بعدم وجود إله لهم غير الله وذلك يستوجب عبادته ، قال تعالى : ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ .

٤- حثهم على تقوى الله في صورة استفهام وعرض كما في قوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ .
٥- نفى عن نفسه ما رموه به من الضلالة والسفاهة بأسلوب مهذب حكيم فلم يقابل سفاهتهم بالسفاهة ، بل قابلها بالحلم والإغضاء ، ولم يزد على قوله (٢) ﴿ ليس بي سفاهة ﴾ ، وذلك يدل على :

* أن ترك الانتقام أولى كما قال تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (٣) .

* يجب أن يتحلى الدعاة بالحلم والتغاضى عما ينالهم من الأذى في سبيل دعوتهم إلى الله ، وذلك اقتداء بأئمة الدعوة رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه (٤) .

٦- استخدم المنهج العقلي فى دعوته لقومه ، بعد أن تبين له أن المنهج العاطفي لم يُجد معهم ، وذلك حتى يتمكن من لفت أنظارهم إلى النعم التي أسبغها الله عليهم ، والتي لو قدروها حق قدرها لاهتدوا إلى الحق الذي يدعوهم إليه .

ويتضح استخدامه المنهج العقلي من خلال ما دار بينه وبين قومه من حوار وجدال ، فهؤلاء قومه يرمونه بتهم باطلة ، هي السفه ، والكذب ، فيأتيهم الرد بأسلوب حكيم ، كله عفو وتسامح ومنطق مهذب ، إذ لم يزد عليه السلام بأن نفى عن نفسه هذه التهمة الباطلة في غاية اللين والتلطف والحكمة ، فقال : ﴿ يا قوم ليس بي سفاهة ﴾ ، ولم يرد على

(١) التدرج فى الأساليب الدعوية وأثره فى الدعوة إلى الله تعالى - بحث مكمل لنيل درجة الماجستير سنة ١٤١٣هـ - غير منشور لعبد الله عياد الجهني ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ١٣١١/٣ ، وفتح القدير للشوكاني ٢١٦/٢-٢١٨ ، ومناهج الجدل فى القرآن الكريم د/ زاهر عوض الألعوي ص ١٦٨ ، ودعوة الرسل . للعدوي . مرجع سابق ص ١٩ .

(٣) سورة الفرقان : آية (٧٢) .

(٤) من نبي المرسلين هود ويوسف ص ١١٩ د/ حسن عيسى عبد الظاهر - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ دار الثقافة - الدوحة .

سفههم بالسب والشتم والتوبيخ ، وفي هذا درس للدعاة ينبغي أن يعوه ويعملوا به لأنه أدعى لاستجابة المدعويين لقبول الحق .

ثم إنه عليه السلام بعد أن نفى عن نفسه السفه الذي اتهموه به أثبت رسالة ربه له حيث قال : ﴿ ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ، وهذا جواب في غاية الروعة ، وحسن الخلق ، في إسداء النصيحة الخالصة من الشوائب ^(١) .

ثم بين لهم أنه لا وجه للاستغراب وللتعجب من تكليف الله لرجل منهم مهمته إبلاغ الرسالة ، لأن الله يختص برحمته من يشاء من عباده ، وليس بدعاً من الرسل ، فقد جاء نوح عليه السلام ، وهم يعلمون ذلك ، ولهذا قال لهم : ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم .. ﴾ .

تذكيرهم بمصائر الكافرين من قوم نوح :

ثم ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم ، لعلها تحدث لهم ذكراً في نفوسهم فيترجعوا عن عنادهم وإصرارهم ، على عدم الإيمان فقال : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ ، أي : بعد أن أهلكهم بالطوفان لإصرارهم على الشرك ، وما حدث لهم من تدمير الكافرين ونجاة المؤمنين ولذلك نههم إلى ضرورة أخذ العبرة مما حدث لقوم نوح .

ولقد سلكت أمم حديثه مسلك طغاة الماضي فغرتهما قوتها وأعرضت عن هدى ربها فأخذت تستعبد وتظلم الشعوب الصغيرة ، كما حدث في عصرنا الحاضر بالنسبة لألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكما حدث للعراق أثناء غزو الكويت فماذا كانت النتيجة لقد ضاع أكثر شبابها في حروب جرت عليها الذل والإنكسار .

تذكيرهم بنعم الله تعالى وتوجيههم إلى الاستغفار والتوبة :

فقد حباهم الله تعالى نعماً كثيرة وخيرات وفيرة وهيء لهم حياة رغده مليئة بالخير والرفاهية فشادوا القصور وفجروا الأنهار وشيدوا المصانع ومنحهم الله فوق ذلك بسطة في الجسم وقوة في البدن وبدلاً من أن يعتزفوا بفضل الله أبطرتهم النعمة فجحودوا بها وكفروا ، ثم ذكرهم بالنعمة الحاضرة التي منحهم إياها مستخدماً المنهج الحسي ، وذلك في قوله :

(١) انظر : دعوة هود عليه السلام ، بحث مكمل لئيل درجة الماجستير ، ١٤٠٣هـ غير منشور لعبد القادر جيلاني ، ص ٣٩-٤١ ، وفتح القدير للشوكاني مرجع سابق ٢/٢١٦-٢١٨ ، وفي ظلال القرآن مرجع سابق ٣/١٣٠٩، ١٣١١ ، ودعوة الرسل للعدوي ، مرجع سابق ص ١٩ ، ومناهج الجدل ، مرجع سابق ص ١٦٨ ، وتاريخ الأنبياء لتنجار مرجع سابق ص ٧٩ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ، مرجع سابق ص ١٠٢-١٠٣ .

﴿ وزادكم في الخلق بصطة ﴾ ، وقوله لهم في سورة الشعراء : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعميون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (١) ، ومزيداً من الترغيب لهم وجه أنظارهم إلى الإستغفار والتوبة حتى يتحقق لهم سبب النماء والبركة والزيادة والقوة التي كانوا يحرصون عليها قال هود : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ (٢) . ومن هذا يتبين لنا أن الوقوف عند حدود الله والإلتزام بأوامره هو سبب الحصول على طيبات الحياة والتمتع ببلذاتها وأن طريقها يتمثل في الإستغفار والتوبة ، وهذه حقيقة أكدتها النصوص وصدقها الوقائع والأيام ، قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٣) .

ولكنهم بدافع التقليد ، والتعصب ، تمسكوا بعقيدة آبائهم الضالين .. والمتعصب يعمى عن الحق ، ويصم عن سماعه ، ولهذا قالوا : ﴿ أجنثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ (٤) .

وقد أنكر عليهم هود عليه السلام مسلكهم المعوج ، وعنادهم المستحکم ، وجدا لهم بالباطل فقال : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ (٥) . وقد تضمن رد هود عليه السلام مايلي :

١- أن استمرارهم على هذا المنهج المنحرف يدل على أنهم قد حرموا التوفيق وحل عليهم غضب الله لعنادهم وتكذيبهم لرسالة الله تعالى .

٢- استنكاره لمجادلتهم إياه في أسماء لم يورثوا عبادتها عن شريعة سماوية سابقة ، ولم يقم على عبادتها برهان حتى يتمسكوا به ، ويعتمدوا عليه ، بل هي من وضع الآباء وتزيين الشيطان لعنه الله .

١ (سورة الشعراء : الآيات (١٢٨-١٣٥) .

٢ (سورة هود : آية (٥٢))

٣ (سورة النحل : آية (١-٢))

٤ (سورة الأعراف : الآية (٧٠) .

٥ (سورة الأعراف : الآية (٧١) .

٣- إن تعجيل العذاب هو إلى الله وحده ، وهو الذي يحدد وقته ، وما عليهم إلا أن ينتظروا ما توعد الله به المكذبين لرسله ، وفيه تهديد لهم وتخويف من عذاب الله ، إن هم استمروا على كفرهم ، وقد استمروا على كفرهم فأهلكهم الله ، ونجى الله نبيه ومن معه من المؤمنين ^(١) قال تعالى : ﴿ فَأُنجِيْنَا وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) ، إذ أن من المؤكد أن المعاصي شؤم على المذنب وعلى غيره ، قال رسول الله ﷺ موضحاً شؤمها على المذنب من حديث ثوبان قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) ^(٣) ، أما شؤم الذنوب على الغير فمن ذلك ما قاله أبو هريرة : (إن الخباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم) ^(٤) . وهكذا تدرج هود عليه السلام في دعوة قومه ، فتناول الوسائل والأساليب الممكنة ، حيث بين لهم دعوة الله برفق ، ووضح الأدلة التي تؤيد هذه الدعوة ، وجعلها أدلة سهلة تلامس المحسوس عند الناس ، ورغب قومه في نعم عديدة إن آمنوا بخالقهم ، وعبدوه وحده ، وخوفهم من عذاب الله ينزل بهم إن لم يؤمنوا .. وكل هذا لم يجد نفعاً ، فكانت النتيجة هلاك الكافرين ونجاة نبي الله هود عليه السلام ، ومن آمن معه برحمة من الله تعالى . ومما لاشك فيه أن هذا التدرج قد أتى ثماره الناضجة وآثاره العظيمة التي ينبغي للدعاة أن يسلكوها ومنها مايلي :

١- إن استخدام التدرج أسلوب من أساليب التربية يراعى فيه الداعي قدرات المدعوين واستعداداتهم ، فالشيء إذا كان ابتداءً سهلاً حبيب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانسباط ، وكانت عاقبته غالباً الازدىاد بخلاف ضده .

٢- إن فيه درساً للدعاة ينبغي أن يعوه ويعملوا به ، لأنه أدعى لاستجابة المدعوين لقبول الحق .

٣- يجب على الدعاة ان يتحلوا بالحلم والتغاضي عما ينالهم من الأذى في سبيل دعوتهم ، وذلك اقتداءً بأئمة الدعاة ، ورسول الله عليهم صلوات الله وسلامه .

١ (انظر : في ظلال القرآن مرجع سابق ٣/٣١١-١٣١٢ . وفتح القدير للشوكاني مرجع سابق ٢/٢١٨ ص ٥٢-٥٣ ، مناہج الجدل مرجع سابق ص ١٦٨-١٦٩ ، تاريخ الأنبياء للنجار مرجع سابق ص ٧٩-٨٢ ، ومن نيا المرسلين ، مرجع سابق ص ١٢٦-١٦١ ، ١٨٧-٩٠ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٠٢-١٠٨ ، ودعوة الرسل للعدوي مرجع سابق ص ١٩-٢٠ .

٢ (سورة الأعراف : الآية (٧٢) .

٣ (حديث سبق تخريجه .

٤ (انظر : الجواب الكافي ص ٨٠ .

٤- أن يتحلى الداعية بحسن الخلق والمنطق ، ويسدى النصيحة للمدعوين خالصة من الشوائب طلباً لمرضاة الله سبحانه .

٥- ثبات من آمن على الحق لأنه قد استوعب الدعوة وأيقن بصدقها .

ثانياً : التدرج في دعوة صالح عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنما لفي شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير * ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً و الذين معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يكن فيها إلا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾^(١).

يبرز أسلوب التدرج في دعوة صالح عليه السلام من خلال تأمل الآيات الكريمة السابقة ، والمتمثل في النقاط التالية :

١- بدأ صالح عليه السلام بدعوة قومه بالمنهج العاطفي ، كما بدأ هود عليه السلام ، وهذا تلطف منه في العبارة ، ولين الجانب ليستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم فيتبعوا الحق الذي يدعوهم إليه فقال مترقياً بهم ومستميلاً إياهم ﴿ يا قوم ﴾ .

٢- استخدم في دعوتهم إلى عبادة الله وحده أسلوب الطلب الصريح بقوله ﴿ أعبدوا الله ﴾ .

٣- أخبرهم بعدم وجود إله لهم غير الله تعالى وذلك يستوجب عبادته ، قال تعالى : ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ .

٤- ناداهم و دعاهم لعبادة الله وحده لا شريك له ونفي وجود إله لهم غير الله مستعملاً في ذلك أسلوب الطلب بدعوتهم الصريحة إلى عبادة الله وإخبارهم بوحديته سبحانه ، ثم انتقل إلى تذكير قومه بما أولاهم الله من النعم الكثيرة ، مستخدماً المنهج الحسي لعل ذلك يكون حافزاً لهم على الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ونبذ جميع المعبودات من دون الله تعالى .

(١) سورة هود : الآيات (٦١ - ٦٨) .

وذلك عن طريق :

أ- نشأتهم من الأرض في قوله : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾^(١) ، والإنشاء هو إيجاد الشيء الذي يكون مسبقاً بمادة ومدة^(٢) ، قال الفخر في وجه كونهم أنشئوا من الأرض : (إن الكل مخلوقون من صلب آدم ، وهو كان مخلوقاً من الأرض .. وفيه وجه آخر وهو أقرب ، وذلك : لأن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث ، والمني إنما يتولد من الدم ، والدم إنما يتولد من الأغذية ، وهذه الأغذية إما حيوانية أو نباتية ، والحيوانات حالها كحال الإنسان ، فوجب انتهاء الكل إلى النبات وظاهر أن تولد النبات من الأرض فثبت أن الله تعالى أنشأنا من الأرض)^(٣) .

ب- كما لفتهم إلى ما بين أيديهم من الزروع في قوله : ﴿ أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾^(٤) ، فكأنه يقول لهم : إذا كان أسلافهم لم يتركوا فيما هاهنا آمنين ، أفأنتم متروكون وقد فني الماضون صالحهم وطالحهم ، إذن فلا مناص من الرحيل ، ولا بد للرحيل من زاد ، ولا زاد سوى الإيمان وهو ما أدعوكم إليه .

ثم انظروا إلى هذه العيون والجنات والزروع والنخل ذات الطلع الهضيم وهو (المتراكم الكثير الحسن البهي الناضج)^(٥) ، من أين جاءت هذه النضرة وتلك البهجة وذلك الاخضرار والاهتزاز ومن أين دبت الحياة بعد الموت والهمود ؟ .

ج- ويلاحظ في منهج صالح - عليه السلام - كغيره من الأنبياء انه سلك مع قومه أساليب تتبع من بيئتهم وتلائم حياتهم وما ألفوه وفهموه وما هو واقع مشهود فيهم من تحت الجبال وتشديد القصور واتخاذ الزروع .. فلقد كانوا ﴿ ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾^(٦) ، وخاطبهم قائلاً : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾^(٧) ، ووصفهم رب العزة

(١) سورة هود : الآية (٦١) .

(٢) التعريفات للجرجاني : ص ٥٦ .

(٣) مفاتيح الغيب : ١٨/١٨ .

(٤) سورة الشعراء : الآية (١٤٨) .

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير : ص ١١٨ .

(٦) سورة الحجر : الآية (٨٢) .

(٧) سورة الأعراف : الآية (٧٤) .

والجلال بقوله : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾^(١) ، وكانوا كما روي عن ابن عباس (معمرين لا يبقى البنيان من أعمارهم)^(٢) .

وفى هذا التوجيه من صالح عليه السلام لفت نظر قومه إلى ما كان عليه من سبقهم ، وكيف بسط الله عليهم النعم ، وفي هذا مدعاة للتفكير والنظر واستخلاص العبر من حال من سبق ، فإذا عرف المنعم المفضل عن طريق التفكير انصاع الناس لدعاة الخير .
ولا شك أن استخدام المنهج الحسي كاف لإحياء موات أمة إن أحسن استخدامه ، وصادف نجاحاً وقبولاً لدى الفطر السليمة ، والنفوس الكريمة ، وسنن الله السارية في المجتمع الإنساني ، على امتداد تاريخه الطويل ، ذلك ما أنبأنا الله به ، فمن استخلف ثم لم ينهج المنهج الإسلامي في الحياة أيّد وجرى بآخرين^(٣) .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾^(٤) ، أي : إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم ، وتعملوا بخلاف عملهم ، وأباح لكم هذه الأرض تبون في سهولها قصوراً ، فقابلوا نعمة الله بالشكر ، والعمل الصالح والعبادة له وحده^(٥) .

٥- أمرهم بالاستغفار والتوبة من ذنوبهم ، ونبههم كثيراً لعاطفتهم أن يعلموا أن ذنوبهم مهما كانت فإنها تغفر ، متى أقبلوا على الله لأنهم يقبلون على رب رحيم ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

٦- لما استغلقت قلوب القوم واستمروا في كفرهم وعنادهم . واستنكروا عليه دعوته لالحجه ولا لرهان ، ولا لتفكير ، وإنما تقليداً لآبائهم ، كان رد صالح - عليه السلام - عليهم عن طريق الحاجة العقلية بالمنهج العقلي ، والتنزل إلى مستوى الخصم ، وذلك في قوله لهم ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدوني غير تخسير ﴾^(٦) .

١ (سورة الفجر : الآية (٩)) .

٢ (تفسير القرطبي : ١٢٧/١٣) .

٣ (انظر فتح القدير للشوكاني مرجع سابق ٢/٢١٨ . والدعوة إلى الله دراسة مستوحاه من سورة النمل . د/ عبد الرب نواب ٢٥٠، ٢٤٩ .

٤ (سورة الأعراف : الآية (٧٤)) .

٥ (قصص الأنبياء لابن كثير مرجع سابق ص ١١٨ .

٦ (سورة هود : الآية (٦٣)) .

قال ابن كثير : هذا تلتطف منه لهم في العبادة ، ولين الجانب .. وحسن عرض في الدعوة ، لهم إلى الخير ، أي : فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟ .. ماذا عذركم عند ربكم ؟ .. وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته ؟ (١) .

٧- ثم عاد ثانية للتلطف في مخاطبة قومه وأعلمهم أن الله تعالى أرسل الناقة آية على صدقه ، وطلب منهم بأسلوب الطلب الصريح أن يتزكوها تأكل في أرض الله، ولا يتعرضوا لها بسوء ، وأنهم إن تعرضوا لها بنوع من أنواع الأذى أخذهم عذاب قريب ، فلم يكن منهم إلا أنهم نحروها ، فقال لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، وأن ذلك وعد صادق ، ولما جاء أمر الله بالعذاب ، نجى نبيه صالحاً عليه السلام ، ومن آمن معه من ذلك العذاب ، ومن خزي ذلك اليوم الذي حل بقوم صالح ، رحمة منه سبحانه ، وأهلك الله الكافرين . وهكذا تدرج صالح عليه السلام في دعوة قومه ، حيث بدأهم بالمنهج العاطفي ، ثم دعاهم إلى الإيمان بما جاء به من التوحيد من عند ربه عز وجل . ثم حذرهم من عذاب الله تعالى ، وأنذروهم بأسه إن لم يستجيبوا للدعوة الحق مستخدماً أسلوب الترهيب ، وآتاهم بينة دالة على صدقه ، ونهاهم عن مسها بأي سوء وأخبرهم أن الله سوف يأخذهم بعذاب اليم . كما كان يلفت أنظارهم إلى النعم التي أنعم الله بها عليهم مستخدماً المنهج الحسي عليهم يؤمنون ، ويقبلون على الحق الذي جاء به ، ولكنه كان ينادي أقواماً عمياً عن رؤية الحق ، صماً عن سماعه ، غلبت عليهم الشقوة ، فأنكروا عليه نهيه لهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام ، وأخبروه أنهم في شك مريب مما يدعوهم إليه ، فما كان منه إلا أن بين لهم عن طريق الحاجة العقلية أن ما جاء به هو الحق ، والصواب ، ولكنهم اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ، واستكبروا عن قبول الحق . فكانت النتيجة بعد أن استخدم صالح عليه السلام كل الوسائل والأساليب الممكنة ، لبيان الحق ، وهي هلاكهم ، ونجاة صالح عليه السلام ومن آمن معه (٢) .

ومن هنا ندرك مدى عناية القرآن الكريم بقضية التوحيد واهتمامه بها حتى تبدو في أحلى صورها وأنقاها بعيدة عن كل لبس أو غموض ، وندرك أيضاً أهمية التدرج الذي

(١) انظر : قصص الأنبياء ، لابن كثير مرجع سابق ص ١١٩ . يتصرف يسير والدعوة إلى الله ، عبد الرب نواب الدين ، مرجع سابق ص ٢٤٨ .

(٢) انظر دعوة الأنبياء . مرجع سابق ص ٦٦ . ٦٩ . ٧٠ . ومناهج الجدل في القرآن الكريم مرجع سابق ص ١٧١ . والأنبياء في القرآن ، مرجع سابق ص ٩٤-١٠٤ . ودعوة الرسل مرجع سابق ص ٣٣ . ٣٥ .

سلكه سيدنا صالح عليه السلام مع قومه ولكن القوم بدل أن يتعظوا ويأخذوا العبرة من سلفهم عندما قال لهم عليه السلام : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا في الأرض مفسدين ﴾ (١) .

ولكنهم قلدوا آباءهم في الكفر والضلال وقالوا لمن آمن منهم : ﴿ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴾ (٢) ، بل وازدادوا تكبراً وعناداً واصراراً وقالوا : ﴿ إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ (٣) .

فحقت على الجميع لعنة الله ، فليت المسلمين في عصرنا الحاضر يتصرفون على الدروس والعبير المستفادة من منهج سيدنا صالح فالأمم القوية هي التي تأخذ من الماضي العبرة والعظة التي تستفيد بها في الحاضر وما أكثر المواطنين والعبير والعظات في تاريخ أمة الإسلام ، فليت المسلمين يدرسون أسباب إنسحابهم من الأندلس ، وضياعهم في شرق أوروبا ، وإفتراس أحوالهم في مأساة فلسطين أمام عصابات اليهود .

وهذا التدرج في دعوة صالح عليه السلام قد أتى ثماره ، وظهرت آثاره واضحة جليلة ، من خلال التأمل في دعوة صالح عليه السلام ، ومنها ما يلي :

١- أن على الداعية أن يراعي أحوال المدعوين ويتلطف معهم في الدعوة فإن الشدة لا تأتي بخير .

٢- أن من لا يلتزم بالمنهج الإسلامي فإن الله سبحانه وتعالى يهلكه ويأتي بأخريين ، هذه سنة الله في المجتمع الإنساني ، على امتداد تاريخه .

٣- أن على المدعوين أن يعتبروا بحال من سبقهم .

٤- أن إشعار المخاطب (المدعو) بعلو نفسه وكبر منزلته أدعى لقبوله الحق .

٥- استخدام المنهج العقلي والمنهج الحسي والتنزل إلى مستوى الخصم من أساليب الدعوة الناجحة ، إذا استخدم بحكمة .

٦- على الداعية ان يستخدم كل الأساليب والوسائل الممكنة لإيصال الدعوة إلى المدعو .

٧- ثبات من آمن على الحق واستيعابهم له ويقينهم بصدقه .

(١) سورة الأعراف : آية (٧٤)

(٢) سورة الأعراف : آية (٧٥)

(٣) سورة الأعراف : آية (٧٦)

ثالثاً : التدرج في دعوة شعيب عليه السلام :

اتبع شعيب عليه السلام في دعوته منهج التدرج لإقناع قومه باتباعه شأنه في ذلك شأن بقية الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلوات و أزكى التسليمات. و إليك بعضاً من الأمثلة الدالة على ذلك : قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنني أراكم بحير وإنني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقني أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود * قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز * قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط * ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب * ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كان لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ (١) .

بتأمل الآيات الكريمة السابقة ، يتضح استخدام نبي الله شعيب عليه السلام للتدرج

في دعوة قومه في النقاط التالية :

١- بدأ شعيب عليه السلام دعوته لقومه بالمنهج العاطفي كما بدأ هود وصالح عليهما السلام ، طلباً لإقبال أذهانهم وتمهيداً لقبول نصحه ، إذ الرجل لا يريد لقومه إلا ما يريد لنفسه ، فقال لهم مترقفاً بهم ، ومستميلاً إياهم ﴿ يا قوم ﴾ .

٢- استخدم أسلوب الطلب الصريح في دعوته إلى عبادة الله وحده بقوله ﴿ اعبدوا

الله ﴾ .

(١) سورة هود : الآية (٨٤-٩٥) .

٣- أخرهم بعدم وجود آلهة لهم غير الله وذلك أدعى لعبادته ، قال تعالى ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ ، وهو حكم قاطع ينفي الألوهية عن غير الله سبحانه وتعالى ، لاختصاصه جل شأنه بالعبادة وحده .

٤- نهاهم زاجراً لهم عن نقص المكيال والميزان بقوله : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ .
٥- استخدم أسلوب الترغيب عن طريق تذكيرهم بنعم الله في قوله ﴿ إني أراكم بحير ﴾ ، ففي هذا تحريض على الإيمان وإغراء لهم باستنقاذ أنفسهم من الهلاك ، ولا شك أن الجوانب الحسنة في المدعوين من العوامل المؤثرة في نفوسهم لاتباع من يدعوهم ، حيث يبين لهم أنهم على جانب من الخير ، وفيهم بذرة طيبة ، وعليهم أن يكملوا ويتمموا هذا الخير الموجود عندهم ، واستخدم أسلوب الترغيب أيضاً حيث قال لهم ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ يقول صاحب التفسير الواضح ^(١) : واعلموا أن ما يقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة وأحمد عافية ، مما تبقونه لأنفسكم في تطفيف في الكيل أو النقص في الوزن . وفي سورة الأعراف قال ﴿ ذلك خير لكم ﴾ ^(٢) ، مستعملاً أسلوب الإشارة مشيراً بذلك إلى كل ما تقدم من أمر ونهي أي هو خير لكم في دينكم ودنياكم ، فالخلال وإن كان قليلاً خير من الحرام وإن كان كثيراً ، والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قلّ والحرام محقوق وإن كثر .

٦- وبعد هذا الأسلوب الهادي الذي ينطوي على ترغيبهم في عمل الخير وخير العمل ، يتدرج شعيب عليه السلام إلى أسلوب التهيب ، حتى يبصرهم عواقب المخالفة والزيغ عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال ، وذلك في قوله : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم محيظ ﴾ ، وقد ضرب لهم الأمثلة بما أصاب الأمم التي سبقتهم ، حينما ركبوا رءوسهم وعصوا رسلهم ، واتبعوا أمر كل شيطان مرید .

٧- مما سبق يتضح أن شعيباً عليه السلام بعد الدعوة إلى إصلاح العقائد اتجه إلى معالجة أخطر الأمراض التي كانت فاشية في مجتمع قومه ، وهي تطفيف الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ، وإشاعة الفساد في الأرض ، حيث قال لهم مستخدماً أسلوب الطلب الصريح ، بعدما كان من صده زاجراً ﴿ ويا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

١ (التفسير الواضح

٢ (سورة الأعراف : الآية (٨٥)

٨- لما لم يستجب قومه لدعوته وقالوا له : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤنا ؟ .. وترك تطفيف الكيل والميزان ، فهل أنت العاقل المتصف بالحلم والرشد ؟ كان رده عليه السلام عليهم بالمنهج العقلي متلفظاً معهم في العبارة ، وداعياً إلى الحق ، بأبين إشارة ، فقال لهم : أخبروني إن كنت على برهان من ربي ، وهو النبوة ، ورزقني المال الحلال ، فهل يجوز لي عدم دعوتكم إلى الحق ؟ .. وإني لا أنهاكم عن شيء وأفعله ، كما أنني لا أريد إلا إصلاح أمركم بقدر استطاعتي ، وليس التوفيق إلى الخير إلا إرادة الله سبحانه ، عليه اعتمدت وإليه أنيب . وفي هذه الآية الكريمة درس للدعاة إذ يجب عليهم أن يراعوا في سلوكهم أشد المراعاة كل كلمة وتصرف ، يصدر منهم ، فالسلوك يؤثر أكثر من الكلمات .. ولا شك ان مجرد التزام الداعية بالإسلام هو دعوة ، ولو لم يأمر الناس وينهاهم ، فكيف إذا صاحب ذلك الالتزام دعوة فيها أمر ونهي ؟ .

٩- انتقل إلى نوع من الترهيب فقال : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ . يحذرهم نبي الله شعيب عليه السلام ألا تحملهم مشاققتهم له أن يعصوا الله ويخرجوا عن حدوده فيصيبهم من العذاب ما أصاب من قبلهم من المكذبين ، وكثيراً ما يجر التمادي في العداوة إلى ما لا تحمد عقباه ، وكأنه يقول لهم : كونوا عقلاء مفكرين ، وزنوا الأمور بميزان الحكمة والإنصاف ، وانظروا في دعوتي لكم لتروا أهي دعوة أساسها الشهوة والهوى ، أم أساسها المصلحة ، وطلب مرضاة الله ، ولا تسايروا الهوى ، وداعية الانتقام ، فإن ذلك يجركم إلى مآثم لا قبل لكم بها ، كما حصل لمن قبلكم لما عصوا ، فعليكم أن تعتبروا بهم ، وتذكروا بما حصل لهم ، فالتذكير بمصائر المتحرفين من الأمم السابقة وبيان مصارعهم اتخذها شعيب عليه السلام مواطن للعبارة ، وأيقظ القلوب من خلالها لتعرف ربها وتخشى عذابه ، ولقد كان قريب منهم في العهد قوم لوط وآثارهم قريبة منهم في المكان يرونها ويمرون عليها وهم عنها معرضون ، فبين لهم عليه السلام أن سنة الله ماضية تخضع لقوانين ثابتة لا تختلف ولا تحابي ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ثم يبين لهم شعيب بعد ذلك أن رحمة الله واسعة ، وأن باب التوبة مفتوح لكل قاصد ، ومهما كانت الخطيئة فإن الله رحيم بعباده ، فهو الغفور الودود ، يغفر الذنوب ويسط يديه بالمودة للناس إذا تابوا إليه ، مهما ارتكبوا من الآثام والموبقات العظام . ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي

رحيم ودود ﴿١﴾ ، ولكن القوم أصروا على كفرهم ، وقالوا له : إنهم لا يفقهون ما يدعوهم إليه وهددوه بالقتل والرمي بالحجارة ، لكنه عليه السلام استمر في الرد عليهم بالمنهج العقلي ، عليهم يقبلون الحق الذي جاء به ولكنهم أصروا على الكفر والعناد ، فكانت النتيجة نجاة شعيب عليه السلام ومن آمن معه ، وهلاك الكافرين (٢) .

وهكذا تدرج شعيب عليه السلام في دعوة قومه مستخدماً كل الوسائل والأساليب الممكنة بالمنهج العاطفي مرة ، وبالمنهج العقلي والمنهج الحسي تارة ثانية ولكن كل تلك الأساليب والوسائل لم تجد شيئاً ، بل أصروا القوم على كفرهم وعنادهم .. فكانت النتيجة هلاك الكافرين ونجاة شعيباً عليه السلام ومن آمن معه . ولا شك أن لهذا التدرج آثاراً عظيمة ، ونتائج مهمة تمثلت فيما يلي :

١- القدوة الطيبة أساس الدعوة الناجحة وهذه صفة الداعية الذي يريد أن يحقق نجاحاً أو يرجو هدى، وشعيب عليه السلام عندما دعا قومه قال لهم : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ ، أي : لا أمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له ، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه .

٢- إهتمامه عليه السلام بأمراض مجتمعه وقد تبين لنا هذا من خلال معاشته لمشاكل مجتمعه ، ومتابعته لكافة الأحداث التي كان يعاني منها المجتمع ، ومعالجته لأمراض المجتمع الإقتصادية من التطفيف في الكيل ، والبخس في الميزان ، وما أشبه اليوم بالبارحة فنحن نعيش في مجتمعات انتشرت فيها الكثير من الأمراض التي واجهها شعيب عليه السلام كالغش في البيع ، وإحتكار السلع ، والتدليس والرشوة ، وما شاكل ذلك ، وكلها تستدعي يقظة قوية من الدعاة ، والإسلام اليوم بحاجة إلى دعاة مخلصين يفهمونه جيداً ويدرسون مناهج الرسل حتى يكونوا واقعيين في دعوتهم مخلصين لله بعيدين عن جموح الخيال في موضوعات لا تمس مصالح الناس من قريب أو بعيد .

٣- ثبات من آمن على الحق ، لأنه استوعب الدعوة وأيقن بصدقها ، وتمكينهم في الأرض .

١ (سورة هود : آية (٩٠))

٢ (أنظر تفسير ابن كثير ٣/٢٥٦-٢٥٩ ، مرجع سابق ، وفتح القدير مرجع سابق ٢/٥١٨-٥٢١ في ظلال القرآن مرجع سابق ٤/١٩١٧-١٩٢٣ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ٢٠٨-٢١٥ ، ودعوة شعيب ، لحسين عبدالقادر يوسف مصطفى ،

بحث مكمل لنيل درجة الماجستير غير منشور ١٤٠٢ هـ . ص ٣٥ - ٣٩ ، ٤٩ .

٤- نجاة الذين اتقوا ربهم وآمنوا بدعوة نبيهم من العذاب الذي يهلك الله عز وجل به العصاة والطغاة والمكذبين لرسولهم قال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ .

٥- ترينا الآيات عاقبة الظلم والطغيان ، وكيف يدمر الله على الظالمين سعادتهم ويذيقهم وبال أمرهم . وتلكم سنة الله أبداً مع البغاة الظالمين ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ (١) .

٦- وفي دعوة شعيب بيان لأثر الصلاة في سلوك الإنسان ونستنتج ذلك من قول قومه له : ﴿ يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ .

٧- من التوجيهات التي تطالعنا بها دعوة شعيب الدعوة إلى الأمانة والاستقامة في البيع والشراء وترك الغش بالمكاييل والأوزان والإفساد في الأرض لأن ذلك يؤدي إلى سخط الله والتعرض إلى العقوبة الشديدة كما حدث لقوم شعيب بسبب غشهم وإفسادهم في الأرض وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾

والجدير بالذكر أن أكثر الدول المتقدمة تحرص أشد الحرص على ضبط المكاييل ومراقبة الأوزان وتعرض المتلاعب بهما للعقوبة الشديدة ، والقرآن كان له السبق دائماً في إقرار الأنظمة الصالحة للمجتمعات البشرية ولكن لا يكفي الإسلام بهذا بل يرتقي إلى أعلى مرتقى من السمو حين قال : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ فالشيء هنا يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان ، كما يشمل المعاني المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطيائهم وتضحياتهم للمجتمع ، ووضع كل فرد في المنصب الذي هو مؤهل له حسب كفاءاته ومؤهلاته العلمية ، كما أن في هذا القول الكريم : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ وصية من الله عز وجل تجمع الخير من أطرافه - وتجري مجرى الأمثال - فما أحرانا أن نرددتها دائماً ونسير حسب توجيهاتها لنجني ما تحمله من خير وصلاح للمجتمع (٢) .

(١) سورة الأعراف : الآية (٩٢)

(٢) أنظر مع الأنبياء في القرآن الكريم - مرجع سابق ص ٢٠٦ ، وتاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة - محمد الطيب النجار ص ١٧٨ - دار الاعتصام . ط ٣ عام ١٩٨١ م .

رابعاً : التدرج في دعوة سليمان عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ * وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين * وحُشِر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين * وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبتّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبياً يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدو لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم * قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا فالقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون * قالت يا أيها الملؤأ إني ألقى إليّ كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين * قالت يا أيها الملؤأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأسٍ شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين * قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون * وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان قال أقموني بما لا يفترون فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون * قال يا أيها الملؤأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم * قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصلّاها ما

كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين * قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبه لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين ﴿١﴾ .

إذا تفحصنا هذه الآيات الكريمة نراها تبين لنا بعض خصائص دعوة سليمان عليه السلام والتي من أبرزها تمييزها بطابع القوة الحسية والمعنوية في العلم والتمكين وأسلوب القيادة والجنود والاتباع ، واجتماع هذه الأمور في دعوة سليمان عليه السلام ودولته أنشأ ما يعرف اليوم (بالحضارة) أو الرقى والمدنية .

ومن يتأمل الآيات البيّنات السابقة الكاشفة عن حياة سليمان عليه السلام ودعوته يجد أنه - عليه السلام - استخدم قوة (التأثير الحضاري) لدعوة ملكة سبأ إلى الإسلام ، وأن الأمر كان مدبراً ، بنيت مجريات أحداثه على متوقع نتائجه ، وربطت نتائجه بأهدافه ، وقد فصلت الآيات مراحل هذا التأثير الذي كتب له النجاح وكان من أهدافه إسلام ملكة سبأ الله رب العالمين .

وتدرج سليمان عليه السلام في دعوة ملكة سبأ وقومها بخمس مراحل :

(١) سورة النمل : الآيات (١٥ - ٤٤) .

الأولى : لفت الأنظار إلى قدرة الله في الكون باستخدام المنهج الحسي :

وهو منهج متعدد الجوانب متشعب الأهداف والغايات ، وقصة سليمان عليه السلام تناولت مجالات ست : النبات ، والإنسان ، والجماد ، والحيوان من طير وحشرات والرياح ، واجن وهذه المجالات تعد من مظاهر ملكه عليه السلام : ﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾^(١) ، وسوف نستعرض بالعرض والإستدلال كل واحدة من هذه المجالات :

(أ) ففي النظر إلى قدرة الله عز وجل بإخراج الخبء في السموات والأرض وهو ميدان البحث في النبات ومقوماته قال تعالى على لسان الهدهد ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ والمعنى : (ألا يسجدوا سجود الخاضعين لله خضوعاً تاماً لأنه الذي يخرج المخبوء في السموات والأرض من غيث في السماء ونبات في الأرض)^(٢) ، ويبين الإمام أبو السعود^(٣) معنى هذه الآية فيقول : وفي النظر إلى قدرته سبحانه وتعالى في تحويل الأرض البور إلى جنة أو جنات مليئة بالخيرات من الأشجار والنخيل والزرور والثمار وغير ذلك من النعم العظيمة ما يدفع الإنسان دفعاً إلى الخضوع لقدرة الله والإيمان به سبحانه وتعالى وفي ذلك يقول سبحانه مبيناً نعمه على أهل سبأ : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾^(٤) ، فسمى الله ذلك آية ، قال القرطبي عند تفسيره لهذا القول الكريم : (أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها ، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر)^(٥) .

(ب) والإنسان بحسده وآثاره وروحه ميدان رحيب للنظر والاستدلال ..وهنا يقول تعالى عن المخاطبين : ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ ، فليس في مقدرة أحد غير الله أن يطلع على ما يجول في خلد الإنسان من خواطر وأفكار وما يحمله بين طياته من آلام وآمال وما

(١) سورة ص : آية (٢٥)

(٢) تفسير الطبري : ٩٣/١٩ بتصرف .

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٨٢/٦ بتصرف

(٤) سورة سبأ : الآية (١٥) .

(٥) تفسير القرطبي : ٣٨٣/١٤ .

يعتريه بين الحين والحين من أحوال . هذا فيما يخفيه ويحرص على كتمانهِ وعدم إبدائه ، والله سبحانه ﴿علِيم بذات الصدور﴾ و ﴿يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ و ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾^(١) .

وأما ما ظهر من حال الإنسان مقالاً أو تصرفاً أو حركةً أو سكونة ، فالله سبحانه بذلك أعلم على كثرة عددهم واختلاف أجناسهم وتغاير أجيالهم وتنوع طباعهم ، ورب هذا شأنه هو المنزه عن الشبيه والشريك ، وهو المستحق وحده للعبادة دون سواه ، إن الإيمان بالله - كما قال عن نفسه : ﴿أسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾^(٢) - يحفز في الإنسان الرقابة الذاتية لتصرفاته في الحياة كلها .

(ج) أما الجمادات فمجال النظر فيها واسع ، فمن ذلك إخراج الخبء في السماوات والأرض يقول عنه العلامة أبو السعود في تفسيره : (إخراج الخبء يعم إشراق الكواكب وإظهارها من آفاتها بعد استئثارها وراءها ، وإنزال الأمطار ، وإنبات النبات ، بل الإنشاء الذي هو إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل ، والإبداع الذي هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل)^(٣) . ومن ذلك ما ذكره الهدد في معرض استدلاله على وحدانية الله حيث قال : ﴿رب العرش العظيم﴾ ليفند تأليه الشمس التي عبدها أهل سبأ رغم أنها مخلوقة من مخلوقات الله عز وجل تتوجه إلى الله بالعبادة والسجود كما ورد في الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه قال :

(دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس فلما غربت الشمس قال : " يا أبا ذر هل تدري أين تذهب هذه ؟ " قال : قلت الله ورسوله أعلم قال : " فإنها تستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها ...)^(٤) . فهي مخلوقة مربوبة مسخرة ، كما قال تعالى : ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾^(٥) ،

(١) سورة غافر : الآية (١٩) .

(٢) سورة الملك : الآية (١٣) .

(٣) إرشاد العقل السليم : ٢٨٢/٦ .

(٤) جزء من حديث رواه البخاري : ٢٧٠٠/٦ ، في كتاب : التوحيد ، باب (٢٢) وكان عرشه على الماء .

(٥) سورة الأعراف : الآية (٥٤) .

وهي - كذلك - آية من الآيات الدالة على وجود ووحدانية الله كما في حديث عائشة ، رضي الله عنها ، أنه عليه السلام قال : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله)^(١) .

(د) أمّا النظر إلى الحيوانات ومنها النمل ، فإن الله عز وجل يقول عنه : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ ففي هذا دلالات باهرات على قدرة الله وعظيم سلطانه ، فهذه الأمم من المخلوقات لها نظم حياة ، وتحكمها نواميس تعيش بمقتضاها ، وذلك تدبير العزيز العليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، فلقد سمع كلامها من فوق سماواته وخلده ليقيم به الحجة على الإنسان . ويقول على لسان الهدهد ذلك الطائر الصغير الذي قدّم العديد من الأدلة على وحدانية الخالق وهيمته : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ وما كان لهذه المخلوقات وغيرها أن توجد بغير موجد ، وما كان لها أن توجد لنفسها هذا النظام البديع بهذه الدقة والإحكام في عيشتها وفي معرفتها لبارئها جلّت آلاؤه^(٢) .

(هـ) الريح : تعد من مظاهر ملكه عليه السلام تتوجه بأمره حيث أراد ، وكانت تقطع المسافة التي تستغرق شهراً على الجمال في فترة وجيزة قال تعالى : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ فسخرنا الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾^(٤) .

(و) الجن : يُعد من مظاهر ملكه عليه السلام وكانوا تحت يده كالإنس تماماً يعملون له ما يشاء من الأبنية والصناعات من محاريب وتمائيل وصور من نحاس وغيره قال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾^(٥) .

(١) جزء من حديث متفق عليه : رواه البخاري في كتاب : بدء الخلق ، باب (٤) : صفة الشمس والقمر : ١١٧١/٣ ؛ ومسلم : ٦١٨/٢ ، كتاب الكسوف .

(٢) الدعوة إلى الله ، عبد الرب نواب ص ٢١٥ .

(٣) سورة سبأ : آية (١٢)

(٤) سورة ص : آية (٢٦)

(٥) سورة ص : آية (٢٧)

يتضح لنا من خلال ما ذكرناه أن إقامة دولة الله والتمكين لدينه في الأرض من أهم مقومات نجاح دعوة سليمان عليه السلام والله سبحانه وتعالى منحه فضلاً وملكاً ويتضح لنا كذلك من خلال دراستنا لمنهج سليمان اتجاه هذه النعم من شكره الله وجعله كل ما يملك لتمكين الدين وسيادة الشرع ولم يجعل هذه النعم وسيلة من وسائل المتاع الدنيوي ، قال تعالى : ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (١) .

وهذه دروس يجب على الحكام وكل من آتاه الله ملكاً أو جاهاً في المجتمع أن يعلم أن بقاء حكمه مرهون بسيادة حكم الله عز وجل وإقامة معالمة وأركانه في الأرض .

الثانية : الكتابة والمراسلة :

قال تعالى حكاية عن أمر سليمان للهدد : ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت ياأيها الملأ إني ألقى إليّ كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾ .

إنها الدقة في التعبير ، فالهدد لم يغيب طويلاً عن سليمان وبمجرد حضوره عرض عليه سبب تأخره ، وهو انحراف قوم سبأ وملكهم بلقيس عن عقيدة التوحيد لأنهم يسجدون للشمس من دون الله ، لم يأخذ سليمان الخير على أنه صادق فيرتب عليه أمر قتلهم وإنما قال : ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾ وهنا تبين لنا يقظة سليمان عليه السلام ودقته في الحكم ، وتثبتته في الأمر ، وعدم أخذه بمجرد التهمة أو الظن ، وهذه صفات محمودة يجب على الحاكم أو الداعية أو المصلح أن يتخلق بها .

الثالثة :

رد الهدية التي بعثت بها الملكة ، وإعلامها أن مقام الدعوة أسمى من أن يساوم بثمان بخس أو عرض زائل ، بل الداعي ينبغي إخراج الناس من حمأة الماديات وركونهم إليها ، وجاء في معرض الرد : ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ واقرن مع ذلك التهديد : ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

(١) سورة النمل : آية (١٩)

الرابعة : وهي ذات هدفين :

أولهما : طلب إحضار العرش من اليمن إلى فلسطين في أوجز وقت وبين المكانين بون شاسع ، وفيه إظهار لسلطان العلم واستخدامه للخير والنفع ومن أجل الخير الدعوة إلى الله : ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده * قال : هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

وقد ذكر أهل التفسير وجوهاً عديدة للسبب الذي من أجله استقدم سليمان عرش الملكة ؛ أوجهها ما مال إليه ابن جرير ، إذ قال (.... ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه) (١) .

قلت : هذه قاعدة تحث الدعاة على إيقاف الناس على ثمرات العلم والإيمان ليعلموا أن الإسلام سبيل الرقي والمدنية ، وهو - كذلك - سبيل الحفاظ عليهما من الانهيار والتصدع ، وكم هو حري بالدعاة إلى الله أن يسلكوا هذا المنهج في دعوتهم بإيجاد هذا النمط من الحياة ، ثم عرضه على الناس ودعوتهم إلى التمسك به ولاسيما في هذا العصر الذي افتتن فيه الناس بعلوم الغرب وتقدمهم ، وانبهروا بثقافتهم مع خلوها عن الوفاق والود والتواصل وبعدها عن المقاصد الشرعية والأهداف الكبيرة التي دعا إليها الإسلام ولن توجد في غيره .

ثانيهما : اختبار عقل الملكة ومقدار ما منحت من مدارك ليكون الأسلوب الدعوي متطابقاً مع مداركها متناسباً مع توجهها وليكون موافقاً لفهمها للناس وللحياة ، ولقد حقق سليمان هدفين : معرفة اتجاهها ، وإيقافها على معجزته ويلاحظ أن سليمان - عليه السلام - حرص على أن يتم ذلك وفق توقيت دقيق ، إذ اعتمد على (المبادأة) فهي أبلغ في معرفة المراد واستكشاف المكنون ، ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني ﴾ ، قال أبو السعود في القبلية هنا : (ليكون اختبارها واطلاعها على بدائع المعجزات في أول مجيئها) (٢) .

(١) تفسير الطبري : ١٠١/١٩ ، وأنظر ابن العربي : ١٤٦٢/٣ ، والنسفي ٢١٢/٣ ، والجواهر : ١٦٩/١٣ ، وزاد المسير : ٧٣/٦ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢٨٦/٦ .

قلت : ومن فوائد ذلك إيصال الحق والخير إلى المدعوين قبل أن يتكون لديهم سابق تصور منحرف فينتطع الحق في أفتندهم عندئذ ، إذ يصادفها خالية نقية .
ولما علم سليمان حصافتها وأدرك حدة ذكائها واستشعر تأثيرها بما رأت من عجيب الأمور وبديع الأحداث ، انتقل إلى المرحلة المناسبة ...

الخامسة :

إيقاف المدعوين على قمم المنجزات العلمية ومبتكرات الحضارة الربانية ، وهذا - ولا ريب - من أهداف الإسلام الكبرى ، إذ أنه من معاني تحقيق الاستخلاف في الأرض ، الذي من أجله كرم الإنسان ، وليس بناهض به أحد غير المسلمين كما حدثنا كتاب الله وشهده التاريخ ، قال تعالى : ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبتة لجة وكشفت عن ساقها ، قال إنه صرح ممرود من قوارير ، قالت : رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

قال صاحب الظلال في هذه الآية (نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده ، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته) (١) .
وقال ابن كثير : (... والغرض أن سليمان - عليه السلام - اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج ، لهذه الملكة ، ليرىها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم وملك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل وقالت ربى إنني ظلمت نفسي) (٢) .

لقد عاشت هذه الملكة لوناً حضارياً رفيعاً في قومها وإن كانت حضارة مادية بحتة ، فلقد ﴿ أوتيت من كل شيء ﴾ ، ومع ذلك حجبتها الظنون عن نضارة وجه الإسلام وإشراقه بحياه ، فلما علمت الذي يهدي إلى الطيب من القول وإلى صراط مستقيم ، وانبهرت بمعطيات الإسلام في مجال التمدن أسلمت وأذعنت مع سليمان لله رب العالمين .

(١) في ظلال القرآن : م ٦٤١/٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٢٦٦/٣ ، والدعوة إلى الله : عبد الرب نواب ص ٢٢٤ .

